خالد حسيني

ألف شمس مشرقة

رواية



ترجمة : مها سعود

ألف شمس مشرقة

*المؤلف: خالد حسيني

* الترجمة: مها سلمان سعود

* الرواية: ألف شمس مشرقة

* جميع الحقوق محفوظة ©

* الطبعة الأولى 2010

* الناشـــر:

دال للنشـــر والتـوزيـع

سـورية دمشـق ص ب 29170

هاتف 00963 944 464830

إيميل: N_hammdan@yahoo.com

هذا الكتاب مُهدَى إلى هاريس وفرح،

كلاهما النور لعيني...

وإلى نساء أفغانستان

ما قيل في ألف شمس مشرقة

"يتجلى السحر القصصي الآسر لدى حسيني في التفاصيل الصميمية للحياة، في عالم يناضل من أجل البقاء، ببراعة استطاع إدخال هذه القصة الإنسانية في إطار أكبر من التاريخ القريب"

San Fransisco Chronicle

"مدهش.. حسيني... يكتب بلغة رائعة ومثيرة عن الجمال الطبيعي والثقافة المليئة بالألوان التي ورثها عن وطنه الأم ـ أفغانستان. (هو) يسرد تلك القصص المحزنة في نثر جميل مؤلم من خلال شخصيات بطولية مذهلة تتمسك أرواحها بأظلم بقعة من أشعة الأمل"

USA Today

"لوعة الفراق.. طموح، في وسط الرواية قلب يستمر بالخفقان، وبداخله إحساس نام بالسطوة. المثير للإعجاب هو مرونة أشخاص يرفضون الانحناء لرجال يدّعون أن الله إلى جانبهم.. وجانبهم فقط!!"

San Antonio Express-News

"فقط في حال التساؤل إن كانت... (ألف شمس مشرقة) بجودة (قائد الطائرة الورقية)❖، ها هو الجواب: لا.. إنها أفضل"

Washington Post

"رشيقة، مفجعة تلحق بـ ... عدّاء الطائرة الورقية*".. خلق حسيني شخصيتين نسائيتين ناجحتين روائياً بشكل هائل، في ليلى ومريم، امرأتين

---

* عدّاء الطائرة الورقية" هي الرواية الأولى للكاتب، والتي بيع منها أكثر من مئة وأربعين مليون نسخة في العالم.(المترجمة).

أفغانيتين ولدتا في ظروف مختلفة جداً لكن كلتاهما تعانيان من نفس المشاكل. هناك درس تاريخي تضمنته ألف شمس مشرقة، كما كانت (عدّاء الطائرة الورقية) لكن حسيني لا يهاجم.. ولا يشعرك الكتاب أبداً أنه نافذة منغلقة على قضايا حقوق الإنسان الخطيرة.

حسيني... تفاصيل هامة جداً، تساعد على معالجة أزمة الشخصية - الغريبة جداً علينا- في معايير إنسانية. ألف شمس مشرقة ... مدمرة بطريقة جديدة. تجبرنا على تخيل ماذا كنا سنفعل؟! وهل خلقنا لمثل تلك الأقدار البشعة؟!"

The Hartford Courant

"هو (الحب) عاطفة - خفيّة، قويّة، جميلة، محظورة، وبالتحديد صبورة - هذه هي صفحات خالد حسيني في ألف شمس مشرقة ... حسيني بشكل ما، يحرك المشاعر، يفحص الروابط بين الأصدقاء المختلفين، الصدوع بين الأهل والأولاد، عناد القلوب الهادئة"

O, The Oprah Magazine

"النثر عند حسيني في ألف شمس مشرقة يستطيع صعق القارئ بصوره القوية المطارِدة... رواية تترك القارئ متعجباً كيف يستطيع هذا القاص المذهل مرة ثانية أن يحول الأحداث التاريخية في بلد محاصر إلى دراما شخصية عميقة.... ولا تنسى"

The Atlanta Journal- Constitution

"ما يبقي الرواية عميقة ومُسيطرة، هو عين حسيني المسلطة على جوهر تفاصيل الحياة اليومية وقدرته على تصوير مجال واسع من عواطف الإنسان، من نوبة الغضب الكامن لزوجة مُنتَهكة، إلى الخفقان المبكر للحب الأمومي عندما تكتشف امرأة عزباء أنها تحمل طفلاً!!"

Los Angelos Times

"خالد حسيني، بلا جدال، أحد أفضل القصاصين باللغة الإنكليزية منذ الكاتب البريطاني جوزيف كونراد. قدرة حسيني الأدبية مكنته من فعل ما قام به كل الفنانين العظماء: تناول قصص فردية، ومن خلال الكيمياء الداخلية، التعاطف، الامتنان، عولمهم - وبذلك حولهم إلى فن. ما فعله كونراد لأفريقيا، فعله حسيني الآن لأفغانستان. (هو) لديه قلب رحب وروح متفائلة، ومعها عين الواقعي. هو ليس خجلاً بأن يرى ويظهر التعاطف"

The Buffalo News

"في ألف شمس مشرقة، قام خالد حسيني بشيء ما، غير عادي: تخطى قوة وعمق روايته الأولى، قائد الطائرة الورقية. هذه الرواية التي طال انتظارها تجذب القارئ بشكل تام إلى عالم من الوحشية، اليأس، الألم، والفقر وتقدم الأمل، الخلاص، والحب ليعوض الألم. إنها تعيد الحياة لجزء من العالم لا يعلم عنه الأميركي العادي إلا القليل، وتوضح لنا المضامين الحقيقية لسياستنا الغربية.

بعد أن تراجعت أفغانستان لفترة طويلة عن الظهور في العناوين الرئيسية، فإن هذه الرواية تعيدها بقوة، عبر العلاقة بين مريم وليلى، العلاقة المعقدة والواقعية.

أي شخص يقرأ هذه الرواية، التي تفرض نفسها، لن ينظر إلى العناوين الرئيسية ثانية بنفس الطريقة!!"

Publishers Weekly

"عودة (رائعة).. خالد حسيني... بمحبة يكشف جمال ووحشية امرأتين تعيشان في أفغانستان الممزقة من الحرب...

رواية راقية، تنويرية، عالمية. إنها احتفال بالصمود في وجه مأساة شنيعة. إنها أغنية حب لكل إنسان لديه قلب محطم، ولكل إنسان يشعر بأن لا حول له، ومع ذلك مازال يجرؤ على الحلم. لقد فعلها حسيني ثانية"

Fort Worth Star- Telegram

"انتصار للفن"

Kirkus Reviews

"حكاية آسرة... عن أمل ويأس في قمتيهما. لوحة قوية لمعاناة الأنثى وتحملها تحت حكم طالبان"

Daily Mail (London)

"حسيني هو كاتب من العظماء"

The Birmingham News

"صوت الحرب الأول.. الألم. إنه ليس رفع السلاح في وجه أطراف النزاع ولا الابتهاج المسرحي بالنصر أو الكبرياء المتطرفة للقادة التي تميل إلى تبرئة نفسها. ولا حتى التساؤل الصامت للمواطنين الباحثين عن سبب لهذه الفوضى. إنه عويل الأمهات، الزوجات، الأخوات، والجدات. إن كان قد قيل أنه لا يمكن لأمة أن تهزم حتى تصبح أرواح النساء في الأرض، إذاً أول صوت للحرب هو ألم الخسارة، الاختفاء، القتل، الإعدام، وتصدع العائلات، كل هذا تتحمله النساء المجهولات في الحرب. قص ذلك. بكتابة جميلة في بساطتها وصراحتها. إنها رواية طافحة بالانفجارات، الدماء، وملح دموع العامة... قصة قوية مليئة بالعاطفة للصداقة غير المتوقعة، والتي تحدد الحياة... مثيرة للعواطف.. وأدب يفرض نفسه. هذه رواية تغني - من ترنيمة الموت إلى الابتهاج الاحتفالي بالحرية، إنها في النهاية، استثنائية"

Edmonton Journal

"رواية حسيني الثانية.. رائعة ذات نكهة حزينة وجميلة لمعاناة الأفغان وقوتهم. القراء الذين ذهلوا بعدّاء الطائرة الورقية لن يرغبوا بتفويت هذه الرواية التي لا تنسى."

Booklist

القسم الأول

الفصل الأول

كان عمر مريم خمس سنوات حين سمعت للمرة الأولى كلمة **ابنة حرام**[*].. حدث ذلك يوم خميس، لابد أنه كان كذلك، لأن مريم تذكرت أنها كانت قلقة وغير مرتاحة، وهذا يحصل فقط في أيام الخميس، اليوم الذي زارها جليل في الكولبا[**]. ولتضييع الوقت حتى اللحظة التي تراه أخيراً يعبر العشب الذي يصل حتى الركبة ويلوّح، تسلّقت مريم كرسيٍ وأنزلت طقم الشاي الصيني لأمها. الطقم الذي كان تذكارا مقدساً، فقد حصلت عليه أم مريم، نانا، من أمها التي ماتت عندما كان عمر نانا سنتين، نانا اهتمت بكل قطعة من البورسلان ذو اللونين الأزرق والأبيض، وكل تمويج في إبريق السكب، كل رسمة يد، أو زهرة أقحوان، وكذلك التنين في إناء السكّر الذي يعني مواجهة الشر.

كانت القطعة الأخيرة التي انزلقت من أصابع مريم، قد وقعت علي ألواح الأرضية الخشبية وتحطمت.. حين رأت نانا الإناء **محطماً**، احمر وجهها وارتجفت شفتها العليا، وعيناها، الضعيفة والجيدة، كانتا قد استقرتا على مريم، لا ترمشان.

بدت نانا مجنونة، في حين خافت مريم أن يدخل الجانٍ جسد أمها مرة ثانية. لكن الجان لم يأت، ليس تلك المرة، بدلاً من ذلك، أمسكت نانا مريم من الرسغين، سحبتها إليها، ومن خلال أسنان

---

[*] في أفغانستان يستخدمون كلمة (حرامي) بمعنى (ابن حرام).. وقد استخدمها المؤلف في الرواية، لكننا ارتأينا وضع المفردة الصحيحة (ابن حرام) في اللغة العربية، مكان مفردة (حرامي). (المترجمة).

[**] الكولبا: تعبير يستخدم في أفغانستان كناية عن البيت المتواضع، أقرب إلى مفردة الكوخ في العربية (المترجمة).

تصر، قالت: إنك ابنة حرام خرقاء صغيرة، هذا جزائي عن كل شيء تحملته. ابنة حرام خرقاء صغيرة بالوراثة.

في ذلك الوقت، لم تفهم مريم.لم تعرف ما معنى هذه الكلمة (ابنة حرام).. ولم تكن كبيرة كفاية لتدرك عدم العدالة في ذلك ولترى أن مخترع هذه الكلمة هو ابن الحرام الذي يستحق اللوم، وليس ابن الحرام، الذي كان ذنبه الوحيد أنه وُلِد.

كانت مريم تخّمن من طريقة نطق نانا للكلمة، بأنها شيء بشع ومقزز، أن تكون ابنة حرام، كالحشرات، كالصراصير، كانت دائما تلعن هذه الكولبا. لاحقاً، عندما أصبحت أكبر، فهمت مريم. كانت الطريقة التي لفظت بها نانا الكلمة - لم تكن تقولها بمقدار ما كانت تبصقها في وجهها - مما جعل مريم تشعر بكل لدغاتها المؤلمة.

فهمت عندها ما قصدته نانا، أن ابنة حرام كان شيئاً غير مرغوب فيه، وبأنها، مريم، كانت شخصاً غير شرعي، لن يحصل على الشرعية أو على تلك الأشياء التي يحصل عليها الآخرون، أشياء كالحب، الأسرة، البيت، القبول.

ولكن جليل لم يقل لمريم هذا الاسم، قال جليل إنها زهرته الصغيرة، كان مولعاً بأن يجلسها على حضنه ويقص لها الحكايات، كأحاديثه عن أن هيرات* - حيث ولدت مريم عام ١٩٥٩ - كانت مهد الحضارة الفارسية، وطن الكتّاب، والرسامين، والمتصوفين: "لن تستطيعي أن تطئي موقع قدم دون أن تركلي شاعراً على قفاه".. وضحك.

أخبرها عن الملكة (كوهارشاد)، التي رفعت المآذن المشهورة كعربون محبة لهيرات في القرن الخامس عشر.

وصف لها حقول الحنطة الخضراء لهيرات والبساتين المجللة بالعنب المكتنز، حيث المدن مكتظة والأسواق صاخبة.

---

* هيرات: ولاية غرب أفغانستان، قريبة من الحدود مع إيران وتركمنستان، تمتاز بمبانيها الأثرية، لكنها سقطت بيد طالبان، في أيلول ١٩٩٥، وتعرضت تلك المباني التاريخية الضخمة للتدمير الجزئي والكلي خلال الحروب الأخيرة. (المترجمة).

في إحدى المرات قال جليل: "هناك شجرة بيستاكيو*، وبالقرب منها، دفن الشاعر العظيم جافي**".

انحنى وهمس "لقد عاش جافي منذ أكثر من خمسمائة سنة مضت، أخذتك إلى تلك الشجرة ذات مرة، كنت صغيرة .. لن تتذكري".

إنها الحقيقة، مريم لم تتذكر ذلك، وعلى الرغم من أنها ستعيش خمسة عشر عاماً من حياتها دون أن تبتعد عن هيرات إلا أنها لن ترى تلك الشجرة. ولن ترى المآذن المشهورة عن قرب، ولن تقطف فاكهة من بساتين هيرات، ولن تتجول في حقول الحنطة، ولكن كلما تكلم جليل بتلك الطريقة فإن مريم تستمع مسحورة، وتعجب بجليل لمعرفته الواسعة بالعالم، كانت فخورة لأن لديها أباً يملك كل تلك المعرفة.

بعدما غادر جليل قالت نانا: "ما أغنى هذه الأكاذيب.. رجل غني يخبر أكاذيب غنية"!!

وأردفت: "لم يأخذك إلى أية شجرة، لا تدعيه يسحرك، لقد خاننا، لقد تخلى عنا والدك المحبوب!!..

لقد أبعدنا عن منزله الفخم كما لو أننا لا شيء بالنسبة له، وقد فعل ذلك بسعادة"!!

كانت مريم تستمع لكلام نانا بشك، لكنها لم تجرؤ أن تعبر لها عن عدم رغبتها التحدث عن جليل بتلك الطريقة.

الحقيقة، مع جليل، لم تشعر مريم على الإطلاق بأنها ابنة حرام. لساعة أو ساعتين من كل خميس، عندما يأتي ليراها، تأتي كل الابتسامات وكل الهدايا والتدليل، وتشعر مريم أنها تستحق كل الجمال والسخاء الذي تمنحها لها الحياة، ولهذا كانت مريم تحب جليل، حتى لو شاركته هذا الحب مع الآخرين. كان جليل من أغنى أغنياء هيرات ولديه ثلاث زوجات وتسعة أولاد شرعيين، كلهم غرباء بالنسبة لمريم. فضلاً عن أنه يمتلك سينما، لم تكن مريم قد رأتها من

---

* بيستاكيو: شجر عملاق، وارف الظلال (المترجمة).

** جافي: شاعر أفغاني عظيم، حيكت حوله الكثير من الأساطير.(المترجمة).

قبل، لكنه، وبسبب إصرارها، وصف لها السينما. لذلك فإنها تعلم أن واجهة السينما مصنوعة من قرميد أزرق وبرونزي، وهناك شرفات خاصة، وعوارض خشبية مثبتة على السقف، أبواب تفتح من الجهتين تؤدي إلى صالة حيث إعلانات الأفلام الهندية مغلفة بزجاج شفاف..وفي أيام الاثنين "يحصل الأولاد على مثلجات بالمجان في جناح التنزيلات.

ابتسمت نانا برزانة عندما قال ذلك، وانتظرت حتى غادر قبل أن تقرقر وتقول:

"الأطفال الغرباء يحصلون على المثلجات، على ماذا حصلت يا مريم؟

... أقاويل عن المثلجات"!!

بالإضافة إلى السينما كان جليل يمتلك أرضاً في كاروك وأرض في فرح* وثلاثة متاجر للسجاد، ومحلا للألبسة، وسيارة بويك سوداء موديل ١٩٥٦ (كاسحة الطريق).

كان من أهم رجالات هيرات ذوي النفوذ، فقد كان صديقاً للمحافظ

كانت نانا إحدى مدبرات المنزل، حتى انتفخ بطنها، عندما حدث ذلك، امتص اللهاث الغاضب لعائلة جليل الهواء من هيرات.. طالبت الزوجات برميها خارجاً!!

في حين كان والد نانا يعمل في قطع الحجارة في قرية قريبة من غول دامان** عندما عرف بالأمر تبرأ منها واحتقرها، جمع أشياءه وغادر بالباص إلى إيران، ولم ير أو يسمع عنه شيئاً مرة أخرى.

قالت نانا في صباح باكر، عندما كانت تطعم الدجاج خارج المنزل: "أحياناً أتمنى لو كان أبي لديه الجرأة ليشحذ إحدى سكاكينه، والقيام بـ (أشرف عمل).. ربما كان أفضل لي"..

---

* كاروك وفرح: قريتان قريبتان من هيرات (المترجمة).

** غول دامان: قرية فقيرة قريبة من هيرات (المترجمة).

أخذت كوباً آخر من الحبوب، ثم توقفت ونظرت إلى مريم: "ربما ذلك أفضل لك أيضاً.. كان ليجنبك حزنك لمعرفتك من تكونين.. ولكنه كان جباناً، لم يمتلك جرأة القلب للقيام بذلك".

حتى جليل لم يكن يمتلك الجرأة أيضاً للقيام بعمل نبيل، قالت نانا، والوقوف في وجه عائلته، زوجاته وأنسبائه، وتحمل مسؤولية ما قام به.. بدلاً من ذلك، وخلف أبواب مغلقة، بوشر بصفقة لحفظ ماء الوجه.

في اليوم التالي أمرها بجمع أشيائها القليلة من غرفة الخدم حيث كانت تعيش آنذاك.. وأبعدها.

نظرت إلى مريم وقالت:

"هل تعرفين ما أخبر به زوجاته ليدافع عن نفسه؟ قال لهن إنني عرضت نفسي عليه.. وإنها كانت غلطتي..

ابنتي، أترين؟ هذا ما يعنيه أن تكوني امرأة في هذا العالم".

وضعت نانا الوعاء من يدها، ورفعت ذقن مريم بأصبعها "انظري إلي يا مريم"..

ورغماً عنها رفعت مريم نظرها..

قالت نانا: "تعلّمي هذا الآن وتعلّميه جيداً يا ابنتي.. كما إبرة البوصلة تشير إلى الشمال.. فإن إصبع الرجل يجد دائماً امرأة ليتهمها.. تذكري ذلك يا مريم"!!

الفصل الثاني

"بالنسبة إلى جليل وزوجاته كنت كالمسعار، موغورت، كذلك أنت، حتى قبل أن تولدي.. كنت كذلك"

سألت مريم: "ما هي الموغورت"؟

"عشبة ضارة": قالت نانا: "شيء تقتلعينه لترميه جانباً"

عبست مريم من الداخل، جليل لم يكن يتعامل معها على أنها عشبة ضارة، أبداً لم يكن كذلك، ولكن مريم فكرت أنه من الأجدى أن تكبح هذا الاحتجاج.

"على عكس العشبة الضارة، كان يجب أن يعاد زرعي.. كما ترين، وأمنح الماء والطعام. بسببك، كانت هذه الصفقة التي عقدها جليل مع عائلته".

قالت نانا، بعد أن أردفت بأنها رفضت أن تعيش في هيرات.

"لماذا؟! لمراقبته وهو يتجول بسيارته مع زوجاته حول المدينة كل اليوم؟!"

كما أنها رفضت أن تعيش في بيت أبيها الفارغ في قرية غول دامان، والذي يبعد اثنين كيلو إلى الشمال من هيرات.

قالت نانا: "صدقيني.. لقد كان من المريح لأبيك أن أبتعد عن ناظريه.. لقد ناسبه ذلك جيداً".

كان محسن، ابن جليل الأكبر من زوجته الأولى، خديجة، هو الذي اقترح المنطقة الخالية، كان ذلك في ضواحي غول دامان، وللوصول إلى هناك على الشخص أن يأخذ طريقاً موحلاً كثير الأخاديد باتجاه التل، وهذا الطريق يصل الطريق الرئيسي بين هيرات وغول دامان، وهو محاط على كلا الجانبين بعشب طويل يصل إلى الركبة وببقعة أرض فيها أزهار بيضاء وخضراء، يتعرج إلى أعلى التلة ويصل إلى حقل مسطح

حيث أشجار الصفصاف ترتفع عالياً وحقول القطن وأجمّات برية تنمو بسرعة.

من هناك تستطيع أن ترى الرؤوس المستدقة الصدئة لطاحونة هواء غول دامان. وعلى اليسار واليمين إلى الأسفل تنكشف هيرات. هذا الممر ينتهي بشكل عامودي إلى جدول عريض توجد فيه أسماك السلمون، والذي ينحدر من جبال (صافد كوه) ويحيط بغول دامان. مئتا ياردة أعلى الجدول باتجاه الجبال هناك غابة من أشجار الصفصاف، وفي منتصف ظلالها كانت هذه الأرض الخالية.

ذهب جليل إلى هناك لإلقاء نظرة، وعندما عاد قالت نانا: "بدا وكأنه حارس يتباهى بنظافة الجدران، ولمعان الأرضيات في سجنه.. ولذلك بنى لنا والدك حفرة الجرذان هذه".

عندما كانت نانا في الخامسة عشر كانت على وشك الزواج، كان الخاطب صبي من (شنداند)* بائع ببغاوات، تعلم مريم بالقصة من نانا نفسها، رغم نفي نانا لذلك، وتستطيع مريم أن ترى من البريق الحزين الذي يسكن عينيها بأنها كانت سعيدة آنذاك.

ربما للمرة الأولى في حياتها في تلك الأيام إلى يوم عرسها كانت نانا سعيدة بصدق.

عندما حكت نانا القصة جلست مريم في حضنها وتخيلت أمها تستعد لثوب الزفاف، تخيلتها على ظهر حصان تبتسم بخجل خلف خمار وعباءة خضراء، يداها مصبوغتان بالحناء، وقد امتلأ شعرها بغبار الفضة وجمعت جدائلها معاً.

رأت الموسيقيين ينفخون في الناي ويضربون الطبول وأطفال الشارع يصفرون ويتعقبون.

لكن قبل أسبوع من موعد الزفاف، دخل الجان جسد نانا، وهذا لا يتطلب وصفاً بالنسبة لمريم.

---

* شنداند: قرية قريبة من هيرات (المترجمة).

لقد شهدت ما يكفي بعينيها : حين تنهار نانا فجأة ويتصلب جسدها وتنقلب عيناها للخلف..ترتجف يداها ورجلاها كأن أحداً ما يخنقها من الداخل ، وتتشكل رغوة بيضاء على زاوية فمها تتحول إلى وردية جراء خيوط من الدم ، ثم يهمد جسدها وتصاب بالضياع والتمتمة غير المفهومة.

عندما وصلت الأنباء إلى "شنداند" ، ألغت عائلة بائع الببغاوات الزفاف ، ولم يعد هناك من متقدمين للزواج بعد الآن ، فالعفريت دخل جسد نانا واختفى ثوب زفافها للأبد.

في تلك المنطقةِ المنعزلة بنى جليل واثنان من أبنائهِ وهما مزهد ومحسن بناء صغيراً حيث ستعيش مريم الخمسة عشر عاماً من عمرها ، بنوه من الآجر المجفف بأشعة الشمس ، وغطوه بالطين والقش.

كان هناك سريران متحركان ، وطاولة خشبية ، وكرسيان قابلان للطي ، نافذة ، ورفوف ثبتت على الحائط حيث تضع نانا أواني الطبخ المصنوعة من الصلصال.. وأيضاً طقم الشاي الصيني المحبوب لدى نانا.

ووُضعت قطع من الخشب خلف المنزل ، وأضيف موقد في الخارج لصنع الخبز ، وأيضاً قفص للدجاج ذو سياج ، جُلبت بضعة أغنام ، وبني لها معلفاً ، حفر مزهد ومحسن حفرة عميقة خارج محيط الصفصاف وقاما ببناء حمام خارجي عليها.

كان باستطاعة جليل استخدام عمال للبناء ولكنه لم يفعل كما قالت نانا : "إنها فكرته عن التكفير"

عندما ولدت مريم ، وحسب ما قالت نانا ، لم يأت أحد للمساعدة.

لقد حدث ذلك في يوم ضبابي في ربيع عام ١٩٥٩ وخلال السنوات الأربع الأكثرِ هدوءا من حكم الملك (زاهار شاه) الذي دام ستة وعشرين عاما.

قالت أن جليل لم يزعج نفسه باستدعاء الطبيب ، أو حتى قابلة ، على الرغم من معرفته بأن الجان قد يدخل جسدها ويسبب لها إحدى تشنجاتها خلال الولادة.

جلست على أرضية المنزل وبجانبها سكين، والعرق يبلل جسدها، وعندما اشتد الألم عضّت على وسادة وصرخت بداخلها، حتى بحّ صوتها "ولم يأت أحد ليمسح لي وجهي أو يعطني شربة ماء".. وأردفت: "لقد كنت يا مريم جو* غير مستعجلة، لقد جعلتني مستلقية طيلة يومين في ذاك الجو البارد، وعلى الأرض القاسية، لم أتناول طعاماً أو أنام، كل ما فعلته هو أن أدفع وأصلي أن تخرجي للحياة.

"أنا آسفة نانا".

"قطعت الحبل السري بيننا بنفسي.. لذلك وضعت السكين بجانبي".

"أنا آسفة"

عند ذلك كانت نانا تبتسم ابتسامة متأنية ومرهقة وكأنها رد على اتهام أو استبعاد للمغفرة، لم تستطع مريم أبداً أن تخبرها أنها لم تقصد الاعتذار عن حالة ولادتها غير العادلة.

عندما بلغت العاشرة فهمت مريم ذلك، لم تعد تصدق هذه الحكاية عن ولادتها، بل تصدق رواية جليل للأمر.. فعلى الرغم من أن نانا كانت بعيدة، لكن جليل رتّب لها أمر الذهاب إلى المستشفى في هيرات، حيث ستكون تحت رعاية طبيب، وتستلقي على سرير مناسب ونظيف وغرفة مضاءة جيداً.

عندما أخبرته مريم عن السكين، هزّ جليل رأسه بحزن!!

شكت مريم أيضاً له بأنها قد جعلت أمها تعاني طوال يومين.

قال جليل: "لقد أخبروني بأن كل ذلك قد تم خلال ساعة، لقد كنت فتاة جيدة مريم جو، حتى بالولادة كنت فتاة جيدة"

صرخت نانا: "إنه لم يكن موجوداً حتى.. لقد كان في تاكهيد سفر** على ظهر حصان مع أصدقائه المقربين.. وعندما أخبروه أنه أصبح لديه ابنة جديدة، لم يكترث وتابع تمشيط حصانه وبقي في تاكهيد سفر أسبوعين آخرين.

---

* جو أو جا أو جان: عزيزي أو عزيزتي (المترجمة)

** تاكهيد سفر: منتزه أفغاني للاستجمام والصيد (المترجمة).

"الحقيقة أنه لم يحملك حتى أصبح عمرك شهراً.. فقط ألقى نظرة وعلق بأن لديك وجهاً طولانياً.. ثم أعادك لي".

لم تصدق مريم هذا الجزء من القصة، نعم لقد اعترف جليل بأنه كان يتجول على ظهر حصانه في تاكهيد سفر ولكنه عندما علم بالأمر قفز إلى سرج حصانه وعاد إلى هيرات، حملها بين ذراعيه ومرر إبهامه على حاجبيها المليئين بالقشور، ورنّم لها أغنية.

لم تتخيل مريم أن يقول جليل إن وجهها طويل جداً، على الرغم من أنه كذلك.

قالت نانا، بأنها هي من اختارت اسم مريم، لأنه كان اسم والدتها، ولكن جليل قال إنه من اختار الاسم، لأن مريم كان اسم زهرة جميلة. فسألت مريم "الزهرة المفضلة لديك"؟ فرد بابتسامة:

"حسناً واحدة منها"

الفصل الثالث

من ذكريات مريم المبكرة صوت صرير العربة ذات العجلات الحديدية وهي تتدحرج على الصخور.

تأتي العربة مرة في الشهر، مملوءة بالأرز والطحين وزيت المطبخ، الصابون، ومعجون الأسنان. مدفوعةً من قبل شقيقين لمريم من والدها، عادة محسن ورامين، وأحياناً رامين وفرهد. أعلى الطريق المتسخ، وفوق الحصى والصخور، حول الحفر والأجمّات، ينعطف الولدان وهما يدفعان العربة حتى الجدول. هناك يجب أن تفرغ العربة من موادها وتحمل باليد عبر الماء، ثم يجران العربة عبر الجدول ويعبئانها ثانية، ويدفعانها مثتا باردة، هذه المرة، عبر العشب الكثيف والشجيرات الملتفة. حيث تقفز الضفادع في طريقهما، ويبعدان البعوض عن وجهيهما الجميلين.

قالت مريم: "عنده خدم، كان باستطاعته إرسال خادم"

ردت نانا: "هذه فكرته عن التكفير"

خرجت مريم ونانا، من الكولبا، على صوت قرقعة عجلات العربة، وستتذكر مريم، دائماً، الهيئة التي تبدو عليها نانا في يوم التموين: امرأة طويلة، ذات عظام خشنة، حافية، تتكئ على الباب، وعينها الضعيفة تضيق، يداها تتشابكان بطريقة متحدية وساخرة، شعرها القصير، المضاء بنور الشمس، مكشوف وغير مسرّح.

ترتدي قميصاً رمادياً فاتحاً مزررا إلى الرقبة، جيوبها مملوءة بحصى بحجم الجوزة.

جلس الصبيان عند الجدول، وانتظرا بينما كانت مريم ونانا تنقلان التموين إلى الكولبا، كانا يعلمان أنه من الأفضل عدم الاقتراب أقل

من ثلاثين ياردة، لأن تصويب نانا كان قاتلاً وأغلب الحجارة تحط قرب أهدافها.

صرخت نانا على الصبين، وهي تحمل أكياس الأرز إلى الداخل وأطلقت عليهما أسماء لم تفهمها مريم. لِعنت أمهاتهما ، أظهرت لهما الكراهية.لم يرد الصبيان الإهانات أبداً. وشعرت مريم بالأسف من أجلهما، كم كانت متعبة أيديهم وأرجلهم، وأحست بالمرارة لدفع الصبيّان هذه الحمولة الثقيلة، تمنَّت لو أن باستطاعتها تقديم بعض الماء لهما، ولكنها لم تفعل. وإذا لوحا لها فإنها لا ترد. في إحدى المرات ومن أجل أن تبهج نانا، صرخت مريم على محسن وقالت له أن لديه فم يشبه قفا السحلية، وبسبب ذلك أحست بالذنب و العار والخوف من أن يتكلما عن ذلك إلى جليل، ضحكت نانا، على هذا، بشدة، أسنانها المتعفنة تبدو بشكل كامل، لدرجة ظنت معها مريم أنها ستقع في إحدى نوباتها. نظرت إلى مريم عندما تمالكت نفسها وقالت: " إنك فتاة جيدة".

وعندما فرغت العربة، تشاجر الصبيان قليلاً ودفعاها في طريق العودة.

تنتظر مريم قليلاً، وهي تراقبهما يختفيان داخل العشب الطويل والأزهار.

"هل أنت قادمة"؟

"نعم.. نانا"

"ضحكوا عليك، لقد فعلوا.. سمعتهم"

"أنا قادمة"

"لم تصدقيني"؟!

"ها أنا ذا"

"تعلمين أني أحبك مريم جو"

أفاقتا في الصباح على صوت مأمأة الخراف وصوت الناي حيث رعاة غول دامان يقودون قطعانهم ليرعوا في أعلى التل.

حلبتِ مريم ونانا الماعز، وأطعمتا الدجاج، وجمعتا البيض. صنعتا الخبز معاً. وعلّمت نانا مريم كيف تعجن العجين وكيف تشعل الموقد، وكيف تلصق العجين داخل جدران الموقد.

علمتها الخياطة، وطبخ الأرز، وبعض الإضافات: كالحساء مع اللفت، السبانخ، القرنبيط مع الزنجبيل.

لم يكن سرا أن نانا لم تكن تحب الضيوف - وبالحقيقة، الناس عامةً - ولكن كان هناك استثناءات لقلة مختارة. فكان هناك والي غول دامان، ومن قرية (أرباب) حبيب خان، رجل ذو رأس صغير، ملتحٍ مع بطن ضخمة يأتي مرة بالشهر متبوعاً بخادم يحمل الدجاج وأحيانا إناء من أرز الكيتشيري، أو سلة من البيض المصبوغ من أجل مريم، هناك امرأة أيضاً كبيرة مكورة تسميها نانا (بيبي جو).. والتي كان زوجها الأخير قاطع حجارة وصديق لوالد نانا، مصحوبة دائماً بإحدى كناتها الست مع حفيد أو اثنين.

كانت تعرج غاضبة وهي تقطع المساحة الخالية، وقد جعلت من فركها لوركها وانحنائها عرضاً مثيرا، جلست على الكرسي الذي قدمته لها نانا بتنهيدة ألم، كانت بيبي جو تجلب دائماً أشياء لمريم، صندوق حلوى، سلة من السفرجل، ومن أجل نانا كان التذمر من صحتها المتدهورة والثرثرة عن هيرات وغول دامان، تقول ذلك بشكل مطول بينما زوجة ابنها تستمع بهدوء وشك من خلفها.

لكن المفضل لدى مريم، بعد جليل طبعاً، كان الملّا فايز الله معلم القرآن الأقدم في القرية، يأتي مرة أو مرتين في الأسبوع من غول دامان ليعلم مريم الصلوات الخمس وتسميع القرآن، كما علّم نانا عندما كانت طفلة صغيرة. كان الملّا فايز الله من علم مريم القراءة، دليلها الذي يرعاها بصبر وهي تدرّب شفتيها على الكلمات بدون صوت، بينما إصبعها ينتقل بين الكلمات ببطء، في سبيل أن تعتصر المعنى من كل رمز. لقد كان الملّا فايز الله من أمسك بيدها . ووجه القلم في كل

ارتفاع لحرف الألف وكل اعوجاج لحرف الباء، والنقاط الثلاث لكل حرف شين.

كان رجلاً كبيراً منحني الظهر مع ابتسامة بدون أسنان ولحية بيضاء تصل إلى سرته، يأتي عادة لوحده وأحياناً مع ابنه حماسة ذو الشعر الأحمر. الأكبر ببضعة سنوات من مريم. عندما يظهر عند الكولبا تقبّل مريم يده، وكأنها تقبل أغصاناً جافة مكسوة بجلد رقيق - بينما يقبلها في أعلى جبهتها قبل أن يدخلا إلى الكولبا من أجل الدرس. بعدها يجلس الاثنان في الخارج وهما يأكلان الصنوبر ويرتشفان الشاي الأخضر.. يراقبان البلابل تنطلق من شجرة إلى شجرة. وأحياناً يتمشيان بين الأوراق البرونزية المتساقطة وشجيرات الألدر حول الجدول، وباتجاه الجبال أثناء تجولهما كان الملّا فايز الله يسبّح بحبات المسبحة وبصوته المرتجف كان يخبر مريم قصصاً عن كل الأشياء التي شاهدها في شبابه، كالحية ذات الرأسين التي وجدها في إيران، وعن جسر أصفهان ذي الثلاثة والثلاثين قنطرة، أو عن البطيخة التي شقها خارج الجامع الأزرق، في المزار، ليجد أن البذور شكلت كلمة الله في نصفها الأول وفي النصف الثاني أكبر. اعترف الملّا فايز الله لمريم عن الوقت الذي لم يكن فيه يفهم معاني كلمات القران، ولكنه قال أنه كان يرتاح لصوت الإنشاد بالكلمات العربية عندما ينطقها على لسانه "إنها تريحني وتهدئ قلبي" كما قال.. ثم أردف:

"سوف تريحك جيداً، مريم جو، يمكنك أن تستنجدي بها وقت الحاجة، ولن تخذلك، كلمات الله لن تخونك يا ابنتي"

كان الملّا فايز الله يستمع إلى القصص، كما يخبرها أيضاً، وعندما تتكلم مريم كان يركّز فيما تقوله. ينحني ببطء ويبتسم بامتنان كأنه منح امتيازاً. من السهل جداً إخبار الملّا فايز الله أشياء لا تجرؤ مريم على إخبارها لنانا.

أحد الأيام، بينما كانا يتمشيان، أخبرته مريم أنها تتمنى أن يسمح لها بالذهاب إلى المدرسة.

"أقصد مدرسة حقيقية، ملا صاحب*، صف حقيقي، كأبناء والدي الآخرين"

فقد أتت بيبي جو الأسبوع الماضي، وهي تحمل أخباراً، أن ابنتا جليل سعيدة وناهيد كانتا تذهبان إلى مدرسة ميهري للفتيات في هيرات. منذ ذلك الوقت، أفكار الصفوف والمعلمين غزت رأس مريم، صور دفاتر بصفحات مسطرة، أعمدة من الأرقام، وأقلام تصنع علامات داكنة، كثيفة. تصورت نفسها في صف مع بنات من عمرها. تلهفت مريم لوضع مسطرة على صفحة ورسم خطوط تبدو هامة.

توقف فايز الله..

"أهذا ما تريدين"، قال ذلك وهو ينظر إليها بعينيه الناعمتين المبللتين، ويديه خلف ظهره وظلّ عمامته يموج.

"وتريدين مني أن أسأل أمك الإذن"

ابتسمت مريم و فكرت أنه عدا جليل لا يوجد أحد في العالم يفهمها جيداً أكثر من معلمها العجوز.

"إذاً ماذا يمكنني أن أفعل؟ الله، بحكمته، أعطى لكل منا ضعفه، ومن بين نقاط الضعف التي عندي أنني غير قادر على رفض طلب لك".. قالها وهو يربت على وجنتها بإصبعه.

لاحقاً، عندما فتح الموضوع مع نانا، رمت من يدها السكين التي كانت تقطع بها شرائح البصل.

"ولماذا؟"

"إذا كانت الفتاة تريد التعلم، فدعيها يا عزيزتي. دعي الفتاة تحصل على التعليم"

"تتعلم؟ تتعلم ماذا، ملا صاحب" قالتها نانا بحدة.

"ماذا هناك لتتعلمه؟"

وتوجهت بنظرها نحو مريم التي كانت تنظر بارتباك إلى يديها.

---

* ملا صاحب: لقب أفغاني يدلل على التبجيل (المترجمة).

"ما المعنى من تعليم فتاة مثلك؟ إنه كتلميع منفضة. لن تتعلمي شيئاً ذا قيمة في تلك المدارس. هناك شيء واحد فقط، فقط مهارة وحيدة لامرأة مثلك ومثلي نحتاجها في الحياة، ولن يعلمونك إياها بالمدرسة. انظري إلي"

"لا يجب أن تتحدثي إليها هكذا، طفلتي، ".. قال الملا فايز الله.

"انظري إلي"

رفعت مريم رأسها نحو نانا.

"فقط مهارة واحدة، وهي التحمّل"!!

"تحمّل ماذا؟.. نانا"

"آه، لا تغضبي من ذلك، لا مشكلة من ذلك"!!

وتابعت نانا تقول، كيف أن زوجات جليل لقّبوها بالبشعة، وبابنة قاطع حجارة وضيع. وكيف جعلوها تغسل الثياب خارجاً في البرد حتى يخدر وجهها و تحترق رؤوس أصابعها.

"إنه قدرنا في الحياة يا مريم، يجب على نساء مثلنا التحلي بالصبر: هذا كل ما لدينا. هل تفهمين؟ بالإضافة إلى أنهم سوف يهزؤون منك ويلقبونك ابنة حرام. ويقولون عنك أشياء رهيبة.. لن أحتمل هذا"

هزت مريم رأسها.

"لن يكون هناك حديث آخر عن المدرسة. إنك كل ما لدي، لن أخسرك لأجلهم.. انظري إلي.. لا مزيد من الحديث عن المدرسة"

في حين بدأ الملا فايز الله الحديث

"كوني منطقية.. هيا.. إذا كانت الفتاة تريد"

"وأنت أكوند صاحب*، مع كل الاحترام، عليك أن تكون أكثر وعيا وأن لا تشجع هذه الأفكار الحمقاء لديها.

إذا كنت حقاً تهتم لها، يجب عليك أن تجعلها تدرك أنها تنتمي إلى هذا المنزل مع أمها. لا شيء هناك في الخارج. لا شيء، إلا الرفض ووجع القلب. إعلم، أكوند صاحب.. إعلم".

---

* أكوند صاحب: لقب أفغاني يدلل على التبجيل (المترجمة).

الفصل الرابع

كانت مريم تحب قدوم الضيوف إلى الكولبا. من أرباب، القروي الطيب وهداياه، بيبي جو، ووركها المتألم وثرثرتها التي لا تنتهي، وبالطبع الملا فايز الله.. ولكن لم يكن هناك أي شخص، أي شخص تتوق مريم إلى رؤيته أكثر من جليل.

كانت الإثارة تخيم على ليالي الثلاثاء، وكانت مريم لا تنام إلا قليلاً خائفة أن تطرأ بعض الأعمال العاجلة التي قد تمنع جليل من القدوم يوم الخميس وأنها قد تنتظر أسبوعاً كاملاً لتراه.

في أيام الأربعاء، تتمشى حول المنزل ذهاباً وإياباً، ترمي طعام الدجاج داخل القفص شاردة الذهن تتمشى دون هدف، تقطف أوراق من الأزهار وتضرب بها ذراعيها لإبعاد البعوض.

وأخيراً كل ما تستطيع فعله في أيام الخميس، هو الجلوس، مستندة إلى الحائط، وعيناها مثبتتان على الجدول، وتنتظر. وإذا تأخر جليل يملؤها رويداً رويداً إحساس مرعب بالخوف، ترتجف ركبتاها فتذهب إلى مكان ما وتستلقي.

بعد حين تناديها نانا : "هذا هو والدك بكل عظمته"

تقف مريم على قدميها عندما تراه يرمي الحجارة في الجدول مع كل الابتسامات والتلويحات المحبة. تعلم مريم بأن نانا تراقبها وتقدر حجم رد فعلها. ودائماً تبذل جهداً لتبقى منتظره أمام مدخل الباب تراقبه وهو يشق طريقه بتمهل ليصل إليها، دون أن تندفع إليه.

تكبح نفسها وتراقبه وهو يمشي عبر العشب الطويل، وجاكيت بذلته مرمية على كتفيه، والريح تدفع ربطة عنقه الحمراء، عندما يدخل جليل المنطقة المكشوفة فإنه يرمي الجاكيت على التنور ويفتح

ذراعيه، تمشي مريم ثم تركض إليه، فيمسكها من تحت إبطيها ويرفعها عالياً.. وهي تصرخ فرحة به.

وحين تكون معلقة في الهواء، ترى مريم أعلى وجهه وابتسامته العريضة وذقنه المشقوقة، أسنانه هي الأكثر بياضاً في مدينة الضروس المتعفنة. كانت تحب شاربه المشذب وتحب فيه أيضاً، أنه مهما كان الجو دائماً يرتدي بدلة بنية غامقة اللون في زياراته وهو لونه المفضل مع منديل مثلث الشكل في جيب الصدر، وحلقات للأكمام وربطة عنق عادة ما تكون حمراء غير محكمة وكان باستطاعة مريم أن ترى نفسها منعكسة في عيني جليل البنيتين شعرها مبعثر من الريح، ووجهها متوهج من الإثارة، والسماء خلفها.

قالت نانا إنه في أحد الأيام سوف يخطئ و تنزلق مريم من بين أصابعه وتقع على الأرض وتكسر عظامها. ولكن مريم لم تصدق بأن جليل قد يوقعها. بل آمنت بأنه دائما سينزلها من بين يديه المعتنى بهما جيدا.

جلسا خارج المنزل في الظل و قدمت لهما نانا الشاي.

كان جليل ونانا يرحبان ببعضهما البعض بابتسامة صعبة و إيماءة.

لم يذكر جليل أبدا لعناتها ورميها للحجارة .

بالرغم من أنها تتحدث عنه بقسوة في غيابه إلا أنها تخفف من حدة مزاجها عندما يأتي. تسرّح شعرها وتغسل أسنانها وترتدي أفضل حجاب لديها لأجله.

تجلس هادئة على كرسي قريب منه و يداها مطويتان في حضنها، لا تنظر إليه مباشرة ولا تتحدث معه بلغة فظة. وعندما تضحك تغطي فمها بيديها لتخفي أسنانها السوداء.

سألته نانا عن أعماله و عن زوجاته أيضاً. وعندما أخبرته بأنها قد سمعت من بيبي جو بأن زوجته الشابة نرجس تنتظر مولودها الثالث، ابتسم جليل بشكل مؤدب وهز برأسه.

قالت نانا : "حسنا، يجب أن تكون سعيداً، عشرة أليس كذلك ما شاء الله؟ عشرة؟"

فقال جليل: "نعم عشرة".

"أحد عشرة، إذا عددت مريم بالطبع"

لاحقاً، عندما غادر جليل المنزل ،كان لدى نانا و مريم نزاع حول ذلك. قالت مريم إنها قد احتالت عليه.

بعد تناول الشاي مع نانا، تذهب مريم وجليل إلى الجدول لصيد السمك. علمها جليل كيف تمسك بخيطها، كيف تتعامل مع سمكة السلمون، علمها الطريقة الصحيحة لإفراغ أحشاء السمكة و تنظيفها. كيف تنزع اللحم عن العظم بحركة واحدة.

رسم لها صورا بينما كانا ينتظران، علّمها كيف ترسم فيلا دون أن ترفع القلم عن الورقة. علمها الشعر المقفى، وغنيا سوية.

ليلي، ليلي، ممر الطيور

تجلس قرب الممر القذر

والآن تجلس على الحافة وتشرب

انزلقت، وفي الماء غطست.

جلب جليل قصاصات من جريدة هيرات "الاتفاق الإسلامي" وقرأ لها منها.كان بالنسبة لمريم حلقة وصل واثبات بأن هناك عالماً مثيراً في الخارج. خلف المنزل وخلف غول دامان وهيرات أيضاً، عالم من الرؤساء أسماؤهم صعبة اللفظ، وقفازات ومتاحف ولعبة كرة قدم، وصواريخ تدور حول العالم وتحط على القمر.

كل خميس، يأتي ببعض هذا العالم معه إلى المنزل.

لقد كان هو من أخبرها عن صيف ١٩٧٣ عندما كان عمر مريم أربعة عشر عاما، عن الملك زاهير شاه، الذي حكم كابول أربعين عاما وخُلع بانقلاب غير دموي.

"قام بذلك ابن عمه داوود شاه بينما الملك في ايطاليا للعلاج الطبي. تتذكرين داوود شاه، صحيح؟ أخبرتك عنه، كان رئيس وزراء في كابول عندما ولدت، هل ترين ؟ إنها جمهورية الآن، وداوود شاه هو الرئيس. هناك إشاعات بأن الشيوعيين قد ساعدوه لأخذ السلطة. وهذا

لا يعني بأنه شيوعي مثلهم، ولكنهم ساعدوه. هذه شائعة على أية حال"

سألته مريم من هم الشيوعيون وبدأ جليل بالشرح لها، ولكن مريم بالكاد سمعته.

"هل تصغين"؟

"نعم"

رآها تنظر إلى الكيس المنتفخ في زاوية جيبه..

"آه، بالطبع حسناً هذا هو، دون ضجة ..."

أمسك بعلبة صغيرة من جيبه و أعطاها إياها. كان يقوم بذلك من مرة لمرة، يجلب لها بعض الهدايا الصغيرة ، سوار مع كف من العقيق الأحمر، وعقد حباته من اللازورد مرة أخرى. هذا اليوم فتحت مريم العلبة ووجدت قلادة من أوراق الشجر وعملات صغيرة محفور عليها أقمار ونجوم تتدلى منها.

"جربيها مريم جو" ..ففعلت.

"ما رأيك"؟

أشرق جليل بابتسامة: "أظنك تبدين كالملكة"

بعدها غادر، رأت نانا القلادة حول عنق مريم.

قالت "جواهر نوماند.. لقد رأيتهم يصنعونها، يذوبون العملات التي يرميها الناس عليهم ويصنعون الجواهر منها. لنرى إذا كان سيجلب لك ذهباً في المرة الثانية، أبوك الغالي، دعينا نرى"

عند مغادرة جليل، تجلس مريم عند الباب دائماً وتراقبه وهو يقطع المنطقة المكشوفة محاولة التخلص مما حدث هذا الأسبوع كأنه حاجز غير قابل للتنحي بينها وبين زيارته القادمة. تحبس مريم أنفاسها وهي تراه يغادر وفي رأسها تحسب الثواني، تزعم أن كل ثانية لا تتنفس فيها فإن الله سيمنحها يوماً آخر مع جليل.

في المساء، تستلقي مريم على سريرها وتتساءل كيف يبدو منزله في هيرات. وتتساءل كيف سيكون العيش معه، أن تراه كل يوم. تتصور

نفسها وهي تناوله منشفة بينما يحلق ذقنه، تخبره عندما يجرح نفسه، تخمر له الشاي. تخيط له أزراره المقطوعة. ويمشيان معاً في هيرات، وفي الأسواق المسقوفة حيث يقول جليل إن باستطاعتك أن تجدي أي شيء تريدينه هناك. سيتجولان في سيارته ويؤشر الناس ويقولون (ها هو جليل خان وابنته).

سوف يريها الشجرة المشهورة التي دفن بالقرب منها الشاعر جافي.

في أقرب وقت، قررت مريم أن تخبر جليل بكل هذه الأشياء. عندما يسمع، ويعلم كم تفتقده حين يغادر، فإنه بشكل أكيد سوف يأخذها معه إلى هيرات، لتعيش في منزله كبقية أولاده.

الفصل الخامس

قالت مريم لجليل: "أعرف ما أريد"

إنه ربيع عام ١٩٧٤ العام الذي أصبح فيه عمر مريم خمسة عشر عاماً. كان ثلاثتهم يجلسون خارج المنزل، في ظل شجرة الصفصاف، على كراسي تطوى وقد رتبت على شكل مثلث.

"من أجل عيد ميلادي.. أعرف ما أريد"

"هل أنت كذلك"؟.. وابتسم ابتسامة مشجعة.

قبل أسبوعين، عند مناولة مريم، قال جليل بأن فيلماً أميركياً يعرض عنده في السينما. إنه نوع خاص من الأفلام. أسماه (كرتون).. والفيلم عبارة عن مجموعة من الرسومات المتحركة، المئات منها، وعندما يعرضونها على شاشة السينما فإنك تتوهمين بأن الرسوم تتحرك.

وأردف جليل:

"يتحدث الفيلم عن صانع ألعاب لا أولاد لديه، كان وحيداً ويائساً ويريد ابناً.. فصنع دمية دبت فيها الحياة بشكل سحري"

طلبت مريم إخبارها المزيد، فقال جليل: إن الرجل العجوز ودميته مرّا بمغامرات عديدة، كان هناك مكان يدعى أرض السعادة، والأولاد السيئون فيه كانوا يتحولون إلى حمير، ثم هناك حفرة تبتلع الرجل العجوز ودميته.

أخبرت مريم الملّا فايز الله كل شيء عن هذا الفيلم.

وقالت: "أريد أن تأخذني إلى السينما الآن، أريد أن أرى الرسوم المتحركة، أريد أن أرى الولد الدمية"

عندها أحست مريم بتغير في الجو، تسمّر والداها في مقعديهما. شعرت بهما يتبادلان النظرات.

قالت نانا: "ليست فكرةٍ جيدة"

كان صوتها هادئاً، نفس النغمة المؤدبة والمسيطر عليها التي تستخدمها مع جليل، ولكن مريم أحست بنظرتها القاسية المتهمة.

غيّر جليل جلسته. سعل، ثم تنحنح قائلاً: "أنت تعرفين أن نوعية الصور ليستِ جيدة وحتى الصوت غير جيد. إن جهاز العرض قد تعطل مؤخراً. ربما أمك على حق. ربما تستطيعين أن تفكري بهدية أخرى مريم جو"

قالت نانا: "هل رأيت، أبوك لا يوافق"

و لكن لاحقاً عند الجدول قالت مريم لجليل: "خذني"

فقال: "سأقول لك ماذا سنفعل، سأرسل لك أحداً ما ليقلك. وسأتأكد بأنهم سيعطونك مقعداً جيداً وكل الحلوى التي ترغبين"

"لا.. أريد أن تأخذني أنت"

"مريم جو"!!

"وأريدك أن تدعو إخوتي و أخواتي أيضاً. أريد أن أراهم. أريد أن نذهب كلنا. هذا ما أريد"

تنهد جليل. كان ينظر إلى البعيد باتجاه الجبال.

ذكرته مريم أنه قد أخبرها بأن الوجه على الشاشة يبدو كبيراً بحجم بيت، وعندما تصطدم سيارة هناك تشعر بأن المعدن يطقطق في عظامك.

تصورت نفسها تجلس في مقاعد خاصة تتناول الآيس كريم بجانب أشقائها.. مع جليل.

فقالت: "إنه.. ما أريد"

نظر إليها جليل بتعبير يائس.

"غداً، عند الظهر سألقاك عند هذه البقعة.. حسناً؟ غداً"

في البداية تجولت نانا حول المنزل وهي تطبق بإحكام قبضتها تارة وتفردها تارة أخرى.

"من بين كل البنات لماذا أعطاني الرب فتاة جاحدة مثلك؟ تحملت كل شيء لأجلك! كيف تجرؤين؟! كيف تجرؤين وتتخلين عني بهذه الطريقة، إنك ابنة حرام مخادعة"

ثم أردفت ساخرة:

"يالك من فتاة غبية! تظنين أنك هامة بالنسبة له، ومرغوب بك في بيته؟ تظنين أنك ابنة له؟ وأنه سيأخذك إلى منزله؟ دعيني أخبرك شيئا. قلب الرجل مثير للأسى، انه مثير للأسى يا مريم، إنه ليس كرحم الأم. إنه لا ينزف الدم، لن يتوسع ليصنع لك منزلا. إنني الوحيدة التي تحبك. إنني كلّ ما لديك في هذا العالم يا مريم، وعندما أذهب لن يبقى لك أحد. لن يبقى لك احد. إنك لا شيء"!!

لكنها بعد لحظات أحست ببعض الذنب.. فأردفت:

"سوف أموت إن ذهبت.. سيأتي الجان، وسوف تصيبني إحدى نوباتي. سوف ترين، سأبتلع لساني وأموت. لا تتركيني مريم جو. أرجوك أبقي، سأموت إن ذهبت"!!

لم تقل مريم شيئا.

"تعلمين إنني أحبك مريم جو"

فقالت مريم أنها سوف تذهب لتتمشى. خافت أن تقول أشياء مؤذية إذا بقيت: إنها تعرف أن الجان كذبة وأن جليل أخبرها بأن ما تعاني منه نانا مرضاً له اسم، وأن الحبوب تجعلها أفضل. يجب عليها أن تسأل نانا لماذا رفضت أن ترى أطباء جليل، رغم أنه أصر عليها، لماذا لم تأخذ الحبوب التي أحضرها لأجلها. إذا كان باستطاعتها أن تكون لبقة، فيجب أن تقول لنانا إنها قد تعبت من كونها أداة، وتابعة.. أن تُستغل ويُكذب عليها. سئمت من تحريف نانا للحقائق عن حياتهما، وكون مريم إحدى شكاويها ضد العالم.

قد تقول: أنت خائفة يا نانا، أنت خائفة من أنني قد أجد السعادة التي لم تحصلي عليها أبداً. وأنك لا ترغبين أن أكون سعيدة ولا تريدين حياة جيدة لي. أنت ذات القلب المثير للشفقة.

عند المنطقة المكشوفة، حيث تحب مريم أن تذهب، كان هناك إطلالة. جلست على العشب الدافئ. و هيرات مكشوفة أمامها، مبعثرة مثل لعبة التركيب عند الطفل: حدائق النساء إلى شمال المدينة، السوق وآثار قلعة الكسندر العظيم إلى الجنوب. كان باستطاعتها أن تميز المآذن البعيدة، مثل الأصابع المغبرة للعمالقة، والشوارع التي تخيلتها مكتظة بالناس، العربات و البغال. رأت السنونو ينقض بسرعة ويحوم فوق الرؤوس. كانت تحسد تلك الطيور لأنها في هيرات. لأنها تطير فوق المساجد وفوق أسواقها، وربما حطت على جدران منزل جليل، وعلى الدرجة الأمامية للسينما التي يمتلكها.

انتقت عشر حصوات ورتبتهم بشكل عمودي، وبثلاث مجموعات. كانت عبارة عن لعبة تلعبها من وقت لآخر عندما لا تكون نانا تشاهدها. تضع أربعة حصوات في المجموعة الأولى من أجل أولاد خديجة، وثلاثة من أجل أولاد أفسون، وثلاثة في المجموعة الثالثة من أجل أولاد نرجس، ثم تضيف للمجموعة الرابعة الحصاة الحادية عشرة المنعزلة.

في الصباح التالي ارتدت ثوباً وردياً يصل إلى الركبة وبنطالاً من القطن وحجاباً أخضر على رأسها. كانت قلقة قليلاً بشأن الحجاب لأن لونه أخضر وغير مناسب للثوب، لكن عليها أن ترتديه ـ كانت العثة قد صنعت فجوات في حجابها الأبيض ـ تفقدت الساعة، ساعة يد قديمة ذات أرقام سوداء ولونها أخضر هدية من الملا فايز الله، كانت حوالي التاسعة. تساءلت أين هي نانا. فكرت بالخروج و البحث عنها، لكنها خافت من المواجهة، والنظرات الحزينة، سوف تتهمها نانا بالخيانة. سوف تسخر منها لطموحاتها الخاطئة.

وليمر الوقت، رسمت فيلاً بضربة قلم واحدة، بالطريقة التي علمها إياها جليل، مراراً و تكراراً، سئمت كل هذا الجلوس ولكنها لن تستلقي لكي لا يتجعد ثوبها.

عندما أشارت الساعة إلى الحادية عشر والنصف، وضعت مريم الحصاة الحادية عشرة وذهبت إلى الخارج، وفي طريقها إلى الجدول شاهدت نانا جالسة على كرسي بالقرب من تحت السقف المغطى بالصفصاف، لم تستطع أن تحزر إن كانت شاهدتها نانا أم لا.

عند الجدول انتظرت مريم في البقعة التي اتفقا عليها في اليوم السابق. كانت الغيوم في السماء على شكل قرنبيط يمتد وينساق.

علمها جليل أن الغيوم الرمادية تأخذ لونها من كونها كثيفة وأن الأجزاء العلوية تمتص أشعة الشمس وتسبب بظلالها اللون الرمادي للأجزاء السفلية.

"هذا ما ترينه يا مريم جو فإن السواد من جوفها"

مرّ بعض الوقت. فعادت مريم إلى المنزل. هذه المرة التفت حول السياج الغربي للمنطقة حتى لا تمر بنانا. تفقدت ساعتها.

فكرت: إنه رجل أعمال.. شيء ما أخره.

عادت إلى الجدول وانتظرت مدة أطول. طيور سوداء تحلق وتغطس في العشب. راقبت الفراشات تتحرك على الاشواك .

انتظرت حتى تعبت قدماها. هذه المرة لم ترجع إلى المنزل. بل رفعت بنطالها حتى ركبتيها وعبرت الجدول وللمرة الأولى في حياتها نزلت التل إلى هيرات.

كانت نانا مخطئة بشأن هيرات أيضاً لم يشر أحد.لم يضحك أحد. مشت مريم عبر الجادات الصاخبة المخططة بالسرو. وسط سيل متواصل من راكبي الدراجات وبغال تجر العربات، ولم يرمِ أحد حجراً عليها. لم يقل لها أحد ابنة حرام. حتى أنه لم يلاحظها أحد. لقد كانت، بشكل غير متوقع ومدهش، شخص عادي هنا.

توقفت مريم لبعض الوقت عند بركة بيضوية الشكل في منتصف حديقة كبيرة فيها ممرات من الحصى تتقاطع مع بعضها. مررت أصابعها على الأحصنة المرمرية على حافة البركة ونظرت إلى الماء بعيون دامعة. اختلست النظر إلى مجموعة من الصبية يلقون سفناً ورقية في البركة.

رأت الأزهار في كل مكان، التوليب، الليلك، بتونيا وبتلات الأزهار مغمورة بأشعة الشمس.

والناس يتجولون عبر الممرات، ويجلسون على المقاعد ويرتشفون الشاي.

استطاعت بصعوبة أن تصدق بأنها هنا. كان قلبها يدق بإثارة. تمنت لو أن الملّا فايز الله يستطيع رؤيتها الآن. كم سجدها جريئة و شجاعة! لقد منحت نفسها للحياة الجديدة التي تنتظرها في هذه المدينة، حياة مع أب، وأشقاء وشقيقات، حيث تستطيع أن تحب وتحصل على الحب بالمقابل، بدون تحفظ أو ترتيب.. وبدون عار.

مشت عائدة بحيوية إلى الطريق العام الواسع قرب الحديقة. مرت بالقرب من البائعين المتجولين بوجوههم الداكنة يجلسون في ظل الأشجار وهم ينظرون إليها بلا اهتمام من خلف أكوام الكرز وأكداس من ورق العنب.

أولاد حفاة يلاحقون السيارات والباصات وهم يحملون علباً من السفرجل.

وقفت مريم على زاوية الشارع تراقب المارة. غير قادرة على فهم كيف لا يقدرون الروعة التي حولهم .

بعد برهة، استجمعت شجاعتها لتسأل سائق عربة كبير في السن إذا كان يعرف أين يعيش جليل مالك السينما. كان الرجل المسن ذو وجنتين منتفختين و كان يرتدي عباءة مخططة بألوان قوس قزح. فقال بود:

"لست من هيرات، أليس كذلك؟كل شخص يعرف أين يعيش جليل خان"

"هل بإمكانك أن تدلني"

فتح رقاقة مغلقة من التوفي وقال:

"هل أنت وحيدة"

"نعم"

"تسلقي.. سأقلك"
"لا أستطيع أن أدفع لك.. لا أملك أية نقود"
أعطاها التوفي. وقال أنه ليس لديه عمل لساعتين، وكان قد خطط للذهاب إلى المنزل، على أية حال، بيت جليل في طريقه.

تسلقت مريم العربة. وجلسا بصمت جنباً إلى جنب. في الطريق شاهدت مريم محلات الأعشاب الطبية والأسواق المكشوفة حيث البائعين يضعون البرتقال، الأجاص، الكتب، الشالات، وحتى الصقور.

الأولاد يلعبون (البلية) في دوائر من الغبار. خارج بيوت الشاي، على أرصفة خشبية يغطيها السجاد، رجال يشربون الشاي ويدخنون التبغ من النارجيلة.

انعطف الرجل المسن إلى شارع مسور بأشجار الصنوبر. أوقف حصانه في منتصف الطريق.

"هناك، انظري يبدو أنه يوم حظك، هذه سيارته"
قفزت مريم، بينما ابتسم هو وتابع سيره.

لم تلمس مريم سيارة من قبل. مررت أصابعها على الغطاء المتحرك لسيارة جليل، التي كانت سوداء وتلمع إطاراتها، حتى أن مريم رأت انعكاساً مسطحاً ومكبراً لنفسها. كانت المقاعد مصنوعة من الجلد الأبيض. خلف عجلة القيادة، رأت مريم لوحات زجاجية مدورة مع أبر خلفها.

لدقيقة سمعت مريم صوت نانا في رأسها يسخر. تحطم أعمق أمانيها المتوهجة.

بقدمين مرتجفتين وصلت مريم إلى الباب الأمامي للمنزل. وضعت يديها على الجدران التي كانت مرتفعة. كانت جدران جليل كثيرة الاحتمالات.كان عليها أن تمد عنقها لترى قمم أشجار السرو تبرز من الجهة الأخرى. تترنح الأغصان العالية مع النسيم، تخيلت أن الأشجار تنحني ترحيباً بها، هدّأت مريم نفسها ضد موجات الهلع التي تمر بها.

فتحت الباب سيدة شابة حافية القدمين. كان لديها وشم تحت شفتها السفلى.

"أنا هنا لأرى جليل خان. أنا مريم.. ابنته"

نظرة مرتبكة عبرت وجه الفتاة، ثم نظرة تعرّف.كان هناك ابتسامة باهتة على شفتيها الآن، وجو من اللهفة حولها والانتظار. فقالت الفتاة بسرعة: "انتظري هنا" وأغلقت الباب.

مضت عدة دقائق. فتح رجل الباب. كان طويلاً وذا كتفين مربعين مع نظرة ناعسة ووجه هادئ.

لكنه قال بنبرة غير ودودة: "أنا سائق جليل خان"

"ماذا تكون"؟!

"سائقه، جليل خان ليس هنا"

فقالت مريم: "رأيت سيارته"

"إنه بعيد عن هنا وفي عمل طارئ"

"متى سيعود"؟

"لم يقل"

فقالت مريم: إنها ستنتظر.

أغلق البوابة. جلست مريم وسحبت ركبتيها إلى صدرها.

لقد كان بداية المساء، وكانت جائعة. أكلت التوفي الذي قدمه لها سائق العربة. بعد قليل، ظهر السائق ثانية. قال:

"يجب أن تذهبي الآن، سيحل الظلام بعد أقل من ساعة"

"أنا معتادة على الظلام"

"سيصبح الجو باردا أيضاً، لماذا لا أقلك بالسيارة إلى المنزل؟ وسأقول له أنك كنت هنا"

فقط نظرت مريم إليه.

"إذا، سآخذك إلى فندق. تستطيعين الاستراحة هناك. وسنرى ما الذي يمكن عمله في الصباح"

"دعني أدخل إلى المنزل"

"لقد تلقيت تعليمات بشأن ذلك. انظري لا أحد يعلم متى سيرجع. فمن الممكن أن يطول الأمر لأيام"

صلبت مريم يديها.

تنهد السائق ونظر إليها نظرة عتاب لطيفة.

على مر السنين، كان هناك عدة مناسبات لتفكر مريم كم كانت الأشياء ستختلف لو أنها سمحت للسائق أن يأخذها إلى المنزل. ولكنها لم تفعل.

أمضت الليل خارج منزل جليل. شاهدت السماء وهي تظلم، والظلال تغمر واجهات منازل الجيران. جلبت لها فتاة الوشم بعض الخبز وصحناً من الأرز، فقالت مريم أنها لا تريد. تركت الفتاة الطعام بالقرب منها. من وقت إلى آخر كانت مريم تسمع وقع أقدام على الشارع، وأبواباً تفتح بترحاب، أضواء كهربائية تسطع، والنوافذ تتوهج في العتمة، كلاب تنبح. وعندما لم تستطع أن تقاوم الجوع، أكلت مريم صحن الأرز والخبز. ثم أصغت إلى صرصار الليل يسقسق داخل الحدائق. كانت الغيوم فوقها تحجب القمر الشاحب.

في الصباح، استفاقت مريم ورأت أن أحدهم قد غطاها بغطاء خلال الليل.

في حين كان السائق يهز كتفها.

"هذا يكفي. لقد أحدثت ضجة. ألم يحن الوقت للذهاب"

وقفت مريم، فركت عينيها.كان ظهرها وعنقها متيبسان.

"سوف أنتظره"

فقال:

"انظري إلي، قال جليل خان: يجب أن أعيدك الآن وفي الحال. هل تفهمين؟ جليل خان قال ذلك"

فتح السائق الباب الخلفي للسيارة وقال بنعومة: "تعالي"

فقالت مريم و عيناها تدمعان: "أريد أن أراه"

تنهد السائق وقال:

"دعيني أعيدك إلى المنزل.. تعالي يا آنسة"

وقفت مريم ثم مشت باتجاهه. لكن في اللحظة الأخيرة، غيرت الاتجاه وركضت إلى البوابات الأمامية. شعرت بأصابع السائق يحاول أمساكها من الكتف. أبعدته وانطلقت داخل البوابات المفتوحة.

في الدقائق التي كانت فيها داخل حديقة جليل. سجلت عينا مريم، أشكالاً زجاجية تلمع بداخلها عروق العنب وهي تتسلق على معرّش خشبي. حوض سمك بني وحجارة رمادية، أشجار فاكهة، وشجيرات ورود في كل مكانٍ. جرى نظرها على كل شيء من هذه الأشياء قبل أن ترى عيناها وجهاً في النافذة العلوية. كان الوجه هناك فقط للحظة، كومض ولكنه كان كافياً. كافياً لترى مريم العيون الواسعة والفم المفتوح الذي اختفى من الواجهة. ظهرت يد وبحدة أغلقت الستائر.

يدان أمسكتا بمريم ورفعتاها عن الأرض. ركلت مريم بقدميها فوقعت الحصوات من جيبها. استمرت مريم بالركل والبكاء وهي محمولة إلى السيارة، وفي المقعد الخلفي وعلى الجلد البارد جلست مريم. تكلم السائق بصوت خافت ونبرة مواسية بينما كان يقود السيارة. لم تسمعه مريم. طوال الرحلة ومنذ أن وُضعت في المقعد الخلفي وهي تبكي. لقد كانت دموع الحزن، الغضب، والتوهم. ولكن بشكل رئيسي كانت دموع الخجل العميق، كم هي حمقاء لتقدم نفسها إلى جليل، وكيف كانت مترددة في اختيار الثوب الذي ترتديه، من الحجاب غير المتناسق، المشي كل الطريق إلى هنا، رفضها الرحيل، نومها في الشارع ككلب متشرد.

كانت خجلة من تجاهلها نظرات أمها المذعورة وعيناها المنتفختين. نانا التي حذرتها والتي كانت محقة طوال الوقت.

بعد قليل، أصبح الطريق وعراً وعلا ضجيج السيارة. لقد كانا في الطريق الذي يصل بين هيرات وغول دامان.

تساءلت مريم ما الذي ستقول لنانا. كيف ستعتذر؟ وحتى كيف يمكن أن تواجهها؟

توقفت السيارة و ساعدها السائق على النزول. وقال:
"سأمشي معك"
تركته يقودها عبر الطريق إلى الطريق الجانبي. كان هناك نبات الجبل ينمو على طول الممر، وبذور القطن، كان النحل يطن وينتقل بين الأزهار البرية. أخذ السائق بيدها وساعدها لتعبر الجدول. ثم تركها.
كان يتحدث عن رياح هيرات الشهيرة التي ستهب قريباً مئة وعشرين يوماً من منتصف النهار إلى المساء. وكيف أن الرمل سيطير بنوبة عاصفة، ثم فجأة وقف أمامها، محاولاً تغطية عينيها، دافعاً إياها للخلف إلى الطريق الذي جاءا منه قائلاً:
"عودي، لا تنظري الآن، استديري! ارجعي إلى الخلف!"
ولكنه لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية.
رأت مريم الريح تعصف بالأغصان المتدلية من شجرة الصفصاف مثل ستارة، وهناك رأت مريم ماذا يوجد على الشجرة: كرسي قابل للطي مقلوب. الحبل يتدلى من أعلى الغصن، ونانا معلقة في نهايته.

الفصل السادس

دفنوا نانا في زاوية من مدفن غول دامان. وقفت مريم إلى جانب بيبي جو مع النساء، بينما الّملا فايز الله يرتّل بعض الصلوات إلى جانب القبر، كان الرجال ينزلون كفن نانا داخل القبر.

بعد ذلك، مشى جليل مع مريم إلى المنزل، حيث قدّم أمام القرويين المرافقين لهما، مشهدا من الحنان تجاه مريم. جمع بضعة أغراض لها ووضعهم في حقيبة. جلس بجانبها حيث تستلقي، مرّر يده على وجهها، ثم مسّد جبهتها، وبتعبير من الحزن على وجهه سألها إن كانت بحاجة إلى أي شيء؟

"أي شيء"؟ قالها بتلك الطريقة مرة ثانية.

فقالت مريم: "أريد الّملا فايز الله"

"بالطبع.. إنه بالخارج، سآتي به إليك"

عندما ظهرت أصابع الّملا فايز الله النحيلة و الضعيفة على باب المنزل، بكت مريم حينها لأول مرة ذلك اليوم.

"آه يا مريم جو"

جلس بجانبها و أمسك وجهها بين يديه.

"استمري بالبكاء مريم جو، استمري.. لا خجل في ذلك. ولكن تذكري يا ابنتي ماذا يقول القرآن " تبارك الذي بيده الملك وهو على كلِ شيء قدير . الذي خلق الموت من الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور"

القرآن يقول الحقيقة يا ابنتي "خلف كل امتحان وكل ألم نلقاه، فإن لله حكمة في ذلك"

ولكن مريم لم تجد المواساة في كلام الله.. ليس ذلك اليوم، ليس حينها. كل ما استطاعت سماعه هو قول نانا، سأموت إن تركتني،

سأموت. وكل ما استطاعت فعله هو البكاء وأن تترك دموعها تسقط على يدي الملا فايز الله النحيلة. في الطريق إلى بيته، جلس جليل في المقعد الخلفي لسيارته مع مريم. ويده على كتفها... قال:

"تستطيعين أن تبقي معي يا مريم جو، لقد قلت لهم أن ينظفوا لك غرفة في الحال. إنها في الأعلى، ستعجبك كما أظن. سيكون لديك إطلالة على الحديقة"

لأول مرة، استطاعت مريم أن تسمعه بأذني نانا. واستطاعت أن تسمع بوضوح الآن عدم الصدق الذي كان دائماً يكمن خلف تأكيداته الكاذبة. لم تستطع منع نفسها من النظر إليه.

وعندما وقفت السيارة أمام منزل جليل، فتح السائق الباب لأجلهما وحمل حقيبة مريم. قادها جليل ويده على كتفيها، عبرا نفس البوابات الخارجية التي، وقبل يومين نامت مريم على الممر تنتظره. قبل يومين - عندما كانت مريم لا تريد شيئاً في العالم سوى المشي في الحديقة مع جليل. شعرت بأنه زمن آخر. كيف انقلبت حياتها رأساً على عقب بتلك السرعة؟ سألت نفسها، أبقت نظرها على الأرض، على أقدامها وهي تمشي على الممر ذي الحجارة الرمادية. كانت واعية لوجود أشخاص في الحديقة يتهامسون، ومن ثم، ينتحون جانباً بينما تمر هي وجليل.

أحست بثقل العيون التي تنظر من النوافذ العلوية عليها. حتى داخل المنزل أبقت مريم رأسها للأسفل. كانت تمشي على سجادة قرمزية ذات شكل مثمن بلونين، الأزرق والأصفر، رأت من زاوية عينها قاعدة التماثيل الرخامية، القسم الأسفل للمزهريات، ولنهاية القماش المنسوج بألوان غنية مطرزة برسوم تتدلى من الجدران. الدرج الواسع الذي صعدته هي وجليل و المغطى بسجادة مماثلة، تغطي كل درجة. عند أعلى الدرج قادها جليل إلى اليسار، إلى ممر مفروش بالسجاد. توقف قرب إحدى الغرف، فتح الباب وأدخلها إليها.

قال جليل:

"تلعب أختاك نلوفر وعطية أحياناً هنا، ولكن غالباً ما نستخدمها كغرفة للضيوف. ستكونين مرتاحة هنا، أظنها لطيفة أليست كذلك"؟

كان في الغرفة سرير مع بطانية خضراء ذات أزهار منسوجة بعناية، وطاولة للزينة، كانت الستائر مرفوعة لتظهر الحديقة في الأسفل، وكانت ملائمة للبطانية. كانت هناك رفوف على الجدران مع صور ذات إطار لأشخاص لم تتعرف عليهم مريم. على إحدى الرفوف شاهدت مريم مجموعة متماثلة من الدمى الخشبية مرتبة حسب الحجم.

شاهدها جليل تنظر إلى الألعاب..

"العاب ماتريوشكا. حصلت عليهم من موسكو، تستطيعين اللعب بهم إذا أردت، لن يمانع أحد"

جلست مريم على السرير، في حين قال جليل:

"هل تريدين أي شيء"؟

استلقت مريم، وأغمضت عينيها، وبعد قليل سمعته يغلق الباب بلطف.

كانت تبقى في غرفتها وتغادرها فقط لتستعمل الحمام في آخر القاعة.

في حين كانت الفتاة ذات الوشم والتي فتحت لها البوابة تجلب لها الوجبات على صينية: كباب غنم، شوربة.. ويعود أغلب الطعام دون أن يُؤكل. كان جليل يأتي عدة مرات باليوم، يجلس على السرير بجانبها ويسألها إذا كان كل شيء على ما يرام... قال:

"باستطاعتك أن تأكلي في الأسفل معنا"

لكنه لم يلح كثيراً لإقناعها، وتفهّم حالاً عندما قالت إنها تفضل الأكل وحدها. راقبت مريم من النافذة ولكن دون حيوية ما كان أغلب حياتها تتوق وتدهش له: ذهاب وإياب جليل اليومي. خادمات مسرعات بالدخول و الخروج من البوابات الخارجية، وبستاني يشذب دائماً الشجيرات، و يسقي النباتات في البيت الأخضر.

سيارات مع لوجات مصقولة تجري في الشارع. ويخرج منها رجال يرتدون بذلات، وقبعات. نساء يرتدين الحجاب، أطفال ذوي شعور أنيقة مسرّحة. وكلما شاهدت جليل يصافح هؤلاء الغرباء، يضع يده

على صدره وينحني لزوجاتهم، عرفت أن نانا كانت تقول الحقيقة، إنها لا تنتمي إلى هنا.

ولكن إلى أين أنتمي؟ ماذا أفعل الآن؟' أنا كل ما لديك في هذا العالم، وعندما أذهب لن تحصلي على شيء. لن تحصلي على شيء. أنت لا شيء!!

مثل الريح التي تتخلل الصفصاف حول المنزل، كانت هبّات من السواد ما زالت تمر داخل مريم.

في اليوم الثاني لمريم في بيت جليل، جاءت فتاة صغيرة إلى الغرفة. وقالت: "علي أن آخذ شيئاً"

جلست مريم على السرير وصالبت قدميها، وسحبت الغطاء حتى حضنها.

أسرعت الفتاة عبر الغرفة وفتحت أقرب باب. وأخذت صندوقاً رمادياً مربع الشكل وقالت:

"هل تعرفين ما هذا"؟

فتحت الصندوق..

"يدعى كراموفون، كرامو فون. إنه مسجل. تعلمين، موسيقى، كراموفون"

"أنت نيلوفر، عمرك ثمانية"

ابتسمت الفتاة الصغيرة. لديها ابتسامة جليل وذقنه المشقوقة.

"كيف عرفت"؟

هزّت مريم كتفيها.لم تقل لهذه الفتاة أنها أسمت حصاة على اسمها.

"هل تريدين سماع أغنية"؟

هزّت مريم كتفيها مرة ثانية.

أوصلت نيلوفر الكهرباء للكراموفون، والتقطت أسطوانة من محفظة قرب غطاء الصندوق. وضعتها وأسقطت الإبرة. فبدأت الموسيقى تصدح.

(سأستخدم أوراق الأزهار
وأكتب لك أعذب الكلمات
إنك ملكة قلبي
ملكة قلبي)
"هل تعرفينها"؟
"لا"
"إنها من فيلم إيراني. شاهدته في السينما التي يمتلكها والدي، هل تريدين أن تري شيئاً"
قبل أن تجيب مريم، وضعت نيلوفر راحتيها وجبهتها على الأرض ودفعت بقدميها، فوقفت على رأسها.
"هل تستطيعين فعل ذلك" قالت مداعبة.
"لا"
أنزلت نيلوفر قدميها وسحبت كنزتها.
"باستطاعتي تعليمك"
قالت ذلك وهي تبعد شعرها عن جبهتها المتوردة.
"إذاً كم ستدوم إقامتك هنا"؟
"لا أعرف"
"قالت أمي أنك لست شقيقتي حقاً كما تقولين"
كذبت مريم وقالت:
"لم أقل ذلك أبداً"
"قالت إنك كذلك. أنا لا أهتم. ما أقصده إنني لا أمانع إذا قلت ذلك، أو إذا كنت أختي. لا أمانع"
استلقت مريم وقالت:
"إنني متعبة الآن"
"قالت أمي إن الجان هم من جعلوا أمك تشنق نفسها"
فأجابت مريم وهي تدور إلى الجهة الثانية:
"باستطاعتك أن توقفي ذلك.. أقصد الموسيقى"

في ذلك اليوم أتت بيبي جو لزيارتها. كانت تمطر عندما أتت. أنزلت جسدها الضخم على الكرسي بجانب السرير وهي تتلوى من الألم.
"المطر يا مريم جو. إنه جريمة بالنسبة لوركي، أخبرتك كما آمل.. آه، الآن تعالي هنا يا طفلتي. تعالي إلى بيبي جو. لا تبكي. هنا، الآن، أنت مسكينة، أنت شخص مسكين"
في تلك الليلة، لم تستطع مريم النوم لوقت طويل. كانت مستلقية في سريرها تنظر إلى السماء، تستمع إلى وقع الخطوات في الأسفل، الأصوات التي تسترها الجدران وحبال المطر التي تدق النافذة. و عندما غفت استيقظت على صراخ أصوات حادة وغاضبة في الأسفل. لم تستطع مريم أن تفهم الكلمات. شخص ما صفق الباب بقوة.
في الصباح التالي أتى الملّا فايز الله. عندما رأت صديقها بلحيته البيضاء وابتسامته الودودة الخالية من الأسنان أحست مريم بالدموع تتجمع في عينيها ثانية.
أنزلت قدميها من السرير وركضت إليه. قبلت يده كما تفعل دائماً وقبل الملا جبهتها. قربت له كرسي.
تناول القرآن الذي جلبه معه وفتحه .
"أظن لا مانع أن نتابع ما اعتدنا عليه.. آه"؟
"تعلم أنني لست بحاجة إلى المزيد من الدروس، يا سيد مّلا. لقد علمتني كلّ شرح وكلّ آية في القرآن منذ سنوات"
ابتسم، ورفع يديه باستسلام.
"أعترف بأنني انكشفت، قد أفكر بأعذار أسوأ من ذلك لزيارتك"
"لست بحاجة إلى أعذار، ليس أنت"
"لطف منك أن تقولي ذلك، مريم جو"
أعطاها القرآن. وكما علمها قبّلته ثلاث مرات ـ ووضعته على جبينها بين كل قبلة ـ وأعادته إليه.
"كيف حالك، ابنتي"؟
بدأت مريم الحديث:

"مازلت"!! ... وتوقفت وهي تشعر كأن صخرة علقت في حنجرتها "مازلت أفكر فيما قالته لي قبل أن أغادر. إنها ..."

"لا ، لا ، لا...."

وضع الملا فايز الله يده على ركبتها.

"قد يكون الله قد سامح أمك ، كانت امرأة ذات متاعب ، لم تكن سعيدة مريم جو. لقد قامت بعمل رهيب لنفسها ، لنفسها ، لك ، وكذلك لله. سوف يسامحها ، لأنه مسامح ، لكن الله حزين بسبب فعلها. لا يوافق على أخذ الحياة ، حتى لو كانت حياة آخر أو حياة الشخص نفسه ، لأنه يقول أن الحياة مقدسة. هل ترين...)

قرّب كرسيه وأمسك بيدي مريم بين يديه.

"كما تعلمين ، أعرف أمك حتى قبل أن تولدي ، عندما كانت طفلة صغيرة ، أخبرتك أنها لم تكن سعيدة وكما أظن ، ما قامت به كان له دلالات منذ زمن. ما أقصد قوله أن ذلك ليس خطأك. لم يكن خطأك ، ابنتي.."

"كان عليّ ألا أتركها ، لم يكن علي... "

"توقفي عن ذلك ، هذه الأفكار ليست جيدة مريم جو ، هل تسمعينني ، طفلتي؟! ليست جيدة.. ستدمرك.لم يكن خطأك ، لم يكن خطأك.. لا"

هزت مريم برأسها ، لقد كانت راغبة أن تقتنع بذلك ولكنها لم تستطع.

بعد أسبوع وفي فترة ما بعد الظهر ، دُقّ الباب ودخلت امرأة طويلة فاتحة البشرة ذات شعر أحمر وأصابع طويلة... قالت :

"أنا أفسون والدة نيلوفر لماذا لا تغتسلين وتنزلين إلى الأسفل"؟

فقالت مريم إنها تحب أن تبقى في غرفتها.

"لا.. أنت لم تفهمي ، يجب أن تنزلي. علينا أن نتحدث. إنه أمر هام"

الفصل السابع

جلس جليل وزوجاته في مواجهة مريم على طاولة طويلة ذات لون بني غامق. بينهم وعلى زاوية الطاولة كان هناك مزهرية من الكريستال فيها أزهار المرغريتا المقطوفة حديثاً، وإبريق جميل للماء. المرأة ذات الشعر الأحمر التي عرّفت نفسها بأنها والدة نيلوفر (أفسون) كانت جالسة على يسار جليل. والاثنتان نرجس و خديجة كانتا على يمينه.

كانت الزوجات يرتدين وشاحاً أسود اللون خفيفاً، ليس على رؤوسهن، بل كان الوشاح موضوعاً على أعناقهن بشكل غير محكم. وكتفكير بعيد، لم تستطع مريم أن تتخيل بأنهن يضعن الوشاح من أجل نانا. متخيلة بأن واحدة منهن اقترحت ذلك الأمر، أو قد يكون اقتراح جليل، قبل أن يستدعيها.

صبت افسون الماء من الإبريق ووضعت الكأس أمام مريم على قطعة قماش مربعة الشكل.

قالت:

"إنه الربيع و الجو حار هكذا".. وأرجحت يدها أمام وجهها.

سألتها نرجس ذات الذقن الصغيرة والشعر الأسود المجعد:

"هل كنت مرتاحة؟ نأمل أن تكوني مرتاحة؟ هذه.. المعاناة.. لابد أنها صعبة عليك.. صعبة جداً"

أومأت الاثنتان برأسيهما. في حين كانت مريم تحدق بحواجبهن المعتنى بها جيداً، وابتساماتهن المتسامحة التي يمنحنها لها.

كان هناك طنين مزعج في رأس مريم. وحنجرتها تلتهب. فشربت بعض الماء.

ومن خلال النافذة التي خلف جليل، استطاعت مريم أن ترى أشجار التفاح المزهرة. على الجدار بجانب النافذة كانت خزانة خشبية سوداء، وفيها ساعة، صور ذات إطار لجليل وثلاثة من أبنائه، كان الشباب يمسكون سمكة. وتنعكس أشعة الشمس على حراشفها المتلألئة. كان جليل والأولاد يبتسمون ابتسامة عريضة.

"حسناً".. بدأت أفسون بالكلام..

"أنا - إنه، نحن - جئنا بك إلى هنا، لأنه عندنا أخبار جيدة نخبرك إياها".

رفعت مريم نظرها، فالتقطت نظرات سريعة تتبادلها النساء نحو جليل، الذي كان يتململ في كرسيه وينظر إلى الإبريق دون أن يراه. لقد كانت خديجة الأكبر سناً والتي أعادت نظرها إلى مريم، كان لدى مريم انطباع بأن هذا الواجب تم نقاشه وقد تمت الموافقة عليه قبل استدعائها.

قالت خديجة:

"لديك خاطب"

وقع قلب مريم.

قالت فجأة من خلال شفتين مخدرتين: "ماذا"؟

"خاطب اسمه رشيد، إنه صديق من معارف العمل لوالدك، من قبيلة الباشتون، من قندهار بالأصل ولكنه يعيش في كابول في مقاطعة ديه مازانغ في بيت من طابقين"

كانت أفسون تهز برأسها.

"وهو يتكلم الفارسية مثلنا، مثلك. لذلك ليس عليك تعلم الباشتو"

أطبق صدر مريم، كانت الغرفة تدور رأساً على عقب و الأرض تتحرك تحت قدميها.

كانت خديجة تقول:

"إنه صانع أحذية، ولكن ليس من النوع الذي يعمل في الشارع، لا.. لا، لديه محله الخاص وهو من أشهر صانعي الأحذية في كابول.

يصنع الأحذية للدبلوماسيين وأعضاء من العائلة الحاكمة ـ هذا النوع من الناس. لذا كما ترين لن يجد صعوبة في إعالتك".

ثبتت مريم نظرها على جليل وقلبها ينبض بقوة في صدرها.

"هل هذا صحيح؟ ما تقوله، هل هو صحيح"؟

ولكن جليل لم ينظر إليها. واستمر في مضغ زاوية شفته السفلى ومحدقاً في الإبريق.

"هو أكبر منك قليلاً".. تكلمت أفسون بانفعال.

"ولكن ليس أكثر من أربعين، خمسة وأربعين في الأكثر. ألم تقولي ذلك يا نرجس"؟

"نعم، ولكنني رأيت بنات في عمر التسع سنوات يتزوجن من رجال أكبر بعشرين عاما من عريسك يا مريم. كلنا كذلك. ما عمرك، خمسة عشرة عاما؟ إنه سن جيد للزواج بالنسبة لفتاة"

وهنا كانت موافقة حماسية.. من الجميع.

لم يخف على مريم بأن أحداً لم يذكر بأن نصف شقيقاتها، سعيدة أو ناهيد كانتا بنفس عمرها وكلتاهما طالبتان في مدرسة ميهري في هيرات، وكلتاهما لديهما خطط لدخول جامعة كابول. من الواضح أن خمسة عشر عاماً لم يكن سناً جيداً للزواج بالنسبة لهما.

قالت نرجس:

"ماذا هناك أيضاً، كان لديه خسارة كبيرة في حياته. زوجته، سمعنا أنها ماتت أثناء الولادة منذ عشر سنوات وبعدها بثلاث سنوات غرق ابنه في بحيرة"

"إنه شيء محزن، نعم..كان يبحث عن عروس في السنوات الأخيرة ولكنه لم يجد فتاة مناسبة"

قالت مريم: "لا أريد".. ثم نظرت إلى جليل وأردفت:

"أنا لا أريد ذلك. لا تجبرني"

كرهت نبرة الترجي في صوتها و لكن لم يكن بإمكانها فعل شيء.

قالت إحدى الزوجات:

"كوني عاقلة يا مريم.. الآن"

كانت مريم غير قادرة على متابعة من يتكلم أو ماذا يتكلمون.

استمرت بالتحديق إلى جليل، منتظرة منه أن يتكلم، ليقول لا شيء من هذا صحيح.

"لا تستطيعين أن تقضي بقية حياتك هنا"

"ألا تريدين عائلة تخصك"؟

"نعم، منزل، أطفال يخصونك"؟

"يجب أن تستمري"

"حقيقة قد يكون من الأفضل أن تتزوجي شخصاً محلياً، ولكن رشيد غني، ومهتم بك، لديه بيت وعمل، وهذه هي الأمور المهمة، أليس كذلك؟ وكابول مدينة جميلة ومثيرة، قد لا تحصلين على فرصة ثانية جيدة"

استمعت مريم إلى الزوجات.. ثم قالت: "سأعيش مع الملا فايز الله، سيأخذني أعرف أنه سيفعل"

قالت خديجة: "هذا ليس جيداً، إنه رجل مسن و... "وبحثت عن الكلمة المناسبة وعندما عرفت مريم ما الذي تريد أن تقوله، أدركت ما الذي يلمحن إليه حقيقة.

"قد لا أحصل على فرصة جيدة كهذه.. ولا هم أيضاً"!!

كن يحتقرنها بسبب مولدها، وكانت تلك فرصتهن ليمحون مرة، وإلى الأبد، آخر أثر لفضيحة زوجهن، كن يردن إبعاد التجسيد الحي لعارهن.

قالت خديجة أخيراً:

"إنه مسن جداً وضعيف، ما الذي ستفعلينه عندما يموت؟

ستكونين عبئاً على أسرته، كما أنت الآن بالنسبة لنا"

هكذا أحست مريم في الكلمات غير المحكية على فم خديجة، وتخيلت مريم نفسها في كابول، مدينة كبيرة غريبة ومكتظة. كما أخبرها جليل مرة، كانت تبعد ستمائة وخمسين كيلومتراً إلى الشرق من

هيرات، أبعد مسافة قطعتها كانت الكيلومترين اللذين يفصلان الكولبا عن بيت جليل.

تصورت نفسها تعيش في كابول على النهاية الأخرى التي لا تتصور مدى بعدها، لتعيش في منزل غريب وتستسلم لمزاجه وطلباته المستجابة، أن تخدم هذا الرجل (رشيد) وتطبخ له، وتنظف ملابسه، وسيكون هناك واجبات أخرى أيضاً - أخبرتها نانا ماذا يفعل الأزواج لزوجاتهم - لقد كان مجرد التفكير في هذه العلاقة بالتحديد والتي تتخيلها كأفعال مقززة ومؤلمة تسبب لها الهلع وتجعلها تشتعل بعذاب.. أيضاً.

التفتت نحو جليل ثانية..

"قل لهن إنك لن تدعهن يفعلن ذلك بي"

قالت أفسون:

"بالواقع والدك أعطى جوابه لرشيد، ورشيد هنا في هيرات، لقد أتى من كابول سيكون العرس غداً صباحاً، وبعدها سيغادر بالباص إلى كابول عند الظهر"

صرخت مريم: "أخبرهم"

أصبحت النساء الآن هادئات، أحسّت بأنهن يراقبن جليل أيضاً، منتظرات.

عم الهدوء الغرفة، مازال جليل يفتل خاتم زفافه ونظرة يائسة على وجهه، من داخل الخزانة كانت الساعة تدق وتدق.

قالت إحدى النساء أخيراً: "جليل جو"؟!!

ارتفعت عينا جليل ببطء، والتقت بمريم، ثم أنزلهما، فتح فمه، ولكن كل ما صدر عنه كان تنهيدة واحدة.

قالت مريم: "قل شيئاً".. تكلم جليل بصوت رفيع منهك:

"اللعنة، لا تفعلي ذلك بي يا مريم"

قال ذلك وكأنه الشخص الذي يحاك ضده شيء ما، عند ذاك أحست مريم بأن التوتر في الغرفة قد اختفى، بينما بدأت زوجات

جليل بجولة ثانية وأكثر حيوية من التطمينات. نظرت مريم إلى الطاولة، لاحقت عيناها الشكل الأملس لأقدامها، وزواياها الممتلئة بالمنحنيات المتعرجة، وانعكاس السطح البني الغامق، وكيف أن في كل مرة تتنفس يصبح سطح الطاولة ضبابيا.

رافقتها افسون إلى غرفتها، وعندما أغلقت الباب، سمعت مريم قعقعة المفتاح وأقفل الباب.

الفصل الثامن

في الصباح أُعطيت مريم ثوباً أخضر غامقاً ذو أكمام طويلة لتلبسه مع بنطال من القطن الناعم، أعطتها افسون حجاباً أخضر، وصندلاً يلائم الثوب. أُخذت إلى الغرفة التي توجد فيها الطاولة البنية الطويلة. وعليها صحن من حلوى اللوز المغطى بالسكر، قرآن، خمار أخضر ومرآة. رجلان لم تشاهدهما مريم من قبل - شهود كما خمنت - وشيخ لم تعرف متى جلس إلى الطاولة. دلها جليل على كرسي لتجلس، كان يرتدي بزة بنية فاتحة مع ربطة عنق حمراء، كان شعره مغسولاً، عندما سحب الكرسي لها، حاول أن يبتسم كي يشجعها.

جلست أفسون وخديجة إلى جانب مريم هذه المرة. أشار الشيخ إلى الخمار، فوضعته نرجس على رأس مريم قبل أن تجلس، كان نظر مريم مثبتاً على يديها.

قال جليل لأحد ما "تستطيع أن تناديه في الحال"

شمت مريم رائحته قبل أن تراه، دخان سجائر وعطر ثقيل، ليس خفيفاً كعطرٍ جليل، من خلال الخمار ومن زاوية عينها، شاهدت مريم رجلاً طويلاً ذا كرش كبير وأكتاف عريضة، وقف عند الباب، حجمه جعل مريم تفغر فاهها من الدهشة، أنزلت نظرها وقلبها يدق بعنف، أحست به وهو يتباطأ عند الباب ثم وقع خطواته البطيئة والثقيلة تتحرك داخل الغرفة، حتى أن صحن الحلوى على الطاولة كان يتناغم مع خطواته، بثقل، جلس على كرسي بجانبها، كان يتنفس بصوت مسموع.

رحب الشيخ بهم وقال:

"لن يكون هذا زواجاً تقليدياً.. إنني أتفهم أن رشيد لديه تذاكر لرحلة كابول التي ستغادر بعد حين لذلك سنستثمر الوقت ونتجاوز بعض الخطوات التقليدية ونسرّع بعض الإجراءات"

أعطى الشيخ بعض بركاته وقال عدة كلمات عن مدى أهمية الزواج، سأل جليل إذا كان لديه اعتراض على هذا (الإتحاد) فهز جليل رأسه نفياً، ثم سأل الشيخ رشيد إن كان يريد فعلاً عقد قرانه على مريم، فقال رشيد نعم، صوته الأجش ذكّر مريم بصوت أوراق الخريف الجافة وهي تنسحق تحت الأقدام.

"وأنت، مريم جو، أتقبلين هذا الرجل زوجاً لك"؟

جلست مريم هادئة، كانت الحناجر تتنحنح.

صوت نسائي من الجهة الثانية للطاولة قال:

"إنها تقبل"

قال الشيخ: "بالواقع يجب أن تجيب هي بنفسها، ويجب أن تنتظر حتى أسألها ثلاث مرات، الفكرة هي، أنه هو الذي يطلبها، وليس العكس"

طرح السؤال مرتين، وعندما لم تجب مريم، سألها مرة بعد، هذه المرة بإصرار، كانت مريم تشعر بجليل الجالس بجانبها يتململ في مقعده، كان يشبك أقدامه تحت الطاولة، ثم يعود فيفكهما، كان هناك أكثر من حنجرة تتنحنح.

همس جليل: "مريم"!! فقالت برعشة: "نعم"

مُررت مرآة تحت الخمار، وفيها شاهدت مريم وجهها أولاً، الحواجب غير المقوسة، عديمة الشكل، شعرها المفرود، العينين الخضراوين الحزينتين القريبتين من بعضها لدرجة أن المرء يعتقد أنها حولاء.

كان جلدها خشناً وقاتماً ومليئاً بالبقع، فكرت بأن جبهتها عريضة جداً. والذقن ضيقة جدا، والشفتان رقيقتان.

الانطباع الأعم أنها ذات وجه طويل مثلث الشكل أقرب إلى كلب الصيد، ورأت مريم بأنٍ ذاك غريب بشكل كاف، كل هذه الأجزاء مجتمعةٍ قد صنعت وجهاً غير جميل وبطريقة ما غير سار للنظر إليه أيضاً.

بنظرة خاطفة، شاهدت في المرآة للمرة الأولى، رشيد، وجهٍ كبير مربع ومتورد، أنف معقوف، وجنتان متوردتان تعطي انطباعاً بأنه كتوم وغيرٍ مبهج، عيون دامعة ومحتقنة، أسنان مكتظة اثنان منها مندفعان معاً كسطح الجملون، مقدمة الشعر بالكاد بعرض إصبعِين فوق الحاجبين الكثينٍ، وشعر كثيف ومجعد، التقت نظراتهما قليلاً في المرآة وانسحبت سريعاً، ففكرت مريم: هذا هو وجه زوجي.

تبادلا خواتم الزواج الذهبية التي كانت في جيب سترة رشيد، كانت أظافره صفراء بنية مثل تفاحة متعفنة، وبعض أظافره معقوفة، ارتجفت يدا مريم عندما حاولت إدخال الخاتم في إصبعه، فساعدها جليل، كان خاتمها ضيق جداً ولكن رشيد لم يجد صعوبة في إرغامه على الدخول في إصبعها.

وقال: "هذا هو"

قالت إحدى الزوجات: "إنه خاتم جميل، بديع يا مريم"

قال الشيخ: "كل ما تبقى هو توقيع العقد"

وقعت مريم اسمها ـ الميم، الراء، الياء ثم الميم مجدداً مدركة بأن كل العيون مسلطة على يدها.

المرة الثانية التي توقع مريم باسمها على وثيقة كانت بعد سبعة عشر سنة وسيكون الشيخ حاضرا مرة ثانية.

فقال الشيخ: "أنتما الآن زوج وزوجة، كل التهاني"

انتظر رشيد في الباص، لم تستطع مريم أن تراه من حيث كانت واقفة مع جليل ـ في مؤخرة الباص ـ فقط دخان سيجارته كانٍ يتصاعد من النافذة، من حولهما، كانت الأيدي تصافح وتقول وداعاً، وكتب

من القرآن تُقبّل، صبية حفاة يتجولون بين المسافرين، وجوههم غير ظاهرة خلف صوان من العلكة والسجائر.

كان جليل منهمكاً بإخبارها أن كابول جميلة جداً وأن إمبراطور المغول بابور طلب أن يدفن هناك، بعدها، عرفت مريم، انه سيستمر بالحديث عن حدائق كابول، محلاتها، أشجارها، هوائها، وقبل أن يمر وقت طويل، ستكون هي قد صعدت إلى الباص، وهو سيمشي بجانبه، ويلوح بابتهاج، دون ألم، وهو يشعر بأنه أُنقذ، لم تستطع مريم أن تسمح لنفسها بذلك، فقالت: "لقد كنت أعبدك"

توقف جليل عند منتصف الجملة، وهو يشابك يديه ويفردهما.

مر بينهما زوجين هنديين، الزوجة تحمل ولداً والزوج يجر حقيبة.

بدا جليل ممتناً للمقاطعة، اعتذرا، فابتسم جليل لهما بشكل مؤدب.

"أيام الخميس كنت أنتظرك بالساعات، وأقلق من أنك قد لا تأتي"

فقال: "إنها رحلة طويلة، يجب أن تأكلي شيئاً"

ثم أردف: أنه يستطيع أن يشتري لها بعض الخبز وجبن الماعز.

"فكرت بك كل الوقت، اعتدت أن أصلي لتعيش مئة عام، لم أكن أعرف، لم أكن أعرف أنك كنت تخجل بي"

أطرق جليل رأسه وكصبي معاقب كان يدق شيئاً ما بمقدمة حذائه.

"لقد كنت تخجل بي"

"سأزورك" همهم جليل.. "سآتي إلى كابول وأراك، وسوف.."

"لا.. لا" قالت مريم ثم أردفت:

"لا تأتي، لن أراك، لا تأتي، لا أريد أن أسمع أي شيء عنك أبداً، أبداً"

نظر إليها نظرة مجروحة..

"كل شيء ـ انتهى بيني وبينك هنا، فقل وداعاً"

"لا ترحلي هكذا" قالها بصوت ضعيف.

"لم يكن عندك اللياقة حتى لتعطيني وقتاً لأودع الملا فايز الله"

استدارت ومشت باتجاه الباص، استطاعت أن تشعر به وهو يركض باتجاهها، وعندما وصلت إلى باب الباص، أحست به خلفها.

"مريم جو"

صعدت الدرجات، وعلى الرغم من أنها لاحظت جليل من زاوية عينها يمشي موازياً لها، فإنها لم تنظر من النافذة.

تابعت طريقها إلى آخر الباص حيث يجلس رشيد وحقائبها بين رجليه، لم تلتفت عندما كانت راحتا جليل تضغطان على الزجاج، وعندما كانت أصابعه تنقر وتنقر عليه، وعندما أقلع الباص، لم تلتفت لتراه يهرول بمحاذاته، لم تنظر إلى الخلف لتراه يرتد إلى الوراء، لتراه وهو يختفي بين غيوم من الدخان والغبار.

كان رشيد يجلس في المقعد الأوسط، وقد رفع النافذة، ووضع يده على يدها.

"هناك يا فتاة، هناك، هناك"، كان يحدق من النافذة بينما قال هذا، كأن شيئاً أكثر إثارة لفت انتباهه.

الفصل التاسع

كان الوقت بداية المساء عندما وصلا إلى بيت رشيد في اليوم التالي.

قال رشيد: "نحن في ديه - مازانغ"

كانا في الخارج، على الرصيف، وكان يحمل حقيبة بيد، وبالثانية يفتح البوابة الخشبية الأمامية..

"حديقة الحيوان في القسم الجنوبي الغربي من المدينة، وهي قريبة، وكذلك الجامعة"

هزت مريم رأسها، فهي تعرف ذلك، بالرغم من أنها لا تفهمه، ولكن، كان عليها أن تعطيه كل انتباهها عندما يتكلم، رغم عدم اعتيادها على اللهجة المحلية لأهل كابول، وما يختبئ في كلمات لهجة الباشتون، لغة بلده الأصلي قندهار.

بدا أنه لا يعاني أية مشكلة في فهم ما تقوله بالفارسية، بلهجة أهل هيرات.

عاينت مريم، بسرعة، الطريق الضيق غير المرصوف على طول المبنى الذي يمتلكه رشيد، كانت البيوت مكتظة على جانبي الطريق، بجدران ملتصقة، وباحات صغيرة مسورة تبعدها عن الطريق، معظم البيوت لها أسطح عادية، مصنوعة من الآجر، بعض الوحل كان له نفس اللون الترابي للجبال التي تحيط بالمدينة، وهناك قنوات تفصل الرصيف عن الطريق من كلا الجهتين، مملوءة بالماء الموحلة.

رأت مريم تلالاً من القمامة ملقاة في الشارع هنا وهناك، كان منزل رشيد مؤلف من طبقتين، وكان لونه فيما مضى أزرق، عندما فتح رشيد البوابة الأمامية، وجدت مريم نفسها في حديقة صغيرة غير مرتبة حيث العشب الأصفر يتجمع في بقع صغيرة، رأت حماماً خارجياً إلى اليمين من الحديقة، وعلى اليسار بئراً مع مضخة يدوية، صفاً من

الأشجار الصغيرة المتيبسة، قرب البئر، كان هناك ورشة ودراجة تتكئ على الحائط.

"أخبرني والدك أنك تحبين صيد السمك".. قال ذلك بينما كانا يجتازان الحديقة إلى المنزل، لم يكن هناك باحة خلفية.

"توجد قرى إلى الشمال من هنا وأنهار مع الكثير من الأسماك، ربما آخذك إلى هناك يوماً ما"

فتح الباب الأمامي وأدخلها إلى المنزل، كان منزل رشيد أصغر بكثير من منزل جليل، ولكن بالمقارنة مع منزل نانا ومريم كان فخماً، ردهة وغرفة معيشة في الأسفل ومطبخ حيث شاهدت الأواني والمقالي وطنجرة الضغط.. والغاز. كان هناك (صوفا) فستقية اللون في غرفة المعيشة، فيها شق على جانبها خيط بشكل غير متناسق، أما الجدران فقد كانت عارية، طاولة وكرسيان من القصب، كرسيان قابلان للطي وفي الزاوية موقد حديدي. وقفت مريم في منتصف غرفة المعيشة تنظر حولها، في الكولبا كانت تستطيع أن تلمس السقف بأصابعها، أن تستلقي على سريرها وتعرف الوقت من زاوية دخول الشمس من النافذة، عرفت كم يستطيع بابها أن يفتح من طقطقة مفصلياته، كانت تعلم كل شرخ أو كسر في كل لوح من ألواح الأرضية الخشبية الثلاثين، الآن كل هذه الأشياء المألوفة ذهبت، نانا ماتت، وها هي هنا الآن، في مدينة غريبة، مفصولة عن الحياة التي تعرفها بوديان وسلسلة من الجبال المغطاة بالثلوج وصحارٍ كاملة. إنها في بيت شخص غريب، مع كل غرفه المختلفة ورائحة الدخان، خزائنه غير المألوفة المليئة بالأواني الغريبة وستائره الثقيلة الخضراء الداكنة اللون، وسقف تعرف أنها لا تستطيع الوصول إليه، الفراغ الموجود فيه يخنقها، وخزات من اللهفة لنانا، للملا فايز الله، لحياتها القديمة.. عندها بدأت بالبكاء.

"لماذا هذا البكاء".. قال رشيد بعصبية.

بحث في جيب بنطاله وفتح أصابع مريم ووضع منديله في راحتها، أشعل لنفسه سيجارة واتكئ على الحائط، راقبها بينما كانت تضغط بالمنديل على عينيها.

"هل انتهيت"؟.. أومأت مريم برأسها.

"أكيد"؟

"نعم"

أمسك يدها من المرفق وقادها إلى نافذة غرفة المعيشة.

"هذه النافذة تطل على الشمال".. قال وهو يدق على النافذة بظفر إصبعه الأوسط المكسور.

"هذا جبل أسماي مباشرة أمامنا، هل ترينه؟ وإلى اليسار جبل علي أباد والجامعة عند سفحه، خلفنا الشرق، لا تستطيعين أن تري من هنا جبل شير داروازا. كل يوم عند الظهر يطلقون قذيفة مدفع منه، كفي عن البكاء، أنا أعني ذلك"

مسحت مريم عينيها، قال بعبوس:

"هذا الشيء لا أستطيع تحمله، صوت بكاء المرأة، أنا آسف لا صبر لي على ذلك"

قالت مريم: "أريد الذهاب إلى المنزل"

زفر رشيد بغضب، نفخة من دخانه لامست وجه مريم:

"لن آخذ هذا على محمل شخصي هذه المرة"

أمسك بها من المرفق ثانية وقادها إلى الأعلى، كان هناك ممر ذو إضاءة خافتة وغرفتا نوم، كان باب الغرفة الكبيرة موارباً، ومن خلاله استطاعت مريم أن ترى، إنه مثل باقي المنزل، فيه القليل من الأثاث، سرير في الزاوية مع بطانية بنية اللون ووسادة، خزانة أخرى ذات رفوف، كانت الجدران عارية، عدا عن مرآة صغيرة، أغلق رشيد الباب.

"هذه غرفتي".. قال بأنها تستطيع أن تأخذ غرفة الضيوف

"آمل ألا تمانعي، فأنا معتاد على النوم وحيداً"

لم تقل له مريم كم كانت مرتاحة، على الأقل حول ذلك الأمر، الغرفة التي ستكون لمريم أصغر بكثير من الغرفة التي كانت في منزل جليل، كان فيها سرير، خزانة ذات رفوف قديمة باللونين الرمادي والبني، خزانة ملابس صغيرة، نافذة تطل على الباحة، وخلف ذلك كان الشارع، وضع رشيد حقيبتها في الزاوية، وجلست مريم على السرير.

قال: "ألم تلاحظي"؟

كان واقفاً عند عتبة الباب منحنياً..

"انظري إلى عتبة النافذة، تعلمين من أي نوع؟ وضعتهم هناك قبل أن أغادر إلى هيرات"

فقط الآن شاهدت مريم سلة أزهار بيضاء على العتبة، تتدلى من كل جوانب السلة.

"تحبين تلك الورود، إنها تسعدك"؟

"نعم"

"تستطيعين أن تشكريني إذاً"

"شكراً لك، أنا آسفة، شكراً.."

"إنك ترتجفين، ربما أخيفك، هل أخيفك؟ هل أنت خائفة مني"؟

لم تكن مريم تنظر إليه ولكن كانت تستطيع سماع شيء خفي وخبيث في هذه الأسئلة.

كإبرة بوصلة، هزت رأسها بسرعة فيما أدركت أنها أول كذبة في زواجهما.

"لا، هذا جيد إذاً، أحسنت، حسناً، هذا منزلك الآن، سوف تحبينه، سترين.. هل أخبرتك أنه يوجد كهرباء، أغلب النهار وكل الليل"؟

بدا وكأنه سيغادر، توقف وأخذ رشفة طويلة من سيجارته، أغمض عينيه، ظنت مريم أنه سيقول شيئاً، ولكنه لم يفعل، أغلق الباب وتركها وحيدة مع حقيبتها وأزهارها.

الفصل العاشر

في الأيام الأولى، بالكاد غادرت مريم غرفتها، كانت تستيقظ على صوت الآذان البعيد كل فجر وتصلي، ثم تعود إلى السرير، تكون في السرير عندما تسمع رشيد يغتسل في الحمام، وكذلك عندما يأتي إلى غرفتها ليتفقدها قبل أن يغادر إلى محله.

من النافذة، كانت تراقبه في الباحة، يؤمّن على طعامه في المقعد الخلفي لدراجته، ثم يسير بدراجته عبر الباحة إلى الطريق، تراقبه وهو يقود دراجته ويبتعد، أكتافه العريضة والسميكة تختفي عند المنعطف في نهاية الشارع، أغلب النهار تبقى مريم في السرير، تشعر بأنها هائمة على وجهها ومهملة، في أحيان أخرى تنزل إلى المطبخ وتمرر يديها على الدهون التي تغطي الطاولة والستائر ذات الورود التي تنبعث منها رائحة الوجبات المحترقة، نظرت إلى الخزانة غير الملائمة، وإلى الملاعق والسكاكين غير المتماثلة، إلى المصفاة وأداة التقطيع، الملعقة الخشبية للمزج، هذه الأدوات ستكون محور حياتها اليومية، كل ذلك كان يذكرها بالدمار الذي حل في حياتها ويجعلها تشعر بأنها غير منتمية وبلا مكان مثل دخيل على حياة شخص آخر.

في الكولبا كانت شهيتها مقبولة، هنا بالكاد تطلب معدتها الطعام، أحياناً تأخذ صحناً صغيراً من الأرز الأبيض وقطعاً صغيرة من الخبز إلى غرفة المعيشة، عند النافذة ومن هناك كان باستطاعتها أن ترى أسطح البيوت ذات الطبقة الواحدة، كان باستطاعتها أن ترى داخل باحات المنازل النساء ينشرن الغسيل، يصرخن على أطفالهن والدجاج ينبش في الأوساخ، المجارف والرفوش، الأبقار المربوطة إلى الأشجار. فكرت بشوق لكل ليالي الصيف التي كانت هي ونانا تنامان على سطح المنزل تنظران إلى القمر يتوهج على غول دامان، كانت الليالي حارة جدا،

فكانت قمصانهن تلتصق بصدورهن كورقة مبللة ملتصقة بالنافذة. افتقدت أيام الشتاء بعد الظهر عندما كانت تقرأ في الكولبا مع الملا فايز الله، الإبر الجليدية التي تسقط على السطح من الأشجار، والغربان تنعق في الخارج على الأغصان المحملة بالثلج.

كانت مريم تتمشى وحيدة في المنزل من المطبخ إلى غرفة المعيشة، إلى الدرجات التي تؤدي إلى غرفتها، وإلى الأسفل ثانية.. وتنتهي مرة أخرى عند غرفتها، تقوم بصلواتها أو تجلس في السرير مفتقدة أمها شاعرة بالغثيان والحنين إلى المنزل.

عندما تغرب الشمس يزداد قلق مريم، كانت أسنانها تصطك عندما تفكر في الليل، في الوقت الذي يقرر رشيد أخيراً أن يفعل لها ما يفعله الرجال لزوجاتهم، تستلقي في السرير وأعصابها محطمة بينما يأكل وحيداً في الأسفل، دائماً كان يقف عند غرفتها ويطل برأسه من الباب.

"أكيد لست نائمة، إنها السابعة فقط، هل أنت مستيقظة؟ أجيبيني، تعالي الآن"

يصر على ذلك حتى تجيبه مريم من الظلام: "أنا هنا"

يدخل ويقف عند الباب، من سريرها كانت تستطيع أن ترى جسده الضخم، أقدامه الطويلة، الدخان يحوم حول أرنبة أنفه المعقوف، والشعلة الصفراء لسيجارته تومض وتخبو.

أخبرها عن يومه. صنع زوجاً من الأحذية حسب الطلب لنائب وزير الخارجية، كان معتاداً على شراء الأحذية من عنده كما قال رشيد، وجاءته طلبية صنادل من دبلوماسي بولندي وزوجته، أخبرها عن الخرافات التي يؤمن بها الناس عن الأحذية، أن تضع الحذاء على السرير هي دعوة للموت في الأسرة، وأن شجاراً سيحدث إذا ما خطا أحدهم بحذائه الأيسر "إلا إذا حدث ذلك عن غير قصد يوم الجمعة".. ثم أردف:

"هل تعلمين بأنه يُعتقد أن ربط فردتي الحذاء ببعضهما وتعليقهما على مسمار فأل سيء"؟

كان رشيد لا يعتقد أبداً بهذه الخرافات، وأن الخرافات شائعة أكثر عند النساء، أخبرها عن أشياء سمعها من الشارع، مثل أن الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون قد استقال نتيجة فضيحة.

مريم التي لم تسمع أبداً بنكسون أو بالفضيحة التي أرغمته على الاستقالة لم تقل شيئا، انتظرت بقلق أن ينتهي رشيد من كلامه، أن يسحق سيجارته ويغادر.

عندما تسمعه يجتاز الممر وتسمع باب غرفته يفتح ويغلق عندها فقط يغادرها الانقباض القوي الذي تعانيه، لكن، في إحدى الليالي سحق سيجارته وبدل أن يقول تصبحين على خير، اتكأ على الباب وقال: "هل ستفتحين ذاك الشيء؟" وأومأ برأسه باتجاه حقيبتها، عقد يديه ثم أردف:

"اعتقدت أنك بحاجة لبعض الوقت ولكن هذا مزعج، لقد مضى أسبوع.. حسناً إذاً، من الغد صباحاً أتوقع أن تتصرفي كزوجة، هل تفهمين"؟

بدأت أسنان مريم تصطك.

"إنني بحاجة إلى جواب"

"نعم"

"حسناً، ماذا تظنين، أنك جالسة في فندق؟! وأنني مدبر الفندق؟! حسناً، إنه... آه... ماذا قلت عن البكاء يا مريم، ماذا قلت لك عن البكاء"؟

في الصباح بعدما غادر رشيد إلى العمل، فتحت مريم حقيبتها وأخرجت ملابسها ووضعتهم في الخزانة، جلبت دلوين من الماء من البئر وقطع ثياب بالية ونظفت نوافذ غرفتها ونوافذ غرفة المعيشة، مسحت الأرضيات، أزالت خيوط العنكبوت من زاوية السقف، فتحت النوافذ ليدخل الهواء إلى البيت، وضعت ثلاثة أكواب من العدس في وعاء، أخذت سكين وقطعت الجزر وحبتين من البطاطا، وضعتهم في الماء، وبحثت عن الطحين فوجدته في الخلف في إحدى

الخزائن خلف صف من أواني البهارات الوسخة، وصنعت عجينة طازجة دعكتها بالطريقة التي علمتها إياها نانا، بان تضغط على العجينة بمؤخرة يدها، وتبسط الحواف الخارجية ثم تدورها وتضغط عليها ثانية، وضعت الطحين على العجينة، غلفتها ببقعة مبللة، وخرجت إلى الفرن.

أخبرها رشيد أين يقع الفرن، في أسفل الشارع إلى اليسار ثم إلى اليمين، كل ما كان على مريم أن تفعله هو أن تتبع مجموعة من النساء والأطفال الذي يأخذون الطريق نفسه، رأت مريم الأطفال يلحقون بأمهاتهم أو يهربون منهم، يرتدون قمصاناً مرقعة.. ومرقعة مرة أخرى، يرتدون بناطيلا تبدو كبيرة جداً أو صغيرة جداً، صنادل ممزقة ذات رباط منحل، يدحرجون إطارات دراجات قديمة بعصا، تمشي أمهاتهم بمجموعات من ثلاثة أو أربع، بعضه يرتدين البرقع والبعض لا، كان باستطاعة مريم أن تسمع ثرثرتهن الصاخبة وضحكاتهن المتصاعدة، بينما كانت تمشي ونظرها إلى الأسفل، التقطت بعضاً من دعاباتهن والتي على ما يبدو تكون دائماً عن أطفاله المرضى أو أزواجهن المتذمرين.

"كأن الوجبات تطبخ نفسها بنفسها..

والله وبالله ولا دقيقة راحة!

ويقول لي، أقسم، إنها الحقيقة، حقاً قال لي...."

هذه المحادثة اللانهائية، كانت ذات نغمة حزينة ولكن مبهجة بشكل غريب، تدور وتدور في دائرة، وتستمر أسفل الشارع، حول المنعطف، في الصف عند الفرن عن الأزواج الذين يقامرون، الأزواج الشغوفين بأمهاتهم الذين لا ينفقون روبية عليهن، على الزوجات، الكل لديهن هؤلاء الرجال البغيضين أو أنها لعبة الزوجات التي لا تعلم عنها شيئاً، مجموعة من الطقوس اليومية، مثل نقع الأرز، أو صنع العجينة؟ هل يتوقعن أن تنضم إليهن سريعاً، في الصف عند الفرن، أحست مريم بالنظرات الجانبية التي تنصب عليها، سمعت

همسات. كانت يداها تتعرقان، تخيلت أن الجميع يعلمون أنها ولدت "ابنة حرام".. وأنها مصدر عار على والدها وعائلته. وأن الكل يعلم بأنها خانت أمها وأذلّت نفسها، بزاوية برقعها مسحت العرق عن شفتها العليا وحاولت تهدئة أعصابها.

لبضع دقائق جرى كل شيء على أحسن حال. ثم ربت أحد على كتفها، استدارت مريم، فوجدت امرأة سمينة فاتحة البشرة ترتدي حجاباً مثلها، شعرها أسود قصير، مرحة ذات وجه مدور تقريباً.

كانت شفتاها أكثر امتلاء من مريم، شفتها السفلى تتدلى بحدة كأنها مسحوبة إلى الأسفل، شامة سوداء تحت خط الشفة. عيون خضراء كبيرة تومض بالترحاب.

"إنك زوجة رشيد الجديدة، أليس كذلك؟" قالت المرأة وهي تبتسم ابتسامة عريضة.

"من هيرات، إنك صغيرة جداً! مريم جو، أليس كذلك؟ اسمي فاريبا، أعيش في نفس الشارع الذي تسكنين فيه على بعد خمسة منازل إلى اليسار، البيت ذو الباب الأخضر، هذا ابني نور"

الصبي الذي بجانبها كان ذا وجه ناعم وشعر خفيف كأمه، عنده بقعة من الشعر على شحمة أذنه اليمنى، كانت عيناه عابستين، رفع يده "سلام، خالة جان"

"عمر نور عشر سنين، عندي صبي أكبر منه أيضاً اسمه أحمد"

قال نور: "عمره ثلاثة عشر عاماً"

"ثلاثة عشر وسيدخل في الرابعة عشر من عمره".. ضحكت فاريبا ثم أردفت: "اسم زوجي حكيم، إنه مدرس هنا في ديه ـ مازانغ، يجب أن تأتي في وقت ما، لنشرب فنجان ..."

فجأة، وكأنهن تشجعن، تسارعت النساء الأخريات وأحطن بمريم على شكل دائرة.. بسرعة منذرة.

"إذاً أنت عروس رشيد خان الشابة..."؟

"كيف ترين كابول"؟

"ذهبت مرة إلى هيرات، لدي ابن عم هناك"؟
"هل تريدين صبياً أو فتاة أولاً"؟
"المآذن، آه.. يا للجمال! يالها من مدينة رائعة"
"الصبية أفضل يا مريم جان، يحملون اسم العائلة..."
"الصبية يتزوجون ويبتعدون، الفتيات يبقين ويعتنين بك عندما تكبرين"
"أنجبي توأم، صبي وفتاة! عندها يكون الكل سعداء"
تراجعت مريم للوراء، كانت تلهث، أذنيها تطنان، ونبضها يتسارع، عيناها تنتقلان من وجه لآخر، تراجعت للوراء مرة أخرى، لكن لم يكن هناك مكان لتذهب إليه - كانت في منتصف الدائرة - لاحظت ذلك فاريبا التي كانت عابسة ومتضايقة، فقالت:
"دعوها!.. تنحين جانباً، دعوها، إنكن تخفنها"
أمسكت مريم بالعجينة بإحكام وقربتها إلى صدرها، و شقت طريقها خلال الجمهرة التي حولها.
"إلى أين أنت ذاهبة.. هامشيرا*"؟
شقت طريقها، إلا أنها وجدت نفسها في منطقة خالية، وعندها ركضت إلى أعلى الشارع ولم تتوقف إلى أن وصلت إلى التقاطع، عندها أدركت أنها تركض بالاتجاه الخاطئ، استدارت وركضت بالجهة الأخرى، تعثرت وجرحت ركبتها بشكل سيء، ثم نهضت ثانية وركضت، دافعة طريقها من خلال النساء.
"ما هي مشكلتك؟"
"إنك تنزفين! هامشيرا؟"
دارت مريم منعطفاً، ثم آخر ، وجدت الطريق الصحيح ولكن فجأة لم تعد تتذكر أي بيت من بيوت الحي كان بيت رشيد، فركضت إلى آخر الشارع، كانت الدموع تتجمع في عينيها، فبدأت تجرب أبواب البيوت بشكل عشوائي، بعضها كان مغلقاً، والبعض الآخر مفتوحاً،

* هامشيرا: تعني أختي في الأفغانية (المترجمة).

يظهر من خلاله باحات غير مألوفة، كلاب تنبح ودجاج يتجول. تخيلت أن يأتي رشيد إلى المنزل ويدها مازالت تبحث بتلك الطريقة، ركبتها تنزف، ضائعة في شارعها، عندها بدأت بالبكاء، كانت تدفع الأبواب وتهمس بصلوات، وكان وجهها مبللاً بالدموع إلى أن فتحت باب منزل رشيد وشاهدت بارتياح الحمام الخارجي، البئر، الورشة. فأغلقت الباب وأقفلته بالمزلاج.. عندها جلست على الأرض وتقيأت، ثم زحفت مبتعدة وأسندت ظهرها إلى الجدار وقدماها ممدودتان أمامها. لم تشعر طوال حياتها بأنها وحيدة كما هي الآن.

حين عاد رشيد إلى المنزل في المساء كان قد جلب معه كيساً ورقياً بني اللون. خاب أمل مريم عندما لم يلاحظ النوافذ النظيفة، الأرضيات الممسوحة وخيوط العنكبوت المنظفة. ولكنه كان سعيداً لأنها جهزت العشاء له على مشمع نظيف، في أرضية غرفة المعيشة.

قالت مريم: "لقد أعددت ديل*"

"حسناً إنني أتضوّر من الجوع"

صبت له الماء ليغسل يديه، وبينما كان يجففهما بالمنشفة وضعت أمامه إناء يتصاعد منه البخار، وصحناً من الأرز الأبيض.

كانت تلك الوجبة الأولى التي تعدها له. تمنت مريم لو كانت بحالة أفضل عندما صنعتها. فقد كانت ترتجف من حادثة الفرن حين أعدّت الطعام، وطوال النهار كانت خائفة من كثافة "ديل" ولونها ومن أن يظن بأنها قد أكثرت من الزنجبيل أو أنها قللت من الكركم.

حين وضع ملعقته في صحن "الديل" ذي اللون الذهبي، ترنحت مريم قليلاً، ماذا لو خاب أمله أو كان غاضباً؟ ماذا لو دفع صحنه بعيداً وهو منزعج؟

لكنها استطاعت أن تقول "كن حذراً إنها ساخنة".. نفخ رشيد على الملعقة ثم وضعها في فمه.

---

* ديل: أكلة شعبية أفغانية تشبه العصيدة (المترجمة).

"إنها جيدة، ملحها قليل بعض الشيء ولكنها جيدة حتى إنها أكثر من جيدة".

تنفست الصعداء، حتى أنها أحسّت بالنشوة وهي تنظر إليه يأكل، لقد أحسنت صنعاً.. "بل ربما أكثر من جيدة حتى.." فوجئت بهذه النشوة التي أحست بها من مديحه.

وانزاحت الأيام الماضية وغير السعيدة قليلاً.

قال رشيد:

"غداً يوم الجمعة ما رأيك أن أريك الجوار"؟

"حول كابول"؟

"لا.. كالكوتا"؟

رمشت مريم.

"إنها مزحة، طبعاً كابول ماذا غيرها"؟

بحث عن الكيس الورقي.

"ولكن أولاً علي أن أخبرك شيئاً"

أمسك ببرقع لونه أزرق سماوي من الكيس فانزلقت الياردات المطوية من القماش على ركبتيه. رفع البرقع و نظر إلى مريم.

عندي زبائن يا مريم، يأتون بزوجاتهم إلى محلي. النساء دون حجاب، ويتكلمون إلي مباشرة، وينظرن إلى عينيّ بدون خجل. يضعن المكياج ويرتدين تنانير تظهر ركبهن. وأحياناً يضعن أقدامهن أمامي للقياس وأزواجهم يراقبون ويسمحون بذلك. يعتقدون أنه أمر تافه إذا لمس غريب أقدام زوجاتهم العارية! يظنون أنفسهم رجالا عصريين، مثقفين. وحسب تعليمهم لا يرون بأنهم يرمون بشرفهم وكبريائهم كما أظن.

هز برأسه.. ثم أردف

"يعيش أغلبهم في الأقسام الغنية من كابول، سآخذك إلى هناك وسوف ترين. ولكنهم هنا أيضاً في جوارنا هؤلاء الرجال الناعمين. هناك أستاذ يعيش آخر الشارع اسمه حكيم. أرى زوجته فاريبا كل

الوقت تمشي في الشارع وحيدة ولاشيء على رأسها إلا وشاح. بصراحة إنه شيء يربكني أن أرى رجلاً يفقد السيطرة على زوجته"

وبعد برهة صمت.. قال:

"إنني رجل أتيت من بيئة مختلفة، نظرة واحدة خاطئة أو كلمة غير لائقة فإن الدماء سوف تهرق، وجه المرأة فقط لزوجها. أريدك أن تتذكري ذلك هل تفهمين"؟!

أومأت مريم برأسها. إلا أن السعادة التي غمرتها من استحسانه لطبخها تبخرت وحل محلها إحساس بالخوف.

وسيشعر هذا الرجل بأن مريم شخص مهيب وراسخ كجبال صافد كوه التي تلوح على غول دامان.

أعطاها رشيد الكيس.. وقال: "لقد تفاهمنا، دعينا إذاً نأكل المزيد من الديل".

الفصل الحادي عشر

لم تلبس مريم البُرقْع من قبل. ساعدها رشيد لتضعه عليها. كانت قطعة الرأس المبطنة مشدودة وثقيلة على جمجمتها. وجدت أنه من الغريب أن ترى العالم من خلال ستارة ذات ثقوب. تدربت قليلاً على المشي في غرفتها وهي ترتدي البُرقْع ، وطأت طرف الثوب وتعثرت مرارا.. لقد كان فقدان الرؤية ، إلا من زاوية واحدة ، يثير أعصابها. ولم تحب القطعة المطوية التي تضغط على فمها وتجعلها تختنق.

قال رشيد:

"ستعتادين عليه مع الوقت ، وأراهن أنك ستحبينه حتى"

أخذا الباص إلى مكان أسماه رشيد (شار ني بارك) حيث الأولاد يدفعون بعضهم على الأراجيح ويقذفون كرة الطائرة فوق شبكة ممزقة مربوطة إلى جذوع الأشجار. تجولا معاً وشاهدا الأولاد يطيّرون الطائرات الورقية ، مشت مريم إلى جانب رشيد تتعثر من وقت إلى آخر بسبب حافة البرقع ، وعند الغداء أخذها ليأكلا في محل صغير للكباب قرب جامع أسماه حاجي يعقوب ، كانت الأرض دبقة والهواء معبأ بالدخان ، الجدران تفوح منها رائحة مبهمة ، والموسيقى التي وصفها لها رشيد بأنها "لوغاري" كانت عالية.

كان الطهاة صبية هزيلين ، يلوحون على أسياخ الشوي بيد ويطردون الذباب بالأخرى ، مريم التي لم يسبق لها أن دخلت إلى مطعم وجدت أنه من الغريب أن تجلس في غرفة مكتظة بالعديد من الغرباء ، وأن ترفع البرقع لتضع الطعام في فمها ، تحرك نفس التوتر الذي أصابها عند الفرن في معدتها ، ولكن حضور رشيد كان مريحا لها ، وبعد قليل لم تكترث كثيراً للموسيقى ، أو الدخان.. وحتى للناس ، فقد كان البرقع ـ لدهشتها ـ مريحاً ، كان كنافذة بفتحة واحدة ،

كانت غير مراقبة، وكساتر عن عيون الغرباء الفاحصة، لم تكن قلقة أن يعرف الناس بنظرة واحدة كل أسرار العار لماضيها، في الشارع سمى رشيد عدة مباني رسمية ، قال هذه السفارة الأمريكية وتلك وزارة الخارجية، أشار إلى السيارات وقال أسماءها وأين صنعت.. فولكس روسية، شيفروليه أميركية، أوبل ألمانية.

سألها : "أيّها المفضلة لك"؟

ترددت مريم وأشارت إلى الفولكس، فضحك رشيد.

كانت كابول مكتظة أكثر بكثير من الذي شاهدته مريم في هيرات، الأشجار والعربات التي تجرها الأحصنة أقل، ولكن الكثير من السيارات، المباني أطول، والإشارات الضوئية أكثر والكثير من الطرق المعبدة وفي كل مكان سمعت مريم لهجة خاصة بالمدينة: "عزيزي، كانت جان بدلاً من جو، أخت أصبحت هامشيرا بدلاً من هاماشيرا، وهكذا.."

اشترى رشيد من بائع متجول الآيس كريم لها، كانت المرة الأولى التي تأكل بها الآيس كريم، ولم تتخيل مريم أبداً أن كل هذا السحر يمكن أن يوجد في صحن.

التهمت مريم كامل الصحن، الفستق المقرمش على القمة وحبات الأرز الصغيرة في الأسفل، فتنت بسحر هذه التركيبة، وحلاوتها المثيرة.

تابعا السير إلى مكان يدعى كوتشيه_مورغا، شارع الدجاج، كان سوقاً ضيقاً ومكتظاً في حي قال عنه رشيد أنه من أكثر مناطق كابول رخاء.

"حول هذه المنطقة يعيش الدبلوماسيون الأجانب، رجال الأعمال الأغنياء، أفراد من الأسرة الحاكمة، وليس أشخاص مثلي ومثلك"

قالت مريم: "لم أر أي دجاج" فضحك رشيد وقال:

"هذا الشيء الوحيد الذي لن تجدينه في شارع الدجاج"

كان في الشارع صف من المحلات والأكشاك الصغيرة التي تبيع قبعات من جلود الحملان واللباس الرسمي "التشابان" ذي ألوان قوس قزح.

توقف رشيد ليرى خنجر فضي منقوش في إحدى المحلات، وفي محل آخر نظر إلى بندقية قال البائع مؤكداً أنها أثرية من الحرب الأولى ضد البريطانيين.

فهمهم رشيد: "وأنا موشي دايان"

ابتسم قليلا، وقد بدا لمريم أن هذه الابتسامة هي لها فقط، خاصة بالمتزوجين.

تجولا ثم مرا أمام محلات السجاد، المناديل، المعجنات، الأزهار، ومحلات تبيع بذات للرجال وفساتين للنساء، في المحلات وخلف ستائر من الدانتيلا شاهدت مريم فتيات شابات يخطن الأزرار ويرتقن الياقات.

من وقت إلى آخر، كان رشيد يحيي صاحب محل يعرفه، بالفارسية حيناً، وبلهجة الباشتون أحياناً، كانت مريم تقف بضع خطوات بعيدة بينما يتصافحان ويقبلان الخدود، لم يلوح لها رشيد أو يعرّف عليها.

سألها أن تنتظر خارج محل التطريز، قال:

"أعرف المالك، سأذهب فقط لدقيقة، سلام"

انتظرت مريم في الخارج على الجانب المكتظ، راقبت السيارات تسرع في شارع الدجاج، تشق طريقها في حشد من البائعين المتجولين والمشاة، تطلق الزمامير للأطفال والحمير التي لا تتحرك، راقبت النظرة المملة للتجار داخل أكشاكهم الصغيرة، يدخنون ويبصقون في أوان نحاسية، ومن وقت إلى آخر تظهر وجوههم منادين على المنسوجات أو معاطف الفراء الملونة أمام المارة، كانت النساء أكثر من جذب انتباه مريم، فالنساء في هذا القسم من كابول من نوع مختلف عن النساء في القسم الفقير، مثل المكان الذي تعيش فيه مع رشيد، حيث كثير من النساء تتغطى بالكامل، تلك النسوة كن ـ ماذا كانت الكلمة التي

استخدمها رشيد؟ - "عصري".. نعم، نساء عصريات أفغانيات متزوجات من رجال أفغانيين عصريين، لا يمانعون أن تمشي زوجاتهم بين الغرباء وأن يضعن المكياج على وجوههن، حاسرات الرأس، راقبتهن مريم وهن يتجولن بحرية في الشارع، بعض الأحيان مع رجل، وأحياناً وحيدات، وأحياناً مع أولاد خدودهم متوردة، يلبسون أحذية لامعة، وساعات ذات سوار جلدي، يركبون الدراجات ذات المقعد العالي، والإطارات المذهبة والمزينة - على عكس الأولاد في ديه - مازانغ - اللذين يحملون آثار لسعات البعوض على خدودهم ويدحرجون إطارات لدراجات قديمة بالعصي.

كانت تلك النسوة يحملن حقائب، ويرتدين تنانير قصيرة، أظفارهن طويلة مطلية بالزهري أو البرتقالي، شفاههن حمراء مثل أزهار التوليب، يمشين بسرعة بكعوب عالية، كما لو أنهن في عجلة من أمرهن لعمل طارئ، يرتدين نظارات سوداء وعندما يهب النسيم تلتقط مريم رائحة عطورهن، حتى أن مريم شاهدت إحداهن تدخن خلف مقود السيارة، تخيلت أن كل تلك النسوة لديهن إجازة جامعية، ويعملن في شركات خلف مكاتب خاصة بهن، حيث يطبعن ويدخن ويجرين مكالمات هاتفية مهمة لأشخاص مهمين، تلك النسوة حيّرن مريم وأدركت مدى تدنيها ونظرتها البسيطة، نقص تطلعاتها وجهلها لأشياء كثيرة، لاحقاً كان رشيد يربت على كتفها وأعطاها شيئاً ما "هذا هو" كان وشاحاً حريرياً بلون أزرق مع حافات ذات خرز مطرزة بخيط ذهبي "هل أعجبك؟".. نظرت مريم إلى رشيد الذي قام بعمل مؤثر، رمش ثم حول نظره، فكرت مريم بجليل وبالطريقة البشوشة التي قدم بها جواهره لها، البهجة الفائضة التي لا تترك مكاناً إلا لامتنان وديع، كانت نانا محقة بشأن هدايا جليل، كانت رموزاً لكفارة نصف قلبية، غير صادقة، التفاتات فاسدة، القصد منها هو سكينته أكثر من إرضائها. هذا الشال، رأت مريم، كان هدية صادقة.

"إنه جميل".. قالت.

تلك الليلة زار رشيد غرفتها ولكن عوضاً عن التدخين عند عتبة الباب، دخل إلى الغرفة وجلس بجانبها حيث تستلقي على سريرها. طقطقت النوابض بينما مال السرير إلى جهته. كانت هناك لحظة من التردد، ثم أصبحت يده على عنقها. كانت أصابعه السميكة تضغط ببطء على الفقرات في الخلف و انزلق إبهامه إلى الأسفل، ثم على الفراغ فوق عظم الترقوة. بقيت يده تزحف إلى الأسفل ثم الأسفل. وأظافره تنزلق على كنزتها القطنية.

قالت بصوت أبح:

"لا أستطيع".. بينما كانت تنظر إلى بروفيله المضاء بنور القمر، أكتافه السميكة وصدره العريض، خصلات من شعر رمادي تظهر من ياقة قميصه.

كانت يده الآن على صدرها الأيمن يعصره بقوة من خلال الكنزة، واستطاعت أن تسمعه يتنفس بعمق من أنفه.

انزلق داخل البطانية إلى جانبها. أحست بيده وهي تفك حزامه، وربطة سروالها، أمسكت بالأغطية بإحكام، اعتلاها وتلوى عليها بينما هي تنشج، أغمضت عينيها وصرت على أسنانها، عضت على مفصل إبهامها، ورمت يدها الحرة على ظهر رشيد وبأصابعها كانت تحفر في قميصه.

دفن رشيد وجهه في وسادتها ومريم محدقة بعينين مفتوحتين إلى السقف فوق كتفيه، مرتجفة، شفتاها مزمومتان، وأنفاسه السريعة الساخنة على كتفها، كان الهواء بينهما معبأ برائحة البصل ولحم الحمل المشوي الذي تناولاه سابقاً.

من وقت إلى آخر كانت أذنه تحتك بوجنتيها وعرفت من الاحتكاك الخشن الذي أحست به بأنه قد حلق الشعر النابت على أذنه. وعندما انتهى الأمر ابتعد عنها ولبس سرواله، ووضع ذراعه على جبهته. فاستطاعت مريم أن ترى مؤشر الدقائق و الساعات الأزرق لساعته في الظلام.

استلقيا على هذا النحو لوقت قصير، على ظهرهما وبدون أن ينظرا إلى بعضهما.

قال:

"لا عيب في ذلك يا مريم، إنه ما يفعله الناس المتزوجون وكان النبي نفسه وزوجاته يفعلون، لا عيب في ذلك"

بعد عدة دقائق، دفع البطانية وغادر الغرفة تاركاً أثر رأسه على وسادتها، بينما ظلّت هي تنتظر أن يخف الألم، لتشاهد النجوم المتجمدة في السماء، والغيوم، مثل خمار الزفاف، تحجب وجه القمر.

الفصل الثاني عشر

أتى شهر رمضان هذه السنة في الخريف من عام ١٩٧٤. لأول مرة في حياتها شاهدت مريم كيف أن رؤية هلال القمر تغير مدينة بأكملها. وتغير إيقاعها ومزاجها. لاحظت السكون الخامل الذي غمر كابول فأصبحت حركة السير بطيئة.. وحتى هادئة. المحلات فارغة والمطاعم أطفئت أنوارها وأغلقت الأبواب.

لم تجد مريم مدخنين في الشوارع ولا كؤوس الشاي على حافات النوافذ. بعد الإفطار عندما تغيب الشمس ويطلق المدفع من جبل شاهير دراوزا تكسر المدينة صيامها، وكذلك مريم، بقطعة خبز و بعض التمر، تتذوق لأول مرة في عمرها حلاوة تقاسم تجربة جماعية.

عدا بعض الأيام القليلة التي لم يراع رشيد الصيام. والمرات القليلة التي فعل، كان يأتي إلى المنزل بمزاج سيء. الجوع يجعله قليل الكلام، سريع الغضب، غير صبور. في إحدى الليالي تأخرت مريم بتجهيز العشاء عدة دقائق فبدأ بأكل الخبز مع الفجل وحتى بعد أن وضعت مريم الأرز ولحم الغنم أمامه لم يلمسه.لم يقل شيئاً وتابع مضغه للخبز وصدغيه يتحركان وعروق جبهته محتقنة. تابع المضغ وهو ينظر إلى الأمام وعندما تكلمت مريم معه نظر إليها دون أن يرى وجهها ووضع قطعة أخرى من الخبز في فمه.

ارتاحت مريم عندما انتهى شهر رمضان.

وحين تعود بذاكرتها إلى الكولبا، وفي الأيام الثلاثة من الاحتفال بعيد الفطر التي تلي شهر رمضان، كان جليل يزورها مرتديا بزة وربطة عنق ومعه هدايا العيد.

في إحدى السنين أعطى مريم وشاحاً صوفياً. وكان الثلاثة يجلسون ويشربون الشاي اعتذر جليل وغادر على عجل.

"آه، ليحتفل بالعيد مع عائلته الحقيقية"

كما قالت نانا.. بينما كان جليلٍ يعبر الجدول ويلوح بيديه.

كان الملا فايز الله يأتي أيضاً ويجلب لمريم ألواح شوكولا مغلفة بورق الألمنيوم، وسلة من البيض المسلوق وكعك. وبعد أن يغادر، تتسلق واحدة من أشجار الصفصاف مع ما حصلت عليه. وتجلس على أعلى غصن تأكل الشوكولا وترمي أوراق التغليف فتتبعثر على جذع الشجرة كالبراعم الفضية. وبعد الشوكولا تبدأ بالكعك، وبقلم رصاص ترسِم وجوه على البيض الذي معها. كل هذه الأمور كانت تمنحها بعضاً من السعادة.

ومع ذلك، كانت مريم تكره العيد، إنه وقت الضيافة والاحتفالات، عندما ترتدي الأسر أفضل ما عندها وتزور بعضها. كانت تتخيل الهواء في هيرات يضج بالصخب، الروح العالية، العيون اللامعة للناس التي تمطر بعضها بالتمنيات والملاطفات. كان إحساس بالإهمال ينزل عليها مثل ستار و يرتفع عندما ينتهي العيد فقط.

هذه السنة ولأول مرة، رأت مريم العيد من خلال تصورات طفولتها.

خرجت هي ورشيد إلى الشوارع. لم تمش مريم أبداً وسط هذا الجو المليء بالحياة وبدون اكتراث للجو البارد خرجت العائلات تملأ المدينة بجولات محمومة لتزور الأقارب.

رأت مريم في شارعهم، فاريبا وابنها نور الذي كان يرتدي بزة في حين أن فاريبا كانت ترتدي وشاحاً أبيضاً، وتمشي بجانب رجل ذو بنية ضئيلة، خجول يرتدي نظارات. كان ابنها الأكبر معها أيضاً - بطريقة ما تذكرت مريم أن فاريبا قالت إن اسمه أحمد وذلك عند الفرن تلك المرة. كانت لديه تلك العيون المفكرة ووجهاً متأملاً يدل على الرزانة أكثر من أخيه الأصغر، وجهاً يدل على النضوج المبكر بينما أخيه كان متأخرا في صبيانيته. وحول عنقه قلادة تتوهج عليها كلمة الله.

لابد أن فاريبا عرفتها وهي تمشي بالبُرْقع بجانب رشيد. لوحت بيدها وقالت:

"عيد مبارك"

أومأت مريم برأسها من داخل البُرقع..

قالِ رشيد:

"إذاً تعرفين تلك المرأة، زوجة المدرس"؟

قالت مريم إنها لا تعرفها.

"من الأفضل أن تبتعدي عنها. إنها امرأة ثرثارة. والزوج بخيل، إنه من النوع المتعلم المثقف. ولكنه فأر. انظري إليه. ألا يبدو كالفأر"؟

ذهبا إلى شاراي ناي، حيث الأولاد يلعبون بقمصان جديدة، وصداري مطرزةٍ ملونة ويتبادلون هدايا العيد.

أما النساء فكن يقدمن صحون الحلوى.

رأت مريم فوانيس الاحتفال في واجهات المحلات. سمعت الموسيقى تصدح من مكبرات الصوت. غرباء يمرون أمامها ويقولون:

"عيد مبارك"

تلك الليلة ذهبا إلى (شامان) وقفت خلف رشيد، تشاهد أضواء الألعاب النارية في السماء. بومضات من الأخضر، الزهري والأصفر. افتقدت الجلوس مع الملّا فايز الله خارج المنزل يراقبان الألعاب النارية تتفجر فوق هيرات من البعيد، الانفجار المفاجئ للألوان ينعكس في عينيّ معلمها المريضتين و الحنونتين. ولكنها افتقدت نانا أكثر. تمنت مريم لو أن أمها لا تزال حية لترى ذلك. لتراها بين كلٍ ذلك.

لترى أخيراً أن الاطمئنان والجمال ليست أموراً مستحيلة، حتى لأشخاص مثلهم.

كان عندهم (زوار عيد) في المنزل. كلهم رجال من أصدقاء رشيد. عندما يدق الباب، تعلم مريم أن عليها الصعود إلى غرفتها وإغلاق الباب وراءها. تبقى هناك بينما الرجال يحتسون الشاي في الأسفل مع

رشيد، يدخنون، يتحدثون. أخبرها رشيد ألا تنزل إلا بعد ذهاب الزوار.

لم تمانع مريم. في الحقيقة كانت تشعر بالإطراء. رشيد يرى قداسة أو حرمة بينهما. شرفهما كان شيء يستحق الحماية. بحمايته له شعرت بأنها جديرة ـ هامة وغالية ـ بالنسبة له.

في اليوم الثالث والأخير للعيد، ذهب رشيد ليزور بعض أصدقائه. كانت معدة مريم مضربة كلّ المساء، غلت بعض الماء وصنعت لنفسها كوباً من الشاي الأخضر مع الهال المطحون. في غرفة المعيشة، اندهشت مريم للفوضى التي خلفتها الليلة الماضية لزيارات العيد. كانت الأكواب مقلوبة، وبذور القرع متوارية بين المفارش، وما تبقى من وجبة الليلة الماضية في الصحون. أخذت مريم تنظف تلك الفوضى، منذهلة بشكل أساسي من قدرة الرجال على الكسل.

لم تقصد الذهاب إلى غرفة رشيد. ولكن التنظيف أخذها من غرفة المعيشة، ثم إلى الردهة في الأعلى ثم إلى غرفته، لم تشعر إلا وهي في غرفته، للمرة الأولى جلست على سريره، شعرت كأنها تجاوزت شيء ما.

ادهشتها الستائر الخضراء الثقيلة، زوج من الأحذية الملمع والموضوع قرب الجدار، باب الخزانة حيث الطلاء الرمادي تقشر وظهر الخشب تحته. لاحظت علبة سجائر على منضدة قريبة من سريره.

وضعت سيجارة بين شفتيها ووقفت أمام المرآة الصغيرة قرب الحائط. نفخت الهواء على المرآة وصنعت دوائر. أعادتها إلى مكانها. لم تر أية لياقة في تدخين نساء كابول. بالنسبة لها كان شيء رديء وأحمق.

فتحت مريم الدرج الأعلى لخزانته وهي تشعر بالذنب، رأت المسدس أولاً، كان اسود اللون مع قبضة خشبية وفوهة قصيرة.

حفظت مريم جيداً الطريقة التي كان موضوعاً بها قبل أن تمسكه. قلبته بين يديها كان أثقل مما بدا. القبضة ناعمة في يدها والفوهة باردة، أزعجها أن يملك رشيد شيئاً لم يكن الهدف منه سوى قتل شخص ما. ولكن بشكل مؤكد قد اقتناه لأجل أمنهما.. أمنها.

تحت المسدس كانت هناك عدة مجلات بزوايا مجعدة. فتحت مريم إحداها فوقع شيء ما بداخلها، فغرت فاها على آخره. كانت هناك في كل صفحة نساء جميلات لا يرتدين قمصان ولا بناطيل و بلا جوارب ولا لباس تحتي. لا يلبسون شيئاً على الإطلاق، يستلقون على أسرّة بين الأغطية، ينظرن إلى مريم بأعين نصف مغمضة. في أغلب الصور كانت سيقانهن مفتوحة وتستطيع مريم أن ترى المنطقة المظلمة بينهما. في البعض صورت النساء كأنهن - الرب يسامح على هذا التفكير - ساجدات للصلاة ينظرن إلى الخلف من فوق أكتافهن بنظرة إغراء. أعادت مريم المجلة بسرعة إلى مكانها. أحست بأنها مخدرة، من هم هؤلاء النسوة؟ كيف يسمحن لأنفسهن أن تلتقط لهم الصور بتلك الطريقة؟ وما هو كلامه عن الشرف والحشمة، رفضه للزبائن من النساء اللواتي كن فقط يظهرن أقدامهن لقياس الأحذية؟ وأن وجه المرأة فقط لزوجها. بالتأكيد أن النساء اللواتي على هذه الصفحات لديهن أزواج، بعضهن على الأقل، لديهن أخوة. إذا كان كذلك، لماذا يصر رشيد على أن تستر نفسها بينما ينظر إلى مناطق خاصة لزوجات وأخوات الآخرين؟!

جلست مريم على سريره محرجة ومحتارة. غطّت وجهها بيديها وأغمضت عينيها. تنفست وتنفست حتى هدأت.

ببطء ظهر تفسير للأمر، إنه رجل قبل كل شيء يعيش وحيداً لسنوات قبل أن أنتقل إلى عنده. حاجاته مختلفة عنها. كانت كل هذه الشهور بالنسبة لها، وكل ارتباطهما، تجربة في تحمّل الألم. كانت شهيته من الناحية الأخرى عنيفة وبعض الأحيان تتجاوز العنف. الطريقة التي يثبتها تحته، العصر القاسي لثدييها وكيف يحرك وركيه بشراسة. إنه رجل قضى كل هذه السنوات بدون امرأة. هل نستطيع أن نلومه على الطبيعة إلتي خلقه الله عليها؟!

عرفت مريم بأنها لا تستطيع أن تحدثه بهذه الأمور.

كانت أشياء لا يمكن ذكرها. ولكن هل هي مغفورة؟ فكرت بالرجل الآخر في حياتها. جليل، زوج لثلاث نساء وأب لتسعة أولاد في الوقت نفسه، وكان لديه علاقة مع نانا خارج الزواج.

أيهما أسوأ، مجلات رشيد أم ما فعله جليل؟ والذي وصمها بكل الحالات على أنها قروية، ابنة حرام، إلى يوم الحساب؟

فتحت مريم الدرج الأسفل للخزانة. وجدت صورة صبي، بالأبيض والأسود، بدا في الرابعة أو الخامسة. كان يرتدي قميصاً مخططاً مع ربطة عنق. صبي صغير وسيم مع أنف رشيق، وشعر بني وعيون لامعة. كان يبدو مأخوذاً، شيء ما لفت نظره بينما الكاميرا تلتقط الصورة.

قرب الصورة وجدت مريم صورة أخرى، بالأبيض والأسود أيضاً، كانت هذه الصورة لطيفة، امرأة جالسة وخلفها رشيد أنحف وأصغر وبشعر أسود، كانت امرأة جميلة، ليست جميلة بقدر فتيات المجلة، ولكنها جميلة. وبالتأكيد أجمل منها. لديها ذقناً ناعمة وطويلة، شعر أسود مفروق من المنتصف. ووجنتان عاليتان وجبهة لطيفة، تخيلت مريم وجهها. شفاهها الرقيقة وذقنها الطويلة، فأحست برجفة من الغيرة.

نظرت إلى الصورة طويلاً. كان هناك شيء مبهم وغير واضح حول الطريقة التي بدا رشيد فيها يخيم على المرأة. يبتسم ويداه على كتفيها، وجهها المتجهم، طريقة انحناء جسدها إلى الأمام كأنها تحاول التملص من بين يديه.

أعادت مريم كل شيء إلى مكانه.

فيما بعد، عندما كانت تغسل الثياب ندمت لأنها تسللت وبحثت في غرفته، من أجل ماذا؟ ما الشيء الذي عرفته عنه؟ بأنه يملك مسدس، وأنه رجل له احتياجاته؟ كان يجب ألا تنظر مطولاً كما فعلت. قرأت عيناها المغزى. وضعية الجسد العشوائية التي التقطت في لحظة. ما الذي أحست به مريم الآن، بينما حبال الغسيل تتدلى بثقل أمامها، كان الحزن يبدو على رشيد، هو أيضاً يعاني من حياة قاسية،

حياة فيها خسارة وحزن من تقلبات القدر. عادت أفكارها إلى ابنه يونس الذي صنع مرة رجل ثلج في هذه الباحة وارتقى نفس هذه الدرجات. خطفته البحيرة من رشيد وابتلعته، كما ابتلع الحوت النبي الذي له نفس الاسم في القرآن. لقد آلم ذلك مريم ـ إلى حد كبير ـ أن تتصور حالةِ الفزع التي أصابت رشيد وعجزه وهو يذرع ضفاف البحيرة آملاً أن تلفظ ابنه إلى اليابسة. شعرتِ لأولٍ مرة بارتباط مع زوجها. وقالت لنفسها بأنهما سيكونان ثنائياً جيداً بالرغم من كل شيء.

الفصل الثالث عشر

حدث أغرب شيء لمريم وهي عائدة برفقة رشيد إلى المنزل بالباص، من عند الطبيب. في كل مكان تنظر إليه كانت ترى ألوان براقة: في الشقة الإسمنتية ذات اللون الرمادي الباهت، وعلى السطح الصفيحي، على واجهات المحلات الأمامية، وفي الماء الموحل الذي يفيض من المزاريب. وكأن قوس قزح قد ذاب في عينيها.

كان رشيد يرتدي قفازات وينقر بأصابعه وهو يدندن بأغنية. في كل مرة كان الباص يعلق في حفرة ثم يندفع إلى الأمام فإن يده كانت ترتفع إلى بطنها للحماية... قال لها وهو يحمي بطنها بيده:

"ماذا عن زلماي"؟!.. ثم أردف:

"إنه اسم باشتوني جيد"

"ولكن ماذا لو كانت فتاة"؟

"أظن أنه صبي.. نعم صبي"

علت الهمهمات في الباص، كان بعض المسافرين يشيرون إلى شيء وبعضهم ينحنون في مقاعدهم ليروا.

"انظري".. قال رشيد مبتسماً، وهو ينقر بمفصل إصبعه على الزجاج. "هناك.. هل ترين"؟

في الشارع، رأت مريم الناس يتوقفون على آثار أقدامهم. وعند الإشارات الضوئية تمتد الوجوه من السيارات وتستدير إلى الأعلى باتجاه السقوط الناعم. كان الانهمار الأول للثلج، تعجبت مريم لقد كان ساحراً جداً؟ ما هي الفرصة لترى شيئاً لم يلوث بعد، لم تطأه قدم؟ أن تلتقط الأثر الذي يختفي سريعاً لموسم جديد، بداية جميلة قبل أن يداس بالأقدام ويصبح غير نقي؟

"إذا كانت فتاة".. قال رشيد ثم أردف:

"وهي ليست كذلك، ولكن إذا كانت فتاة عندها تستطيعين أن تختاري الاسم الذي تريدين"

أفاقت مريم في الصباح التالي على صوت طرق ونشر. وضعت شالاً على كتفيها، وخرجت إلى الباحة التي تغطيها الثلوج. كان السقوط الكثيف للثلج ليلة البارحة قد توقف، فقط بعض ندف الثلج الخفيف يلامس وجنتيها. كان الهواء غير عاصف ولكن رائحته كالفحم المحترق. كانت كابول ساكنة بشكل مخيف، تلتحف البياض، وخيوط من الدخان تتلوى هنا وهناك.

وجدت رشيد في الورشة يثبت المسامير في قطعة خشبية، وعندما رآها نزع مسمار من حافة فمه.

"كان يجب أن تكون مفاجأة، إنه بحاجة إلى سرير لم يكن عليك رؤيته حتى ينتهي"

تمنت مريم أن لا يقوم بذلك، ألا يعلق آماله على أنه صبي. كانت سعيدة جداً بهذا الحمل ولكن توقعاته كانت ثقيلة عليها.

البارحة غادر رشيد المنزل وعاد بمعطف شتوي أبيض من "الشمواه" للصبي، مغطى داخله بجلد خروف ناعم، كانت الأكمام مطرزة بخيوط حمراء وصفراء من الحرير.

رفع رشيد اللوح الطويل الضيق وبينما كان ينشره بالمنتصف قال بأن الدرجات تقلقه.

"يجب أن نفعل شيء ما لتلك الدرجات عندما يصبح كبيراً بما يكفي ليتسلق".

قال أن الموقد يقلقه أيضاً. السكاكين والشوك يجب أن تُبعد لمكان ما عن المتناول.

"إذا لم تكنِ حذرة فإن الصبية مخلوقات متهورة. لفت مريم الشال عليها لتحمي نفسها من البرد.

في الصباح التالي قال رشيد أنه يريد أن يدعو أصدقاءه للعشاء من اجل الاحتفال.

كل فترة الصباح ومريم تنقي العدس وتنقع الأرز. تقطع الباذنجان من أجل "البوراني" وتطبخ الكراث مع لحم البقر من أجل "أوشاك". نظفت الأرض ونفضت الغبار عن الستائر وفتحت النوافذ لتهوية المنزل على الرغم من الثلج الذي بدأ بالتساقط ثانية. رتبت الفرش ووضعت الوسائد على طول حائط غرفة المعيشة، وضعت صحون من الحلوى واللوز المحمص على الطاولة. كانت في غرفتها منذ المساء الباكر قبل أن يصل أول الرجال. استلقت على السرير بينما كانت أصوات الضحك والصيحات والهزل قد بدأت بالتصاعد في الأسفل.لم تستطع منع يديها من أن تنساب على بطنها. فكرت بالذي ينمو في داخلها وتدفقت السعادة بسرعة مثل هبة ريح تعصف بباب مفتوح. فدمعت عيناها.

فكرت مريم برحلتها مع رشيد التي استغرقت ستمائة وخمسين كيلو متر، من هيرات في الغرب قرب الحدود الإيرانية إلى كابول في الشرق. لقد مرا بمدن صغيرة ومدن كبيرة، مجموعة القرى التي كانت تظهر الواحدة تلو الأخرى، قطعا الجبال عبرا الصحراء المحترقة، من إقليم إلى إقليم. وها هي هنا الآن بعد كل تلك الصخور والتلال في منزل يخصها، باتجاه إقليم أخير تعتز به: الأمومة. كم من الممتع التفكير بهذا الجنين، جنينها، جنينهما. كم من الرائع أن تعلم أن حبها له قد قزّم أي شيء شعرت به مطلقاً كإنسانة، أن تعلم أنه لا حاجة بعد الآن للعب بالحصى.

في الأسفل كان أحد ما يضبط آلة الهرمونيوم ثم دق لضبط إيقاع الطبلة شخص ما تنحنح وبعد ذلك كان هناك صفير وتصفيق ثم غناء.

مررت مريم يدها على بطنها الناعم. ليس أكبر من ظفر الأصبع، قال الطبيب. فكرت "سأصبح أماً"..

"سأصبح أماً".. قالت ذلك بصوت مسموع، ثم ضحكت لنفسها وكررتها مراراً و مراراً متلذذة بالكلمات.

عندما تفكر مريم بهذا الجنين ، يكبر قلبها.. ويكبر، وتختفي كل الخسارة، الحزن، كل الوحدة والغياب من حياتها.

من أجل ذلك قدرّ الله لها أن تكون هنا عبر كل تلك المدن. أدركت ذلك الآن.

تذكرت مقطع من القرآن كان الملا فايز الله قد علمها إياه: "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله إنّ الله واسع عليم. "ثم ركعت على سجادة صلاتها وصلّت وعندما انتهت فتحت يديها أمام وجهها وسألت الله أن لا يبعد هذا الحظ الجيد عنها.

كانت فكرة رشيد أن تذهب إلى الحمام. لم تذهب مريم أبداً إلى حمام السوق ولكنه قال لها ليس هناك أفضل من الخروج وأن تتنفسي النسيم الأول للجو البارد، الإحساس بالحر ينبعث من الجلد.

في حمام السيدات، ومن خلال البخار الذي يحيط بمريم كانت هناك أشكال تتحرك، لمحة لورك هنا، و أكتاف هناك. صرخات الفتيات الشابات وصوت النساء المسنات، صدى صوت ماء الحمام بين الجدران بينما الظهور تُفرك ويُغسل الشعر بالصابون.

جلست مريم في الزاوية البعيدة لوحدها، تنظف عقب قدميها بحجر خاص. معزولة بجدار من البخار عن الأشكال التي تمر.

ثم كان هناك دماء وكانت مريم تصرخ عالياً!!

صوت الأقدام الآن ،تدق على الأرض المرصوفة والمبللة، وجوه تحدق إليها من خلال البخار. والألسن تطقطق.

لاحقاً في تلك الليلة، أخبرت فاريبا زوجها في السرير بأنها عندما سمعت الصرخة واندفعت لتجد زوجة رشيد ذابلة في الزاوية، تحتضن ركبتيها وبركة من الدماء عند قدميها.

"تستطيع أن تسمع صوت اصطكاك أسنان تلك الفتاة المسكينة، حكيم، كانت ترتجف بشدة"

عندما رأتها مريم، قالت فاريبا، سألت بصوت متضرع عال، إنه شيء طبيعي أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس طبيعياً؟

رحلة ثانية بالباص مع رشيد. تثلج ثانية، كان تساقط الثلوج كثيفاً هذه المرة، وكان يتجمع بأكوام على جانبي الطريق، على الأسطح، يتجمع على شكل بقع على لحاء الأشجار المبعثرة.

شاهدت مريم التجار يبعدون الثلج من أمام متاجرهم. مجموعة من الأولاد تلاحق كلباً أسود اللون. لوحوا بحيوية للباص. نظرت مريم إلى رشيد الذي كانت عيناه مغمضتان. لم يكن يهمهم. أسندت رأسها وأغمضت عينيها أيضاً.

رغبت أن تتخلص من جواربها الباردة ومن كنزتها الصوفية الرطبة التي تنخز جلدها. تمنت أن تغادر هذا الباص.

في المنزل غطاها رشيد بلحاف عندما استلقت على الكنبة، ولكن كان هناك إحساس جامد وغير مكترث خلف تلك البادرة.

"ما نوع هذا الجواب"؟

قال ذلك مرة ثانية: "هذا ما يقوله الشيخ. لقد دفعت للطبيب أجرته تريدين جواباً أفضل من ذلك إنها إرادة الله"..

طوت مريم ركبتيها تحت اللحاف وقالت إن عليه أن يأخذ قسطاً من الراحة.

"إرادة الله" كان يجيش غضباً.

بقي في غرفته طوال اليوم وهو يدخن السجائر.

بينما استلقت مريم على الكنبة ويديها بين ركبتيها، تراقب دوامة الثلج المتسارعة وهي تعصف خارج النافذة. تذكرت نانا وهي تقول مرة بأن كل ندفة ثلج هي تنهيدة ثقيلة من امرأة محزونة في مكان ما في العالم. كل تلك التنهيدات التي تنساق باتجاه السماء تتجمع في الغيوم ثم تتساقط بهدوء على شكل قطع صغيرة على الناس.

إنه تذكير بالنساء اللواتي يعانين مثلنا، كيف نتحمل بصمت كل الذي يقع على كاهلنا.

الفصل الرابع عشر

ما زال الألم يفاجئ مريم. ألم كان يحركه تفكيرها بالسرير غير المنتهي في الورشة أو بمعطف الشمواه في خزانة رشيد. لقد أتى الجنين إلى الحياة إذاً ولم تستطع أن تسمعه، ولم تستطع أن تسمع أصوات جوعه، غرغرته وثرثرته. أحست به يتشمم ثدييها. غمرها الحزن واكتسحها، وقذف بها رأساً على عقب. كانت مريم مندهشة من أنها قد تضيع في هذه الحالة التي لم تشهد لها مثيلاً.

ثم كانت هناك أيام، لم يكن الضيق يبدو شديداً لمريم، أيام كان كل تفكيرها، كيف تستعيد نموذج حياتها القديم، بدا ذلك مجهداً جداً.

عندما لم يكن يأخذ منها مجهوداً كبيراً أن تقوم من سريرها، تقوم بصلواتها، تنظف، تصنع وجبة طعام لرشيد.

كانت مريم خائفة من الخروج. فجأة أصبحت تحسد جاراتها لامتلاكهن الأطفال. البعض لديهن سبعة أو ثمانية ولا يعرفن كم هن محظوظات، منعمات، بنمو الأولاد في أرحامهن، ويعيشون ليتحركوا بين أياديهن ويشربون الحليب من أثدائهن.

أطفال لا ينزلقون بالدماء مع الصابون والماء وقذارة أجساد الغرباء إلى مصرف الحمام. كانت مريم تستاء منهن عندما يتذمرن حول تصرف أبنائهن وكسل بناتهن.

صوت داخل رأسها حاول تهدئتها بنيّة حسنة ولكنه لم يكن يعزيها:

"سوف تحصلين على أولاد آخرين، إن شاء الله. ما زلت شابة. بالتأكيد ستحصلين على فرص كثيرة"

لكن حزن مريم دون قصد أو تحديد. حزنت مريم على هذا الطفل، هذا الطفل بالذات، الذي جعلها سعيدة لبعض الوقت.

في بعض الأيام: اعتقدت أن الطفل نعمة لا تستحقها، وبأنها تعاقب لما فعلته لنانا، ألم يكن صحيحاً بأنها ربما تكون، بما قامت به، هي من وضعت الأنشوطة حول عنق أمها بنفسها؟! وأن البنات الخائنات لا يستحققن أن يصبحن أمهات، وأن هذا عقابٍ فقط. كوابيس متقطعة تأتيها عن جنيّ نانا وهو يتسلل إلى غرفتها ليلاً، ويحفر مخالبهِ في رحمها ويسرق طفلها. في تلك الكوابيس كانت نانا تقهقه بهجة وانتقام.

في أيام أخرى، كانت مريم محاصرة بالغضب. لقد كانت غلطةِ رشيد بسبب احتفاله الأحمق. بسبب إيمانه الأكيد بأنها تحمل صبياً. تسميته للطفل وكأنه موجود. وأخذه لإرادة الله على أنها منحة. غلطته، لأنه جعلها تذهب إلى الحمام، شيء ما هناك، البخار، المياه القذرة، الصابون، شيء ما هناك كان السبب في ذلك. لا ليست غلطة رشيد. هي من يجب أن تلام. أصبحت قاسية مع نفسها لأنها كانت تنام على الجانب الخاطىء، لأكلها وجبات كثيرة البهارات، لعدم أكلها ما يكفي من الفواكه، وشربها الكثير من الشاي.

إنها غلطة الله بمعاقبتها كما فعل. لعدم منحه إياها ما منحه للكثير من النساء الأخريات. سقوط جنينها أمامها. بعد أن وعدها بالأمنيات، يعلم الله بأنه كان سيمنحها السعادة الكبرى، لكنه أخذه بعيداً.

بدا تفكيرها ليس جيداً، كل تلك الأخطاء الكاذبة، كل هذه المصائب والاتهامات التي تدور في رأسها. أن تفكرِ بكل تلك الأفكار، هو كفر وتدنيس للمقدسات. إن الله ليس حقوداً. وإن الله ليس ضيق الأفق، طرق كلام الملا فايز الله رأسها:

بإحساس بالذنب ستسجد مريم على ركبتيها وتصلي من أجل الغفران عن هذه الأفكار.

لقد طرأ تغيير على رشيد منذ ذلك اليوم في الحمام، أغلب الليالي عندما يعود إلى المنزل، بالكاد يتكلم، يأكل، يدخن، ويذهب إلى السرير، ثم يعود في منتصف الليل لعملية قصيرة وسريعة وخشنة مع

مريم. كان مستاءً، ينتقد طبخها، ويتذمر من الفوضى في الباحة أو يشير إلى أصغر تقصير في عدم نظافة المنزل.

من حين إلى آخر كان يأخذها بجولة حول المدينة في أيام الجمعة كما أعتاد أن يفعل، لكنه كان يمشي على الرصيف بسرعة ودائماً متقدماً عليها بعدة خطوات دون كلام، غير مكترثٍ لمريم التي كانت على الأغلب تركض لتبقى معه. لم يعد مستعداً للضحك بعد الآن في نزهتهما.لم يعد يشتري لها الحلوى أو الهدايا،لم يتوقف ليسمي لها الأماكن كما اعتاد أن يفعل، وبدا أن أسئلتها تغضبه حقاً.

في إحدى الليالي وبينما كانا يجلسان في غرفة المعيشة ويستمعان إلى الراديو. كان الشتاء قد رحل، والرياح القاسية التي كانت تجمد الوجه وتجعل العيون تدمع قد هدأت. أما الثلج فقد ذاب عن أغصان شجر الدردار وظهر وبر فضي. وبعد عدة أسابيع ستحل محله براعم شاحبة وصغيرة.

كان رشيد يهز رجليه بشرود مع إيقاع الطبلة في أغنية "هاماهانغ" وكانت عيناه تطرفان من دخان السيجارة .

"هل أنت غاضب مني"؟.. قالت مريم.

لم يقل رشيد شيئاً. انتهت الأغنية وبدأت الأخبار. كان صوت امرأة يتحدث بأن الرئيس داود خان قد أعاد مجموعة أخرى من المستشارين السوفييت إلى موسكو ومن المتوقع أن يتضايق الكرملين.

"إنني قلقة من أن تكون غاضبا مني"

تنهد رشيد.

"هل أنت كذلك"؟

تحولت عيناه نحوها.. وقال:

"لماذا يجب أن أكون غاضباً"؟

"لا أعلم ولكن منذ الطفل..."

"هل تظنين أنني هكذا، بعد كل شيء فعلته لأجلك"؟

"لا بالطبع.. لا"

"إذاً كفي عن مضايقتي"!!

"أنا آسفة رشيد.. أنا آسفة"

أطفأ سيجارته وأشعل أخرى. ثم أدار مفتاح الصوت في الراديو عالياً.

"لقد كنت أفكر، مع ذلك".. قالت مريم رافعةً صوتها ليتغلب على صوت الموسيقى.

تنهد رشيد مرة أخرى هذه المرة بغضب أكبر، أخفض صوت الراديو وربت على جبهته بضجر.

"ماذا الآن"؟

"كنت أفكر أنه يجب أن ندفن الجنين بشكل ملائم. من أجل الجنين أقصد. نحن فقط، بضعة صلوات لا أكثر"

كانت مريم تفكر بذلك منذ وقت. لا تريد أن تنسى الجنين. لا يبدو صحيحاً أن لا تترك أثر لهذه الخسارة لأن ذلك باقٍ.

"لماذا؟!.. إنه شيء سخيف"

"سيريحني ذلك، كما أظن"

"إذاً قومي بذلكِ وحدك" قال بحدة.. ثم أردف:

لقد دفنت ابناً، لا أريد أن أدفن آخر الآن، إذا لم يكن لديك مانع أنا أسمع".

أدار مفتاح الصوت عالياً مرة أخرى، وأرجع رأسه إلى الوراء ثم أغمض عيناه.

في إحدى الأيام المشمسة من ذلك الأسبوع، انتقت مريم بقعة من الباحة وحفرت حفرة.

"بسم الله و بسم الله وبسم رسل الله عليهم سلام الله وبركاته"

قالت ذلك وهي تلهث بينما كانت مجرفتها تحفر في الأرض. وضعت معطف الشمواه الذي جلبه رشيد للجنين في الحفرة وأهالت عليه التراب.

"تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب"

مهدت التراب بالمجرفة. قرفصت بجانب كومة التراب، وأغمضت عينيها.

أرزق يا الله.

أرزقني.

الفصل الخامس عشر

في عام ١٩٧٨ وفي السابع عشر من نيسان، في السنة التي أصبح فيها عمر مريم تسعة عشر عاماً. وجد رجل اسمه مير أكبر خيبر مقتولاً. بعد يومين، كان هناك مظاهرة كبيرة في كابول، كل شخص في الجوار كان يتكلم عن ذلك. من خلال النافذة، رأت الجيران يتحركون باضطراب، وسمعتهم يتحدثون بإثارة، أجهزة الراديو "الترانزستور" ملتصقة بأذانهم. شاهدت فاريبا تتكىء على جدار منزلها تتكلم مع امرأة جديدة على ديه مازانغ. كانت تبتسم وراحتيها تضغطان على بطنها المنتفخ. المرأة الأخرى التي نسيت مريم اسمها بدت أكبر من فاريبا، شعرها ملون بخصلات أرجوانية إضافية، كانت تمسك بيد طفل. علمت مريم أن اسم الطفل طارق، فلقد سمعتها وهي تنادي عليه.

لم ينضم رشيد ومريم إلى الجيران. استمعا إلى الراديو بينما نزل المئات من الناس إلى الشوارع وجالوا في منطقة كابول الحكومية.

قال رشيد إن مير أكبر خيبر كان شيوعياً ذا شأن رفيع، وإن مؤيديه يلقون الجريمة على عاتق حكومة الرئيس داوود خان. لم ينظر إليها عندما قال ذلك. هذه الأيام لم يكن ينظر إليها ولم تكن مريم متأكدة إذا كان يتكلم معها.. حتى.

سألت: "ما معنى شيوعي"؟

زفر رشيد ورفع حاجبيه.. ثم قال:

"لا تعرفي ما معنى شيوعي؟ هذا الشيء البسيط، كل شخص يعرف ذلك. إنها فكرةٍ عامة و أنت لا...لا أدري لماذا أنا متفاجىء "!!

وضع رجلاً فوق رجل على الطاولة وتمتم بأنه شخص ما يؤمن بكارل ماركس؟

"من هو كارل ماركس"؟

تنهد رشيد.

في الراديو، كان صوت امرأة يقول أن طاريقي، قائد قسم خلق من PDPA، الحزب الشيوعي الأفغاني، كان في الشوارع يلقي خطابات حماسية للمتظاهرين.

"الذي أعنيه، ما الذي يريدونه"؟.. سألت مريم ثم أردفت:

"هؤلاء الشيوعيين بماذا يعتقدون"؟

هز رشيد برأسه، ظنت مريم أنها رأت عدم تأكد من الطريقة التي شبك فيها يديه ومن الطرِيقة التي حوّل عينيه عنها.

"إنك لا تعلمين شيئاً، تعلمين؟ إنك كطفلة، دماغك فارغ لا توجد فيه معلومات"

"إنني أسأل لأن ..."

"تشوب كو*.."

ففعلت مريم.

لم يكن من السهل أن تتحمل الطريقة التي يتكلم بها معها، احتقاره لها، إهاناته وسخريته منها. أن يمر بجانبها كأنها لا شيء أو كأنها قطة في المنزل. لكن بعد أربع سنوات من الزواج، رأت مريم بوضوح كم يمكن لامرأة أن تتحمل عندما تكون خائفة. وكانت مريم خائفة حقاً، من طباعه المتقلبة، مزاجه العنيف، إصراره على الحيوانية، حتى المشاجرات التافهة التي تحدث في المواجهات الضرورية بينهما، كان يحلها باللكمات، الصفعات، الرفسات. وأحياناً يصلح الوضع باعتذار قذر وأحياناً دون أي شيء.

خلال أربع سنوات منذ حادثة الحمام، كان هناك ستة دورات بعثت الآمال وتحطمت، كل خسارة، وكل انهيار، كل رحلة إلى الطبيب، كانت تحطم مريم أكثر من الأخرى. ومع كل خيبة أمل، يبتعد رشيد أكثر، ويصبح أكثر استياءً، لا شيء يمكنها فعله كي تسعده، كانت تنظف المنزل، وتحرص على أن يكون لديه قمصاناً احتياطيةً نظيفة، وتطبخ له أطباقه المفضلة.

---

* اخرسي.

في إحدى المرات، قامت بوضع المكياج على وجهها لأجله. فعلت ذلك بقرف، لكنه حين عاد إلى المنزل، نظر إليها بنفور كبير لدرجة أنها أسرعت إلى الحمام وغسلته كله، دموع الخجل تمتزج مع الماء و الصابون وأحمر الشفاه والماسكارا.

أصبحت تفزع من صوت قدومه إلى المنزل في المساء. من فتح القفل، وصرير الباب، هذه الأصوات كانت تجعل قلبها ينتفض.

كانت تصغي إلى وقع حذائه. إلى صوت خطى أقدامه المتثاقلة بعد أن يخلع حذاءه، من خلال إصغائها، داخل السرير، كانت تعلم بما يفعله: صوت أرجل الكرسي تُجر على الأرضية، الصرير الكئيب للمقعد حين يجلس، صوت قرقعة الملعقة في الصحن، صوت تصفح الجريدة عندما يقلب صفحاتها، صوت انسكاب الماء. وبينما قلبها يثب، يتساءل عقلها عن العذر الذي سيستخدمه هذه الليلة لينقض عليها. هناك شيء ما دائماً، شيء تافه سيغضبه، بغض النظر عما قد تفعله لتسعده، وبغض النظر عن رضوخها لحاجاته وأوامره، لم يكن كافياً. فهي لم تعد إليه ابنه. لقد خذلته ـ خذلته سبع مرات ـ وهي الآن لا شيء، سوى أنها عبء عليه. كانت تستطيع أن ترى ذلك من الطريقة التي ينظر إليها، عندما ينظر إليها. كانت عبئاً عليه.. ليس إلا.

سألته: "ما الذي سيحدث"؟..

نظر إليها بزاوية عينه وأصدر صوتاً بين التنهيد والأنين، ثم أنزل قدميه عن الطاولة وأطفأ الراديو. أخذه معه إلى غرفته وأغلق الباب.

في السابع والعشرين من شهر نيسان أجيب عن سؤال مريم بأصوات حادة وقوية، صرخات مباغتة. ركضت حافية القدمين إلى غرفة المعيشة فوجدت رشيد عند النافذة بقميصه الداخلي، شعره مشعث، يضغط على الزجاج براحتي يديه، مشت باتجاه النافذة ووقفت بجانبه.

في الأعلى استطاعت أن ترى الطائرات الحربية تحلق متجهة نحو الشرق. أصواتها آذت أذنيها. في البعيد، دوي قصف شديد وخيوط دخان مفاجئة ارتفعت إلى السماء.

قالت:

"ما الذي يحدث، رشيد؟ ما كل هذا"؟!

"الله أعلم" تمتم بذلك وهو يجرب تشغيل الراديو.. ولكن لا شيء إلا السكون.

"ما الذي سنفعله"؟

بنفاذ صبر قال رشيد: "ننتظر..."

لاحقاً في النهار، كان رشيد يحاول أن يشغّل الراديو، بينما كانت مريم تعد الأرز وصلصة السبانخ في المطبخ.

تذكرت عندما كانت تستمتع بالطبخ لرشيد. الآن الطبخ هو تمرين لانشغال البال. كان "القرمز" دائماً مالحا أو خفيفاً على مذاقه، أما الأرز فكان يحكم عليه بأنه مدهن جداً أو ناشف جداً، أو أن الخبز مازال عجيناً أو أنه هش جداً، محاولات رشيد في إيجاد الأخطاء تركتها مذعورة في المطبخ مع عدم ثقة بالنفس.

عندما جلبت له صحنه كان النشيد الوطني يذاع في الراديو.

قالت: "لقد أعددت (سابزي)"

"ضعيه وكوني هادئة"

انتهت الموسيقى، وبدأ رجل الحديث من خلال الراديو، عرّف عن نفسه بأنه الكولونيل في القوات الجوية (عبدول قادر).. قال إنه في الصباح الباكر احتلت القوة المدرعة الرابعة، المطار والمراكز الهامة في المدينة مثل راديو كابول، وزارتي الاتصالات والداخلية، مبنى وزارة الخارجية".. ثم أردف بفخر: "كابول بيد الشعب.. الآن، لقد هاجمت طائراتنا القصر الرئاسي وأحرقت الدبابات في محيطه، حيث دارت هناك معركة شرسة"

ثم أعلن عبدول قادر بلهجة تأكيديَّة:

"لقد استسلمت القوات الخاصة التابعة لداوود"

بعد عدة أيام، بدأ الشيوعيون القيام بإعدامات عاجلة، في صفوف المرتبطين بنظام داوود. وبدأت أيضاً، الإشاعات تعم كابول حول العيون التي تفقأ والأعضاء التي تكهرب في سجن (بول - إي -

تشاركي).. وسمعت مريم عن المذبحة التي حدثت في القصر الرئاسي. لقد قتل داوود خان، بعد أن قتل الشيوعيون المتمردون عشرين فرداً من عائلته، من ضمنهم نساء وأحفاد. كان هناك إشاعات بأنه أطلق النار على نفسه، وإشاعات أخرى تؤكد بأنه قُنصَ في المعركة، في حين ذهبت بعض الإشاعات إلى أنه أعدم بعد رؤيته لمذبحة عائلته.

أدار رشيد مفتاح الصوت واقترب أكثر من الراديو:

"مجلس الثورة للقوات المسلحة يعلن أن وطننا سيعرف من الآن فصاعداً بجمهورية أفغانستان الديمقراطية".. كان صوت عبدول قادر الذي أردف:

"لقد ولى عهد الارستقراطية و المحاباة وعدم المساواة، أخوتي المواطنون، لقد أنهينا عقوداً من الطغيان. القوة الآن في أيدي الجماهير، ووطن الحرية نهض من جديد.. لقد ولدت أفغانستان جديدة. نؤكد لكم بأنه ليس هناك شيء تخافونه، يا شعب أفغانستان إن النظام الجديد سيولي أكبر الاحترام للمبادئ الإسلامية والمبادئ الديمقراطية. إنه وقت الابتهاج والاحتفال"

أطفأ رشيد الراديو.. دون تعليق.

سألت مريم: "إذاً، هل هذا جيد أم سيء"؟

"سيء للأغنياء.. كما يبدو" ثم أردف: "ربما ليس سيئاً كثيراً لنا"

آنذاك اتجهت أفكار مريم إلى جليل. وتساءلت إذا كان الشيوعيون يلاحقونه، هل سيسجنونه؟

يسجنون أبناءه؟ يأخذون أعماله وممتلكاته منه؟

"هل هو ساخن"؟ سأل رشيد وهو ينظر إلى الأرز.

"لقد سكبته الآن"

جلس، وطلب أن تناوله الصحن.

في الشارع: أضاء الليل بشكل مفاجئ باللونين الأحمر والأصفر، أسندت فاريبا المنهكة نفسها على مرفقيها. كان شعرها متشابك ومجعد.. وقطرات من العرق على شفتها العليا.

بجانبها، كانت القابلة المسنّة تراقب بينما كان الزوج وأبناؤه يحومون حول الرضيعة. كانوا مذهولين من شعر الرضيعة الفاتح، ووجنتيها الزهريتين وشفتيها المزموتين.

عيناها الخضراوان كحجر اليشب، تتحركان خلف الأجفان المنتفخة، ضحكوا لبعضهم البعض عندما سمعوا صوتها للمرة الأولى، بكاء بدأ كمواء القطة ثم انفجر في صراخ صحي من كامل الحنجرة.

قال نور: "إن عينيها تشبهان الحجارة الكريمة". لكن أحمد الذي كان أكثر عضو متدين في الأسرة، همس بالآذان في أذن أخته الرضيعة ونفخ في وجهها ثلاث مرات.

"إنها ليلى، إذاً"؟ سأل حكيم وهو يحرك القماط الذي يلف الرضيعة.

"إنها ليلى".. قالت فاريبا وهي تبتسم بتعب.

"الجمال النائم أليس مثالياً"؟

صنع رشيد كرة من الأرز بأصابعه ووضعها في فمه ومضغها مرة وأخرى ثم كشّر وبصقها على المائدة.

سألته مريم: "ما المشكلة"؟ وكانت تشعر بالاشمئزاز من لهجة الاعتذار في صوتها، شعرت بأن نبضها يتسارع وجلدها يرتجف.

"ما المشكلة"؟!! قال ذلك وهو يقلدها..

"ما المشكلة، المشكلة هي أنك فعلتها مرة أخرى"

"ولكنني غليته خمس دقائق أكثر من المعتاد"!

"غليته أكثر، هذا كذب.."

"أقسم ...."

نفض الأرز من أصابعه وأبعد الصحن، وسكب الصلصة ووعاء الأرز على المائدة.

ثم خرج بشكل عاصف من غرفة المعيشة، ثم إلى خارج المنزل. وأغلق الباب بعنف..

ركعت مريم على الأرض وحاولت أن تلتقط الأرز وتعيده إلى الصحن، كانت يداها ترتجفان بشكلٍ سيءٍ، وكان عليها أن تنتظرهما حتى يسكنان، حاولت أن تأخذ نفساً عميقاً. التقطت انعكاس صورتها الشاحب من نافذة المعيشة المعتمة ونظرت إلى البعيد.

ثم سمعت الباب الأمامي يفتح، كان رشيد يعود إلى غرفة المعيشة.

قال: "انهضي.. تعالي إلى هنا، هيا انهضي"

أمسك يدها وملأها بالحصى.

"ضعيهم في فمك"

"ماذا"؟!

"ضعي ذلك، في فمك"

"توقف عن ذلك، رشيد، أنا...."

بيديه القويتين أمسك بفكها. ثم وضع أصابعه في فمها، وفتحه، ودفع الحصى البارد إلى داخله. كانت مريم تكافح ضده، ولكنه استمر بدفع الحصى مهمهماً. وشفته العليا تتجعد بسخرية... قال:

"الآن امضغي"

من خلال الفم المليء بالحصى وحبيبات الرمل تمتمت مريم التماس المساعدة. الدموع كانت تتجمع في زاويتي عينيها.

"امضغي"! صاح بملء فمه، وهو ينفخ بنفَسِه المزوج برائحة الدخان، ويصفعها على وجهها.

مضغت مريم. شيء ما في فمها تهشّم.

كانت وجنتاه ترجفان وهو يقول: "جيد"... ثم أردف:

"الآن تعلمين ما مذاق الأرز. الآن تعلمين ماذا أعطيتني بهذا الزواج. طعام سيء ولا شيءٍ آخر"

ثم خرج، تاركاً مريم تبصق الحصى، الدماء، وكسرات لاثنين من أضراسها.

القسم الثاني

الفصل السادس عشر

نهضت ليلى ذات التسعة أعوام من السرير، مشتاقة لترى صديقها طارق، ولكنها كانت تعلم بأنها لن تراه.

أخبرها طارق بأن أهله سيأخذونه إلى الشمال، إلى مدينة (غازني) لزيارة عمه. فسألته: "إلى متى ستبقى هناك"؟

"ثلاثة عشر يوماً"

"ثلاثة عشر يوماً"؟!

"ليست بالمدة الطويلة، ها أنت تعبسين، ليلى.."

"لست كذلك"

"لن تبكي، أليس كذلك"؟

"لن أبكي عليك ولا بمئة عام"!!

ضربته بقدمها على ساقه السليمة متجنبة ساقه الاصطناعية، وضربها بلهو على مؤخرة رأسها.

ثلاثة عشر يوماً. أسبوعان تقريباً. تعلمت ليلى شيئاً أساسياً، الوقت "كالأكورديون" الذي يعزف عليه والد طارق في بعض الأحيان، أغاني الباشتو، إن الوقت يمتد أو ينكمش اعتماداً على غياب أو حضور طارق.

في الأسفل، كان والداها يتشاجران مرة أخرى. كانت ليلى تعلم الروتين.

مامي شرسة، لا تهزم. غير مسالمة وصاخبة، بابي: جالساً يبدو مذهولاً وبخجل، يومئ برأسه دلالة الطاعة، منتظراً أن تمر العاصفة. أغلقت ليلى الباب وبدلت ملابسها. ولكنها ما زالت تستطيع سماعهما.. مازالت تستطيع سماع صوت مامي!!

أخيراً صفق الباب بعنف. وأصوات أقدام. صر سرير الأم عالياً. بدا أن بابي نجا ليشاهد يوماً آخر!!

"ليلى، سأتأخر عن العمل"!

"دقيقة واحدة"

انتعلت حذاءها بسرعة وسرحت شعرها الأشقر المموج الطويل أمام المرآة،

كانت مامي تخبرها أنها ورثت لون شعرها ـ كما أهدابها السميكة، ولون عينيها الأخضر الفيروزي، كذلك وجنتيها العاليتين ذات الغمازتين، وشكل شفتها السفلى التي تتشارك مع مامي في ذلك ـ ورثت ذلك من جدتها الكبرى، جدة أمها.

"كانت مذهلة".. قالت مامي، وأردفت:

"إن جمالها كان حديث الوادي. لقد تخطى جيلين من النساء في عائلتنا ولكنه بالتأكيد لم يتخطاك، ليلى"

كانت مامي من وادي بنجشير، منطقة الطاجيك الذين يتكلمون الفارسية وتبعد مئة كيلو متر شمال كابول.

بابي ومامي وهما ابنا عم من الدرجة الأولى. ولدا وترعرعا في بنجشير، ثم انتقلا إلى كابول عام ١٩٦٠ حين كانا متزوجين حديثاً وكلهما أمل، خصوصاً بعد أن قبلا في جامعة كابول.

نزلت ليلى إلى الأسفل. آملة ألا تخرج أمها من غرفتها لجولة ثانية، وجدت والدها يركع بجانب شبك حماية الباب.

"هل رأيت ذلك يا ليلى"؟

الشق في الأسفل كان موجوداً منذ أسابيع. ركعت ليلى بجانبه.

"لا.. لابد أنه حدث مؤخراً"

"هذا ما قلته لفاريبا"

بدا مذهولاً وخائفاً كما هو عادة بعد كل مرة تنتهي مامي منه. تقول إنه يسمح للنمل بالدخول.

كان قلب ليلى معه. فقد كان بابي رجلاً ضئيل الحجم، نحيل مع كتفين ضيقين، ويدين ناعمتين كأيدي النساء. عند المساء، عندما تدخل إلى غرفة بابي ترى جانب وجهه (بروفيل) يختبئ وراء كتاب، نظارته جاثمة أعلى أنفه. أحياناً لا يلاحظ بأنها هناك، وعندما يفعل يُعلّم الصفحة، ويبتسم ابتسامة لطيفة. كان يحفظ كلّ غزليات (روميو) و(حافظ) عن ظهر قلب. ويستطيع أن يتكلم بإسهاب حول صراع البريطانيين وروسيا القيصرية على أفغانستان. ويعرف الفرق بين الصواعد والنوازل، ويستطيع أن يخبرك بأن البعد بين الشمس والأرض هو ضعف البعد بين كابول وغازني مليون ونصف المليون مرة. لكن إذا أرادت ليلى أن تفتح علبة حلوى عليها أن تذهب إلى مامي التي تعتبرها خيانة.

أدوات الإصلاح كانت تحيّر بابي وتزعجه، عندما يكون دوره في ذلك، فقد كانت مفصلات الباب تصدر أصواتاً مزعجة ولا تُزيّت، السقف يرشح رغم سد الشقوق. الفطور تتكاثر تحديداً في خزائن المطبخ. قالت مامي بأنه قبل أن يذهب مع نور لينضم إلى الجهاد ضد السوفييت في عام ١٩٨٠ كان أحمد هو من أصلح هذه الأشياء بكل كفاءة و واجب.. ثم أردفت:

"لكن إذا كان عندك كتاب يحتاج إلى قراءة سريعة، فإن حكيم رجلك"

ما زالت ليلى لا تستطيع أن تتخلص من الإحساس الذي غمرها مرة قبل أن يذهب أحمد و نور إلى الحرب ضد السوفييت - قبل أن يسمح لهم بابي بالذهاب - مامي أيضاً فكرت إن إخلاصه للكتب محبب، حتى أنها أحياناً تجد في نسيانه وعدم مبالاته شيئاً ساحراً.

"إذاً ما هو اليوم"؟ قال بابي وهو يبتسم بتواضع.. ثم أردف:

"اليوم الخامس؟ أو إنه السادس"؟

"ولماذا أهتم؟! لا أعد.."

كذبت ليلى وهي تهز كتفيها. تحبه لأنه يتذكر. مامي لم يكن لديها علم بمغادرة طارق!!

"حسنٌ، ضوء المصباح سينطفئ قبل أن تعلمي ذلك".. قال بابي، مومئاً إلى لعبة الإشارة التي تلعبها ليلى وطارق منذ زمن طويل حتى أصبحت عادة وقت النوم، كغسل الأسنان.

أدخل بابي إصبعه من خلال الشق... وقال:

"سوف أرقع هذا عندما تسنح لي الفرصة. يجب أن أغادر الآن"

ثم رفع صوته وصاح من فوق كتفيه: "سنذهب الآن، فاريبا! سآخذ ليلى إلى المدرسة. لا تنسي أن تأتي بها"!

في الخارج. بينما كانت تجلس على المقعد الخلفي لدراجة بابي، لاحظت سيارة، من ماركة بينز، مركونة في الشارع أمام البيت الذي يعيش فيه صانع الأحذية رشيد مع زوجته المنعزلة، سيارة غير عادية في هذا الجوار، كان لونها أزرق مع تقليمات بيضاء سميكة تلف غطاء السيارة المتحرك، السقف و الصندوق. لاحظت ليلى رجلان يجلسان بداخلها، أحدهما خلف المقود والآخر في المقعد الخلفي.

سألت: "من هؤلاء"؟

"ليس من شأننا، اصعدي ستتأخرين عن الصف"

تذكرت ليلى شجاراً آخر، هذه المرة كانت مامي واقفة فوق رأس بابي، وهي تقول بلهجة هازئة:

"هذا شأنك أليس كذلك، أليس كذلك يا ابن العم؟ أن لا تقوم بشيء هو عملك. حتى ولديك ذهبا إلى الحرب، كم وقفت إلى جانبك ولكنك دفنت أنفك في هذه الكتب الملعونة وتركت ولديك يذهبان كأنهما ابنا حرام"

سار بابي بالدراجة في الشارع، وليلى تجلس خلفه، يداها تحيطان ببطنه. وبينما كانا يمران بجانب سيارة البينز الزرقاء، لمحت ليلى الرجل في المقعد الخلفي: شعر أبيض، يرتدي بذلة بنية اللون غامقة ومع

منديل في جيب الصدر. الشيء الآخر الذي كان لديها وقت لتراه هو أن تلك السيارة عليها لوحة رخصة هيرات.

ركبا الدراجة بقية الطريق بصمت، إلا عند المنعطفات حيث كان بابي يفرمل بحذر ويقول: "تمسكي، ليلى، سنخفف السرعة، سنخفف السرعة"

في الصف ذلك اليوم، وجدت ليلى صعوبة بأن تنتبه، كان هناك غياب طارق و شجار والديها. لذلك عندما نادتها المعلمة لتسمي عاصمة رومانيا وكوبا كانت ليلى شاردة.

كان اسم المعلمة شانزاي ولكن من خلف ظهرها كان الطلاب يدعونها خالة رانغمال* وذلك بسبب حركتها المفضلة عندما تضرب راحات الطلاب ثم قفا اليد، قفا اليد وراحة اليد كما يفعل الدهان عندما يدهن بالفرشاة. كانت خالة رانغمال امرأة شابة ذات حواجبين كثيفين، ووجه حاد، في أول يوم في المدرسة أخبرت الصف بفخر أنها ابنة فلاح فقير من كوست.

كانت تقف باستقامة، شعرها أسود مشدود إلى الوراء ومثبت على شكل كعكة، وعندما استدارت الخالة رانغمال، لأول مرة، استطاعت ليلى أن ترى الشعر القصير الخشن على عنقها. كانت خالة رانغمال لا تضع الجواهر ولا المكياج، ولا تضع الحجاب أيضاً، وتطلب من الطالبات ألا يفعلوا ذلك. قالت إن النساء والرجال متساوون بكل المجالات، وليس هناك من سبب يجبر النساء على الحجاب إذا كان الرجال لا يفعلون ذلك. وقالت أيضاً، إن الاتحاد السوفييتي أفضل أمة في العالم، بالطبع مع الأمة الأفغانية.

"السوفييت لطفاء مع عمالهم وكل الشعب متساو. كل شخص عندهم سعيد وودود. على عكس أميركا حيث الجريمة تجعل الناس خائفين من مغادرة منازلهم، وكل فرد في أفغانستان أيضاً سيكون

---

* خالة رانغمال: أي خالة دهان (المترجمة).

سعيداً" وقالت مرة إن الرجعيين وعصابات الرجعيين.. قد هزموا في أفغانستان.

"لذلك أتى رفاقنا السوفييت إلى هنا في عام ١٩٧٩ ليقدموا العون للجوار، ليساعدونا في التغلب على هؤلاء المتوحشين الذين يريدون لبلدنا أن يتأخر وأن نكون أمة متأخرة. يجب عليكم أن تمدوا أيديكم أيها الأولاد. يجب أن تخبروا عن أي شخص يعرف هؤلاء المتمردين. إنه واجبكم يجب أن تستمعوا ثم تخبروا حتى لو كانوا أهلكم، أعمامكم، أخوالكم. لأن لا أحد يحبكم كما يحبكم بلدكم. بلدكم يأتي أولاً، تذكروا! سأكون فخورة بكم وكذلك سيفخر بكم بلدكم. خلف كرسي الخالة رانغامال كانت هناك خريطة للاتحاد السوفييتي وخريطة لأفغانستان وصورة ذات إطار لآخر رئيس شيوعي، نجيب الله الذي قال بابي بأنه القائد المفزع "KHAD"، للبوليس السري الأفغاني. كانت هناك صور أخرى أيضا أغلبها لجنود سوفييتٍ يصافحون الفلاحين، يزرعون شجر تفاح صغيرة، يبنون منازل ودائماً يبتسمون بلطف.

"حسناً".. قالت الخالة رانغمال، ثم أردفت:

"هل أزعجت أحلام يقظتك يا فتاة"؟!

كان هذا لقبها لليلى، الفتاة الثورية، لأنها ولدت في ليلة الثورة في نيسان ١٩٧٨، تصبح الخالة رانغمال غاضبة إذا استعمل أحدهم كلمة انقلاب. الذي حدث كما تصرّ لم يكن انقلاب، ثورة نهوض العمال ضد عدم المساواة. كلمة جهاد كلمة محظورة أيضاً، بالنسبة لها، لم يكن هناك حرب حتى في الأقاليم، مجرد مناوشات من قبل أعداء الشعب، يحركهم أشخاص ذوو سمعة مثيرة للاشمئزاز، وبالتأكيد لا أحد، لا أحد، يستطيع أن ينوه بحضورها إلى الشائعات المتصاعدة بأنه بعد ثماني سنوات من القتال، أن السوفييت سيخسرون الحرب.

وبالتحديد الآن حيث أن الرئيس الأميركي ريغان بدأ بشحن صواريخ ميسايل إلى المجاهدين ليسقطوا طائرات الهيلوكبتر السوفيتية، الآن المسلمون ومن أغلب بلدان العالم ينضمون إلى قضية أفغانستان:

المصريون، الباكستانيون، حتى السعوديون الأغنياء الذين تركوا الملايين خلفهم وأتوا ليجاهدوا في أفغانستان.

قالت ليلى: "بوخارست، هافانا"

"وهل تلك البلدان أصدقاء لنا"

"إنهم كذلك، معلم صاحب إنهم بلدان صديقة"

أومأت خالة رانغمال برأسها بشكل مقتضب.

عندما انتهت المدرسة لم تكن مامي موجودة كما كان مفترض أن تكون، وانتهى الأمر بليلى أن تتمشى إلى المنزل مع اثنتين من زميلاتها في الصف، جيتي وحسينة. كانت جيتي ثرثارة، فتاة ذات بنية قوية، شعرها مسرح على شكل جديلتين تربطهما بعصبة مطاطية. كانت دائماً عابسة، تمشي وهي تضم كتبها إلى صدرها مثل درع. وكان عمر حسينة اثنتا عشرة سنة، أكبر بثلاث سنوات من ليلى وجيتي لأنها رسبت في الصف الثالث مرة والصف الرابع مرتين. لكن حسينة عوضت فشلها، بشقاوتها، وبلسانها، حتى أن جيتي وصفت لسان حسينة بأنه يجري مثل ماكينة الخياطة. لقد كانت حسينة هي من لقبت المعلمة "خالة رانغمال"..

اليوم، تمنح حسينة نصائح حول كيفية التخلص من الخاطبين غير المرغوب بهم.

"نظرية مؤكدة، مضمونة، أعطيكم كلمتي..."

قالت جيتي: "هذا غباء، إنني صغيرة جداً على الخاطبين"

"لست صغيرة جداً"

"حسناً لم يأت أحد ليخطبني"

"لأن لديك لحية، عزيزتي"!!

ضربتها جيتي بيدها على ذقنها ونظرت نظرة تحذير إلى ليلى التي ابتسمت بتعاطف - كانت جيتي من أكثر الأشخاص التي التقت بهم افتقاراً للدعابة - وهزت رأسها مطمئنة.

"على كل حال، هل تريدان أن تعرفا ما تفعلانه أم لا؟!.."

قالت ليلى : "تفضلي"

"القهوة، ليس أقل من أربع علب. في المساء ستأتي (سحلية) خالية من الأسنان لتطلب يدك. ولكن التوقيت سيداتي، التوقيت هو كل شيء. عليكما أن تخمدا الألعاب النارية عندما يحين موعد تقديم الشاي له".

"سأتذكر ذلك".. قالت ليلى.

رغم أنه كان بإمكان ليلى أن تقول إنها لا تحتاج إلى هذه النصيحة.. لأن بابي ليست لديه نيّة ليزوجها الآن.

كان بابي يعمل في مصنع ضخم للخبز، وسط الحرارة وضجيج الآلات، يذكي نار الأفران ومطحنة الحبوب كلّ اليوم. رجل متعلم مع شهادة جامعية، كان معلم مدرسة ثانوية قبل أن يطرده الشيوعيون ـ حدث ذلك بعد انقلاب عام ١٩٧٨ بوقت قصير، بعد سنة ونصف من غزو السوفييت. لقد أوضح بابي لليلى جيدا منذ سن مبكرة، أن أهم شيء في الحياة بعد سلامتها هو مدرستها.

قال: "أعلم أنك ما زلت صغيرة ولكن أريد أن تفهمي وتتعلمي ذلك الآن، يستطيع الزواج أن ينتظر، ولكن التعليم لا ينتظر. إنك فتاة لامعة كثيراً، كثيرا. بصدق أنت كذلك. باستطاعتك أن تكوني ما شئت يا ليلى أعلم ذلك. وأعلم كذلك أنه عندما تنتهي هذه الحرب فإن أفغانستان ستكون بحاجتك كما هي إلى رجالها وربما أكثر. لأن المجتمع ليس له فرصة للنجاح إذا كانت نساؤه غير متعلمات، لا فرصة".

لكن ليلى لم تقل لحسينة أن بابي قد قال هذه الأشياء، وكم هي سعيدة لأن لديها أب مثله، وكم هي فخورة باحترامه لها، ومصممة لتواصل تعليمها كما حصل هو على تعليمه. في السنتين الماضيتين حصلت ليلى على شهادة، تعطى للطلاب المتفوقين سنوياً في كل صف.لم تقل أي من هذه الأشياء لحسينة. على الرغم من أن والدها سائق تاكسي ذو مزاج سيء، وعلى الأغلب سيزوجها خلال سنتين أو ثلاث.

أخبرت حسينة ليلى في إحدى لحظاتها الجدية النادرة ، أنه قد تقرر أن تتزوج من ابن عمها الذي يكبرها بعشرين عاماً، يملك محلاً في لاهور، قالت حسينة :

"رأيته مرتين وفي كلا المرتين كان يأكل وفمه مفتوح"

علقت جيتي قائلة : "قهوة ، فتيات... قهوة"

فأردفت حسينة :

"تذكروا ذلك إلا إذا طبعاً ـ وهنا لاح على وجهها تكشيرة عفريتية فلكزت ليلى بمرفقها وأكملت ـ فتى وسيم ، برجل واحدة يأتي ويطرق الباب.إذا..."

سحبت ليلى مرفقها بعيداً.كانت ستعتبرها إساءة إذا قال شخص آخر ذلك عن طارق. ولكنها كانت تعلم إن حسينة ليست خبيثة. إنها تسخر ، هذا ما فعلته ، لم يسلم من هزئها أحد حتى نفسها.

"يجب ألا تتكلمي بتلك الطريقة عن الناس"!.. قالت جيتي

"ما نوع هؤلاء الناس"؟

"الأشخاص اللذين تأذوا بسبب الحرب".. كانت جيتي تتكلم بجدية غير واعية للعبة حسينة.

"أظن يا شيخة جيتي لدينا هنا معجبين بطارق. أعلم ذلك! ها! ولكنه مطلوب ، ألا تعلمين؟ أليس كذلك ليلى؟"

"لست معجبة بأحد"!

ثم انفصلتا عن ليلى وما زالتا تتجادلان بتلك الطريقة، حتى انعطفتا إلى شارعهما.

مشت ليلى وحيدة ثلاثة شوارع. وعندما أصبحت في شارعها لاحظت أن سيارة البينز الزرقاء مازالت مركونة هناك، خارج منزل رشيد ومريم. كان الرجل المسن ذو البزة البنية يقف عند مقدمة السيارة الآن متكئاً على عصى ناظراً إلى أعلى نحو المنزل.

"هاي ، يا ذات الشعر الأصفر. هنا انظري هنا"

استدارت ليلى فواجهت ترحيب من فوهة مسدس!!

الفصل السابع عشر

كان المسدس أحمر اللون، ذو مقبض أخضر اللون لّماع. من خلف المسدس ظهر وجه (خاديم) يبتسم. عمر خاديم أحد عشر عاماً، مثل طارق كان بديناً، طويلاً، أسنانه الأمامية بارزة بشدة. والده لحّاماً في ديه مازانغ، كان معروفاً عن خاديم أنه من وقت لآخر يرمي أمعاء العجل على المارة. بعض الأحيان وعندما لا يكون طارق قريباً يلاحق خاديم ليلى كظلها في باحة المدرسة وفي الفرص، ينظر إليها نظرة خبيثة ويصدر أصوات عواء. إحدى المرات ربت على كتفها وقال: إنك جميلة جداً يا ذات الشعر الأصفر، أريد أن أتزوجك.

الآن هو يلوح بالمسدس. قال: " لا تقلقي هذا الشيء لن يطلق. ليس على شعرك"

"لا تفعل ذلك! إنني أحذرك"

قال:

"ما الذي ستفعلينه؟ هل ستحرضين الأعرج علي؟ آه، طارق جان.. آه ألن تعود إلى المنزل وتنقذني من الشرير"

بدأت ليلى بالتراجع إلى الوراء ولكن خاديم كان قد بدأ بقدح الزناد مرة بعد أخرى، فانبعث رذاذ ضعيف من الماء الدافئ وأصاب شعر ليلى ثم راحتي يديها عندما رفعتهما لتخبئ وجهها. وحينها، أتى بقية الأولاد من مخابئهم يضحكون ويقرقرون.

ارتفعت على لسانها إهانة كانت قد سمعتها من الشارع. لم تفهمها حقيقة - لم تتخيل تماماً ما المنطقي فيها - ولكن الكلمات تجمعت بشكل عنيف وفعّال، ثم تفوهت بها:

"أمك تأكل الديك"

"على الأقل ليست مجنونة مثل أمك".. صرخ خاديم غير مكدر:

"على الأقل أبي ليس مخنثاً! وبالمناسبة لماذا لا تشمّين رائحة يديك"؟
بدأ الصبية الآخرون بالإنشاد "شمّي يديك! شمّي يديك!"
قامت ليلى بذلك، ولكنها كانت تعلم قبل أن تفعل ذلك، ماذا كان يعني أنه لن يظهر على شعرك.
أطلقت صرخة وبعد ذلك صفّر الأولاد بصوت أقوى. دارت ليلى حول نفسها ثم صرخت وركضت باتجاه المنزل.
جلبت الماء من البئر. وفي الحمام نزعت ثيابها ووضعت الصابون على شعرها وفركت بأصابعها فروة رأسها. كانت تبكي متقززة. شطفت شعرها بالماء، ووضعت الصابون مرة أخرى عليه. قامت بذلك عدة مرات، اعتقدت أنها بذلك قد تتخلص من هذا الإحساس. كانت ترتجف وتئن وهي تفرك باسفنجة الحمام وجهها ورقبتها حتى أصبح لونهما أحمر. هذا لم يكن ليحدث لو أن طارق كان معها، فكرت بذلك بينما كانت ترتدي قميصاً وبنطالاً نظيفين.
لم يكن خاديم ليجرؤ على فعل ذلك، بالطبع لم يكن ليحدث ذلك لو أن مامي أتت إلى المدرسة، كما كان من المفترض. أحياناً تتساءل ليلى لماذا أزعجت مامي نفسها وأتت بها إلى الحياة.
الآن تعتقد بأن الناس يجب أن لا يسمحوا لأنفسهم أن ينجبوا أولاداً من جديد، إذا كانوا قد منحوا كل الحب الذي لديهم لأولادهم السابقين، ذلك ليس عدلاً.
اجتاحتها نوبة غضب. ذهبت ليلى إلى غرفتها وانهارت على سريرها.
عندما تجاوزت أسوأ ما في الأمر، ذهبت إلى الردهة باتجاه غرفة مامي ودقت الباب.
حين كانت ليلى أصغر سناً اعتادت أن تجلس لساعات خارج هذا الباب، تدق عليه وتهمس باسم مامي مرات ومرات مثل غناء سحري لفك التعويذة: مامي ،مامي،مامي،مامي،.... لم تفتح مامي الباب أبداً. ولم تفتحه الآن. أدارت ليلى مقبض الباب ودخلت الغرفة.

بعض الأوقات كان لدى مامي أياماً جيدة. كانت تنهض من السرير بعينين لامعتين والابتسامة على شفتيها، تأخذ حماماً وترتدي ملابس نظيفة وتضع الماسكرا. كانت تسمح لليلى أن تسرح شعرها وهو شيء كانت ليلى تحبه، تضع أقراطاً في أذنيها. تذهبان للتسوق معاً في سوق (مندي).

كانت ليلى تجبرها آنذاك، على الذهاب لتلعب بلعبة الأفعوان والسلالم، وتأكلا رقائق الشوكولا الغامقة معاً، وهي من الأشياء القليلة التي تتشاركان بها بنفس الذوق، كان الجزء المفضل لليلى من أيام مامي الجيدة هي عندما يأتي بابي وتبتسمان له ابتسامة عريضة، تظهر أسنانهما البنية من آثار الشوكولا فيصبح جو الغرفة مشحوناً بالرضا فتلمح ليلى نظرات من الرقة، الرومانسية التي كانت تخيم على والديها عندما كان هذا البيت حاشداً وصاخباً بالأولاد والفرح.

كانت مامي تخبز أحياناً في أيامها الجيدة وتدعو الجيران من النساء لتناول الشاي والمعجنات. كانت ليلى تأكل حتى يصبح الصحن نظيفاً. بينما مامي تجهز المائدة بالأكواب والمناديل الورقية والصحون الجيدة. ثم كانت ليلى تجلس إلى المائدة في غرفة المعيشة وتحاول أن تشارك في الحديث، حيث كانت النساء يتكلمن بصخب، يشربن الشاي ويمدحن خبز مامي. في ذلك الجو لم يكن لليلى الكثير لتقوله فكانت تحب أن تجلس وتصغي لأن هذه الجلسات كانت سعادة نادرة: كانت تسمع أمها تتكلم بحنان عن بابي.

قالت مامي : "ياله من معلم من الدرجة الأولى، تلاميذه يحبونه ليس فقط لأنه لا يضربهم بالمسطرة كما يفعل بقية المعلمين بل لأنهم يحترمونه ولأنه هو أيضاً يحترمهم إنه رائع "

كانت مامي تحب أن تخبر كيف خطبت له.

"كنت في السادسة عشر من عمري وكان هو في التاسعة عشر. كان أهلنا جيران في بنجشير. آه لقد أعجبت به! كنت معتادة أن أتسلق

الحائط الذي يفصل بين منزلينا وكنا نلعب في بستان والده. كان حكيم خائفاً بشكل دائم، من أن يمسك بنا والدي وأن يضربه.

وكان يقول دائماً: "سيضربني والدك"

لقد كان حذراً جداً وجدياً حتى في ذلك الحين، ثم في أحد الأيام قلت له: "يا ابن عمي ما الذي سنفعله؟ هل ستذهب لتطلب يدي وتجعلني آتي لعندك؟ قلت ذلك بتلك الطريقة. كان يجب أن تروا وجهه!"

كانت مامي تضرب راحتي يديها ببعضهما البعض وكذلك بقية النساء، وكانت ليلى تضحك وهي تستمع إلى مامي تخبر كل تلك الحكايات.

تعلم ليلى بأنه كان هناك وقت، عندما كانت مامي تتحدث عن بابي هكذا. عندما كان والداها لا ينامان في غرفتين منفصلتين. تمنت ليلى لو أنها لم تفقد هذه الأوقات.

بطريقة ما فإن قصة مامي عن زواجها تقود إلى وساطات للزواج. عندما تتحرر أفغانستان من السوفييت ويعود الأولاد إلى المنزل فإنهم سيحتاجون إلى زوجات ولذلك كانت النساء الواحدة تلو الأخرى تستعرض بنات الجيران اللواتي يناسبن أو لا يناسبن أحمد ونور. كانت ليلى دائماً تشعر بالاستبعاد عندما يتجه الحديث عن أخوتها، كأنما النساء يناقشن فيلم لطيف هي الوحيدة التي لم تشاهده.

كان عمرها سنتين عندما غادر أحمد ونور كابول إلى شمال بنجشير لينضما إلى قوات أحمد شاه مسعود.

لا تتذكر ليلى أي شيء عنهما إلا بصعوبة: مثل القلادة اللامعة وعليها كلمة الله حول عنق أحمد. بقعة من الشعر الأسود على أذني نور، وهذا كل شيء.

"ماذا عن آزيتا"

قالت مامي: "ابنة صانع السجاد"؟ وهي تضرب خدها بحركة ساخرة. "عندها شارب أكبر من شارب حكيم"!!

"هناك أناهيتا. سمعنا أنها الأولى في (زارهونه)"

"هل شاهدت أسنان تلك الفتاة؟ مثل شواهد القبور. إنها تخبئ باحة مقبرة خلف تلك الشفاه"

"ماذا عن أخوات وحيدة؟"

" تلك القزمتين؟ لا، لا، لا، آه.. لا.. ليس لولديّ، ليس لسلاطيني. إنهما يستحقان أفضل من ذلك"

بينما تستمر المحادثة، كانت ليلى تسرح بذهنها فتجد طارق دائماً.

كانت الغرفة معتمة فقد أرخت مامي الستائر الصفراء. ولها رائحة الرقود، رائحة جوارب الكتان المتعرقة وغير المغسولة، رائحة عطر، رائحة طعام من الليلة السابقة.

انتظرت ليلى حتى تتكيف عيناها قبل أن تتحرك في الغرفة. ومع ذلك كانت قدماها تتعثران بأكوام الملابس المتناثرة على الأرض.

فتحت ليلى الستائر. كان هناك كرسي معدني بجانب السرير، جلست ليلى عليه وراقبت التلة الساكنة المغطاة بالبطانية والتي هي أمها.

كانت جدران غرفة مامي مغطاة بصور أحمد ونور، أينما نظرت كانت هناك ابتسامات لاثنين من الغرباء. هنا نور يركب دراجة ثلاثية العجل. وهنا أحمد يصلي، واقفاً بجانب ساعة شمسية صنعها هو وبابي عندما كان في الثانية عشر. وهناك أيضاً يجلس أخواها ظهراً إلى ظهر تحت شجرة الأجاص القديمة في الباحة.

تحت سرير مامي استطاعت ليلى أن ترى زاوية علبة حذاء أحمد بارزة. من وقت إلى آخر كانت أمها تريها قصاصات وكتيبات جمعها أحمد من مجموعات متمردة ومنظمات للمقاومة اتخذت من باكستان مقراً لها. صورة واحدة تذكرتها ليلى، تظهر رجلاً بمعطف أبيض طويل يعطي قطعة حلوى لصبي صغير بدون ساق. التعليق أسفل الصورة يقول: الأطفال هم الضحايا الحقيقيين لمعارك السوفييت المزروعة بالألغام. ويتابع المقال أن السوفييت يحبون أيضاً أن يخبئوا المتفجرات

داخل ألعاب ملونة وبراقة وإذا أمسك بها طفل انفجرت اللعبة لتقطع الأصابع أو اليد بأكملها، وبذلك لا يستطيع الأب أن ينضم إلى الجهاد بل عليه أن يبقى في المنزل ليعتني بابنه. في مقال آخر من علبة أحمد، مقاوم شاب يقول أن السوفييت أسقطوا قنابل الغاز على قريته التي أحرقت جلود الناس وأعمتهم. قال أنه شاهد أمه وأخته تركضان إلى الجدول وهما تبصقان الدم.

" مامي "

تحركت التلة قليلاً وأصدرت أنيناً.

" استيقظي مامي إنها الساعة الثالثة "

أنين آخر، ظهرت يد مثل الغواصة تشق طريقها إلى سطح البحر ثم تغوص. تحركت التلة بشكل ملحوظ هذه المرة. ارتفعت الأغطية ببطء وأصدرت حفيفاً ناعماً وعلى مراحل ظهرت مامي: أولاً الشعر المهمل ثم الوجه الأبيض العبوس، تألمت العينان من الضوء، يد تتلمس الرأس، انزلقت الأغطية بينما كانت تسحب نفسها إلى أعلى، كان عليها أن تبذل جهداً لتنظر إلى أعلى، جفلت من الضوء وأنزلت رأسها إلى صدرها.

تمتمت: "كيف كانت المدرسة"

إذاً ستبدأ الأسئلة الإلزامية، الأجوبة السطحية. كلاهما كانتا تتصنعان مثل شريكين غير متحمسين لهذه الرقصة القديمة المتعبة.

قالت ليلى: " المدرسة جيدة".

"هل قرأت أي شيء"؟

"المعتاد"

"هل تناولت الطعام"؟

"لقد فعلت"

"جيد"

رفعت مامي رأسها ثانية ونظرت باتجاه النافذة، انتفضت وحركت أجفانها بسرعة، كان جانب وجهها الأيمن أحمر اللون والشعر بتلك الجهة مبسوط.

"لدي صداع"

"هل أجلب لك بعض الأسبيرين"؟

دلكت مامي صدغيها وقالت : "ربما لاحقاً، هل والدك في البيت"؟

"إنها الثالثة فقط"

"آه صحيح، لقد قلتِ ذلك الآن".

تثاءبت مامي: "لقد كنت أحلم" قالت ذلك بصوت أعلى بقليل من حفيف قميص نومها على الأغطية.

" الآن قبل أن تدخلي، ولكنني لا أتذكره، هل يحدث ذلك معك"؟

" إنه يحدث لكل شخص مامي"

"شيء غريب"

"يجب أن أخبرك أنك بينما كنت تحلمين، أطلق صبي بولاً من مسدس مائي على شعري"

"أطلق ماذا؟ ما كان ذلك؟ أنا آسفة"

"بول"

" إنه.. إنه أمر رهيب.. إلهي، أنا آسفة، مسكينة أنت، أول شيء سأفعله في الصباح أن أتحدث معه أو ربما مع أمه، نعم، سيكون ذلك أفضل على ما أظن"

" لم أقلِ لك من يكون"

"آه حسنا، من يكون"

"لا تهتمي"

"إنك غاضبة"

" كان يجب أن تأخذيني أنت من المدرسة"

" كان يجب علي ذلك" قالت ذلك بصوت كنقيق الضفادع.

لم تستطع ليلى أن تعرف إن كان ذلك سؤالاً. بدأت مامي بنتف شعرها، كان هذا العمل أحد أكبر ألغاز ليلى، كيف أن نتف مامي لشعرها لم يجعلها صلعاء كالبيضة.

"ماذا عن ـ ما اسمه ـ صديقك طارق؟ نعم، ماذا عنه؟"

" لقد غادر منذ أسبوع"

"آه".. تنهدت مامي من أنفها وأردفت:

" هل اغتسلت"؟

"نعم"

"إذاً، أنت نظيفة" توجهت مامي بنظرها إلى النافذة..

"إنك نظيفة وكل شيء على ما يرام"

نهضت ليلى وهي تقول: " لدي وظائف الآن"

قالت مامي: "بالطبع لديك، أسدلي الستائر قبل أن تغادري يا حبي"

كان صوتها قد خفت وغطست بين الأغطية.

عندما وصلت ليلى إلى الستائر، شاهدت سيارة تمر في الشارع، وغيمة من الغبار وراءها.

كانت سيارة البينز الزرقاء من هيرات تغادر أخيراً، تابعتها بعينيها حتى اختفت عند المنعطف، كان الزجاج الخلفي يلمع من الشمس.

" لن أنسى غداً" كانت مامي تقول من خلفها.. "أعدك"

" قلت ذلك البارحة"

"لا تعلمي ليلى"!!

"أعلم ماذا"؟ واستدارت لتواجه أمها.. "ما الذي لا أعرفه"؟

سحبت مامي يدها إلى صدرها ودقت هناك:

"هنا، ما الذي يكون هنا، إنك لا تعرفين الآن"

الفصل الثامن عشر

مضى أسبوع ولم يظهر أي أثر لطارق، ثم أتى أسبوع آخر.. ومضى ببطء.

لتملأ الوقت، أصلحت ليلى باب الشبك الذي لم يحصل بابي على فرصة لإصلاحه، أنزلت كتب بابي، ونفضت عنها الغبار، ثم رتبتها حسب الأبجدية، ذهبت إلى شارع الدجاج مع حسينة، جيتي وأم جيتي نالة التي كانت خياطة وفي بعض الأوقات شريكة مامي في الخياطة.

في ذلك الأسبوع، رسخت في ذهنها قناعة أن من بين كل المشقات التي يواجهها الشخص لا شيء أكثر عقاباً من فعل الانتظار.

مر أسبوع آخر، وجدت ليلى نفسها واقعة في شبكة من الأفكار الرهيبة.. لن يعود طارق أبداً.

انتقل والداه بعيداً، للأبد، كانت الرحلة إلى غازني خدعة، تدبير من قبل الراشدين ليفرقوا بينهما فراقاً مؤلماً، من الممكن أن لغماً أرضياً انفجر فيه مرة أخرى، كما حدث في عام ١٩٨١، عندما كان في الخامسة من عمره، في آخر مرة أخذه والداه شمالاً إلى غازني، كان ذلك بعد وقت قصير من عيد ميلاد ليلى الثالث، لقد كان محظوظاً تلك المرة، فقد خسر رجلا واحدة، محظوظ لأنه قد نجا بحياته.

كان رأسها يدور ويدور مع هذه الأفكار.

بعد ذلك، في إحدى الليالي، رأت ليلى ضوء فلاش شاحب من الشارع. صوت ما بين الصراخ واللهاث خرج من شفتيها، أسرعت وأمسكت ضوء الفلاش الخاص بها من تحت السرير، ولكنه لم يعمل، ضربته ليلى براحتيها ولعنت البطاريات الفارغة، ولكن لا يهم لقد عاد.. طارق.

جلست ليلى على حافة السرير دائخة، لكنها تشعر بالارتياح، وراقبت تلك العينين الصفراوتين اللتين تلمعان وتنطفئان.

في اليوم التالي، وفي طريقها إلى بيت طارق، رأت ليلى خاديم ومجموعة من أصدقائه في الشارع، كان خاديم يجلس القرفصاء ويسحب شيئاً ما من الأوساخ بعصا، عندما رآها أوقع العصا وهز أصابعه، قال شيئاً، وتبعها بسلسلة من الضحكات الخافتة، أخفضت ليلى رأسها وأسرعت بالمرور.

" ماذا كنت تفعل"؟ صرخت عندما فتح طارق الباب، فقط عند ذلك تذكرت ليلى أن عمه حلاق.

مرر طارق يده على فروة رأسه المحلوقة، وابتسم مظهراً أسناناً بيضاء متباعدة.. "هل أعجبك"؟

" تبدو مثل متطوع في الجيش"

" هل تريدي أن تتلمسي رأسي"؟ أخفض رأسه.

الشعر القصير الخشن داعب راحة ليلى.

لم يكن طارق كالأولاد الآخرين، تخفي شعورهم جماجم مخروطية وكتل غير مرئية، رأس طارق كان منحوتاً ببراعة وخال من الكتل.

عندما نظرت ليلى إليه رأت أن وجنتيه وجبهته محروقتان من الشمس، قالت: "ما الذي أخرك؟"

"كان عمي مريضاً، ادخلي، تعالي إلى الداخل"

قادها إلى الردهة ثم إلى غرفة المعيشة، أحبت ليلى كل شيء في هذا المنزل، السجادة الرثة في غرفة المعيشة، اللحاف المرقع على الكنبة، الحياة العادية غير المنظمة لطارق: أكوام القش الخاصة بأمه، إبر الخياطة المشكوكة في بكرات، المجلات القديمة، صندوق الأكورديون في الزاوية، ينتظر أن يفتحه أحد ما.

"مَنْ هناك"؟ كانت أمه تنادي من المطبخ.

أجاب، وهو يسحب لها كرسي.. " إنها ليلى"

كانت غرفة المعيشة مضاءة جيداً وفيها نافذتين مطلتين على باحة البيت، وعلى عتبة النافذة صفت مجموعة من المرطبانات الفارغة، فقد كانت أم طارق تخلل فيها الباذنجان وتصنع مربى الجزر.

"تعني كنّتنا".. أعلن والده وهو يدخل الغرفة، كان نجاراً، رجل منحن، أشيب، في أوائل الستينات من عمره لديه فجوات بين أسنانه الأمامية، وحَوَلٌ في عينيه، شخص قضى أغلب حياته خارج البيت، فتح يديه فهرعت ليلى إليه مُرَحِّبَة برائحة نشارة الخشب المألوفة والسارة. قبّلا بعضهما على الخد ثلاث مرات.

" استمر بمناداتها بذلك وسوف تتوقف عن المجيء إلى هنا" قالت أم طارق وهي مارة بجانبهم، كانت تحمل صينية عليها وعاء كبير، ملاعق وأربع طاسات متشابهة، وضعت الصينية على الطاولة، أمسكت بوجه ليلى وقالت: "أعذري الرجل العجوز، نحن مسرورون برؤيتك يا عزيزتي، تعالي اجلسي، جلبت معي بعض الفواكه المغسولة"

كانت الطاولة ضخمة ومصنوعة من الخشب الخفيف وغير المصقول - صنعها والد طارق، وكذلك الكراسي. الطاولة مغطاة بغطاء ذو لون طحلبي مع أقمار ونجوم قرمزية.

أغلب جدران غرفة المعيشة مغطاة بصور طارق بأعمار مختلفة، بعضها في السنوات الأولى المبكرة، كان لديه ساقين آنذاك.

"سمعت أن أخاك مريض" قالت ليلى لوالد طارق ووضعت الملعقة في الطاسة التي فيها منقوع الزبيب، الفستق والمشمش.

كان يشعل سيجارة "نعم، ولكنه بخير الآن شكراً لك"

"أزمة قلبية.. إنها الثانية" قالت والدة طارق وهي تنظر إلى زوجها نظرة تحذيرية. نفخ والد طارق الدخان وغمز ليلى. لقد صدمها ثانية أن والدا طارق يصلحان أن يكونا بسهولة جدين له. لم تحمل أمه به إلى أن أصبحت في الأربعين من عمرها.

"كيف حال والدك عزيزتي"؟ قالت والدة طارق وهي تنظر إلى طاستها.

طوال معرفة ليلى بها، كانت والدة طارق تضع شعراً مستعاراً. أصبح لونه أرجواني قاتم بسبب العمر. وكان اليوم متهدلاً على جبهتها، وباستطاعة ليلى أن ترى الشعر الرمادي لسوالف أم طارق. أحياناً يبدو بعيداً عن جبهتها. وبالنسبة لليلى لم تبدُ والدة طارق مثيرة للشفقة أبداً في ذلك الشعر المستعار. الذي رأته ليلى تحته كان الوجه الهادىء والواثق، العينان الذكيتان، والطبع السار وغير الصاخب.

"إنه جيد" قالت ليلى "مازال يعمل في مصنع الخبز (سيلو).. بالطبع هو بخير"

"وكيف حال أمك"؟

"أيام جيدة وأخرى سيئة أيضاً. نفس الشيء"!!

"نعم" قالت والدة طارق بمراعاة، وهي تضع الملعقة في الطاسة "لا بد أن ذلك صعب، كم هو صعب على أم أن تكون بعيدة عن ولديها"

"هل تظلّي معنا على الغداء"؟ سأل طارق.

"يجب أن تبقي" قالت الوالدة.. وأردفت: "سأعد (شوروا)"

"لا أريد أن أكون ثقيلة"

"ثقيلة"؟ قالت والدة طارق.."غادرنا أسبوعين وتصبحين مؤدّبة علينا"؟!

"حسناً.. سأبقى" قالت ليلى ذلك مبتسمة ومحمرة خجلاً.

"إنه البقاء إذاً"

بالحقيقة كانت ليلى تحب أن تأكل في بيت طارق كثيراً على عكس كرهها للأكل في منزل والديها.

كانت في بيت طارق لا تأكل بمفردها. دائماً يتناولون الطعام كأسرة. أحبّت الكؤوس البلاستيكية البنفسجية التي يستخدمونها، وقطع الليمون التي تطفو في إبريق الماء. كانت تحب طريقة تناولهم للبن الطازج في بداية كل وجبة، كيف يعصرون الليمون على كل شيء حتى على اللبن، يتبادلون نكات غير مؤذية حول نفقات كل واحد فيهم.

خلال الوجبات، توجد أحاديث دائماً. فطارق وأهله من طائفة الباشتون، لكنهم كانوا يتكلمون الفارسية عندما تأتي ليلى، رغم أنها قد تفهم قليلاً أو كثيراً لهجتهم الأصلية التي تعلمتها في المدرسة.

قال بابي أن هناك توترات بين شعبهم (الطاجيك) فهم أقلية وبين شعب طارق (الباشتون) فهم الطائفة العرقية الأكبر في أفغانستان. قال بابي "أحسَّ الطاجيك دائماً بالاستخفاف والاستصغار وأن ملوك الباشتون قد حكموا هذه البلاد لأكثر من مائتين وخمسين عاماً.. ليلى، وحكم الطاجيك فقط تسعة أشهر في عام ١٩٢٩.

فسألته ليلى: "وأنت هل تشعر بالاضطهاد.. بابي"؟

نظف بابي نظارته بقميصه.. ثم قال:

" بالنسبة لي فإن ذلك هراء - وأخطر هراء على الإطلاق - كل هذا الكلام عن أنني من الطاجيك وأنك من الباشتون وإنه من الهازارا وبأنها من الأوزبك.. كلنا أفغانيون، وهذا كل ما يهم. ولكن عندما تحكم مجموعة، مجموعة أخرى لفترة طويلة... يصبح هناك تحد وازدراء. هذا ما يكون وهذا ما حدث دائماً"

لم تشعر ليلى بذلك أبداً في بيت طارق، حيث لا تظهر تلك الأمور أبداً. كانت تشعر وهي مع عائلة طارق بأنها طبيعية، غير مجهدة ومعقدة بالاختلافات في اللغة أو القبيلة أو الأحقاد الشخصية والتذمر الذي يلوث الهواء في بيتها.

قال طارق: "ما رأيك بلعب الورق"؟

قالت أمه: "نعم اذهبا إلى أعلى" وهي تبتعد مستنكرة غيمة الدخان التي ينفثها زوجها قائلة "سأتحقق من حالة السير"

استلقيا على بطنهما في وسط غرفة طارق، يلوحان بأرجلهما في الهواء، أخبرها طارق عن رحلته. عن شتلات أشجار الدراق الصغيرة التي ساعد عمه على زراعتها. عن ثعبان الحديقة الذي أمسكه.

في هذه الغرفة كان طارق وليلى يقومان بحل وظائفهما معاً، حيث يبنيان من أوراق اللعب أبراجاً ويرميان بنماذج بعضهما البعض

بسخرية. عندما تمطر، كانا يتكئان على حافة النافذة ويشربان مشروب البرتقال الغازي، وهما يراقبان قطرات الماء الثقيلة تسيل على الزجاج.

قالت ليلى وهي تخلط أوراق اللعب "حسناً هذه واحدة، ما الذي يدور ويبقى في زاوية"؟

"انتظري" سحب طارق جسده ثم جلس وحرك قدمه اليسرى الاصطناعية، جفل ثم استلقى على جنبه مستنداً على مرفقه. "أعطني تلك الوسادة" وضعها تحت قدمه "ها هي، ذلك أفضل"

تذكرت ليلى أول مرة رأت فيها جذع قدمه، كانت في السادسة. وضعت أصبعاً واحداً على الجلد اللامع المشدود أسفل ركبته اليسرى، وتلمست القطع الصغيرة القاسية هناك.

قال لها طارق أنها عظيمات ناتئة قد تنمو في بعض الأحيان بعد البتر. سألته إن كانت تؤلمه، فقال:

"إنها تصبح حساسة في نهاية اليوم عندما تنتفخ وتصبح غير ملائمة لقطعة التبديل كما من المفترض، مثل كشتبان الخياطة في الأصبع وأحياناً أشعر بالحك خاصة عندما يكون الجو حاراً فأصاب ببقع حمراء وبثور. ولكن لدى مامي كريم يساعد، ليس الأمر سيئاً كثيراً"

انفجرت ليلى بالبكاء.. آنذاك.

"لماذا تبكي"؟.. أعاد ساقه.. ثم أردف:

"لقد طلبت أن تريها أيتها الطفلة الباكية! لو كنت أعلم أنك سوف تبكين لما أريتك إياها"

قال طارق وهو يسحب إحدى أوراق اللعب: "الطابع"

"ماذا"؟

"الأحجية، الجواب هو الطابع. يجب أن نذهب إلى حديقة الحيوانات بعد الغداء"

"لقد كنت تعرفها أليس كذلك"؟

"بالتأكيد لا"

"إنك غشاش"

"وأنت حسودة"
"من ماذا"؟
"من ذكائي الرجولي"
"أنت ذكي؟ حقاً؟ اخبرني من يفوز دائماً في الشطرنج؟"
"أنا الذي أدعك تفوزين".. وضحك.
كلاهما كان يعرف بأن ذلك غير صحيح.
"ومن رسب في الرياضيات؟ إلى من تلجأ ليساعدك في فروض الرياضيات على الرغم من أنك متقدم علي بصف"؟
" كنت سأتقدم بصفين لو لم تكن الرياضيات تضجرني"
" أعتقد أن الجغرافيا تضجرك أيضاً"
"ما أدراك؟ الآن اخرسي. هل سنذهب إلى حديقة الحيوان أم لا؟"
ابتسمت ليلى "سنذهب"
"جيد"
" لقد افتقدتك"

كان هناك لحظة صمت، ثم استدار نحوها، وبشبه ابتسامة، شبه تكشيرة ونظرة كره. "ما الذي أصابك"؟!

كم عدد المرات التي رددن فيها هي وحسينة وجيتي نفس هذه الكلمة لبعضهم البعض، تساءلت ليلى، يقلن ذلك دون تردد بعد يومين أو ثلاثة أيام؟ افتقدتك حسينة. آه افتقدتك أيضاً، تعلمت ليلى من تكشيرة طارق بأن الصبية مختلفين عن الفتيات فيما يتعلق بهذا الشأن. لا يظهروا الصداقة وأن لا حاجة إلى هذا النوع من الكلام. تخيلت ليلى أن أخويها كانا يتصرفان بنفس الطريقة أيضاً. لقد رأت ليلى أن الصبية يتعاملون مع الصداقة مثل الشمس، ذلك أن وجودها لا منازع عليه وإشعاعها بهجة كبيرة لا تدرك مباشرة. قالت :"كنت أحاول أن أضايقك"

نظر إليها بزاوية عينه "لقد نجحت"

ولكنها اعتقدت أن تكشيرته أصبحت أقل حدة، وربما أصبحت حروق الشمس على وجنتيه ـ بشكل سريع ـ أكثر وضوحاً.

لم تقصد ليلى إخباره. لقد قررت أن إخباره فكرة سيئة جداً. سيتأذى شخص ما لأن طارق لن يدع الأمر يمر.

ولكن لاحقاً عندما كانا يسيران إلى موقف الباص، رأت خاديم ثانية متكئاً على جدار محاطاً بأصدقائه. كان يضع إبهاميه في حلقات حزامه. ابتسم لها ابتسامة عريضة بالتحديد. ولذلك أخبرت طارق.

انزلقت القصة من فمها قبل أن تستطيع إيقافها.

"ماذا فعل"؟

أخبرته ثانية.

أشار إلى خاديم "هو؟ هل هو الذي فعل ذلك؟ أنت متأكدة؟"

"إنني متأكدة"

صرّ طارق على أسنانه وتمتم بشيء ما لنفسه بلهجة الباشتو، لم تفهم ليلى ما الذي قاله. "انتظري هنا" قال ذلك الآن بالفارسية.

"لا، طارق..."

كان قد عبر الشارع.

كان خاديم أول من رآه. خبت ابتسامته، وابتعد عن الجدار، ثم رفع إبهاميه من حلقات حزامه وانتصب واقفاً وواعياً للتهديد. تابع الآخرون نظراته.

تمنت ليلى لو أنها لم تقل شيئاً. ماذا لو تجمعوا عليه؟ كم عددهم ـ عشرة؟ أحد عشر؟ اثنا عشر؟ ماذا لو آذوه؟

توقف طارق على بعد عدة أقدام من خاديم وعصابته، كان هناك دقيقة لتقدير الموقف. ظنّت ليلى أنه ربما قد خاف، وعندما انحنى ظنت أنه سيتظاهر أن رباط حذائه غير محكم وسيعود راجعاً إليها، بعد ذلك بدأت يداه بالعمل وأدركت ما الذي يفعله.

عندما انتصب طارق واقفاً على ساق واحدة.. فهم الآخرون أيضاً. ثم بدأ بالحجل باتجاه خاديم متحدياً، وساقه الاصطناعية مرفوعة عالياً فوق كتفه مثل سيف.

ابتعد الصبية جانباً بسرعة ومنحوه طريقاً إلى خاديم.

ثم كان هناك كل هذا الغبار، اللكمات والصرخات.

والأهم أن خاديم لم يزعج ليلى ثانية.

تلك الليلة مثل كل الليالي، حضّرت ليلى مائدة العشاء لشخصين فقط. قالت مامي إنها غير جائعة. وهي مقدمة لتأخذ طعامها إلى غرفتها قبل أن يعود بابي إلى المنزل. عادة تكون نائمة أو مستلقية في السرير بينما ليلى وبابي يجلسان إلى المائدة للأكل.

خرج بابي من الحمام، بعد أن غسل شعره من آثار الطحين ومشّطه.. ثم سأل ليلى: "ماذا لدينا"؟

"بقايا شوربة عوشة"

"تبدو جيدة".. قال ذلك وهو يطوي المنشفة التي جفف بها شعره.

"ماذا سنعمل الليلة؟ الكسور المضافة؟"

"في الواقع تحويل الكسور إلى أعداد مركبة"

"آه.. حسناً"

كل ليلة بعد العشاء. كان بابي يساعد ليلى على حل وظائفها ويعطيها دروساً من عنده. ليبقيها متقدمة بدرجة أو درجتين على صفها، ليس لأنه لا يوافق على العمل المعطى من المدرسة - فالحملة التعليمية مستمرة في الحقيقة - كان بابي يعتقد بأن شيئا واحداً فعله الشيوعيون كان صحيحاً - أو على الأقل يقصدونه - كان حقل التعليم، ومن سخرية القدر، أنها المهنة التي كانوا قد طردوه منها، وبتحديد أكثر، تعليم النساء. رعت الحكومة صفوف تعليم كل النساء القراءة والكتابة، على الأغلب ثلث الطلاب في جامعة كابول من النساء الآن، قال بابي:

"النساء يدرسن المحاماة، الهندسة، كانت حياة النساء دائماً صعبة في هذه البلاد، ليلى، ولكنهن الآن ربما أصبحن أحراراً أكثر تحت حكم الشيوعيين، ولديهن حقوقاً أكثر مما كان لديهم قبل ذلك" ثم أردف بصوت خفيض، خشيةً من عدم تسامح مامي مع كلامه بشكل إيجابي عن الشيوعيين.. "علينا أن نكون منصفين، إنه وقت جيد لتكوني امرأة في أفغانستان وأن تستفيدي من ذلك ليلى. بالطبع حرية المرأة - هنا، هز برأسه متحسراً - إنه أيضاً أحد الأسباب التي جعلت الناس في الخارج يرفعون السلاح بالمقام الأول"

لم يقصد (الخارج) كابول التي كانت دائماً بشكل نسبي متحررة ومتقدمة، هنا في كابول تتعلم النساء في الجامعة وتذهب إلى المدارس وتعمل في مكاتب حكومية، لا، لقد قصد بابي بكلامه المناطق العشائرية، خاصة أقاليم الباشتون في الشمال أو الشرق قرب الحدود الباكستانية حيث النساء نادراً ما يشاهدن في الشارع، وإذا ما ظهرن يرتدين البرقع وبرفقة الرجال، لقد قصد تلك الأقاليم حيث الرجال يعيشون بأحكام العشيرة القديمة التي ثارت ضد الشيوعيين وقوانينهم لتحرير النساء، وإلغاء زواج القاصرات بالقوة، ليرفعوا الحد الأدنى لسن الزواج إلى سن السادسة عشر للفتيات، رأى الرجال هناك أنها إساءة لتقاليدهم القديمة. قال بابي:

"أن تؤمر من قبل الحكومة - وحكومة كافرة - بأنه يجب على البنات مغادرة البيت والذهاب إلى المدارس والعمل إلى جانب الرجال.

لقد حرم الله حدوث ذلك"!! كان بابي يقول ذلك بسخرية، ثم يتنهد ويردف، ليلى يا حبي، العدو الوحيد الذي لا تستطيع أفغانستان هزيمته، هو نفسها. جلس بابي إلى المائدة وغمّس الخبز في صحنه، قررت ليلى أنه عليها أن تخبره بما فعله طارق مع خاديم خلال تناولهما الطعام، قبل أن يشرعا في دروس الكسور، ولكنها لم تحظ بالفرصة أبداً، خصوصاً أن هناك من يطرق على الباب، غريب يحمل أخبارا.

الفصل التاسع عشر

أريد التحدث مع والديك، قال ذلك عندما فتحت ليلى الباب، كان الرجل قصيراً، وممتلئاً، وجه حاد وخشن، ويرتدي معطفاً ترابي اللون، وقبعة صوفية على رأسه.

"هل أستطيع أن أخبرهما من الذي هنا"؟

عند ذلك كانت يد بابي على كتف ليلى، سحبها بلطف من أمام الباب.

"لماذا لا تذهبين إلى الأعلى ليلى؟.. اذهبي"

بينما كانت تتجه إلى الدرج، سمعت ليلى الزائر يقول لبابي أنه يملك أخباراً من بانجشير، كانت مامي في الغرفة أيضاً، كانت تضع يدها على فمها، وعيناها تنتقلان من الرجل إلى القبعة، استرقت ليلى النظر من أعلى الدرج، راقبت الغريب يجلس مع والديها منحنياً باتجاههما، قال بضع كلمات صامتة، أصبح وجه بابي شاحباً بعدها، ثم شحب أكثر، كان ينظر إليه، ومامي تصرخ، وتصرخ، وتنتف شعرها، في الصباح التالي، كان يوم العزاء، أقبل سرب من النساء إلى المنزل، اهتممن بالتحضيرات للغداء الذي سيقام بعد الجنازة، كانت مامي تجلس على الكنبة طوال الصباح، وجهها منتفخ، وأصابعها تقلب منديلا، اثنتان من النساء اللواتي تندبن، كانتا يربتان على يد مامي بحذر كما لو أنها أغلى وأكثر لعبة قابلة للكسر في العالم، لم تكن مامي واعية لحضورهما.

ركعت ليلى أمام أمها وأخذت بيديها.

"مامي"

اتجهت عينا مامي إلى الأسفل ورمشتا.

"سوف نعتني بها ليلى جان".. قالت إحدى النساء بطريقة توحي بأهميتها.

لقد كانت ليلى قد حضرت عدة جنازات قبل أن تلتقي بنساء مثل هذه المرأة، نساء يستمتعن بكل شيء يفعلنه وقت الموت، ناصحات مسؤولات لا يتركن أحداً يضع ملاحظة على قيامهنَّ بواجباتهن.

"كل شيء تحت السيطرة، اذهبي الآن يا فتاة وقومي بشيء آخر، اتركي أمك حيث هي"

طردت.. شعرت ليلى بأنها بلا فائدة، انتقلت من غرفة إلى أخرى، وتجولت في المطبخ بعض الوقت. دخلت حسينة وأمها، هادئتان وبلا شخصية، كأنهما ليستا نفسيهما، كذلك جيتي وأمها، عندما رأت جيتي ليلى، أسرعت إليها ووضعت يديها حولها ومنحت ليلى عناقاً طويلا جداً، ومدهشاً لقوته، عندما تراجعت كانت بركتا دمع في عينيها:

"إنني آسفة جداً، ليلى"

شكرتها ليلى، وجلست الفتيات الثلاث خارجاً في الباحة. ينتظرن إشارة واحدة من النساء لغسل الأكواب على الطاولة، بقي بابي أيضاً يمشي داخلاً وخارجاً هائماً على وجهه، باحثاً - كما يبدو - عن شيء يفعله.

"أبعديه.. عني" كانت تلك المرة الوحيدة التي قالت فيها مامي أي شيء طوال الصباح، نهض بابي وجلس وحيداً في الردهة، بدا مهجوراً وضئيلاً، قالت له إحدى النساء أنه يجلس في الطريق. فاعتذر واختفى في غرفته.

في تلك الظهيرة، ذهب الرجال إلى قاعة في كارتيه - سيه والتي استأجرها بابي من أجل العزاء، أتت النساء إلى المنزل، وأخذت ليلى مكانها بجانب مامي، بجوار مدخل غرفة المعيشة، حيث من المعتاد لعائلة الميت أن تجلس، نزعت النادبات أحذيتهن عند الباب، وأومأن بالتحية للمعزين وهن يجتزن الغرفة، جلسن على الكراسي المصفوفة على طول الجدران، شاهدت ليلى القابلة المسنة التي ولدتها واجمة. ورأت أم طارق أيضاً تلبس وشاحاً أسود فوق الشعر المستعار، أومأت ليلى وابتسمت بحزن.

من المسجل أنشد رجل ـ ذو صوت يبدو وكأنه يخرج من أنفه ـ مقاطع من القرآن، بين وقت وآخر كانت النساء تتنهد وتشهق، كان هناك صوت سعال مكتوم، همهمات، وبشكل دوري كان أحد ما يستعرض بتنهدات أليمة.

دخلت مريم زوجة رشيد، كانت تضع حجاباً أسود وخصلات من شعرها ظاهرة على جبينها، جلست على كرسي مقابل ليلى، وإلى جانب ليلى كانت مامي تتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء، وضعت ليلى يد مامي في حضنها، وضمتها بكلتي يديها، ولكن مامي لم تنتبه لها.

"هل تريدين بعض الماء مامي"؟ همست ليلى بأذنها، "هل تشعرين بالعطش"؟

ولكن مامي لم تقل شيئاً، وظلّت تتأرجح وهي تحدق، دون روح، إلى السجادة بنظرة بعيدة.

الجلوس قرب مامي، ورؤية النظرات المكتئبة والمنخفضة تبحث في الغرفة، ضخامة الكارثة التي ضربت عائلتها ستبقى داخل ليلى، الاحتمالات قلّت، والآمال تحطمت.

ولكن هذا الإحساس لن يبقى إلى الأبد، إنه من الصعب أن تشعر، حقاً، بخسارة مامي، من الصعب أن تستدعي الحزن، أن تحزن على موت أشخاص لم تفكر بهم حقيقة على أنهم أحياء في الدرجة الأولى، كان أحمد ونور بالنسبة لها مثل قصص الأدب، مثل شخصيات خرافية، ملوك في كتب التاريخ.

لقد كان طارق حقيقي، لحم ودم، طارق الذي علمها الكلمات السيئة في لهجة الباشتون، الذي يحب أوراق البرسيم المملحة، هو الذي يعبس ويخرج صوت مواء خفيف عندما يمضغ، من لديه علامة منذ الولادة ذات لون زهري خفيف تحت الرقبة في الجهة اليسرى على شكل ماندولين مقلوبة، لذا، جلست بجانب مامي، وناحت بكل واجب على أحمد ونور، ولكن في قلب ليلى كان أخوها الحقيقي حياً يرزق.

الفصل العشرون

العلل التي ستعاني منها مامي لبقية أيامها بدأت بالظهور، أوجاع الصدر والصداع ومجموعة من الآلام كالتعرّق في الليل، ألم شديد في أذنيها، وكتل لا يشعر بها أحد.. غيرها.

أخذها بابي إلى الطبيب الذي أخذ عينة من الدم والبول وأشعة (X-RAY) لجسم مامي، ولكن لم يجد أية أمراض فيزيولوجية.

تستلقي مامي في السرير أغلب الأيام، تلبس الأسود، شعرها منتوف، وقد خدشت الشامة تحت شفتها السفلى.

عندما تكون مستيقظة، تجدها ليلى تتجول في البيت، ودائماً تنتهي جولتها في غرفة ليلى، كأنها ستجد الأولاد عاجلاً أم آجلاً إذا ما استمرت بتجوالها داخل الغرفة التي احتفظت برائحتيهما، وحضنت نومهما، المكان الذي تعاركا فيه بالوسائد، لقد كانت تلاحق غيابهما.. حقاً. لدرجة أن ليلى اعتقدت، أنها أصبحت وحيدة ومنسية بالنسبة لمامي.

المهمة الوحيدة التي لم تهملها مامي هي الصلوات الخمسة، كانت تنهي كل صلاة ورأسها منخفض إلى الأسفل، يداها مفتوحتان أمام وجهها تتمتم بصلاة لله ليجلب النصر للمجاهدين.

كان على ليلى أن تتحمل الأعباء أكثر فأكثر. إذا لم تعتنِ بالبيت، فإنها ستجد الملابس، الأحذية، أكياس الأرز المفتوحة، علب الفاصولياء، الأطباق الوسخة مبعثرة في كل الأنحاء، غسلت ملابس مامي وبدلت أغطيتها، كانت تلاطفها لتخرج من السرير لأجل الحمام ووجبات الطعام، كانت هي من تكوي قمصان والدها وتطوي ملابسه الداخلية، وبالطبع أصبحت الطباخة أيضاً.

في بعض الأحيان، بعد أن تقوم بواجباتها المنزلية كانت تنسل في السرير إلى جانب مامي وتحيطها بيديها، وتعقد أصابعها بأصابع أمها، تدفن وجهها في شعرها، فتتحرك مامي وتتمتم بشيء ما، وهنا لا بد أن تبدأ بقصة عن الأولاد.

في أحد الأيام، وبينما كانتا مستلقيتان، قالت مامي:

" كان أحمد سيصبح قائداً. لديه الكاريزما لذلك، كان الناس الذين يكبرونه ثلاثة أضعاف عمره يستمعون له باحترام، لقد كان ذلك أمراً ملحوظاً، ليلى. ونور، آه نوري، كان دائماً يرسم مخططات لأبنية وجسور، كان سيصبح مهندساً معمارياً، كان سينتقل إلى كابول مع تصاميمه. والآن كلاهما استشهدا، ولديَّ، كلاهما استشهدا"

كانت ليلى مستلقية في السرير تصغي متمنية أن تلاحظ مامي بأنهالم تصبح شهيدة، بأنها حية، هنا، في السرير معها، بأن لديها آمال ومستقبل، ولكن كانت ليلى تعلم بأن مستقبلها لا يقارن بماضي أخويها، لقد خيما عليها في الحياة ودمرا حياتها في الموت، كانت مامي القيّمة على المتحف، أما هي فقد كانت مجرد زائرة، والحافظة لأوراقهما الثمينة، لتخط أسطورتيهما.

الرسول الذي أتى بالأخبار قال بأنهم قد جلبوا الأولاد إلى مخيم أحمد شاه مسعود شخصياً، ليشرف على دفنهما، وتلاوة الصلاة عليهما..

"لقد كان أخواك من الشباب المقدامين يا ليلى، حتى أن القوموندور مسعود بنفسه، أسد بانجشير، بارك الله به، أشرف على دفنهما"..

تمددت مامي على ظهرها وبدلت ليلى جلستها مريحة رأسها على صدرها. " أحياناً تقول مامي بصوت أجش: " أستمع إلى دقات الساعة في الردهة، ثم أفكر في كل التكّات والدقائق، كل الساعات، الأيام، الأشهر والسنوات التي تنتظرني، كلها بدونهما، وعندها لا أستطيع التنفس، كأن شيئاً ما يخطو في قلبي، لقد أصبحت ضعيفة جداً يا ليلى، ضعيفة وقد أنهار في أي وقت"

"أتمنى لو أن هناك أي شيءٍ أفعله لك".. قالت ليلى ذلك وهي تعنيه، لكنه بدا وكأنه سطحياً ودون اكتراث.. مثل تعزية أي شخص غريب.

قالت مامي بعد تنهيدة: "إنك فتاة جيدة ولم أكن أماً بما فيه الكفاية لك"

"لا تقولي ذلك"

"آه، ذلك مؤكد، أعلمه، وأنا آسفة لذلك يا حبي"

"مامي"

"مم"

جلست ليلى تنظر إلى مامي، كانت هناك خصلات شيب في شعرها الآن، أفزعٍ ذلك ليلى، وأدركت الحمل الكبير الذي ترزح تحته مامي. لقد كانت دائماً ممتلئة وفقدت ذلك الآن، وجنتاها غائرتان، تبدو مرهقة، كنزتها التي ترتديها فضفاضة عليها، وتوجد فجوة بين عنقها وعظم الترقوة، وقد رأت ليلى مرة خاتم الزواج ينزلق من إصبع مامي.

"لقد أردت أن أسألك شيئاً"

"ما هو"؟

بدأت ليلى: "لن تقوم بـ... لن تفعليها "

تحدثت عن ذلك مع حسينة، وبناء على اقتراح حسينة قامتا بتفريغ علب الأسبيرين في قناة، خبأتا سكاكين المطبخ وأسياخ الشوي الحادة تحت الكنبة.

وجدت حسينة حبلاً في الباحة فخبأته، وعندما لم يجد بابي شفرات الحلاقة، أخبرته ليلى بمخاوفها، تهالك على حافة الكنبة، يداه بين ركبتيه، انتظرت ليلى بعض التطمينات منه، ولكن كل ما حصلت عليه، كان الذهول، وعينان مجوفتان تحدق في الفراغ.

"لن تقومي.. مامي، أنا قلقة أنك... "

"لقد فكرت بذلك في الليلة نفسها التي سمعنا فيها الخبر".. قالت مامي.. ثم أردفت: "لن أكذب عليك، لقد فكرت بذلك منذ ذاك

الوقت، ولكن لا، لا تقلقي يا ليلى، أريد أن أرى حلم أولادي يتحقق، أريد أن أرى اليوم الذي سيغادر فيه السوفييت إلى بلادهم مكللين بالعار، اليوم الذي يصنع المجاهدون النصر إلى كابول. أريد أن أكون هناك عندما يحدث ذلك، عندما تعود أفغانستان حرة، سيرى الأولاد ذلك أيضاً، سيرونه من خلال عينيّ"

غفت مامي حالاً، تاركة ليلى لأحاسيس متناقضة، التأكد من أن مامي مصرة أن تعيش، وأنها لن تكون السبب، لم تترك ليلى أثرها في قلب مامي كما فعل أخواها، لأن قلب مامي مثل شاطئ رملي حيث آثار أقدام ليلى ستمحى للأبد تحت أمواج الحزن التي تمتد وتتلاشى.. تمتد وتتلاشى.

الفصل الحادي والعشرون

فرمل سائق التاكسي لتمر قافلة طويلة من سيارات الجيب والمركبات المدرعة السوفييتية، انحنى طارق للمقعد الأمامي خلف السائق وصرخ "باجالوستا! باجالوستا!"

أطلقت سيارة جيب بوقها، وصفّر طارق بدوره وهو يلوح بسعادة، وصرخ: "أسلحة جميلة! جيب رائعة! جيش رائع! إنه من السيئ جداً أنكم خسرتم مقابل مجموعة من الفلاحين يطلقون النار"!

مرت القافلة وعاد السائق إلى الطريق.

"كم تبعد"؟ سألت ليلى.

قال السائق: "ساعة على الأكثر، إلا إذا كان هناك مزيد من الناقلات أو نقاط التفتيش"

كانوا ذاهبين في رحلة، ليلى، بابي وطارق.

أرادت حسينة الذهاب أيضاً، توسلت إلى أبيها لكنه لم يسمح لها.

كانت الرحلة فكرة بابي، على الرغم من صعوبة أي ادخار من راتبه، ومع ذلك استأجر سائقاً لهذا اليوم، لم يكشف شيئاً عن وجهته لليلى باستثناء قوله أنه يساهم في تثقيفها، كانوا في طريقهم منذ الخامسة صباحاً، ومن خلال النافذة كانت ليلى ترى المناظر تتغير، من قمم مكسوة بالثلوج إلى صحار، وأودية.. تحت شمس تحرق حتى الصخور.

خلال الطريق مروا ببيوتٍ من الطين، وأسقفٍ من القش وحقول تبعثرت فيها حزم من القمح، مرمية هنا وهناك، لاحظت ليلى خيم البدو وبشكل متكرر هياكل الدبابات السوفييتية المحترقة وعدة طائرات هليكوبتر محطمة.

فكرت بأن هذه أفغانستان أحمد ونور، هنا في الأقاليم حيث كانت الحرب تدور وليس في كابول التي تتمتع بالهدوء، لولا أصوات

رشقات الرصاص من حين لآخر، في كابول، ولولا الجنود السوفييت الذين يدخنون على الأرصفة وسيارات الجيب السوفييتية تقفز دائماً في الشوارع لكانت الحرب مجرد إشاعة.

وصلوا في وقت متأخر من الصباح، بعد أن توقفوا عند نقطتي تفتيش، ودخلوا الوادي.

انحنت ليلى على طول المقعد وهي تتابع بابي الذي يشير إلى سلسلة من الأسوار البعيدة، ذات لون أحمر، حرقتها الشمس. فبدت مغرقة في القدم.

"هذه تسمى شاهير- إي - زوهاك ، المدينة الحمراء، كانت عبارة عن حصن، بني منذ تسعمائة سنة ليحمي الوادي من الغزاة، حفيد جنكيز خان هاجم هذا الحصن في القرن الثالث عشر ولكنه قتل، كان جنكيز خان بنفسه من دمر هذا الحصن، وتلك يا أصدقائي الشباب قصة بلدنا، الغازي بعد الآخر، قال السائق، وهو ينفض رماد السيجارة خارج النافذة: "مقدونيون، ساسانيون، عرب، مغول. والآن السوفييت. ولكننا كتلك الأسوار في الأعلى. صحيح أنها محطمة، ولا شيء جميل في النظر إليها، لكنها مازالت واقفة. أليست هي الحقيقة، بادار"؟

"فعلاً هي كذلك" قال بابي.

بعد نصف ساعة توقف السائق.

قال بابي: "تعالا أنتما الاثنان، تعالا إلى الخارج وألقيا نظرة"

نزلا من السيارة، أشار بابي: "هناك.. انظرا"

لهث طارق وليلى، عرفت ليلى بأنها حتى لو عاشت مئة عام لن ترى شيئاً بمثل هذه العظمة ثانية، تمثالا بوذا، ضخمان يحلقان أعلى بكثير من كل الصور التي شاهدتهما بها، محفوران في جرف صخري صاغته الشمس، كانا يحدقان بهما، كما كانا قبل ألفي سنة، تخيّلت ليلى، القوافل وهي تقطع الوادي على طريق الحرير. على جانبيهما، وعلى امتداد الكوتين المتدليتين كأنهما سيسقطان، كان الجرف مزدحماً بعدد لا يحصى من الكهوف.

قال طارق: "أشعر بأنني صغير جداً"

قال بابي: "هل تريد أن تتسلق إلى أعلى"

"أعلى التماثيل؟! هل باستطاعتنا ذلك؟" سألت ليلى.

ابتسم بابي وقال: "تعالا"

كان التسلق صعباً على طارق، فقد كان عليه أن يتمسك بليلى وبابي بينما هما يتسلقان أدراجاً ضيقة ومظلمة. شاهدوا كهوفاً ظليلة على طول الطريق وقنوات تخترق المنحدر من كل مكان.

قال بابي: "احذرا.. وانتبها أين تضعا أقدامكم"، كان لصوته صدى.. "الأرض خطرة"

في بعض الأجزاء كانت الأدراج مفتوحة على تجويف لبوذا. "لا تنظرا إلى الأسفل يا أولاد، انظرا أمامكما مباشرة"

بينما كانوا يتسلقون، أخبرهم بابي بأن باميان كانت مركزاً مزدهراً للبوذية، حتى سقطت وحكمت من قبل العرب المسلمين في القرن التاسع. كانت المنحدرات ذات الصخور الرملية بيوت للرهبان البوذيين الذين حفروا الكهوف فيها ليستخدموها كمربعات سكنية وملاذاً للحجّاج المرهقين.

قال بابي إن الرهبان قد قاموا بدهن جدران كهوفهم وأسقفها بطريقة جميلة.

ثم أردف: "بموقع واحد كان يعيش أكثر من خمسة آلاف راهب متعبد في هذه الكهوف"

كان طارق مقطوع الأنفاس عندما وصل إلى الأعلى، وكذلك بابي، لكن عيناه كانتا تشعان بالإثارة.

قال بابي وهو يمسح جبهته بمنديل "نحن نقف على الرأس، هناك موقع نستطيع المشاهدة منه"

تسلقوا إلى الموقع الذي كانت تتدلى منه الصخور، واقفين جنباً إلى جنب وبابي في الوسط ينظرون إلى أسفل الوادي.

قالت ليلى: "انظر إلى هذه"!.. فابتسم بابي، لقد كان وادي باميان مفروشاً بحقول مزروعة بالقمح الأخضر..

"إنها مزروعة بالقمح الشتائي الأخضر، الفلفل الحار البطاطا أيضاً".. كما قال بابي.

كانت الحقول محاطة بشجر الصفصاف تقطعها الجداول وقنوات السقي، وعلى إحدى الضفاف تبدو امرأة نحيلة تغسل الثياب وهي تجلس القرفصاء، أشار بابي إلى الأرز غير المقشور وحقول الشعير التي تغطي المنحدرات، لقد كان فصل الخريف وكانت ليلى تلحظ أناس بثياب عسكرية على أسطح المساكن الآجرية، وهم يفردون ما حصدوه ليجف.

الطريق الرئيسي الذي يمر بالمدينة كان مرصوفاً بأشجار الصفصاف أيضاً، وهناك محلات صغيرة ومقاهٍ للشاي، حلاقون على كل جهة منه. ما وراء القرية، وراء النهر والجداول شاهدت ليلى تلالاً منخفضة ذات لون بني مغبر، وراء كل هذا، كما وراء كل شيء آخر في أفغانستان، كان الثلج يكلل هيندو كوش، والسماء تبدو نقية زرقاء.

"إنه هادئ جداً".. تنفست ليلى، رأت خراف وأحصنة ولكنها لم تستطع أن تسمع أصوات ثغاء الخراف وصهيل الأحصنة.

"إنه دائماً ما أتذكره عن وجودي هنا" قال بابي.. ثم أردف: "السكون، السلام الذي فيه، أريد منكما أن تختبرا ذلك، ولكنني أريد أيضاً أن تشاهدا إرث بلادكم يا أولاد، لتعرفا عن ماضيه الغني بعض الأشياء التي لا أستطيع تعليمها لكما. البعض نتعلمه من الكتب ولكن هناك أشياء يجب أن تروها وتشعروا بها"

قال طارق: "انظرا".. كان هناك نسراً يحلق في دوائر فوق الوادي.

سألت ليلى: "هل أتت مامي معك إلى هنا"؟

"أوه، مرات كثيرة ، قبل أن يولد الأولاد وبعدها أيضاً، كانت أمك مغامرة حينها و... مليئة بالحياة، لقد كانت أكثر شخص سعيد ومحب للحياة التقيته". ابتسم للذكرى.. ثم أردف: "لقد كان لديها تلك

الضحكة وأقسم أنها السبب في زواجي منها يا ليلى، لأجل تلك الضحكة التي تخترقك وتقفي عاجزة أمامها"

موجة من الحنان غمرت ليلى، من الآن فصاعداً سوف تتذكر دائماً بابي بهذه الطريقة: ذكرياته عن مامي، يسند مرفقيه على صخرة ويده على ذقنه، شعره يتطاير مع الريح، وعيناه ترمشان من الشمس.

قال طارق: "سأذهب لأنظر إلى بعض هذه الكهوف"

قال بابي: "كن حذراً"

"سأفعل، كاكا جان" وتردد صدى صوت طارق.

شاهدت ليلى ثلاثة رجال في الأسفل البعيد يتحدثون بالقرب من بقرة مربوطة إلى السياج، حولهم، كانت الأشجار قد بدأت أوراقها بالتحول إلى اللون البني المشوب بالصفرة والبرتقالي، الأحمر القرمزي.

قال بابي: "لقد افتقدت الأولاد أيضاً، تعلمين ذلك" تندت عيناه بالدموع قليلاً، وارتجف ذقنه..

"قد لا... مع أمك، فرحها وحزنها وصلا الحد الأقصى، ولا تستطيع أن تخفي أياً منهما، لم تستطع أبداً، إنني كما أظن مختلف، حاولت .. ولكن حطمني ذلك أيضاً، موت الأولاد، أفتقدهما. لا يمر يوم.. إنه صعب جداً ليلى، صعب جداً"

ضغط الزوايا الداخلية لعينيه بإبهام وسبابة كل يد. وعندما حاول الكلام تكسر صوته، زم شفتيه على أسنانه وانتظر، أخذ نفساً طويلاً، عميقاً، نظر إليها.. وقال:

"ولكنني سعيد لأنك موجودة، كل يوم أشكر الرب لأنه منحني إياك، كل يوم، بعض الأوقات عندما تكون أمك بإحدى أيامها الصعبة أشعر أنك كل ما لدي ليلى"

اقتربت ليلى منه أكثر وألصقت وجنتها على صدره، بدا نوعاً ما مذهلاً - على عكس مامي - هو نادراً ما يعبر عن عواطفه، قبّلها على رأسها وعانقها من الخلف بشكل أخرق، وقفا هكذا لفترة وهما ينظران

إلى وادي باميان، قال بابي: "رغم أني أحب هذه الأرض كثيراً لكن في بعض الأيام أفكر بالرحيل"

"إلى أين"؟

"إلى أي مكان يسهل فيه النسيان، باكستان أولاً كما أعتقد، ربما سنة، ثم انتظار أوراقنا لتجهز"

"وبعدها"؟

"وبعدها، حسناً، إنه عالم كبير، ربما أميركا، في مكان ما قرب البحر، مثل كاليفورنيا"

قال بابي: "لأن الناس في أميركا كرماء، سيساعدون الغريب بالمال والطعام لفترة حتى يقف على قدميه"

"سأجد عملاً، وفي بضع سنوات عندما أستطيع ادخار ما يكفي من المال سأفتح مطعماً صغيرا على الطريقة الأفغانية، لا شيء خيالي إذا لم تمانع، فقط مكان متواضع، بضعة طاولات وبعض السجاد وربما أعلق بعض الصور لكابول. سنعطي الأميركيين مذاق الطعام الأفغاني، وبمساعدة أمك بالطبخ فإنهم سيصطفون على طول الشارع"

"وأنت تتابعين المدرسة بالطبع، تعرفين رأيي بهذا الخصوص، سيكون بالتأكيد من أولوياتنا أن تحصلي على تعليم جيد، المدرسة الثانوية ثم الجامعة ولكن في وقت فراغك إذا رغبت تستطيعين المساعدة، تأخذي الطلبات تملئي الأباريق، ذلك النوع من الأشياء"

قال بابي إنه سيقيم حفلات أعياد الميلاد في المطعم، وحفلات الخطوبة، واحتفالات العام الجديد، سيتحول إلى مكان لتجمع أفغانيين مثله هربوا من الحرب، في وقت متأخر بعد أن يغادر الناس وينظف المكان سيجلسوا ثلاثتهم لشرب الشاي وسط الطاولات الفارغة متعبين ولكن شاكرين حظهم الجيد، عندما انتهى بابي من الحديث، أصبح هادئاً، كلاهما كان كذلك، علماً أن مامي لن تذهب إلى أي مكان، الرحيل عن أفغانستان كان أمراً لا يجوز التفكير فيه، حتى عندما كان نور وأحمد على قيد الحياة،

فكيف وقد استشهدا؟!!.. إن حزم الأمتعة والهروب ستعتبره إهانة أكبر، خيانة، عدم إقرار بالتضحية التي قام بها أولادها.

تصورت ليلي ما قد تقوله.. كيف أمكنك التفكير بذلك؟! هل يعني لك موتهما شيئاً؟! يا ابن العم، العزاء الوحيد الذي أجده هو إدراكي أني أمشي على نفس الأرض التي شربت دماءهما، لا.. أبداً.

كانت ليلى تعلم أن بابي لن يغادر أبداً بدونها، رغم أن مامي لم تعد زوجة له كما لم تعد أم لليلى، لأجل مامي فإنه سيبعد جانباً حلم اليقظة هذا، كما ينفض بقعة طحين عن معطفه عندما يعود إلى البيت من العمل، ولذلك سيبقون حتى تنتهي الحرب، سيبقون رغم أي شيء سيأتي بعد الحرب. تذكرت ليلى أن مامي أخبرتها مرة بأنها تزوجت رجلاً لا يملك قناعات، لم تفهم مامي كيف لا يدرك، أنه إذا نظر إلى المرآة سيجد أن الشيء الوحيد الأكيد في حياته، يظهر انعكاسه في المرآة.

لاحقاً، بعد أن تناولوا غداءهم من البيض المسلوق و البطاطا مع الخبز، أخذ طارق غفوة تحت شجرة على ضفة الجدول الفوّار، نام ومعطفه مطوي كوسادة تحت رأسه، ويداه متصالبتان على صدره.

ذهب السائق إلى الوادي ليشتري اللوز، وجلس بابي تحت شجرة ضخمة يقرأ كتاباً، عرفت ليلى الكتاب لأنه قرأه لها مرة، يحكي قصة صياد مسن يدعى سانتياغو ، اصطاد سمكة ضخمة، ولكن بينما كان يبحر بمركبه إلى الشاطئ هاجم القرش ـ السمكة المذهلة ـ ومزقها إلى قطع صغيرة.

جلست ليلى على حافة الجدول واضعة قدميها في الماء البارد، وطنين البعوض فوق رأسها، كذلك أزهار بذور القطن.. "الغزلان" الهوائية ترقص حولها. ويعسوب يأزّ بالقرب منها، راقبت ليلى أجنحته التي تبرق تحت أشعة الشمس، وتلمع بلون قرمزي، أخضر، ثم برتقالي، بينما ينتقل من نبتة لأخرى.

في الجهة المقابلة للجدول، مجموعة صبية هازارا محليين يلمون روث البقر الجاف من الأرض ويضعونه في كيس ثم يحملونه على ظهورهم، في مكان ما نهق حمار وهدر صوت محرك، فكرت ليلى مرة ثانية بحلم أبيها الصغير، مكان ما قرب البحر، هناك شيء لم تخبر بابي به، فكرت به على قمة بوذا: إنها،بطريقة ما، كانت سعيدة أنهم لن يغادروا كابول، لأنها ستفتقد جيتي ووجهها الجدي، نعم وحسينة أيضاً مع ضحكتها الشريرة وأراغوزيتها المتهورة، لكن، أكثر شيء، تذكرته جيداً الأسابيع الأربعة الشاقة وغير المحتملة دون طارق عندما ذهب إلى غازني. تذكرت أيضاً كيف أن الوقت مر ثقيلاً بدونه، كيف أربكها إحساسها بأن هناك من يتربص بها، فكيف لها أن تواجه غيابه الدائم؟!

ربما كان لا معنى لرغبتها بالبقاء بجانب شخص، بشدة هنا، في هذه البلد، حيث القذائف مزقت أخويها مُزقاً، ولكن كل ما كان على ليلى أن تفعله هو تصور طارق وهو ذاهب إلى خاديم برجله، وعندها لا شيء في العالم يبدو أكثر واقعية من ذلك.

بعد ستة أشهر في نيسان من عام ١٩٨٨، أتى بابي إلى المنزل بأخبار كبيرة.

قال: "لقد وقعوا معاهدة! في جنيف، إنه كلام رسمي، سيغادرون خلال تسعة أشهر، لن يكون هناك المزيد من السوفييت في أفغانستان!"

كانت مامي جالسة في السرير، هزت كتفيها، قالت:

"ولكن النظام الشيوعي باق، إن الرئيس نجيب لعبة السوفييت، لن يذهب إلى أي مكان، لا، الحرب ستستمر، هذه ليست النهاية"

قال بابي: "لن يخلّد نجيب"

"إنهم مغادرون مامي! بالفعل إنهم مغادرون"!!

"احتفلا أنتما الاثنين إذا رغبتما بذلك ولكني لن أرتاح حتى يتم عرض النصر للمجاهدين هنا بالضبط في كابول"

وعند ذلك استلقت ثانية وسحبت الغطاء.

الفصل الثاني والعشرون

كانون الثاني ١٩٨٩

يوم بارد من أيام كانون الثاني ١٩٨٩ ، ثلاثة أشهر قبل أن تصبح ليلى في الحادية عشر من عمرها، ذهبت مع والديها وحسينة لمشاهدة القوافل السوفييتية تخرج من المدينة، تجمعت الحشود على جانبي الطريق العام خارج النادي العسكري قرب وزير أكبر خان، وقفوا على الثلج الموحل وراقبوا خط الدبابات والشاحنات المدرعة وسيارات الجيب، بينما الثلج الخفيف يتساقط متوهجاً على الأضواء الأمامية العابرة، كان هناك كلام محرج وساخر، حاول الجنود الأفغان إبقاء الناس بعيدين عن الشارع ومن حين لآخر كان عليهم إطلاق طلقة تحذيرية.

رفعت مامي صورة أحمد ونور عالياً فوق رأسها كانت الصورة التي تظهرهما جالسين ظهراً إلى ظهر تحت شجرة الأجاص، كان هناك نساء أخريات مع صور مرفوعة عالياً لأزواجهن الشهداء، أبنائهن، أخوتهن.

أحد ما ربت على كتفي ليلى وحسينة، كان طارق.. "من أين حصلت على هذا الشيء"؟ صرخت حسينة.

قال طارق: "ظننت أنه من المناسب أن أرتدي ذلك للمناسبة".. كان يلبس قبعة روسية ضخمة ذات فراء، لها وصلات تغطي الأذنين، سحبها إلى الأسفل.. "كيف أبدو؟"

ضحكت ليلى: "سخيف"

"تلك هي الفكرة"

"هل أتى والداك معك، وأنت ترتدي تلك القبعة.. بهذه الطريقة"؟!!

قال طارق: "بالواقع إنهما بالمنزل"

الخريف الماضي، مات عم طارق في غازني إثر أزمة قلبية، وبعدها بعدة أسابيع عانى والد طارق من أزمة قلبية أيضاً خلفته ضعيفاً ومتعباً، ومبالاً إلى الهياج مع نوبات من الكآبة تستمر أحياناً لأسابيع.

كانت ليلى مسرورة لرؤية طارق هكذا، مثلما كان في السابق.

لأسابيع بعد مرض والده لاحظت ليلى بأنه مكتئب، وجهه ثقيل وغاضب. تسلل ثلاثتهم بعيداً، بينما بابي ومامي واقفان يشاهدان رحيل السوفييت، من شارع بائعي الصحف اشترى طارق لكل واحد منهم طبقاً من البازلاء المقلية مع صلصة الكزبرة الكثيفة، أكلوا تحت مظلة لمحل سجاد مغلق، ثم ذهبت حسينة لتجد والديها.

في طريق العودة بالباص، جلس طارق وليلى خلف والديها. كانت مامي جالسة بالقرب من النافذة تنظر إلى الخارج وهي تحضن صورة ولديها، بجانبها كان بابي يستمع، دون اهتمام، إلى رجل كان يجادل بأن السوفييت قد يرحلون ولكنهم سيستمرون بإرسال الأسلحة إلى نجيب الله في كابول: "إنه لعبتهم. سيبقون الحرب مستمرة من خلاله، يمكنك أن تراهن على ذلك"

شخص ما في الجانب الثاني أعلن موافقته.

كانت مامي تدمدم بصلاة طويلة تكررها وتكررها إلى أن ينقطع نفسها فتشهق بالكلمات الأخيرة بصوت متقطع وضعيف.

لاحقاً في ذلك اليوم، ذهبا إلى سينما الحديقة جلس طارق وليلى ليشاهدا فيلماً سوفييتياً دُبلج إلى الفارسية. كوميديا غير متعمدة. سفينة تجارية ونائب قبطان يقع بحب ابنة القبطان، اسمها أليونا، هبت عاصفة عنيفة ترافقت مع برق ومطر، البحر المضطرب جعل السفينة تتمايل. صرخ أحد البحارة المهتاجين بشيء ما، وبصوت أفغاني هادئ ومناف للمنطق: "سيدي العزيز هل تسمح وتناولني الحبل"؟

عندها انفجر طارق ضاحكاً، وسريعاً كان الاثنان بين قبضتي نوبة من الضحك الميؤوس منه، وعندما يتعب أحدهما، كان الآخر ينخر، ويعودان للانطلاق في جولة أخرى من الضحك، رجل يجلس على بعد

صفين منهما التفت وأسكتهما، كان هناك مشهد زفاف قبل النهاية، رق قلب القبطان وأذن لأليونا بالزواج من نائب القبطان، يبتسم العروسان لبعضهما، والكل يشرب الفودكا.

همس طارق: "لن أتزوج أبداً"

"أنا أيضاً".. قالت ليلى، لكن ليس قبل لحظة تردد وعصبية، قلقت من أن صوتها قد خانها وأظهر خيبتها مما قال. ودق قلبها بشدة، ثم أضافت، بحزم أكثر هذه المرة: "أبداً"

"الأعراس سخيفة"

"كل هذه الضجة"

"كل النقود التي تصرف"

"لأجل ماذا"؟

"من أجل ملابس لن ترتديها مرة ثانية"

"ها"!!

قال طارق: "إذا كان علي أن أتزوج، فعليهم أن يتركوا مساحة لثلاثة، أنا، عروسي، والرجل الذي يضع المسدس في رأسي"!!

الرجل في الصف الأمامي أعطاهما نظرة تحذيرية أخرى.

على الشاشة، أليونا وزوجها الجديد كانا يقبلان بعضهما.

وفي مراقبتها للقبلة، أحست ليلى بإحساس واضح وغريب، كانت واعية بشدة وقلبها يخفق بعنف، الدم يتدفق في أذنيها، وشكل طارق بجانبها، متشنج، متصلب، استمرت القبلة، بدت القبلة لليلى منتهى الإلحاح، لدرجة أنه فجأة لم تعد تحرك عضلة أو تصدر ضجة، شعرت أن طارق كان يراقبها ـ عين على القبلة، وعين عليها ـ كما كانت تراقبه، هل كان يستمع إلى صوت الهواء يدخل ويخرج من أنفها، تساءلت. منتظرة هذا التهدج غير الواضح وعدم الانتظام الفاضح، أن يعرّي أفكارها؟

ما الإحساس الذي ستشعر به عندما تقبله وتحس بالشعر النابت فوق شفته يخز شفتيها؟

عندها تحرك طارق بغير ارتياح في مقعده، وبصوت متكلف، قال:
"هل تعلمين أنك إذا قذفت مخاط في سيبيريا سيصبح قطعة جليدية خضراء قبل أن يلامس الأرض"؟

ضحك الاثنان، ولكن بعصبية ولفترة وجيزة هذه المرة. انتهى الفيلم وخرجا، كانت ليلى مرتاحة لعتمة السماء حتى لا تلتقي عينا طارق بعينيها في ضوء النهار.

الفصل الثالث والعشرون

نيسان، ١٩٩٢

مرت ثلاث سنوات.

في ذاك الوقت، عانى والد طارق من عدة جلطات، جعلت من يده اليسرى ثقيلة مع تلعثم خفيف في كلامه عندما يغيظه أحد، وهذا يحدث بشكل متكرر، لذلك فإن التلعثم يصبح أسوأ.

نمت رجل طارق، فأوصى على رجل جديدة من الصليب الأحمر وكان عليه أن ينتظر ستة أشهر ليحصل عليها.

وكما كانت تخشى حسينة، فقد أخذها أهلها إلى لاهور حيث ستتزوج ابن العم الذي يمتلك قطع غيار، في الصباح الذي أخذوها فيه ذهبت ليلى وجيتي إلى بيت حسينة لوداعها، أخبرتهم حسينة بأن ابن العم الذي سيصبح زوجها بدأ بالإجراءات لانتقالهما إلى ألمانيا في غضون سنة حيث يعيش أخوتها، وحسب ما تظن أنهما سيعيشان في فرانكفورت، بكت الفتيات الثلاث وتعانقن ثلاث مرات، وكانت آخر مرة ترى حسينة فيها، وهي تركب السيارة بمساعدة والدها في المقعد الخلفي المزدحم. أما جيتي فقد شعرت أن لا عزاء لها.

بدا لليلى أن الاتحاد السوفييتي قد تفتت بسرعة مذهلة، كل بضعة أسابيع، كان بابي يأتي إلى المنزل مع أخبار عن آخر جمهورية أعلنت استقلالها، ليتوانيا، أستونيا، أوكرانيا. أنزل العلم السوفييتي عن الكريملين، ولدت جمهورية روسيا. في كابول، غير نجيب الله تكتيكه وحاول أن يصور نفسه كإسلامي ورع. "أتى هذا متأخراً".. كما قال بابي.. ثم أردف: "لا يمكن أن تكون رئيس (KHAD) في يوم، وفي اليوم التالي تصلي في المسجد مع أناس عُذِّب وقُتل أقاربهم"

بدا أن كابول قد أصبحت مطوقة، أو أن المشنقة قد ضاقت عليها، فحاول نجيب الله التوصل إلى اتفاقية مع المجاهدين، ولكنهم رفضوا، من سريرها قالت مامي: "مرحى لهم"!! استمرت مامي بقيامها الليلي والصلاة للمجاهدين وانتظرت استعراضها، بسقوط أعداء أبنائها.

وبالنهاية، سقطوا، في نيسان ١٩٩٢، السنة التي أصبح عمر ليلى فيها أربعة عشر عاما.

استسلم نجيب الله أخيراً، وأُعطي ملاذاً في مقر الأمم المتحدة قرب قصر دارولامان جنوبي المدينة.

انتهى الجهاد، مختلف الأنظمة الشيوعية التي أمسكت السلطة، منذ الليلة التي ولدت ليلى فيها، هزمت كلها. أبطال مامي، الأخوة في حرب أحمد ونور انتصروا، والآن بعد أكثر من عشرة سنين من التضحية بكل شيء، من مغادرة عائلاتهم للعيش في الجبال والقتال لأجل سيادة أفغانستان، المجاهدون كانوا قادمين إلى كابول، بلحمهم، دمهم، وعظامهم التي أرهقتها المعارك.

مامي تعلم كل أسمائهم.

كان هناك دوستوم، القائد الأوزباكي المتوهج، قائد جماعة جونبيش ـ آي ـ ميللي الذي كان معروف عنه أنه يغير ولاءه.

القوي والواثق غولبيدين حكمتيار، قائد جماعة الحزب الإسلامي، من الباشتون، الذي درس الهندسة وقتل مرة طالب ماوي. ربّاني من الطاجيك قائد جماعة (الجمعيات الإسلامية) درس الإسلام في جامعة كابول أيام الملكية. سيّاف، باشتوني من باغمان لديه اتصالات مع العرب، مسلم جريء وقائد جماعة الاتحاد الإسلامي، عبدول علي مازاري، قائد جماعة حزب الوحدة، معروف ببابا مازاري بين أتباعه الهازارا، لديه ارتباطات شيعية مع إيران.

وبالطبع هناك بطل مامي، تحالف رابّاني، القائد الطاجيكي، الحصن، المؤثر، أحمد شاه مسعود، أسد بانجشير، علقت له مامي صورة في غرفتها، كان مسعود وسيماً، وجه متأمل، بحاجبين معقوفين

وباكوله المائل "علامته الشهيرة".. سيصبح حاضراً في كابول كلها، عيناه السوداويتان المليئتان بالروح سوف تحدق من لوحات الإعلان، الجدران، واجهات المحلات الأمامية، من الأعلام المرفوعة على هوائي سيارات الأجرة.

بالنسبة لمامي، كان هذا هو اليوم الذي تاقت إليه كثيراً، فقد حقق ذلك آمالها بعد كل سنوات الانتظار. أخيراً تستطيع أن تنهي قيام الليل، ويستطيع أولادها أن يرقدوا بسلام.

اليوم التالي لاستسلام نجيب الله، نهضت مامي من السرير امرأة جديدة، للمرة الأولى منذ خمس سنوات، منذ استشهاد أحمد ونور لم ترتدِ الأسود، ارتدت فستان من القماش الأزرق الكوبالتي بخرز البولكا البيضاء. نظفت النوافذ، ومسحت الأرض، فتحت النوافذ لتهوية المنزل، وأخذت حماماً طويلاً، كان صوتها يتهدج بالفرحة.

أعلنت: "سنقيم حفلة".. وأرسلت ليلى لتدعو الجيران..

"أخبريهم أننا سنقيم وليمة كبيرة غداً"!!

في المطبخ، وقفت مامي تنظر حولها، يداها على وركها، وقالت بعتاب محبب: "ماذا فعلت بمطبخي ليلى؟ وووي، لا شيء في مكانه"

بدأت بترتيب القدور والمقالي بشكل مسرحي كأنها تحتل مكاناً جديداً، الآن لقد عادت، ابتعدت ليلى عن طريقها، كانت مامي لا تقهر في نوبات الغبطة كما بنوبات الغضب، طاقة لا تخبو، بدأت بالطبخ: شوربة الكلاوي، بازلاء مع الأعشاب العطرة، الكفتا، المانتو المغلي المنقوع باللبن الطازج والنعناع.

"أنت تنتفين حواجبك".. قالت مامي، بينما كانت تفتح كيساً كبيراً من الخيش فيه أرز على طاولة المطبخ.

"القليل فقط".

دلقت مامي الأرز في قدر كبير أسود مملوء بالماء، ثنت أكمامها وبدأت بالتحريك.

"كيف حال طارق"؟

قالت ليلى: "والده مريض"
"كم عمره الآن على أي حال"؟
"لا أعلم، ربما ستين عاماً"
"قصدت طارق"
"آه، ستة عشر عاماً"
"إنه ولد جيد، أليس كذلك"؟
هزت ليلى كتفيها.
"لم يعد ولد بعد الآن، أليس كذلك"؟
"ستة عشر عاماً، على الأغلب أصبح رجلاً، ألا تظنين ذلك"؟
"ما الذي تلمحي إليه مامي"؟
"لا شيء".. قالت مامي، وهي تبتسم ببراءة..
"لا شيء، إنه فقط... آه، لاشيء، الأفضل ألا أقول"
" أرى أنك تريدين ذلك" قالت ليلى مغتاظة من (اللف والدوران) وهذه الاتهامات المداعبة.

"حسناً" وضعت مامي يديها على حافة القدر، أحست ليلى بشيء غير طبيعي، كأنه مدروس، من الطريقة التي قالت بها "حسناً" ومن طريقة وضع يديها، أحست بالخوف من الحديث القادم.

" لقد كان شيئاً غير مؤذي عندما كنتما صغيران تلعبان. لا خطأ في هذا، لقد كان ساحراً، ولكن الآن. الآن. لاحظت أنك ترتدين حمالة الصدر.. ليلى"

تفاجأت ليلى.

"كان بإمكانك إخباري، بالمناسبة، عن حمالة الصدر. لم أكن أعلم، لقد شعرت بالخيبة لعدم إخبارك إياي"

شاعرة بتفوقها، أكملت مامي ضغطها.

"على أية حال، هذا لا يتعلق بي أو بحمالة الصدر. إن هذا يتعلق بك وبطارق. إنه صبي، كما ترين، وعلى هذا، ما الذي يهمه في (السمعة)؟! ولكن أنت؟! سمعة الفتاة، خاصة فتاة بجمالك، إنه أمر

حساس، ليلى. كببغاء ميناه بين يديك.. يفلت من قبضتك، ويطير مبتعداً"

"وماذا عن تسلقك للجدار، تجولك خلسة مع بابي في البساتين"؟ قالت ليلى وهي سعيدة باكتشافها السريع.

"لقد كنا أبناء عم، وتزوجنا، هل طلب هذا الصبي يدك للزواج"؟

"إنه صديق وليس هناك شيء بيننا" قالت ليلى، لكنها بدت دفاعية، وغير مقنعة كثيرا.

" إنه كأخ بالنسبة لي" أضافت.. مضللة. كانت تعلم، قبل أن يكفهر وجه مامي وتُعتم ملامحها، أنها اقترفت خطأً.

"إنه ليس كذلك" قالت مامي بحزم.. ثم أردفت: " لن تشبّهي ذاك الولد ذا الرجل الواحدة، ابن النجار بأخويك. لا أحد مثل أخويك"

"لم أقل أنه... ليس هذا ما قصدته"

تنهدت مامي من أنفها وصرّت على أسنانها.

"على أية حال".. استأنفت الحديث لكن دون تلك اللهجة الخجولة القلبية كما منذ بضع لحظات..

"ما أحاول قوله، إن لم تكوني حذرة فإن الناس سيتكلمون"

فتحت ليلى فمها لتقول شيئاً.. لكنها سكتت لعلمها أن أوقات البراءة، والتسكع في الشوارع مع طارق قد ولّت. منذ بعض الوقت، بدأت ليلى تشعر بغرابة من نوع جديد، خصوصاً عندما تكون مع طارق في العلن. أصبحت تحتاط من أن الناس تنظر، تفحص، تهمس حول هذا الأمر الذي لم تشعر به ليلى من قبل، أبداً. ولم تكن لتشعر به لولا حقيقة أساسية: أنها قد وقعت في حب طارق. دون أمل وبشكل ميؤوس منه. عندما يكون قريباً، لا تستطيع منع نفسها من التفكير في أكثر الأفكار (الفاحشة).. جسمه العاري مائلاً ومتشابكاً مع جسدها.. مستلقية في السرير ليلاً، وهو يقبل بطنها، تتساءل عن نعومة شفتيه، أن تشعر بيديه على عنقها، صدرها، ظهرها، وأسفل ظهرها. عندما تفكر فيه بتلك الطريقة ينتابها الإحساس بالذنب، لكنه مترافق

مع إحساس دافئ ينتشر من بطنها، إلى أعلى.. حتى تشعر بأن وجهها قد أصبح ورديا. لا، لقد كانت مامي محقة أكثر مما تعرف، في الواقع، توقعت ليلى أن بعض الجيران، إن لم يكن أغلبهم، يثرثرون عنها وعن طارق.

لاحظت ليلى الابتسامات الخجولة، وأدركت همسات الجوار بأنهما يشكلان ثنائياً، البارحة، على سبيل المثال، كانت هي وطارق يتمشيان معاً، عندما مرا برشيد صانع الأحذية ومعه زوجته "الملفوفة" بالبرقع، قال رشيد بسخرية: "ليلى والمجنون"!! مشيراً إلى الحبيبين "متقاطعي الأنجم" في قصيدة نظامي الرومانسية الشعبية من القرن الثاني عشر - نسخة فارسية عن روميو وجولييت، قال بابي: "إن نظامي كتب حكايته عن قدر الحبيبين التعس قبل أربعة قرون من شكسبير"

مامي كانت على صواب.

الذي اعتمل في صدر ليلى أن مامي لا تملك الحق لتحكم عليهما. بابي الوحيد الذي يحق له التحدث بهذا الأمر. لكن مامي؟! كل هذه السنوات من العزلة، من حبس نفسها وعدم اهتمامها إلى أين ذهبت ليلى ومن رأت وبماذا تفكر، هذا غير عادل. شعرت ليلى أنها ليست أفضل من هذه القدور والمقالي، شيء يمكن أن يمر مُتَجاهَلاً، ثم يلام عند الرغبة وحسب المزاج.

إلا أن هذا اليوم يوماً كبيراً، يوماً مهماً لجميعهم، سيكون من المؤسف تعكيره هكذا، لأجل ذلك، تركت ليلى الأمر يمر.

قالت: " لقد فهمت وجهة نظرك"

"جيد"!! قالت مامي.. ثم أردفت:

"إذاً هذا الأمر قد حُل، أين حكيم؟ أين، آه أين هو، هل هذا زوج لطيف وحلو لي"؟

كان يوماً مشمساً دون غيوم، يوم مثالي لإقامة حفلة، جلس الرجال على الكراسي في الباحة، يشربون الشاي، يدخنون، يتحدثون بأصوات عالية ممازحة عن خطة المجاهدين. علمت ليلى من بابي

الخطوط الأساسية لها: أصبحت أفغانستان الآن الجمهورية الأفغانية الإسلامية. تشكّل مجلس الجهاد الإسلامي في بيشاور من عدة جماعات للمجاهدين، سيشرفون على الأمور لشهرين بقيادة صبغة الله موجاديدي، سيتبع هذا مجلس للقادة بقيادة ربّاني الذي سيتولى الأمر لأربعة أشهر. خلال الستة أشهر هذه سينعقد لويا جيرغا "مجلس كبير" من القادة والمشايخ الذين سيشكلون حكومة مؤقتة لتمسك بالسلطة لسنتين، وتقود إلى انتخابات ديمقراطية.

أحد الرجال كان يهوّي على أسياخ لحم الحمل التي تئز من الدهن المتساقط من جراء تبديل الشبكة المعدنية للشواء، كان بابي ووالد طارق يلعبان الشطرنج في ظل شجرة الأجاص القديمة، تبدو على وجهيهما شدة التركيز، وكان طارق بجانبهما يراقب اللعبة ويستمع إلى محاورة سياسية عند الطاولة المجاورة.

تجمعت النسوة في غرفة المعيشة، الردهة والمطبخ، يتبادلن الحديث وهن يهززن أطفالهن ويتفادين بمهارة - بهزات موقوتة من أوراكهن - الأولاد الذين يبكون وهم يلاحقون بعضهم حول المنزل. غزلية أوستاد ساراهانغ كان تصدح من المسجلة.

كانت ليلى في المطبخ، تصنع دوراق الدوف مع جيتي. لم تعد جيتي الخجولة والجدية التي كانت عليها سابقاً. لعدة أشهر، العبوس الصارم الدائم اختفى من حاجبها. تضحك بأريحية هذه الأيام، ومما فاجأ ليلى أن جيتي قد أصبحت مولعة بالمغازلة. لقد انتهت من أيام تجديل شعرها، فتركته يطول، ولوّنت خصلاً منه بالأحمر. علمت ليلى أن الحافز وراء هذا التغيير فتى في التاسعة عشر من عمره جذب انتباه جيتي، اسمه صابر، وكان حارس مرمى في فريق كرة القدم الذي يلعب فيه أخوها الكبير.

" أوه، لديه أحلى إبتسامة، شعره أسود كثيف"! أخبرت جيتي ليلى.. لا أحد يعلم شيئاً عن علاقتهما، جيتي التقت به مرتين بالسر

لشرب الشاي، لخمس عشرة دقيقة كل مرة، في مقهى على الجانب الآخر من المدينة، في تايماني.

"سوف يطلب يدي ليلى! ربما في وقت مبكر هذا الصيف، أتصدقين هذا، أقسم أني لا أستطيع التوقف عن التفكير به"

"ماذا عن المدرسة"؟ سألت ليلى، رفعت جيتي رأسها ونظرت إليها نظرة معناها أن كلانا يعرف أفضل من هذا، مع الوقت سنصبح في العشرين من عمرنا، وكما اعتادت أن تقول حسينة، جيتي وأنا سيكون لدينا أربع أو خمس أطفال ولكن أنت يا ليلى ستجعلين منا حمقاوتين فخورتين، ستكونين شخصاً ما، أعلم أني في أحد الأيام سأمسك بجريدة وأجد صورتك على الصفحة الرئيسية.

كانت جيتي بجانب ليلى تقطع الخيار ونظرة بعيدة حالمة على وجهها، وكانت مامي قريبة بفستانها الصيفي المتألق، تقشر البيض المسلوق مع واجمة القابلة وأم طارق.

"سوف أفاجئ القائد مسعود بصورة لأحمد ونور" كانت مامي تقول لواجمة بينما واجمة تومئ برأسها محاولة أن تبدو مهتمة وصادقة.

"هو شخصياً أشرف على الدفن، قام بتلاوة الصلاة على قبريهما، سوف تكون عربون شكر للياقته"

كسرت مامي بيضة أخرى: " سمعت بأنه رجل كثير التفكير ونبيل، أظن أنه سيقدر ذلك"

الكل حولهم، النساء تدخل وتخرج إلى المطبخ يحملن طاسات الكورما ،الأطباق الكبيرة من الماستاوا، و أرغفة الخبز ويرتبنها على طول المائدة المفروشة في أرضية غرفة المعيشة.

من حين لآخر، يدخل طارق، متسكعاً فيأخذ من هذه ويقضم من تلك.

قالت جيتي: "غير مسموح للرجال"!!

"اخرج! اخرج! اخرج!" صرخت واجمة

ابتسم طارق لتقليعة المرأة صاحبة الحس الجيد بالدعابة. بدا أنه يستمتع بكونه غير مرحب به هنا، بكونه دخيلاً على هذا الجو النسائي باستخفافه نصف المداعب، نصف الرجولي.

بذلت ليلى جهدها كي لا تنظر إلى طارق، حتى لا تعطي هؤلاء النسوة فرصة لإغناء ثرثرتهن أكثر مما فعلن. لذا أبقت عينيها منخفضتين ولم تقل له شيئاً، ولكنها تذكرت حلماً منذ بضعة ليال عن وجهه ووجهها معاً في المرآة، بالقرب من ستار أخضر ناعم وحبات من الأرز تسقط من شعره على الزجاج مصدرة "تينك".

مد طارق يده ليأخذ قطعة من لحم العجل المطبوخ مع البطاطا.. فصفعت جيتي قفا يده.. قائلة:

"هو باتشا! (بس يا ولد!)".. لكن طارق اختلس قطعة اللحم على أي حال.. وضحك.

كان أطول من ليلى بقدم تقريباً، حليقاً، وجهه أصبح أكثر صحة، عظامه أقل بروزاً. عرض كتفيه ازداد. يحب طارق أن يرتدي بناطيل ضيقة، أحذية جلدية سوداء لامعة، وقمصان بأكمام قصيرة لتظهر عضلات ذراعيه الجديدة - بفضل زوج من الأثقال القديمة الصدئة التي يرفعها بشكل يومي في باحة منزله. كان وجهه قد تبنى تعبيراً عابساً لعوباً. أصبح يهز رأسه بطريقة مُدْركة عندما يتكلم، قليلاً إلى الجانب. ويقوس حاجبه عندما يضحك. ترك شعره ينمو واسترسل في عادة سيئة من ركل ما يعترض طريقه بشكل غير ضروري غالباً.

المرة الأخيرة التي طرد فيها طارق من المطبخ، أمسكت أمه ليلى وهي تختلس نظرة إليه، قفز قلب ليلى ورمشت عيناها كأنها مذنبة، شغلت نفسها سريعاً بوضع الخيار المقطع في صحن السلطة وصبت فوقه اللبن ولكنها أحست أن أم طارق تراقبها، وأنها تعرف، لقد (صادقت) بنصف ابتسامة.

ملأ الرجال صحونهم وكؤوسهم وأخذوا وجباتهم إلى الباحة، في حين جلس الأطفال مع النساء يتناولون الطعام على المائدة.

بعد أن نُظفت المائدة وكُدست الأطباق في المطبخ. بدأ جنون إعداد الشاي، وتذكّر من يشرب شاياً أخضر ومن يشربه أسود، عندها أشار طارق برأسه وتسلل خارجاً من الباب.

انتظرت ليلى خمسٍ دقائق، ثم تبعته، وجدته على بعد ثلاثة منازل أسفل الشارع، متكئاً على الحائط عند مدخل الزقاق بين البيوت المتجاورة، كان يدندن بأغنية باشتونية قديمة، لأوستاد آوال مير:

هذه أرضنا الجميلة..

هذه أرضنا المحبوبة..

كان يدخن، عادة جديدة أخرى، التقطها من فتيان كانت ليلى تراه يتجول معهم هذه الأيام، لم تكن ليلى تستطيع أن تحتمل هؤلاء الأصدقاء الجدد لطارق، كلهم يلبسون بنفس الطريقة، بناطيل ضيقة، قمصان مشدودة تضيق على صدورهم وأذرعهم، يضعون الكثير من الكولونيا، وكلهم يدخنون.

يتسكعون في الجوار بمجموعات، يمزحون، يضحكون عالياً وحتى أنهم يلاحقون الفتيات بنفس الغباء والإحساس بالرضا الذي يظهر على وجوههم، أحد أصدقاء طارق كان أكثر الأشخاص شبها بسلفستر ستالون، ومصراً على مناداته برامبو.

"ستقتلك أمك إذا عرفت أنك تدخن" قالت ليلى وهي تنظر من جهة لأخرى قبل أن تدخل إلى الزقاق.

قال: "ولكنها لا تعلم"، تنحى قليلاً ليفسح لها مجالاً.

"هذا قد يتغير"

"ومن سيخبرها؟ أنت؟"

ضربت ليلى الأرض بقدمها: "أخبر سرك للريح ولكن لا تلمها إن أخبرت الأشجار"

ابتسم طارق رافعاً حاجبه: "من قال ذلك"؟

"خليل جبران"

"إنك متباهية"

"أعطني سيجارة" هز برأسه لا ، وصالب ذراعيه.

ظهره إلى الحائط ويداه متصالبتان ، تتدلى سيجارة من زاوية فمه ، رجله السليمة منثنية ، هذه إحدى وقفاته الفنية.

"لماذا لا ؟"

قال : "إنها سيئة لك"

"وليست سيئة لك"؟

"أنا أدخن من أجل الفتيات"

"أية فتيات"؟

ابتسم بتكلف : "يظنون أن ذلك مثير"

" إنه ليس كذلك"

"لا.."؟!

"أؤكد لك"

"ليس مثيراً"؟!

"تبدو كشخص غريب"

قال : "هذا محرج"

"أية فتيات على أي حال"؟

"إنك تغارين"

"فضول ، لكني لست مهتمة"

"لا تستطيعي أن تكوني الاثنان معاً" أخذ رشفة من سيجارته وحدق من خلال الدخان.. "أراهن أنهم يتكلمون عنا الآن"

كان صوت مامي ما يزال يدق في رأس ليلى ، كببغاء الميناه بين يديك. يفلت من قبضتك ويطير بعيداً.

أحست بالذنب ثم أبعدت صوت مامي من رأسها ، تلذذت بالطريقة التي قال بها طارق "نحن" ، كم كانت مثيرة ، تآمرية ، بدت وهي تصدر منه. وكم كان مطمئناً أن تسمعه يقولها بتلك الطريقة ـ بشكل عادي ، طبيعي.. (نحن).. مفردة اعترفت برباطهما ، وبلورته.

"وما الذي يقولونه"؟

"أننا نبحر في نهر الخطيئة، نأكل من كعكة المعصية"
"في مركبة الشر"؟.. قالت ليلى.
"ندنس المقدسات".. وضحك كلاهما، انتبه طارق إلى أن شعرها أصبح أكثر طولاً فقال: "إنه جميل"
تمنت ليلى لو أنها لم تحمر خجلاً.
"لقد غيرت الموضوع"
"عن ماذا"؟
"عن الفتيات فارغات الرؤوس، واللواتي يظنن أنك مثير"
"أنت تعلمين"
"أعلم ماذا"؟
"إنني أملك عينين فقط لأجلك"
أغمي على ليلى من الداخل، حاولت قراءة وجهه لكنها قوبلت بنظرة عويصة: الضحكة المسرورة الخرقاء، كانت مختلفة عن النظرة نصف اليائسة في عينيه. نظرة ذكية، محسوبة لأن تسقط بدقة في نقطة المنتصف بين المكر والصدق.
سحق طارق سيجارته بكعب قدمه السليمة: "إذاً، ما رأيك بكل هذا"؟
"الحفلة"؟
"من الغبي الآن؟ قصدت المجاهدين ليلى، مجيؤهم إلى كابول"
"آه" بدأت بالكلام عن شيء قاله بابي عن مشاكل الزواج بقوة السلاح والكبرياء، عندها سمعت جلبة من المنزل. أصوات عالية. وصراخ.
ركضت ليلى، وعرج طارق خلفها. كانت هناك معركة في الباحة، في منتصفها كان رجلان يزمجران، يتدحرجان على الأرض، وسكين بينهما. تعرفت ليلى على أحدهما، الرجل الذي كان على الطاولة يناقش بالسياسة مسبقاً. الآخر هو الذي كان يهوّي على أسياخ الكباب.

عدة رجال كانوا يحاولون تفريقهما، لم يكن بابي بينهم، كان واقفاً بجانب الجدار على مسافة آمنة من القتال مع والد طارق الذي كان يصرخ.

من خلال الأصوات المتحمسة حولها، استطاعت ليلى أن تجمع بعض الأمور وتركبها مع بعضها: الشخص الذي كان يناقش في السياسة من الباشتون، قال عن أحمد شاه مسعود أنه خائن لإبرامه اتفاقية مع السوفييت في عام ١٩٨٠، رجل الكباب من الطاجيك اعتبرها إساءة وطالب بإعادة اعتبار، رفض رجل الباشتون فقال رجل الطاجيك: "إذا لم يكن من أجل مسعود، فمن أجل أخت الرجل الآخر التي ما تزال (تقدمها) للجنود السوفييت. وعندها وصلوا إلى حد الانفجار. أحدهم لوح بسكين، لم يعرف بالضبط مَن، وعلى مَن.

برعب رأت ليلى طارق وهو يرمي بنفسه وسط الشجار ورأت أيضاً بعض صانعي السلام يوجهون اللكمات لبعضهم البعض أيضاً، ولمحت سكين أخرى.

في المساء، فكرت ليلى كيف انتهت هذه المعركة، الرجال يتساقطون فوق بعضهم وسط صرخات، بكاء، صيحات ولكمات طائشة، ووسط ذلك كله، طارق المتجهم، شعره مشعث، رجله مفكوكة وهو يحاول الخروج زحفاً.

لقد كان شيئاً مدوخاً كيف انكشفت الأمور بسرعة.

تشكّل مجلس للقادة قبل الأوان وانتخبوا ربّاني رئيساً، نددت الجماعات الأخرى بذلك على أنه محاباة للأقارب، دعا مسعود للهدوء الصبر، استثنى حكمتيار، أغضب ذلك الهازاريين بتاريخهم الطويل من الاضطهاد، التجاهل، والغليان.

قذفت الإهانات، أشارت الأصابع وتدفقت الاتهامات، انعقدت الاجتماعات الغاضبة وصُفقت الأبواب. أمسكت المدينة أنفاسها. في الجبال عبئت الذخيرة بسرعة في بنادق الكلاشنكوف، تسلح

المجاهدون، تسلحوا حتى رؤوسهم، ولكن الآن، يفتقدون عدواً مشتركاً، فوجدوا العدو في بعضهم البعض.

يوم قصف كابول بالصواريخ أتى أخيرا.

وعندما بدأت الصواريخ تمطر كابول، هرع الناس للاختباء، وكذلك فعلت مامي، مؤخرا غيّرت مامي ملابسها إلى الأسود مجدداً ودخلت غرفتها، أغلقت الستائر، ورفعت البطانية إلى ما فوق رأسها.

الفصل الرابع والعشرون

"إنه الصفير" قالت ليلى لطارق..

"الصفير اللعين، إني أكرهه أكثر من أي شيء آخر"

أومأ طارق إيماءة مدركة.

إنه ليس الصفير بحد ذاته، فكرت ليلى مؤخراً، بل الثواني بين بدايته والانفجار.

الثواني التي لا تنتهي من الإحساس بأنك معلق. أن لا تعرف، سوى الانتظار مثل متهم على وشك أن يسمع قرار المحلفين، غالباً ما يحدث ذلك عند العشاء، بينما ليلى جالسة وبابي إلى المائدة. عندما تبدأ صافرة الخطر، يرتفع رأساهما بسرعة، يستمعان إلى الصفير، وشوك الطعام معلقة في الهواء، اللقيمات غير المضوغة في أفواههما، رأت ليلى وجهيهما نصف مضاءين في زجاج النافذة المعتمة، وظليهما الثابتين على الجدار، الصفير.. ثم الانفجار، لحسن الحظ إنه في مكان آخر، يتبع ذلك زفرة (مريحة) تعبّر أنهما بعيدان عن الخطر، بينما في مكان ما، الصرخات وغيوم الدخان الخانقة، الأيدي العارية تحفر بجنون، لتسحب من تحت الأنقاض ما تبقى من أم، أب، أخت، أخٍ، ابنٍ، حفيد. ولكن الزفرة (المريحة) أنهما ليسا بخطر كانت تسبب تساؤلاً مؤلماً، من هو البعيد عن الخطر.. حقاً؟!

بعد كل انفجار صاروخ، كانت ليلى تهرع إلى الشارع يملأها الخوف على طارق، تتلو صلاة متلعثمة، وهي تردد:

"ذلك أكيد، هذه المرة، بالتأكيد هذه المرة، سيجدون طارق مدفوناً تحت الحطام"!!

في الليل، تستلقيْ ليلى في السرير، تراقب البريق الأبيض منعكساً على نافذتها، تستمع إلى صوت الأسلحة الأوتوماتيكية، وتعد

الصواريخ التي تئز من فوقها، بينما يهتز المنزل وتتساقط رقائق الدهان عليها من السقف.

بعض الليالي، يكون ضوء الصاروخ مشعاً جداً حتى أنه يمكن لأي شخص قراءة كتاب على ضوئه، لا يأتي النوم أبداً. وإذا جاء، تكون أحلام ليلى عن النيران والأعضاء المنفصلة وأنين الجرحى.

الصباح لا يأتي بالراحة. صوت المؤذن يدعو للصلاة، يلقي المجاهدون أسلحتهم، ويتوجهوا إلى القبلة للصلاة. ثم تطوى السجاجيد الصغيرة الخضراء، وتذّخر البنادق من جديد، وتبدأ الجبال إطلاق نيرانها على كابول، وترّد كابول بإطلاق النار على الجبال، بينما تراقب ليلى وبقية المدينة معها، وهم عاجزون كعجز سانتياغو وهو يراقب القرش ينهش سمكته المذهلة.

أينما ذهبت ليلى، ترى رجال مسعود، يتجولون في الشوارع، وكل بضعة مئات من الياردات يوقفون السيارات للاستجواب، يجلسون ويدخنون على سطح دباباتهم، يرتدون الملابس المرهقة والبوكال الذي انتشر في كل مكان، يراقبون المارة من خلف متاريسهم المتمركزة عند التقاطعات.

لم تعد ليلى تخرج كثيراً، وعندما تفعل كانت دائماً برفقة طارق، الذي يبدو أنه راغب في هذا الواجب النبيل.

"اشتريت مسدساً" قال طارق في أحد الأيام، كانا يجلسان في الخارج على الأرض تحت شجرة الأجاص في حديقة ليلى.

أراها المسدس، قال بأنه مسدس بيريتا نصف أوتوماتيكي، بالنسبة لليلى بدا أسود اللون، مقيت.. قالت: "لا أحبه، المسدسات تخيفني"

نزع طارق المخزن بيده وقال: " لقد وجدوا ثلاثة جثث داخل منزل في كارتيه ـ سيه الأسبوع الماضي".. ثم أردف" "هل سمعت؟ أخوات، اغتُصبن الثلاثة، وذُبحن من حناجرهن، أحدهم عض أصابعهن ليخرج الخواتم منها، كان عليهن آثار أسنان"!!

"لا أريد أن أسمع ذلك"

"لم أقصد إزعاجك.. ولكني أشعر بتحسن عندما أبوح بذلك"

كان طارق صلة الوصل بينها وبين ما يحدث في الشوارع الآن، يسمع ما يقال وينقله لها، هو من أخبرها، على سبيل المثال، بأن رجال الميليشيا المتمركزين في الجبال صقلوا مهارتهم علي التصويب، مراهنين على المهارة في التصويب، بإطلاق النار عشوائياً على المدنيين في الأسفل، رجال، نساء، أطفال.

قال لها بأنهم يطلقون الصواريخ على السيارات، ولكن لسبب ما، لم يصوبوا على سيارات الأجرة، وذلك فسر لليلى اندفاع الناس السريع إلى دهن سياراتهم باللون الأصفر، أوضح لها طارق أن التابعيات، تتغير حدودها داخل كابول، عرفت ليلى منه، على سبيل المثال، بأن هذا الطريق إلى امتداد شجرة الأكاسيا الثانية على اليسار تخص لورد حرب واحد، أن المربعات السكنية الأربعة التالية، والتي تنتهي عند دكان الخبز بجانب الصيدلية المدمرة، قطاع للورد حرب آخر، وبأنها إذا قطعت ذلك الشارع ومشت حوالي نصف ميل إلى الغرب، سوف تجد نفسها في منطقة للورد حرب آخر أيضاً، ولهذا هي لعبة عادلة لنيران القناصة، وهكذا أصبح اسم من كانت تدعوهم مامي أبطال.. إنهم لوردات حرب!!

سمعت ليلى من يسميهم توفانغدار أيضاً (حملة البنادق)، البعض مازال يسميهم المجاهدين، ولكن عندما يفعلون ذلك، فإن وجوههم تعبس، تعبر عن الاحتقار، الكلمة أصبحت تفوح بكراهية واحتقار عميقين كأنها إهانة.

أرجع طارق المخزن إلى المسدس، قالت ليلى: "هل تملك الشجاعة"؟

"لأجل ماذا"؟

"لتستخدم هذا الشيء.. لتقتل به"؟ وضع طارق المسدس على خصر بنطاله، ثم قال شيئاً حميمياً ومريعاً بالوقت نفسه: "لأجلك.. سأقتل به لأجلك، ليلى"

اقترب أكثر منها، تلامست أيديهما، مرة ثم أخرى، وعندما انزلقت أصابع طارق بشكل تجريبي إلى أصابعها، تركته ليلى، وعندما انحني فوقها فجأة وضغط بشفاهه على شفاهها، تركته يفعل ذلك أيضا.

في تلك اللحظة، كل كلام مامي عن السمعة وعن الطائر، بدا غير مهما وحتى سخيفاً. في وسط كل هذا القتل والنهب، وكل هذا القبح، كان شيء غير مؤذي أن تجلس هنا تحت شجرة وتقبّل طارق، شيء صغير، شيء سهل قابل للغفران، لذا تركته ليلى يقبّلها، وعندما رجع إلى الوراء انحنت ليلى وقبّلته، كان قلبها يدق في حنجرتها، ووجهها أصابه الوخز الخفيف، واشتعلت النار في بطنها.

في حزيران من العام ١٩٩٢، كان هناك قتال عنيف غرب كابول بين قوات الباشتون التابعة للورد الحرب السيّاف، والهازارا التابعين لجماعة الوحدة، القصف دق خطوط الكهرباء، ودمر مربعات سكنية بأكملها، محلات ومنازل.

سمعت ليلى بأن ميليشيا الباشتون كانوا يهاجمون بيوت الهازارا، يقتحمونها ويقتلون عائلات بأكملها، وأن الهازارا ينتقمون باختطاف المدنيين الباشتون، وباغتصاب فتياتهم، وقصف أحيائهم والقتل دون تمييز. كل يوم، تُكتشف جثث مقيدة إلى الأشجار، بعض الأوقات تكون محروقة لدرجة أنه لا يمكن التعرف عليها، غالباً، يكون الرصاص قد أطلق على رؤوسهم، عيونهم مفقوءة وألسنتهم مقطوعة.

حاول بابي مرة ثانية أن يقنع مامي بمغادرة كابول.

"ستنحل الأمور".. قالت مامي.. ثم أردفت:

"هذا القتال مؤقت، سيجلسون ويخرجون بشيء ما"

قال بابي:

"فاريبا، كل ما يعرفه هؤلاء الأشخاص هو الحرب.. لقد تعلموا أن يمشوا وزجاجة حليب بيد وسلاح بالأخرى"

"من أنت لتتكلم"؟ صرخت مامي: "هل اشتركت بالجهاد؟ هل تخليت عن كل شيء تملكه وخاطرت بحياتك؟ لولا المجاهدين، لكنا الآن مازلنا خدم عند السوفييت، تذكر، الآن تريدنا أن نخونهم"!!

"ليس نحن من يخون، فاريبا"

"اذهب أنت إذاً، خذ ابنتك واهرب بعيداً.. أرسل لي بطاقة. لكن السلام آت، وأنا، وحدي، سأنتظره"

أصبحت الشوارع غير آمنة لدرجة أن بابي قام بشيء لا يعقل: لقد أخرج ليلى من المدرسة.

وأخذ على عاتقه مهمة تعليمها، تذهب ليلى إلى مكتبه كل يوم بعد غروب الشمس، وبينما كان حكمتيار يقصف بصواريخه مسعود من المحيط الشمالي للمدينة، كان بابي وليلى يناقشان غزليات حافظ وأعمال الشاعر الأفغاني المحبوب أوستاد خليل الله خليلي. علمها بابي أن تشتق المعادلات من الدرجة الثانية، أراها كيف تخرج العامل المشترك من المعادلات متعددة الحدود، ومنحنى البارومتر وكيفية قراءته. في عالمه، وسط الكتب، بدا بابي أطولٍ لليلى. بدا أن صوته ينبع من مكان أهدأ، أعمق، لم يكن يرمش كثيراً، تخيّلت ليلى أنه ولا بد، في وقت ما، كان يمسح السبورة بلمسات رشيقة، وينظر إلى الطلاب بأبوة واهتمام.

لكن لم يكن سهلاً على ليلى أن تبقى منتبهة. بقيت ليلى مشتتة.

"ما مساحة الهرم"؟ يسأل بابي، وكل ما كانت ليلى تفكر به هو امتلاء شفتي طارق، حرارة أنفاسه على فمها، انعكاس صورتها في عينيه العسليتين، قبلته مرتين منذ ذلك الوقت تحت الشجرة، لفترة أطول وبشغف أكثر، بخراقة أقل. في كلتا المرتين، كانت تقابله سراً في الزقاق المعتم، حيث كان يدخن في يوم حفلة الغداء التي أقامتها مامي، في المرة الثانية، تركته يلمس صدرها.

"ليلى"؟

"نعم، بابي"

"الهرم. مساحة. أين أنت؟"

"آسفة، بابي.. كنت، آه ... لنرى. هرم. هرم. ثلث مساحة القاعدة بالارتفاع"

هز بابي رأسه غير واثق، نظره معلّق عليها، وفكرت ليلى بيدي طارق تعتصر صدرها، منزلقة أسفل ظهرها الصغيرة، بينما الاثنان يقبلان ويقبلان.

في يوم من شهر حزيران، كانت جيتي عائدة من المدرسة مع اثنتين من زميلاتها. على بعد ثلاثة شوارع فقط من منزل جيتي، صاروخ طائش ضرب الفتيات. لاحقاً في ذاك اليوم المريع، علمت ليلى أن نيلا، أم جيتي، هرعت إلى الشارع حيث قتلت جيتي، كانت تجمع أشلاء لحم ابنتها في مئزرها وهي تصرخ بشكل هستيري. قدم جيتي اليمنى المنفصلة، ما تزال في جرابها النايلوني وحذائها الأرجواني، سيعثر عليه على سطح أحد البيوت بعد أسبوعين.

في الفاتحة على روح جيتي بعد يوم من مقتلها، جلست ليلى فاقدة الصواب في غرفة مملوءة بالنساء الباكيات، كانت هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها، أن شخصاً تعرفه ليلى، قريباً منها، محبوباً، مات. لم تستطع ليلى إدراك واقع أن جيتي لم تعد حية بعد الآن. جيتي التي تبادلت ليلى معها الأسرار في الصف، التي صبغت لها أظافرها، التي نزعت لها شعر ذقنها بملقط الشعر، جيتي التي كانت ستتزوج صابر، حارس المرمى، جيتي ماتت. ماتت. انتثرت أشلاءً. أخيراً بكت ليلى لأجل صديقتها وكل الدموع التي كانت غير قادرة على ذرفها في جنازة أخويها.. انهمرت.

الفصل الخامس والعشرون

بالكاد كانت ليلى تستطيع الحركة، وكأنما كل مفاصلها صبت من الأسمنت. كان هناك نقاش يجري. وعلمت ليلى بأنها طرف فيه ولكنها شعرت بأنها مستبعدة منه. على الرغم من أنها استمعت إلى أغلبه.

بينما كان طارق يتحدث، تخيلت ليلى حياته وكأنها حبل مهترئ. ينحل ولكنه لا ينقطع، الألياف تنفصل وتتفكك وتسقط.

لقد كان يوماً حاراً بليداً من أيام ما بعد الظهر من شهر آب، عام ١٩٩٢، كانا في غرفة الجلوس بمنزل ليلى. أصاب مامي ألم في المعدة طوال اليوم وقبل دقائق، بالرغم من الصواريخ التي كان حكمتيار يطلقها من الجنوب، فقد أخذها بابي إلى الطبيب. وها هو طارق يجلس بجانب ليلى على الكنبة.

ناظراً إلى الأرض ويداه بين ركبتيه قائلاً بأنه سيغادر ليس الجوار ولا كابول.. ولكن أفغانستان كلها.

راحلٍ.. دهشت ليلى: " أين؟ إلى أين ستذهب؟"

"أولا باكستان، بيشاور، بعدها لا أعلم، ربما هندوستان، إيران"

"متى"؟

"لا أعلم"

"قصدت، منذ متى تعرف"؟

"منذ بضعة أيام، كنت سأخبرك ليلى، أقسم، ولكنني لم أستطع ذلك، أعلم كم سيزعجك هذا "

"متى"؟

"غداً"

"غداً"؟!

"ليلى.. انظري إلي"

"غداً"

"إنه والدي. لم يعد قلبه يتحمل أكثر، كل هذا الاقتتال.. والقتل"

دفنت ليلى وجهها بيديها، وامتلأ صدرها بالهلع. كان يجب أن ترى ذلك قادم، فكرت، اغلب الأشخاص الذين تعرفهم حزموا أشياءهم وغادروا، كان الحي بأكمله هناك إلا أنه يفتقر للوجوه المألوفة، والآن، بعد أربعة شهور فقط من القتال الذي اندلع بين المجاهدين والجماعات، لم تعد ليلى تتعرف إلى أي شخص في الشارع، فرت عائلة حسينة في أيار إلى طهران، وغادرت واجمة مع عشيرتها إلى إسلام أباد في نفس الشهر، وغادر أهل جيتي وأشقاؤها في حزيران بعد وقت قصير من مقتل جيتي، لم تعلم ليلى إلى أين ذهبوا ـ سمعت إشاعة أنهم توجهوا إلى مشهد في إيران ـ بعد أن غادر الناس بقيت بيوتهم فارغة لعدة أيام وبعدها إما أخذتها الميليشيات أو انتقل إليها أناس غرباء.

كان الكل يغادر، والآن طارق أيضاً.

"وأمي لم تعد شابة أبداً" كان يقول.. "إنهما خائفان جداً طوال الوقت، ليلى، انظري إلي"

" كان عليك أن تخبرني"

"أرجوك، انظري إلي" صدر عن ليلى أنين ثم صوت انتحاب، وبعدها بدأت بالبكاء، وعندما حاول مسح وجنتها بإبهامه أبعدت يده عنها، كان ذلك أنانياً وغير عقلاني، ولكنها كانت عنيفة معه لهجرها، هو امتداد لها، ظله الذي يطغى في كل ذكرى، كيف يستطيع تركها؟! صفعته، ثم صفعته ثانية، وشدت شعره وكان عليه أن يمسكها من رسغيها لتتوقف.. قال شيئاً لم تستطع أن تميزه، كان يقوله بلطف وعقلانية، وبطريقة ما أصبحا وجهاً إلى وجه الأنف على الأنف، كان باستطاعتها أن تشعر بنَفَسِهِ علي شفتيها ثانية، وعندما، فجأة، تمدد على الأرض ، قامت بذلك أيضاً.

في الأيام والأسابيع القادمة، سيكون هاجس ليلى الذي لا يتوقف أن تدون كل ذلك بدقة في الذاكرة، ما حدث بعدها. كمحب للفن يركض خارجاً من متحف محترق، كانت تتمسك بكل شيء تستطيع إمساكه - نظرة، همسة، أنّة - لتنقذها من الهلاك، وتحتفظ بنفسها. لكن الوقت هو الشيء الأكثر الذي لا يغفر له بين كل هذه النيران، ولم تستطع، في النهاية، إنقاذ كل شيء. رغم هذا، كانت ما تزال تملك هذه الأشياء: أولاً، ألم هائل تحت، في الأسفل. ميل أشعة الشمس على السجادة. كعبها يلامس الصلابة الباردة لرجله، مستلقية بجانبهم، مفكوكة بعجلة. يداها تمسكان بمرفقيه. علامة الولادة التي على شكل ماندولين المقلوبة تحت عظم الترقوة، وهي تتوهج احمرارا. وجهه يحوم فوق وجهها. خصلات شعره السوداء متدلية. تداعب شفتيها، ذقنها. الرعب من أن يكتشفا. عدم القدرة على تصديق جرأتهما، شجاعتهما. الفرحة الغريبة وغير القابلة للوصف، تتداخل مع الألم. والنظرة، النظرات التي لا تحصى على طارق: رقة، اعتذار، ارتباك، عدم فهم، ولكن الأغلب.. الأغلب، كان الجوع.

كان هناك هلع بعدها. زُررت القمصان بسرعة، ووُضعت الأحزمة، ورُتب الشعر بالأصابع. ثم جلسا بجانب بعضهما البعض، يبتسمان، وجهاهما متوردان، كلاهما مذهول، كلاهما غير قادر على الكلام أمام فداحة ما حدث الآن. ما قاما به.

شاهدت ليلى ثلاث قطرات من الدم على السجادة، دمها، وتخيلت أهلها يجلسون على هذه الكنبة لاحقاً، غافلين عن الخطيئة التي ارتكبتها، لبسها إحساس العار، والذنب،

وفي الأعلى، دقت الساعة، عالية بشكل مستحيل بالنسبة لأذني ليلى. كمطرقة القاضي تدق ثانية وثانية.. تدينها.

بعدها قال طارق: "تعالي معي"

للحظة، اعتقدت ليلى أن ذلك ممكن الحدوث. هي، طارق، وأهله سوية، يحزمون حقائبهم، ويستقلون الباص، ويرمون خلفهم كل هذا

العنف، راحلون ليجدوا النعيم أو المصاعب ومهما كان القادم، سيواجهونه سوية.

العزلة الكئيبة التي تنتظرها، الوحدة المهلكة، يجب أن لا يكون حالها هكذا.

باستطاعتها الذهاب، باستطاعتهما أن يكونا سوية، أن يكون لهما أمسيات مثل هذه.

"أريد أن أتزوجك ليلى" للمرة الأولى منذ كانا على الأرض، رفعت ليلى عيناها لتلاقي عينيه، فتشت وجهه، هذه المرة، لم يكن هناك عبث. كانت نظرته واحدة، مقنعة، مليئة بالصدق المدرع بالجدية.

"طارق...."

"دعيني أتزوجك، ليلى. اليوم. نستطيع أن نتزوج اليوم"

بدأ بقول المزيد، حول الذهاب إلى الجامع، إيجاد ملا، زوج من الشهود، زواج سريع..

لكن ليلى كانت تفكر بمامي، بعناد وعدم مساومة، المجاهدون، الهواء المحيط بها خنقها بالمرارة واليأسِ، وكانتٍ تفكر في بابي، الذي استسلم منذ وقت طويل، فأصبح نداً حزيناً ومثيراً للشفقة مثل مامي.

"أحياناً.. أشعر بأنك كل ما أملك، ليلى".. رنّت كلمات بابي في أذنيها.. نعم إنها ظروف حياتها، الحقائق التي لا فرار منها.

"سأطلب يدك من كاكا حكيم.. سيمنحنا مباركته، ليلى، أعلم ذلك"

كان محقاً. سيقوم بابي بهذا. ولكن ذلك سيحطمه. كان طارق ما زال يتكلم، كان صوته خافت ثم مرتفع، متضرع، ثم متعقل: كان وجهه مليئاً بالأمل، ثم الذعر.

"لا أستطيع" قالت ليلى.

"لا تقولي هذا.. أنا أحبك".

"أنا آسفة..."

"أنا أحبك"

كم انتظرت أن تسمع هذه الكلمات منه؟ كم حلمت بها مراراً ومرارا؟ وها هي الكلمات قد خرجت أخيراً، لكن سخرية القدر.. سحقتها.

"والدي هو الذي لا أستطيع تركه" قالت ليلى.. ثم أردفت: "أنا كل ما تبقى له. لن يحتمل قلبه ذلك أيضاً"

علم طارق ذلك. علم أنها لا تستطيع أن ترمي التزاماتها في الحياة أكثر مما فعل هو، ولكن الأمر استمر، توسلاته ودفاعاتها، عروضه واعتذاراتها، دموعه ودموعها.

في النهاية، اضطرت ليلى لجعله يرحل.

عند الباب، جعلته يعدها بأن يذهب دون وداع. أغلقت الباب. أسندت ظهرها عليه، ترتجف من قبضته العنيفة، بإحدى ذراعيها تقبض بطنها ويد على فمها، بينما تكلم طارق من خلال الباب ووعد أنه سيعود، أنه سيعود لأجلها. وقفت هناك حتى تعب، حتى استسلم، وعندها استمعت إلى وقع خطواته غير المتوازنة.. حتى تلاشت، حتى هدأ كل شيء، إلا صوت نيران البنادق في التلال وقلبها الذي يخفق بعنف في بطنها، في عينيها، في عظامها.

الفصل السادس والعشرون

اليوم كان الأشد حراً هذه السنة، الجبال احتبست الحرارة الحارقة، وخنقت المدينة كالدخان.. الكهرباء مقطوعة منذ عدة أيام. في كامل كابول، محبي التلفاز، الراديو، وكل الخدمات التي توفرها الكهرباء، بشكل ساخر، كانت تقريباً عاطلة عن الحياة.

استلقت ليلى بلا حراك في غرفة المعيشة على الكنبة، تتعرق من كنزتها، وكل زفرة تحرق أعلى أنفها، تدرك أن والديها يتحدثان بانفعال في غرفة مامي.. صحت، في الليلة الماضية، على صوتيهما في الأسفل، كانا يتجادلان مؤخراً، كل يوم، منذ الطلقة.. منذ الفتحة الجديدة في البوابة. في الخارج، أصوات قذائف المدفعية البعيدة، ثم أكثر قرباً، صوت رشقات من البنادق تبعتها رشقات أخرى.

داخل ليلى أيضاً، بدأت معركة بالنشوب، من ناحية الذنب المترافق بالعار، ومن ناحية أخرى، الاقتناع أن ما فعلته هي وطارق ليس آثماً، بل إنه طبيعي، جيد، جميل حتى أنه لا يمكن اجتنابه، لمعرفتهما أنهما قد لا يريا بعضهما البعض ثانية.

كانت ليلى قد انقلبت على جنبها الآن، تحاول أن تتذكر شيئاً: في وقت ما، عندما كانا مستلقيان على الأرض، أخفض طارق جبهته على جبهتها، ثم لهث بشيء ما، إما هل أؤذيك؟ أو هل هذا يؤذيك؟ لم تستطع ليلى أن تقرر أيهما كان ما قال، هل أؤذيك؟ أو هل هذا يؤذيك؟ فقط أسبوعين مرا منذ أن غادر طارق وكان الأمر قد بدأ بالحدوث. الوقت، يثلم حواف هذه الذكريات الحادة، انهار عقل ليلى. ما الذي قال، لقد بدا أمراً جوهرياً، فجأة، علمت.

أغلقت ليلى عينيها مركزة.

مع مرور الوقت ستسأم تدريجياً من هذا التمرين، ستجد أنه أمر مجهد أن تسترجع كل شيء، تنفض الغبار، تعيد الحياة مرة ثانية لما مات منذ زمن. سوف يأتي يوم، في الواقع، سنوات، لن تندب ليلي خسارتها، أو على الأقل ليس بتلك الطريقة القاسية، ليس قريبا. سيأتي يوم ما، عندما تبدأ تفاصيل وجهه تنزلق من قبضة الذكريات، عندما تسمع أم في الشارع تنادي طفلها باسم طارق، فإن هذا الاسم لن يجذب اهتمامها، لن تفتقده كما هي الآن، عندما يصبح ألم غيابه لا يرافقها بشكل مستمر ـ كطيف ألم مبتور.

باستثناء مرات قليلة، عندما تصبح ليلى امرأة ناضجة، تكوي قميص، أو تهز أطفالها في مقعد. شيء ما تافه، ربما حرارة السجادة تحت قدميها، أو الخصلات المجعدة لجبهة غريب ما، ستطلق ذكرى تلك الأمسية، ويعود كل شيء متدافعاً، بتلقائية، ألمُ الفعل، متعته، أساه، حرارة جسديهما المتشابكان، يفيض بها ويخطف أنفاسها. ثم تمر، تمر اللحظة، تتركها فارغة، غير شاعرة بشيء إلا إحساس غامض بعدم الراحة.

قررت أنه قال هل أؤذيك؟ نعم. ذلك ما قاله. كانت ليلى سعيدة لأنها تذكرت ما قاله.

عندها كان بابي في الممر ينادي باسمها من أعلى الدرج، سائلاً إياها أن تأتي بسرعة.

قال: "لقد وافقت"! كان صوته مرتجفاً من الإثارة..

"سوف نغادر ليلى. ثلاثتنا. سنغادر كابول"

في غرفة مامي، جلس ثلاثتهم على السرير، في الخارج كان أزيز الصواريخ التي تعبر السماء، بينما قوات حكمتيار ومسعود تتقاتل وتتقاتل.

علمت ليلى أنه بمكان ما في المدينة، شخص ما، قد قتل، وأن سحابة من الدخان الأسود تحوم فوق بعض الأبنية التي انهارت مخلفة وراءها كتلة هائلة من الغبار. سيكون هناك جثث يبحث عنها في

الصباح، البعض منها سوف يُجمع، والبعض الآخر لا، عندها كلاب كابول، التي طورت ذوقاً خاصاً للحم البشري، ستولم لها وليمة.

كالجميع، كان لدى ليلى دافع لتركض عبر تلك الشوارع، بالكاد استطاعت أن تحتوي سعادتها، لقد أخذ منها جهداً أن تجلس وألا تصرخ بفرح. قال بابي بأنهم سيذهبون إلى باكستان أولاً للحصول على الفيزا، باكستان، حيث يوجد طارق! لقد ذهب طارق فقط منذ سبعة عشر يوماً، حسبتها ليلى بدقة. فقط لو أن مامي اتخذت قرارها قبل سبعة عشر يوماً، كان يمكن أن يغادرا سوية. وكانت مع طارق الآن! ولكن لا يهم، سيذهبون إلى بيشاوار - هي، مامي وبابي - سيجدون طارق وأهله هناك. بالتأكيد. سيقدمون أوراقهم سوية. ثم، من يعلم؟ من يعلم؟ ربما أوروبا؟ أميركا؟ ربما، كما كان بابي يقول دائماً في مكان ما قرب البحر..

كانت مامي نصف مستلقية ونصف جالسة بالسرير. كانت عيناها منتفختين وتنتف شعرها.

قبل ثلاثة أيام، خرجت ليلى لتستنشق بعض الهواء. وقفت عند البوابة، متكئة عليها عندما سمعت (طرطقة) عالية وشيئاً ما أزّ بالقرب من أذنها اليمنى مبعثراً شظايا من الخشب أمام عينيها. بعد وفاة جيتي، آلاف الجولات من الصواريخ التي لا تحصى سقطت على كابول. رؤية هذه الفجوة في البوابة على بعد ثلاثة أصابع من رأس ليلى، جعل مامي تصحو، وجعلتها ترى أن حرباً كلفتها اثنين من أبنائها، فإن هذه الحرب الأخيرة قد تكلفها ابنتها المتبقية لها.

من على جدران الغرفة، كان أحمد ونور يبتسمان. رأت ليلى عيني مامي تنتقلان من صورة إلى أخرى مثقلة بالذنب، كأنها تتوق إلى موافقتهما، مباركتهما، كأنها تسألهما الغفران.

قال بابي: "لم يتبقَّ شيء لنا هنا، قُتل ولدانا، ولكن لم يزل لدينا ليلى. ما زلنا نحن فأريبا. نستطيع أن نصنع حياة جديدة"؟

مشى بابي باتجاه السرير. وعندما انحنى ليأخذ بيديها، تركته مامي يفعل ذلك. كان على وجهه نظرة تنازل، استقالة. أمسكا بيدي بعضهما البعض بلطف، وتعانقا متأرجحين. دفنت مامي وجهها في رقبته ويدها على قميصه.

ساعات الإثارة في تلك الليلة، منعت ليلى من النوم. استلقت في السرير تراقب ضوء الفجر يتغير من اللون الأرجواني إلى الأصفر، لكنها بعد حين، ورغم الابتهاج الداخلي وصوت قذائف نيران المدفعية، غرقت في النوم... وحلمت.

كانا على شريط ساحلي، يجلسان على لحاف كان يوماً بارداً وغائماً، لكنها أحست بالدفء إلى جانب طارق تحت الغطاء. كانت ترى سيارات مركونة خلف حاجز منخفض مطلي باللون الأبيض تحت صف من أشجار النخيل التي تعصف بها الريح.

بسبب الريح دمعت عيناها ودفنت حذاءيهما في الرمل، كتل من العشب الميت تتقاذفها الريح من كثيب إلى آخر. يراقبان السفن وهي تعلو وتنخفض في البعيد. حولهما، كانت طيور النورس تزعق وترتجف من الريح. والريح تبعثر الرمل الضحل. كان هناك ضجة كالغناء، قالت شيئاً ما، علّمها إيّاه بابي منذ سنوات عن غناء الرمال.

مسح لها حاجبها، مسح حبات الرمل عنه. لمحت الخاتم في أصبعه كان مطابقاً للذي لديها ـ كان من الذهب على شكل متاهة محفورة على كل الخاتم.

ذلك صحيح، قالت له: إنه احتكاك الحبة مع الأخرى. استمع، ففعل. عبس. انتظرا، سمعا ذلك مرة ثانية. صوت أنين، عندما تكون الريح لطيفة وعندما تعصف يصبح صوتها مثل المواء ثم عالياً مثل الكورس.

قال بابي أن عليهم أخذ ما هو ضروري فقط وسيبيعون ما يتبقى.

"سيجعلنا ذلك قادرين على البقاء في بيشاور حتى أجد عملاً"

في اليومين التاليين، جمعوا الأشياء التي ستباع وضعوها في أكوام كبيرة.

في غرفتها انتقت ليلى الكنزات القديمة، الأحذية، الكتب، الألعاب. نظرت تحت سريرها، وجدت بقرة زجاجية صفراء اللون أعطتها إياها حسينة في فترة الانقطاع في الصف الخامس. نسخة مصغرة لكرة قدم في سلسلة، هدية من جيتي، حمار وحش صغير على دواليب، رائد فضاء من السيراميك وجدته هي وطارق في أحد الأيام في قناة. كانت في السادسة من عمرها، وهو في الثامنة آنذاك، وكان هناك خلاف - تذكرت ليلى - على من وجد رائد الفضاء.

جمعت مامي أشياءها أيضاً. كان هناك نفور في حركاتها وفي عينيها المتعبتين نظرة بعيدة. وضعت جانباً صحونها الجيدة ومناديل المائدة وكل جواهرها - إضافة إلى خاتم الزواج - وأغلب ملابسها القديمة.

"هل ستبيعين هذا"؟ قالت ليلى وهي ترفع ثوب زفاف مامي، الذي انفرش على حضنها. لمست الدانتيلا والشرائط التي حول خط الرقبة، اللآلئ المحاكة يدوياً على الأكمام.

هزت مامي كتفيها وأخذته منها. رمته بعنف على كومة من الملابس وكأنها تتخلص من لفافة بضربة واحدة.. هكذا فكرت ليلى.

بابي، هو الذي كان في أصعب اختيار مؤلم.

وجدته ليلى في مكتبه، ترتسم على وجهه الحسرة بينما يجول بنظره على الرفوف. كان يرتدي قميصاً مستعملاً عليه صورة لجسر سان فرانسيسكو، ضباب كثيف يرتفع من أعلى المياه البيضاء يغلف أبراج الجسر.

"تعرفين الغصة القديمة".. ثم أردف:

"إنك في جزيرة نائية، تستطيعين أن تأخذي خمس كتب، ما الذي تختارينه؟ لم أفكر أبداً أنه قد يتوجب علي ذلك"

"سنعمل على اختيار مجموعة جديدة لك بابي"

"همم، لا أصدق أنني سأغادر كابول. ولدت هنا، ذهبت إلى المدرسة هنا، حصلت على أول عمل هنا، أصبحت والداً في هذه المدينة. يبدو غريباً التفكير أنني سأنام تحت سماء مدن أخرى قريباً"

"إنه غريب بالنسبة لي أيضاً"

"طوال اليوم وهذه القصيدة عن كابول تحوم في رأسي. كتبها (صايب - إي - تبريزي) في القرن السابع عشر كما أظن.. كنت أعرف القصيدة كلها ولكن كل ما أتذكره الآن هو بيتين:

لا أحد يستطيع أن يعد الأقمار التي تشع على أسطحها

أو الألف شمس مشرقة التي تختبئ خلف جدرانها"

نظرت ليلى إليه، فوجدته يبكي، وضعت يداً حول خصره "آه بابي. سوف نعود عندما تنتهي هذه الحرب. سوف نعود إلى كابول إن شاء الله. سوف ترى"

في الصباح الثالث، بدأت ليلى بنقل الأشياء التي ستباع إلى الباحة وجمعها عند الباب الأمامي. سيطلبون تاكسي ثم يأخذون هذه الأشياء إلى محل الرهن. تابعت ليلى نقل الأغراض ما بين المنزل والباحة جيئة وذهاباً، أكداس الملابس، الصحون وعلبة بعد علبة من كتب بابي. كان يجب أن تكون مجهدة عند الظهر، عندما أصبحت تلة المتاع أمام المنزل عالية.. إلى وسطها. لكن مع كل خطوة كانت تعلم أنها أقرب إلى رؤية طارق ثانية، وبكل خطوة كانت قدماها تصبحان أكثر نشاطا ويداها غير متعبتين.

"سنحتاج إلى سيارة أكبر"

نظرت ليلى إلى أعلى، كانت مامي تنادي من غرفتها في الأعلى وهي تتكىء على عتبة النافذة بمرفقيها، وكانت الشمس مشعة ودافئة وهي تنعكس على شعرها الرمادي، وتشرق على وجهها النحيف المتعب. ترتدي نفس الثوب الأزرق الذي ارتدته في يوم حفلة الغداء قبل أربعة أشهر، ثوب عصري صنع لامرأة شابة، ولكن لثانية واحدة، بدت مامي بالنسبة لليلى امرأة مسنة مع يدين نحيلتين وصدغين غائرين، وعينين بطيئتين، مع دوائرٍ سوداء من القلق، كل ذلك كان مختلفا عن الشخص الذي كان مكتنزا، مع وجه مدور يشرق من خلال الصور المحببة من الزفاف.

قالت ليلى : "سيارتا أجرة كبيرتان"

كانت تستطيع أن ترى بابي أيضاً في غرفة الجلوس يضع صناديق الكتب فوق بعضها.

"اصعدي إلى فوق عندما تنتهي من ذلك".. قالت مامي. "سنتناول الطعام، بيض مسلوق وبازلاء"

قالت ليلى : "المفضلة عندي"

فكرت فجأة بحلمها، هي وطارق على لحاف، المحيط، الريح، كثبان الرمل. ما الذي يشبه، تساءلت الآن، غناء الرمال؟ توقفت ليلى، رأت سحلية رمادية تزحف من شرخ في الأرض ورأسها يتحرك من جهة إلى أخرى، ما لبثت أن رمشت، وانطلقت لتختبئ تحت صخرة.

تخيّلت ليلى الشاطئ مرة أخرى. الغناء كان من كل الجهات. يتصاعد أعلى فأعلى، ملأ أذنيها وأغرق كل شيء آخر. الآن النوارس ترسل إشارات، فاتحة ومغلقة مناقيرها بصخب، والأمواج تتحطم بزبدها وترتد.. ولكن دون هدير. الرمال تغني. صراخ. صوت يشبه الرنين؟

ليس الرنين، لا. بل الصفير. رمت ليلى الكتب عند قدميها، نظرت إلى السماء، حمت عينيها بيد واحدة، ثم هدير عملاق.

خلفها، وهج أبيض.

ارتجت الأرض تحت قدميها.

شيء ما حار وقوي ضربها من الخلف، وجعل صندلها يخرج من قدميها، رفعها إلى السماء، كانت تطير الآن، تميل وتدور في الهواء، ترى السماء ثم الأرض، ثم السماء ثم الأرض. قطعة خشبية كبيرة محترقة، وآلاف من الشظايا الزجاجية، ظنت ليلى أنها ترى كل قطعة بمفردها تطير حولها، تدور من جهة إلى أخرى، والشمس تنعكس على كل واحدة ،وعلى قوس قزح رقيق جميل.

اصطدمت بالجذار، وسقطت على الأرض، على وجهها ويديها، حمّام قذر من الحصى والزجاج. الشيء الأخير الذي كانت واعية له هو

رؤيتها لشيء ما يضرب الأرض قربها. قطعة ضخمة مدماة بشيء ما. عليها، قطعة من جسد أحمر يغلفه ضباب كثيف.

أشكال تتحرك، ضوء لامع مشرق من السقف فوقها، ظهر وجه امرأة، حام فوق وجهها، وتلاشت ليلى تدريجياً في الظلام.

وجه آخر. هذه المرة لرجل. ملامحه تبدو عريضة وحزينة، شفتاه تتحركان لكن لا تصدر صوتاً. كل ما كانت ليلى تسمعه هو الرنين.

لوح الرجل بيده لها، عبس، تحركت شفتاه ثانية.

إنها تتألم، يؤلمها أن تتنفس، إنها تتألم في كل مكان.

كأس من الماء، حبة دواء زهرية.

عودة إلى الظلام.

المرأة مجدداً. وجه طويل، عينان ضيقتان، كانت تقول شيئاً ما، لم تستطع ليلى أن تسمع شيئاً إلا الرنين، لكنها تستطيع أن ترى الكلمات، مثل شراب أسود سميك، يُتهجّى من فم المرأة.

كان صدرها يؤلمها، يديها، ورجليها.

من كل الجهات، أشكال تتحرك.

أين طارق؟ لماذا ليس هنا؟

الظلام.. سرب من النجوم.

بابي وهي، واقفين في مكان ما عال. يشير إلى حقل قمح وصوت مولد كهربائي.

كانت المرأة ذات الوجه الطويل تقف فوقها ناظرة إليها.

يؤلمها أن تتنفس.

في مكان ما، عزف أكورديون.

بكل حنان ، الحبة الزهرية مرة ثانية. صمت عميق. صمت عميق سقط على كل شيء.

القسم الثالث

الفصل السابع والعشرون

مريم

"هل تعرفين من أكون"؟ رمشت عينا الفتاة..

"هل تعلمين ما حدث"؟

ارتجف فم الفتاة.. أغمضتِ عينيها، وبلعت ريقها.. رفعت يدها إلى وجنتها اليسرى، وقالت شيئاً ما.

انحنت مريم أكثر.

"هذه الأذن".. تنفست الفتاة.. وتمتمت.

"لا أستطيع أن أسمع"

في الأسبوع الأول، لم تكن الفتاة تفعل شيئاً سوى النوم، بمساعدة الأقراص الزهرية التي دفع ثمنها رشيد للمستشفى، كانت تهمهم في نومها، في بعض الأوقات كانت تتكلم كلاماً غير مفهوم ، تصرخ، تنادي بأسماء لم تتعرف مريم عليها.

بعض الأوقات تتقيأ وتتقيأ، قاذفة بكل شيء أطعمتها إياه مريم، وعندما لا تكون مهتاجة، تحدق بعينين كئيبتين من تحت الأغطية، تلفظ بعض الأجوبة القليلة على أسئلة مريم ورشيد، بعض الأيام تتصرف مثل الأطفال فتحرك رأسها من جهة لأخرى، عندما تحاول مريم أو رشيد إطعامها. حاولت أن تكون صارمة عندما اقتربت منها مريم بالملعقة، ولكنها تعبت وتراجعت، ثم أذعنت بشكل واضح لوجودهما المُلِح، نوبات طويلة من البكاء يتبعها الاستسلام.

طلب رشيد من مريم أن تدهن الجروح في وجه الفتاة وعنقها بمضاد حيوي، كذلك الجروح البليغة في كتفيها، ذراعيها وساقيها. فغطتهم مريم بالضمادات التي تغسلها بانتظام. وجمعت شعر الفتاة للخلف، بعيدا عن وجهها عندما اضطرت لأن تتقيأ.

"إلى متى ستبقى"؟ سألت مريم رشيد.

"إلى أن تتحسن، انظري إليها، ليست بحالة تسمح لها بالذهاب.. المسكينة"!!

كان رشيد من وجد ليلى، حفر وأخرجها من تحت الحطام.

"محظوظة أنني كنت في المنزل".. قال للفتاة، بينما كان يجلس على كرسي بجانب سرير مريم، حيث تستلقي الفتاة.

"محظوظة، أنا أعني ذلك. حفرت بيديَّ لإخراجك. كان هناك قطعة معدنية بهذا الحجم ..." وفَرَدَ إبهامه وإصبعه الأوسط ليريها..

"على الأقل ضعف هذا الحجم".. بتقدير مريم، الحجم الواقعي للشظية.

"بهذا الحجم.. مغروزة في كتفك الأيمن. كانت متوغلة بعمق هناك. اعتقدت أني سأستعمل الكماشة لاستخراجها، ولكنك بخير.. في وقت ما، ستعودين كما كنت"

كان رشيد من أنقذ القليل من كتب حكيم.

"أغلبها كان رماد.. البقية كانت مهترئة كما أخشى"

لقد بقي مع مريم يساعدها في رعاية الفتاة طيلة الأسبوع الأول.

وفي أحد الأيام، عاد إلى البيت من العمل، يحمل بطانية جديدة ووسادة. في يوم آخر عاد مع زجاجة الحبوب.

"فيتامينات" كما قال.

كان رشيد هو من أخبر ليلى أن بيت صديقها طارق قد احتل الآن: "هدية".. ثم أردف ساخرا:

"هدية من أحد قادة سيّاف لثلاثة من رجاله.. هدية. ها"!!

كان الرجال الثلاثة أولاداً بالواقع، وجوه شابة لوّحتها الشمس. كانت مريم تراهم عندما يمرون بالقرب من نافذة بيتها. دائماً بملابسهم الرسمية، يجلسون أمام البوابة الأمامية لبيت طارق، يلعبون الورق ويدخنون، وأسلحة الكلاشنكوف مستندة على الجدار. الرجل الأسمر، الرجل ذو السلوك المتعالي، الراضي عن الذات، كان القائد.

الأصغر كان هادئاً، كان الرجل الآخر يبدو بلا إحساس وكأن قلبه صب من الحجر، وقد منح جَوَّ رفاقه نوعاً من الحصانة. كان يبتسم ويهز رأسه بالسلام عندما تمر مريم. وعندما يقوم بهذا، يسقط بعضاً من قساوته الخارجية، وترى مريم لمحة من الإنسانية لم تدمر بعد.

لاحقاً، اخترق أحد الصواريخ الصباحية المنزل. سمعت بعض الشائعات بأن وحدة من الهازارا أردتهم قتلى. لبعض الوقت، استمر الجيران بالعثور على قطع من أجسام الأولاد.

"لقد جلبوا ذلك على أنفسهم".. كما قال رشيد.

كانت الفتاة محظوظة بشكل غير عادي، هكذا فكرت مريم، أن تخرج بجروح ثانوية نسبياً، باعتبار أن الصاروخ حوَّل بيتها إلى حطام. وأيضاً، أصبحت أفضل، بدأت تأكل أكثر، تسرّح شعرها بنفسها، تأخذ حماماتها بنفسها، تتناول وجبات طعامها في الأسفل مع مريم ورشيد.

لكن بعض الذكريات ستعود، غير منسية، وسيكون هناك صمت حجري، ولحظات من الفظاظة. تراجعات وانهيارات. نظرات شاحبة، كوابيس ونوبات مفاجئة من الحزن.. والقيء أيضاً.

وبعض الأوقات، سيكون هناك الندم.

"يجب أن لا أكون هنا" قالت ليلى في أحد الأيام، بينما كانت مريم تغير الأغطية، والفتاة تراقب من الأرضية، ركبتاها المرضوضتان مدفونتان في صدرها.

" أراد والدي أن يأخذ الصناديق.. الكتب، قال إنها ثقيلة جداً علي.. لكنني لم أتركه، لقد كنت متلهفة، كان يجب أن أكون أنا في الداخل عندما حدث ذلك"

أخذت مريم غطاء نظيف ووضعته على السرير. نظرت إلى الفتاة، إلى شعرها الأشقر على شكل حلقات، عنقها الرشيق وعينيها ذات اللون الأخضر، عظام وجنتيها المرتفعتين، وشفتيها المكتنزتين.

تذكرت مريم رؤيتها لها في الشوارع عندما كانت صغيرة، تترنح راكضة وراء أمها في الطريق إلى الفرن، راكبة على أكتاف أخيها الأصغر الذي لديه بقعة من الشعر على أذنه. تلعب البلية (الدحل) مع ابن النجار.

كانت الفتاة تنتظر من مريم أن تقول لها بعض الأشياء الحكيمة، أن تقول لها شيئاً مشجعاً، لكن ما الحكمة التي ستقدمها مريم؟ ما هو التشجيع؟

تذكرت مريم يوم دفن نانا، وكم كانت المواساة التي وجدتها ضئيلة عندما اقتبس الملا فايز الله من القرآن لأجلها: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور». أو عندما قال عن شعورها بالذنب، هذه الأفكار ليست جيدة، مريم جو، سوف تحطمك، لم يكن خطأك، إنه لم يكن خطأك.

ما الذي ستقوله لهذه الفتاة لتخفيف العبء عنها؟

عندما استدارت خارجة، لم تقل مريم أي شيء، لأن وجه الفتاة كان يتلوى من الألم، كانت جاثية على ركبتيها ويديها، ثم قالت أنها ستتقيأ.

"انتظري! تماسكي. سأجلب علبة. ليس على الأرض، لقد انتهيت من تنظيفها الآن... أوه. أوه. كودايا. إلهي."

ثم في أحد الأيام، حوالي شهر بعد الانفجار الذي قتل أهل ليلى، طرق رجل الباب.

فتحت مريم. ذكر عمله.

"هناك رجل هنا يريد رؤيتك" قالت مريم.

رفعت الفتاة رأسها عن الوسادة" يقول أن اسمه عبدول شريف"

"لا أعرف أحداً اسمه عبدول شريف"

"حسناً، إنه يسأل عنك. يجب أن تنزلي إلى الأسفل وتتكلمي معه".

القسم الثالث

الفصل الثامن والعشرون

ليلى

جلست ليلى مواجهة عبدول شريف، كان نحيلاً، رأسه صغير، أنفه منتفخ من البثور التي تتشابه مع الندوب على وجنتيه. شعره قصير بني اللون يقف مثل الدبابيس المشكوكة.

"سوف تغفرين لي.. أختي"!!

قال ذلك وهو يعدّل ياقة قميصه ويمسح جبهته بمنديل.

"لم أشفَ تماماً، للأسف، خمسة أيام من هذه - ماذا يسمونها - حبوب السولفا"

جلست ليلى بطريقة تكون فيها أذنها اليمنى، الجيدة، قريبة منه.

"هل كنت صديقاً لوالدي"؟

"لا.. لا" قال عبدول شريف بسرعة.. ثم أردف:

"سامحيني" رفع إصبعاً، وأخذ رشفة طويلة من الماء الذي وضعته مريم أمامه.

"يجب أن أبدأ من البداية.. أظن ذلك"، مسح شفتيه وجبهته مرة ثانية.

"أنا رجل أعمال، أمتلك متاجر ألبسة، أغلبها ملابس رجال، تشابانات، قبعات، بدلات، ربطات عنق - ما تريدين، متجران هنا في كابول، تيماني، شار - إي - ناو، رغم أنني بعتهما منذ وقت قريب، ومتجران في باكستان، بيشاوار حيث مخزني. لذلك أسافر كثيراً، جيئة وذهاباً، والسفر هذه الأيام" - هز رأسه وضحك بتعب - "لنقل أنه يسمى مغامرة.. كنت في بيشاوار مؤخراً، أصدرت أوامر من أجل الجرد، نوع من العمل، وكذلك لأزور عائلتي، لدي ثلاث بنات، الحمد لله، نقلتهم وزوجتي إلى بيشاوار بعد أن بدأ المجاهدون يذبحون

بعضهم البعض. لن أدع أسماءهم تضاف إلى قائمة الشهداء، ولا اسمي.. لأكون صادقاً، وسوف أنضم إليهم قريبا إن شاء الله"

توقف عبدول قليلاً عن الكلام.. ثم أكمل:

"على أية حال، اعتقدت أني سأعود إلى كابول الأربعاء قبل الماضي، ولكن كما يريد الحظ، أقعدني المرض. لن أزعجك بذلك، أكتفي بالقول أنني عندما ذهبت لأقوم بعملي، الأسهل بين الاثنين، شعرت أنني أمشي على قطع زجاج مكسور، لا أتمنى ذلك لحكمتيار نفسه، زوجتي، ناديا جان، ليباركها الله، توسلت إلي أن أذهب إلى الطبيب، ولكنني اعتقدت أني سأتغلب عليه بالإسبيرين والكثير من الماء. أصرت ناديا جان، ورفضت، وبعد أخذٍ وردٍ.. ذهبنا إلى الطبيب. تعلمين المثل القائل: الحمار العنيد، يحتاج لسائق عنيد. أخشى، أن الحمار هو الذي فاز، وهو أنا"

شرب بقية الماء ومد الكأس لمريم.. " ليس كافياً، زاهمات (عذراً منك)".. أخذت مريم الكأس وذهبت لتملأه.

"لا حاجة للقول، إنه كان يجب أن أصغي لها. لقد كانت دائماً شخصاً واعياً، أعطاها الله حياة مديدة. مع الوقت ذهبت إلى المستشفى، كنت أحترق من الحمى، وأرتجف مثل شجرة نخيل صغيرة في مهب الريح، بالكاد كنت أستطيع الوقوف. قالت الطبيبة أن لدي تسمم بالدم، وأن يوماً أو ثلاثة أيام على الأكثر وكانت زوجتي ستصبح أرملة. وضعوني في وحدة خاصة للمريضين جداً، كما أظن.. آه شكراً"

أخذ الكأس من مريم وأخرج من جيب معطفه حبوباً كبيرة.. "من هذا الحجم"!!

راقبته ليلى وهو يبتلع حبته، أدركت أن تنفسها بدأ يتسارع، شعرت بساقيها ثقيلتين، كأن أوزاناً رُبطت بهما. أخبرت نفسها بأنه لم يخبرها شيء بعد. لكنه سيتابع خلال دقيقة.. قاومت رغبة ملحة بالوقوف والمغادرة، المغادرة قبل أن يخبرها أشياء لا تريد سماعها.

وضع عبدول شريف كأسه على الطاولة.. " هناك، التقيت بصديقك، محمد طارق واليزاي"

تسارع قلب ليلى. طارق في المستشفى؟ في وحدة خاصة؟ للأشخاص المريضين جداً؟

ابتلعت ريقها الجاف، تململت في مقعدها، كان عليها أن تهدئ نفسها. خافت أن تضطرب، حوّلت أفكارها من المستشفيات والوحدات الخاصة وفكرت، عوضاً عن ذلك، بأنها لم تسمع أحداً ينادي على طارق باسمه الكامل منذ أن سجلا الاثنان كلاهما في حصة للغة الفارسية في الشتاء منذ عام، كان الأستاذ ينادي على الأسماء المسجلة في القائمة، وقال اسمه الكامل - محمد طارق واليزاي. أصابها ذلك برغبة فضولية بالضحك، سماع اسمه يلفظ كاملا.

"ما حدث له.. سمعته من الممرضات" استأنف عبدول شريف وهو يدق على صدره كأنه يسهل مرور الحبة..

"مع كل الوقت الذي قضيته في بيشاوار أصبحت ماهراً بلغة الأوردو، على أية حال، ما جمعته من المعلومات، أن صديقك كان في شاحنة مليئة باللاجئين، عددهم ثلاثة وعشرون، كلهم متجهون إلى بيشاوار. عند الحدود، علقوا في وسط تبادل للنيران. أصاب صاروخ الشاحنة، من المحتمل أنه صاروخ طائش، لكنك لا تستطيعين أن تتأكدي.. مع هؤلاء الأشخاص، لن تعرفي أبداً. كان هناك ستة ناجين فقط، كلهم وضعوا في نفس الوحدة. مات ثلاثة منهم خلال أربع وعشرين ساعة، وعاش اثنان منهم _ أختين كما علمت_ وخرجوا من الوحدة. صديقك السيد واليزاي كان الأخير. كان هناك منذ ثلاثة أسابيع عندما وصلت"

إذاً هو حي، لكن ما حجم الأذى الذي ألحقوه به؟ تساءلت ليلى باهتياج.. لأية درجة؟ هل حالته سيئة بما يكفي ليضعوه في وحدة خاصة؟ كان ذلك واضحاً. وكانت ليلى مدركة أنها بدأت تعرق، ووجهها أصبح ساخناً، حاولت التفكير بشيء آخر، شيء سار، مثل

الرحلة إلى باميان لرؤية تمثالي بوذا مع طارق وبابي. ولكن بدلاً من ذلك، تجسّدت صورة والدي طارق: أم طارق محصورة في الشاحنة المقلوبة رأساً على عقب، تصرخ باسم طارق من خلال الدخان، يداها وصدرها في النار، الشعر المستعار يذوب على فروة رأسها..

كان على ليلى أن تأخذ سلسلة من الأنفاس المتلاحقة.

" كان في السرير المجاور لسريري، لم يكن هناك جدران، فقط ستارة بيننا. لذلك استطعت أن أراه جيداً"

فجأة، أصبح لدى عبدول شريف حاجة ملحة ليلعب بخاتم زواجه. تكلم الآن ببطء أكثر..

"صديقك طارق، كانت حالته سيئة - سيئة جداً_ مصاب أنت تفهمين. كان يخرج من كل أنحاء جسده أنابيب. بداية..." تنحنح..

"بداية، ظننت أنه خسر ساقيه في الهجوم، ولكن قالت لي الممرضة: لا، فقط الرجل اليمنى، الرجل اليسرى كانت من حادثة أخرى، كانت هناك جروح داخلية أيضاً، اجروا له ثلاثة عمليات. أخذوه إلى قسم الأمعاء، لا أذكر ماذا أيضاً. كان محروقاً أيضاً! بشكل سيء جدا، هذا كل ما رأيته. إني متأكد أن لديك حصتك من الكوابيس يا أختي، لا جدوى من إضافة ما لدي من كوابيس إليها"

كان طارق بدون أرجل الآن!! أصبح جذع مع قرمتين، بدون أقدام. اعتقدت ليلى أنها ستنهار، وبجهد واع ومستميت، أرسلت أفكارها خارج الغرفة، خارج النافذة، بعيدا عن هذا الرجل، إلى الشارع، فوق المدينة الآن، إنها تحلق أعلى المنزل والأسواق. متاهة من الشوارع الضيقة، تحولت إلى قلاع رملية.

" كان مخدراً أغلب الوقت، بسبب الألم، أنت تفهمين. لكن كان لديه دقائق عندما يستفيق من المخدر، فيكون صاحياً. يتألم ولكن ذهنه صافٍ، كنت أتكلم معه من سريري، أخبرته من أكون، ومن أين. كان سعيدا، على ما أظن، أن لديه شخصاً من بلده بجانبه"

"كنت أتولى معظم الحديث، كان من الصعب بالنسبة له الحديث. كان صوته مبحوحاً، أظن أنه كان يؤلمه تحريك شفتيه. لذلك أخبرته عن بناتي، بيتنا في بيشاوار، والشرفة التي بنيناها أنا وأخ زوجتي خارجاً في الخلف. أخبرته أني بعت المتاجر في كابول، وأني سأعود لأنهي المعاملات الورقية. لم يكن بالشيء الكثير، لكن ذلك شَغَله، على الأقل أحب ذلك كما أظن"

" أحيانا، كان يتكلم هو أيضاً.. نصف الوقت لم أكن أستطيع تمييز ما يقوله، لكنني فهمت ما يكفي. وصف المكان الذي كان يعيش فيه. تكلم عن عمه في غازني، عن طبخ أمه وشغل أبيه في النجارة، عنه وهو يعزف على الأكورديون"..

وبعد برهة صمت.. قال:

"ولكن، غالباً، تكلم عنك، يا أختي، قال إنكما كنتما - كيف وضعها - ذكراه الأولى. أعتقد أنه قالها هكذا. نعم. استطعت معرفة أنه يحبك كثيراً. بالاي، كان سهلاً رؤية هذا. لكنه قال، إنه سعيد لأنك لم تكوني هناك. قال إنه لا يريد أن تشاهديه بتلك الحالة"

شعرت ليلى بقدميها ثقيلتين مرة ثانية، مثبتة على الأرض، كأن كل دمها، فجأة، تجمع في الأسفل، هناك. لكن ذهنها ظلّ بعيداً، حراً يبحر مندفعاً بسرعة قذيفة خلف كابول، فوق التلال البنية الحجرية، فوق الصحاري المتعرجة ذات الصخور الحمراء وفوق الجبال المغطاة بالثلوج..

"عندما قلت له إني سأعود إلى كابول، طلب مني أن أجدك، لأخبرك أنه كان يفكر فيك، وأنه افتقدك. وعدته أني سأفعل، لقد أحببته، أقول لك، كان صبياً مهذباً"

مسح عبدول شريف جبهته بالمنديل.

"استيقظت في إحدى الليالي".. اهتمامه بخاتم الزواج تجدد، تابع: "أعتقد أن الوقت كان ليلاً، على أية حال، من الصعب معرفة ذلك في تلك الأماكن، لم يكن هناك أية نوافذ، الشمس تشرق، الشمس

تغرب، ولا تعرفين. لكنني استيقظت، كان هناك نوع من الفوضى حول السرير الذي بجانبي. يجب أن تعلمي أنني كنت مخدراً دائماً. أغيب عن الوعي وأصحو. في هذه المسألة، كان من الصعب إدراك إن كان حقيقة، أو حلم. كل ما أذكره، أن الأطباء كانوا يحتشدون حول السرير، ينادون على هذا وذاك، الإنذارات تضيء، والإبر على كامل الأرضية.

في الصباح.. كان السرير فارغاً. سألتُ الممرضة، فقالت:

"إنه ناضل بشجاعة".. كانت ليلى واعية وهي تهز رأسها. كانت تعلم، بالطبع كانت تعلم. علمت منذ اللحظة التي جلست فيها أمام هذا الرجل، لماذا هو هنا، وما هي الأخبار التي أتى بها.

"أولا، ترين.. بداية اعتقدت أنك غير موجودة"

كان يقول الآن..

"ظننت أن المورفين كان يتكلم، ربما تمنيت، حتى، ألا تكوني موجودة، كنت أخشى دائماً نقل الأخبار السيئة. لكني وعدته، وكما قلت، أصبحت مولعاً به، لذلك جئت إلى هنا منذ عدة أيام، سألت عنك في الجوار، تكلمت إلى بعض الجيران، أشاروا إلى هذا المنزل، أخبروني أيضاً عما حدث لوالديك. عندما سمعت ذلك، استدرت وغادرت. لم أستطع إخبارك. قررت أن ذلك كثير عليك، على أي شخص"

مشى عبدول شريف إلى الطاولة، ووضع يده على ركبتها، "ولكنني عدت، لأنني في النهاية، اعتقدت أنه كان ليرغب أن تعلمي، أعتقد ذلك، أنا آسف جداً. أتمنى...."

لم تعد ليلى مصغية أبداً، كانت تتذكر اليوم الذي أتى فيه ذلك الرجل من بانجشير، ليوصل خبر موت أحمد ونور، تذكرت بابي، وجه شاحب، يسقط على الكنبة، ومامي تطير يدها إلى فمها عندما سمعت ذلك، راقبت ليلى مامي آنذاك، وهي منهارة.. لكنها لم تشعر بأي حزن حقيقي. لم تفهم الفظاعة في خسارة مامي. الآن كل غريب

يأتي بأخبار عن شخص آخر ميت. الآن هي التي تجلس على الكنبة. أهذه عقوبتها، عقابها لأنها كانت بعيداً بنفسها عن معاناة أمها؟

تذكرت ليلى كم مرة سقطت مامي على الأرض، وكيف كانت تصرخ، تنتف شعرها، لكن ليلى لم تستطع أن تقوم بهذا، كانت بالكاد تستطيع الحركة. كانت بالكاد تستطيع تحريك أي عضلة في جسدها.

جلست على الكرسي بدلاً من ذلك، يداها مرتخيتان في حضنها، العينان تحدقان باللاشيء، وتركت عقلها يحلّق. تركته يحلّق حتى وجدت مكاناً، المكان الجيد والآمن، حيث حقول الشعير كانت خضراء، حيث الماء يجري صافياً، وبذور القطن ترقص بالآلاف في الهواء، حيث كان يجلس بابي تحت شجرة أكاسيا، يقرأ كتاباً، وطارق يغفو ويداه على صدره، حيث تستطيع أن تُغطس قدميها في الجدول، وتحلم أحلاماً جيدة تحت الرعاية الحانية لآلهة القدماء، الصخر الذي تصلّب تحت أشعة الشمس.

الفصل التاسع والعشرون

مريم

قال رشيد للفتاة: "أنا آسف" بينما يأخذ صحنه من (الماستاوا) وكرات اللحم من مريم دون النظر إليها.

"أعلم أنك كنت قريبة منه.. أصدقاء.. كلاكما، دائماً مع بعضكما، منذ الطفولة. ما حدث شيء رهيب. الكثير من الرجال اليافعين الأفغان يموتون بهذه الطريقة"

وأشار بيده دلالة الضيق، وهو ينظر إلى الفتاة، فأعطته مريم مناديل المائدة.

لسنوات، ومريم تنظر إلى وجهه حين يأكل، عضلات صدغيه تتحرك بعنف، يد تصنع كرة من حبات الأرز، وبقفا يده الثانية يمسح الدهن وحبات الأرز العالقة على جانبي فمه. لسنوات، كان يأكل ولا ينظر إلى أعلى. دون كلام، صمته يُدينها.. على الرغم من بعض الأحكام التي بت فيها، ولا يكسر هذا الصمت إلا صوت اتهاميٌّ جديد، أو طرطقة مستهجنة من لسانه، كلمة تأمر ببعض الخبز، أو المزيد من الماء.

الآن هو يأكل بالملعقة، يستخدم المنديل. يقول لطفاً عندما يطلب الماء، يتكلم بشكل نشيط ومستمر.

"إذا سألتني.. أعتقد أن الأمريكيين قد سلّحوا الرجل الخطأ في حكمتيار. كل أسلحة CIA سلمت له في الثمانينات لقتال السوفييت. ولكن السوفييت قد رحلوا وما زالت الأسلحة بين يديه، والآن يوجهها على الناس الأبرياء مثل أهلك. ويدّعي أن هذا الأمر جهاد. يا لها من مهزلة! ما الذي يقوم به الجهاد، عندما يقتل النساء والأطفال؟!.. من الأفضل لو أن CIA سلحت القائد مسعود".

بشكل لا إرادي تقوس حاجبا مريم. القائد مسعود؟! بذهنها، ما زالت تسمع رشيد يتحدث ضد مسعود، كيف إنه خائن وشيوعي. ولكن الآن، مسعود كان من الطاجيك، بالطبع، مثل ليلى.

"والآن، هناك شخص عقلاني. أفغاني شريف. رجل مهتم بإخلاص بالحل السلمي"

هز رشيد كتفيه وتنهد.

"لا يعني أن أحد في أمريكا يهتم، اعذريني. ما الذي يهمهم في أن يقتل الباشتون الهازارا، الطاجيك والأوزبك بعضهم بعض؟ لا تتوقعي العون منهم. أنا أقول، لقد انهار الإتحاد السوفييتي الآن، لسنا ذوي فائدة لهم. هم يخدمون أهدافهم، بالنسبة لهم أفغانستان هي عبارة عن بؤرة ملعونة. اعذري لغتي، لكنها الحقيقة. ما رأيك، ليلى جان؟"

همهمت الفتاة بشيء غير ذكي أبعدت جانباً كرة اللحم في صحنها.

أومأ رشيد رأسه بتأمل وكأنها قالت أذكى شيء سمعه. فأبعدت مريم نظرها.

"تعلمين، والدك، رحمه الله، اعتدنا أنا ووالدك النقاش بهذه الطريقة. هذا كان قبل أن تولدي، بالطبع. مراراً ومراراً حول السياسة. حول الكتب أيضاً. أليس كذلك يا مريم؟ تذكرين أليس كذلك؟"

شغلت مريم نفسها بشرب الماء.

"على كل حال، أتمنى أن لا أكون قد أضجرتك بهذا الحديث عن السياسة"

لاحقاً، كانت مريم في المطبخ، تنقع الصحون بالماء والصابون، وألم شديد في بطنها.

لم يكن كثيراً ما قاله، الأكاذيب الصاخبة، التعاطف المختلق، ولا حتى أنه لم يرفع يده عليها.. منذ أن أخرج الفتاة من تحت ذاك الحطام.

كان الإلقاء المنظم. كدور مسرحي. محاولة من جهته، ماكرة ومثيرة للشفقة، أن يؤثر. أن يسحر.

وفجأة علمت مريم أن شكوكها كانت صحيحة. لقد فهمت بفزع أن ذلك مثل خبطة عمياء على جانب رأسها وأن ما تشهده ليس إلا غزلاً. عندما استطاعت أخيراً أن تسيطر على أعصابها، ذهبت مريم إلى غرفتها. أشعل رشيد سيجارة وقال: "لم لا"؟!

علمت مريم أنها هزمت الآن، كانت تقريباً متوقعة وكانت آملة أن ينكر كل شيء، ربما اختلاق مفاجئ أو حتى إساءة، لما كانت تقترحه. ربما كانت لها اليد العليا وقد تنجح في أن تعيبه. ولكن ذلك سرق جرأتها، معرفته الهادئة، لهجته التي توحي بالمعرفة.

"اجلسي" قال. كان مستلقياً على السرير عكس اتجاه الحائط، ورجلاه السميكتان الطويلتان منفرجتان على الفراش.

"اجلسي قبل أن تدوخي وتحطمي رأسك"

شعرت مريم بنفسها تسقط على الكرسي بجانب سريره.

قال: "هلا تعطيني منفضة السجائر"؟

بشكل مطيع، فعلت ذلك.

كان رشيد في الستينات من عمره أو أكثر الآن، في الواقع هو لا يعلم بالضبط عمره، أصبح شعره أبيضَ، سميك وخشن كما كان دائماً. هناك تجعد في أجفان عينيه ورقبته أيضاً، الجلد فيهما مطوي ومتجعد. وجنتاه مرتخيتان أكثر. وفي الصباح كان يقف على دفعات. لكنه ما زالت لديه الكتفان القويان، الجذع الثخينة، اليدان القويتان، الكرش الذي يدخل إلى الغرفة قبل أي جزء آخر منه. بالمجمل، اعتقدت مريم بأنه صمد أمام السنين أكثر مما فعلت.

"نحن بحاجة لأن نجعل هذا الوضع شرعياً" كان يتحدث الآن وهو يوازن منفضة السجائر على بطنه. زم شفتيه بطريقة هزلية.

"الناس ستتكلم. يبدو ذلك غير شريف، أن تعيش امرأة شابة هنا. إنه سيء لسمعتي. ولسمعتها. بالإضافة إلى سمعتك"

قالت مريم: "لثمانية عشر عاماً، لم أسألك عن شيء، ولا حتى شيء واحد. لكنني أسألك الآن"

استنشق دخان سيجارته واخرج الدخان من أنفه ببطء.

"لا تستطيع أن تبقى ببساطة، إذا كان هذا ما تقترحينه، لا أستطيع أن أستمر في إطعامها وكسوتها وإعطائها مكاناً تنام فيه. لست الصليب الأحمر يا مريم"

"ولكن هذا"؟

"ماذا عنه؟ ماذا؟ إنها شابة جداً، تعتقدين؟ إنها في الرابعة عشر من عمرها. بالكاد طفلة. لقد كنت في الخامسة عشر من عمرك. تذكرين؟ كان عمر أمي أربعة عشر عاماً عندما ولدتني. وثلاثة عشر عندما تزوجت"

"أنا... أنا لا أريد هذا" قالت مريم في محاولة عاجزة ويائسة.

"إنه ليس قرارك. إنه قرارها وقراري"

"هل أنا كبيرة جداً"؟!

"هي شابة جداً، أنت كبيرة جداً! هذا هراء"

"هل أنا كبيرة جداً؟ مسنة جداً لتفعل هذا بي"؟! قالت مريم، وهي تمسك بثوبها بكامل قبضتها ويداها تهتزان.

"لأجلك، بعد كل تلك السنين، تجعلني أمباغ"

"لا تكوني دراماتيكية إنه شيء مألوف وأنت تعلمين ذلك، لدي أصدقاء لديهم زوجتان، ثلاثة، وأربع زوجات كان والدك لديه ثلاث زوجات. إضافة إلى أن ما أفعله الآن قام به أغلب الرجال الذين أعرفهم منذ زمن. تعرفين أن ذلك حقيقة"

"لن أسمح بذلك"

ابتسم عندها رشيد بحزن.

قال "هناك خيار آخر" وهو يفرك أسفل قدمه بكعب قدمه الأخرى الخشنة. "تستطيع أن تغادر لن أقف في طريقها. لكنني أتوقع أنها لن تذهب بعيداً. لا طعام، لا ماء، ولا يوجد روبية في جيبها، الرصاص والصواريخ في كل مكان. كم عدد الأيام التي ستصمد فيها كما تظنين

قبل أن تخطف، تغتصب أو ترمى في طريق جانبي مذبوحة؟ أو الأمور الثلاثة معاً؟"

سعل وعدل الوسادة خلفه. "الطرق في الخارج لا ترحم، مريم، صدقيني. كلاب مسعورة، وقطاع طرق في كل منعطف. لن أحسدها على حظها ، بالمطلق. لكن دعينا نقول أنها بمعجزة ما، وصلت إلى بيشاور. ماذا بعد ذلك؟ هل لديك فكرة عن تلك المخيمات؟"

نظر إليها من وراء سحب الدخان

"يعيش الناس هناك تحت قطع من الورق المقوى الزحار، المجاعة، الجريمة. وذلك قبل الشتاء، ثم موسم الصقيع، ذات الرئة. يتحول الناس هناك إلى جليد، تصبح تلك المخيمات قبور متجمدة.

"بالطبع".. بشكل مازح وهو يحرك يديه

"تستطيع أن تبقى دافئة في إحدى بيوت البغاء في بيشاور، الأعمال مزدهرة هناك. سمعت، أن فتاة جميلة مثلها قد تصنع ثروة صغيرة، ألا تظنين ذلك؟!"

وضع منفضة السجائر على الطاولة وحرك قدميه إلى جانب السرير.

قال: "انظري".. وهو يبدو راضياً أكثر الآن، كالمنتصر:

"أفهم، أنك لن تستطيعي أن تفهمي هذا الأمر جيداً. لا ألومك حقاً، لكن هذا من أجل الأفضل، سترين. فكري بالأمر بهذه الطريقة. إنني أمنحك مساعدة في البيت، وأعطيها ملاذاً، بيت، وزوج في هذه الأيام.. أوه كيف آلت أمور أفغانستان.. ألم تلاحظي الأرامل اللواتي ينمن في الشوارع اليوم؟ قد يقاتلون من أجل هذه الفرصة. بالحقيقة، هذا... حسناً، علي القول بأن هذا الأمر إحسان مني" ابتسم.. ثم أردف:

"بالطريقة التي أرى فيها الأمر فإنني أستحق ميدالية"

لاحقاً، في الظلام، أخبرت مريم الفتاة.

لوقت طويل لم تقل الفتاة شيئاً.

"يريد جواباً في الصباح" قالت مريم.

"يستطيع أن يأخذ الرد الآن" قالت الفتاة "جوابي.. نعم"

الفصل الثلاثون

ليلى

في اليوم التالي، بقيت ليلى في السرير. كانت تحت الغطاء، عندما أطل رشيد برأسه في الصباح، وقال إنه ذاهب إلى الحلاق، عاد متأخراً بعد العصر، وكانت ما تزال في السرير، استعرض أمامها قَصَة شعره، وبدلته المستعملة الجديدة، زرقاء مقلمة باللون الكريمي.. وخاتم الزواج الذي جلبه لها!!

جلس بجانبها على السرير، يؤدي عرضاً كبيراً وهو يفتح العلبة ببطء ويُخرج الخاتم بلطف. قال إنه قايضه بخاتم زواج مريم القديم لأجلها. "لا يهمها الأمرِ، صدقيني.. حتى أنها لن تلاحظ"!!

تراجعت ليلى بعيداً عنه.. إلى نهاية السرير. كانت تسمع صوت بخار الكوي الذي تقوم به مريم في الأسفل.

قال رشيد "على أية حال، لم تضعه في يدها أبداً"

قالت ليلى بضعف: "لا أريده، ليس بتلك الطريقة. يجب أن تعيده"

"أعيده"؟! لمعت نظرة غير صبورة على وجهه واختفت، ابتسم: "علي أن أضيف بعض النقود أيضاً ـ الكثير في الواقع. هذا الخاتم أفضل إنه من الذهب عيار أربع وعشرين قيراط. إنه ثقيل؟ امسكيه.. ها؟"

أغلق العلبة.. ثم قال: "ماذا عن الأزهار؟ سيكون ذلك لطيفاً، تحبين الأزهار؟ هل تفضلين نوعاً ما؟ أقحوان؟ توليب أم النتلج؟ لا أزهار؟ جيد! لا أرى الفكرة مهمة.. ظننت فقط.. الآن، أعرف خياطاً هنا في (ديه ما زانغ)، كنت أفكر في أن نأخذك إلى هناك غداً، ليأخذ قياسك لثوب ملائم"

هزت ليلى رأسها بالنفي.. فرفع رشيد حاجبيه "أريد فقط سريعاً..."

وضع يده على عنقها. فلم تستطع ليلى إلا أن تنتفض وتتراجع. أحست بلمسته وكأنها ترتدي كنزة صوفية دون قميص داخلي..

"أريد أن نقوم بذلك بأسرع ما يمكن"

فتح رشيد فمه، ابتسم، ابتسامة أظهرت أسنانه الصفراء "متلهف.. نعم"

قبل زيارة عبدول شريف، كانت ليلى قد قررت أن تغادر إلى باكستان. وحتى بعد أن أتى عبدول شريف حاملاً أخباره، فكرت ليلى أنها قد تغادر الآن، أن تذهب إلى مكان ما بعيداً عن هنا، وتفصل نفسها عن هذه المدينة حيث كل زاوية أو شارع يمثّل فخاً، وكل زقاق يخبئ شبحاً يظهر لها كاللعبة، في صندوق، تقفز عندما يفتح، قد تخاطر بذلك. لكن فجأة، لم يعد الرحيل خياراً. ليس مع هذا التقيؤ اليومي، وهذا الامتلاء في صدرها.

القلق، بطريقة ما، ووسط كل هذا الاضطراب. فوتت دورة شهرية. تخيلت ليلى نفسها في مخيم للاجئين، مكان مفتوح مع آلاف الأغطية البلاستيكية المربوطة إلى أعمدة تخفق في البرد، البرد اللاسع.

تحت إحدى هذه الخيام المؤقتة، رأت ابنها، ابن طارق، صدغيه غائرين، فكيه مرتخيين، جلده مرقط ومائل للزرقة. تخيلت جسده النحيل يُغسل بأيدٍ غريبة ويُلف بكفن صغير، يوضع بحفرة في بقعة مكشوفة للريح تحت أنظار النسور.

كيف تستطيع أن تهرب الآن؟ قامت ليلى بوضع قائمة جرد كئيبة للناس في حياتها. أحمد ونور قتلا، حسينة ذهبت، جيتي ماتت، مامي ماتت، بابي مات والآن طارق... لكن بشكل إعجازي شيء ما من حياتها السابقة باقٍ، ارتباطها الأخير مع الشخص الذي كانت، قبل أن تصبح وحيدة تماماً، جزء من طارق ما زال حياً في داخلها، يُنبت ساعدين رقيقين، يدين شفافتين. كيف بإمكانها أن تعرّض للخطر الشيء الوحيد الذي بقي لها منه، من حياتها القديمة؟

اتخذت قرارها بسرعة، ستة أسابيع مرت منذ أن كانت مع طارق أي تأخير وسيصبح رشيد مرتاباً. كانت تعلم أن ما تفعله غير شريف، غير بريء ومعيب، عرض غير عادي لمريم. لكن على الرغم من ذلك، فإن الجنين في داخلها كان لا يزال بحجم حبة توت، رأت ليلى الآن التضحيات التي تقدم عليها الأم. كان يجب أن تكون الفضيلة أولاً. وضعت يداً على بطنها، وأغلقت عينيها.

ستتذكر ليلى الاحتفال الصامت بكل جزئياته وتفاصيله، خطوط اللون الكريمي في بدلة رشيد، الرائحة النافذة لمثبت الشعر الذي استخدمه، الجرح الصغير فوق تفاحة آدم، رائحة التبغ الثقيلة الملتصقة بأصابعه عندما وضع الخاتم في إصبعها. القلم الذي لم يكن يكتب، البحث عن قلم جديد، العقد، التوقيع، يده الواثقة ويدها المرتجفة، الصلوات، في المرآة، لاحظت أن رشيد قد شذب حاجبيه.

في مكان ما في الغرفة، كانت مريم تراقب. كان الجو يختنق باستنكارها. لم تستطع ليلى أن تمنع نفسها من التقاء نظرها بنظرات المرأة الكبيرة.

مستلقية تحت الأغطية الباردة تلك الليلة، راقبته ليلى وهو يغلق الستائر، كانت ترتجف حتى قبل أن يفك بأصابعه أزرار قميصها وينزع عنها سروالها. كان مهتاجاً، يداه تتحسسان قميصه، ثم ينزع حزامه. رأت ليلى ثدييه المتهدلين، نتوء سرة بطنه والعروق الزرقاء على زاويتها، خصل الشعر البيضاء الكثيفة على صدره، كتفيه وأعلى يديه. أحست بنظراته تعريها. قال: "ليساعدني الرب.. أظن أنني أحبك"

من خلال صرير أسنانها سألته ليلى أن يطفئ الأضواء.

لاحقاً، عندما تأكدت من أنه نائم، بحثت ليلى بهدوء تحت الفراش عن السكين التي خبأتها هناك. وبالسكين جرحت إبهامها ثم رفعت الغطاء وتركت إصبعها ينزف على الشراشف حيث كانا مستلقيان معاً.

الفصل الحادي الثلاثون

مريم

في النهار، لم تكن الفتاة، بالنسبة لمريم، أكثر من صرير السرير، صوت ملعقة الشاي بالكأس في الأعلى. وقع أقدام، رشرشة الماء في الحمام، من حين إلى آخر، كانت هناك مشاهدات: قطعة ثوب تندفع مهرولة في مجال رؤيتها، أقدام تهرول على الأدراج، أذرع مطوية على الصدر، وقع صوت كعوب الأحذية.

لا مفر من أن تتواجه السيدتان. على الأدراج، في الردهة الضيقة، في المطبخ، أو عند الباب بينما تكون إحداهما آتية من الباحة. عندما تلتقيان هكذا، يندفع توتر صعب في المساحة التي بينهما. تجمع الفتاة تنورتها وتتنفس بكلمة أو كلمتي اعتذار، بينما تمر مسرعة، يكون لدى مريم أحياناً، الفرصة لنظرة جانبية تلتقط بها خجل ليلى. بعض الأوقات كان باستطاعتها أن تشم رائحة رشيد عليها. تشم رائحة عرقه على جلد الفتاة، تبغه، شهيته. الجنس، الرحمة، كان فصل قد انتهى من حياتها. كان لفترة من الوقت، أما الآن فمجرد التفكير بتلك الجلسات المرهقة تحت رشيد يجعل مريم تشعر بالاشمئزاز في أحشائها.

في المساء. كان هذا التجنب الأوركستري الراقص بينها وبين الفتاة مستحيل، قال رشيد بأنهم عائلة.

وأصر على أنهم كذلك، وقال إن العائلات تجلس سوياً على المائدة.

"ما هذا"؟ بيده كان يفصل اللحم عن العظم ـ تمثيلية الملعقة والشوكة استبعدت بعد أسبوع من زواجه للفتاة.

"هل تزوجت من تمثالين؟ هيا مريم، قولي لها شيئاً أين تهذيبك"؟ قال للفتاة وهو يمص النخاع من العظمة:

"لكن يجب ألا تلوميها. إنها هادئة. مباركة، حقاً، إذا كان الشخص ليس لديه الكثير ليقوله فإن كلماته ستكون لاذعة. نحن أبناء مدينة، أنت وأنا، ولكنها ابنة قرية. حتى أنها ليست ابنة قرية.. لا، لقد ترعرعت في كوخ من الطين خارج القرية. وضعها والدها هناك. هل أخبرتها يا مريم، هل أخبرتها أنك ابنة حرام؟ حسناً، إنها كذلك. لكنها ليست دون مؤهلات، كل الأشياء تؤخذ بعين الاعتبار، سترين بنفسك ليلى جان. إنها قوية، لشيء واحد، إنها عاملة جيدة بدون حجج. سأقولها بهذه الطريقة: إذا كانت سيارة، فإنها فولغا"

كانت مريم في الثالثة والثلاثين، امرأة كبيرة الآن ولكن كلمة ابنة حرام ستظل تخزها، مازال مجرد سماعها يجعلها تشعر أنها حشرة، صرصور. تذكرت نانا وهي تشد رسغيها. إنك (ابنة حرام) خرقاء صغيرة. هذه مكافئتي على كل ما تحملت. انكسار وراثي، ابنة حرام خرقاء صغيرة.

" أنت" قال رشيد للفتاة:

"أنت، من ناحية أخرى، أنت سيارة بينز مشعة، جديدة، من الطراز الأول، واه واه. لكن.. لكن"

رفع إصبعه المليء بالدهن: "على الشخص أن يكون متأكداً من.. اهتمامه.. مع البينز، احتراماً لجمالها ودقة صنعها.. ترين ذلك، أوه، لا بد أنك تعتقدين أني مجنون، ديوانا، مع كل هذا الكلام عن السيارات. لم أقل أنكنّ سيارات.. بالمجمل، أنا أعطي وجهة نظر"

بالنسبة لما أتى لاحقاً، وضع رشيد كرة الأرز التي صنعها في الصحن. تدلت يداه بكسل فوق وجبته، بينما أطرق وعلى وجهه تعبير جدي، متأمل.

"على الشخص ألا يتكلم عن الأموات بسوء، على الأقل الشهداء. ولا أعني الإساءة عندما أقول هذا، أريدك أن تعلمي، لكن لدي عدة.. تحفظات.. عن الطريقة التي، أبواك - يرحمهما الله ويمنحهما مكاناً في النعيم _ عن، حسناً، عن تساهلهم معك. أنا آسف"

النظرة الباردة، الكارهة التي فاجأت بها الفتاة رشيد عندها لم تخفَ على مريم.

لكنه كان ينظر إلى الأسفل، ولم يلاحظ.

" لا يهم، المهم أنني زوجك الآن، يجب علي حماية، ليس فقط شرفك، بل أيضاً شرفنا، نعم، هذا العبء يقع على كاهل الزوج، إنك تجعلينني قلقاً من هذه الناحية. أرجوك. بالنسبة لك، أنت ملكة، وهذا المنزل هو قصرك.

أي شيء تحتاجين له، اطلبي من مريم وستقوم به لأجلك، أليس كذلك مريم؟ وإذا رغبت بشيء، سأجلبه لك، أترين، هذا نوع الأزواج الذي هو أنا".. وبعد برهة صمت، قال:

" كل ما أطلبه بالمقابل، حسناً، شيء بسيط. أطلب منك تجنب مغادرة هذا المنزل دون رفقتي، هذا كل شيء. بسيط، أليس كذلك؟ إذا كنت غائبا، واضطررت لشيء ما، أقصد، اضطررت بالضبط ولا تستطيعين انتظاري، عندها تستطيعين إرسال مريم وهي ستذهب وتجلبه لك. لقد لاحظت تناقض، أكيد، حسناً، لا يستطيع أحد أن يقود سيارة فولغا وسيارة بينز بنفس الطريقة، سيكون ذلك حمقاً، أليس كذلك؟ آه، أطلب منك أيضاً عندما نخرج سوية، أن تلبسي البرقع. لحمايتك، بالطبع. إنه أفضل. لأنه يوجد الكثير من الرجال الفاسقين في هذه المدينة الآن، ذوي نوايا شريرة، متلهفين كي يلطخوا شرف حتى النساء المتزوجات، إذاً، هذا كل شيء"

سعل.. وأكمل:

"يجب أن أقول أن مريم ستكون عيناي وأذناي عندما أكون بعيداً"

وهنا نظر إلى مريم نظرة سريعة قاسية كركلة بأصابع فولاذية على الصدغ.. ثم أردف:

"هذا لا يعني أنني لا أثق بكِ، على العكس تماماً، بصراحة لقد صعقتني بحنكتك التي تزيد كثيراً على عمرك. لكنك مازلت امرأة شابة ليلى جان، والنساء الشابات قد يقدمن على خيارات طائشة، يكون

لديهن ميل للمتاعب، على أية حال، ستكون مريم مسؤولة. وإذا كانت هناك أية زلة..." كان مازال يتحدث، حين جلست مريم تراقب الفتاة من زاوية عينها، بينما أوامر رشيد وأحكامه تمطرهما كالصواريخ التي تسقط على كابول.

في أحد الأيام، كانت مريم في غرفة الجلوس تطوي قمصان رشيد التي أنزلتها عن حبل الغسيل في الباحة. لم تكن تعلم كم من الوقت مضى على الفتاة وهي جالسة هناك. لكن عندما أخذت القميص واستدارت للخلف، وجدت الفتاة جالسة عند عتبة الباب، يداها تحيطان بكأس من الشاي.

"لم أقصد إفزاعك" قالت الفتاة.. "أنا آسفة"

بقيت مريم تنظر إليها فقط.

سقطت الشمس على وجه الفتاة، على عينيها الكبيرتين الخضراوين، وجبهتها الناعمة، علىٍ وجنتيها العاليتين وحاجبيها السميكين اللذين كانا لا يشبهان أبداً حاجبا مريم الرفيعين عديمي الشكل.

شعرها الأصفر، غير مسرح هذا الصباح، كان مفروقاً عند المنتصف. رأت مريم من إحكام الفتاة لقبضتها على الكأس، وأكتافها المشدودة، بأنها كانت متوترة، تخيلتها جالسة على السرير تهدئ نفسها.

"أوراق الشجر تتبدل" قال الفتاة بلطف.. "هل ترين؟ الخريف فصلي المفضل، أحب رائحته، عندما يحرق الناس الأوراق في حدائقهم، أمي، كانت تحب الربيع أكثر، تعرفين أمي"؟

"ليس تماماً"

وضعت الفتاة يدها خلف أذنها: "أنا آسفة"

رفعت مريم صوتها: "قلت لا.. لم أكن أعرف أمك"

"آه"

"هل تريدين شيئاً ما"؟

"مريم جان، أريد أن.. بالنسبة للأشياء التي قالها تلك الليلة.."
"كنت أريد أن أحدثك عنها" قاطعتها مريم.
"نعم أرجوك" قالت الفتاة بجدية وتلهف. خطت خطوة للأمام، بدت آنذاك مرتاحة.
في الخارج، كان هناك أورولي يغرد. أحد ما يجر عربة، كان باستطاعة مريم سماع صرير المفاصل، حركة عجلاتها الحديدية، كان هناك صوت إطلاق نار ليس ببعيد، طلقة واحدة تبعتها ثلاث أخريات، ثم لا شيء.
"لن أكون خادمتك" قالت مريم.. "لن أكون"
جفلت الفتاة: " لا.. بالطبع لا"!!
"قد تكونين ملكة القصر وأنا الخادمة، ولكنني لن أتلقى أوامر منك، يمكنك أن تشتكي إليه ويمكنه قطع عنقي، لكنني لن أفعل ذلك، هل تسمعينني؟! لن أكون خادمتك"
"لا.. لا أتوقع..."
"إذا كنت تستطيعين استخدام مظهرك للتخلص مني، فإنك مخطئة، لقد كنت هنا أولاً، لن أُطرد خارجاً، لن أتركك تقذفيني خارجاً"
"إنه ليس ما أريد" قالت الفتاة بضعف..
"أرى أن جراحك شفيت الآن، لذلك تستطيعين القيام بحصتك من العمل في هذا المنزل.."
أومأت الفتاة بسرعة، اندلق بعض الشاي، ولكنها لم تلحظ ذلك.
"نعم، هذا سبب آخر لمجيئي للأسفل، من أجل شكرك على رعايتك لي..."
"حسناً، لم أكن لأقوم بذلك".. ردت مريم بحدة.. ثم أردفت:
"لم أكن لأطعمك، أغسلك، وأرعاك لو كنت أعلم أنك ستسرقين زوجي"
"أسرق..."

"سأستمر بالطبخ وغسلِ الأطباِق. ستقومِين أنت بالغسيل والمسح. البقية سنتناوب عليها يومياً. شيئاً آخر أيضاً، لا أريد صحبتك. لا أريدها. ما أريده أن أبقى وحيدة. سوف تتركيني هكذا، وأنا سأرد المعروف. بهذه الطريقة سنتابع، تلك هي القواعد"

عندما أنهت مريم حديثِها، كان قلبها يدق بعنف، شعرت بالجفاف فيِ فمها. لم تتكلم مريم أبداً بتلك الطريقة من قبل، لم تفرض رغبتها أبداً بتلك الطريقة الحاسمة، أشعرها ذلك بالابتهاج. لكن عينا الفتاة كانتا مبللتين بالدموع، وجهها مطرق، يا له من شعور بالرضا أحست به مريم من هذا الانفجار الذي شعرت أنه، بطريقة ما، غير مشروع.

مدت مريم يدها لتعطي الفتاة القمصان: "ضعيهم في الألماري، وليس في الخزانة. يجب أن تكون ملابسه الداخلية في الدرج الأعلى، البقية في المنتصف، مع الجوارب"

وضعت الفتاة الفنجان على الأرض وأخذت القمصان: "أنا آسفة على كل هذا".. قالت هذا بصوت متلعثم.

"يجب عليك" قالت مريم.. "يجب أن تكوني آسفة".

الفصل الثاني الثلاثون

ليلى

تذكرت ليلى اجتماعاً حصل مرة، قبل سنوات في المنزل، وفي أحد أيام مامي الجيدة، كانت النسوة يجلسن في الحديقة، يأكلن التوت البري الطازج الذي قطفته واجمة من شجرة في حديقتها. التوت البري المكتنز، ذو اللون الأبيض والزهري، وبعضه كان أرجوانياً كما العروق البارزة في أنف واجمة.

"هل سمعتم كيف مات ابنه"؟ قالت واجمة، بحيوية وهي تضع قبضة أخرى من التوت البري في فمها الغائر.

"غرقاً.. أليس كذلك"؟ قالت نايلا، أم جيتي..

"في بحيرة غارغا.. أليس كذلك"؟

"لكن هل علمتم أن رشيد ..."

رفعت واجمة إصبعاً، كانت رؤيتها تستحق المشاهدة آنذاك، تهز رأسها وتمضغ وتجعلهم ينتظرونها كي تبلع..

"هل علمتم أنه اعتاد الشرب عندها، وأنه كان يبكي وهو ثمل ذاك اليوم؟! إنها الحقيقة. يبكي ثملاً، هذا ما سمعته. وكان هذا في منتصف الصباح، ومع حلول الظهيرة، غاب عن الوعي على كرسي الانتظار. كان يمكنكم إطلاق مدفع قرب أذنه ولن يحرك رمشاً"

تذكرت ليلى كيف غطت واجمة فمها، متجشئة، وكيف ذهب لسانها يستكشف بين أسنانها القليلة المتبقية.

"يمكنكم تخيل البقية.. ذهب الولد إلى الماء دون أن يلاحظه أحد. ثم وجدوه بعد فترة، يطوف ووجهه مقلوباً إلى لأسفل. أسرع الناس للمساعدة، نصفهم يحاول إيقاظ الصبي، والآخرون يحاولون إيقاظ

الأب. أحدهم انحنى فوق الصبي، قام بـ ... الشيء الذي يفترض القيام به فماً لفم. كان ذلك عبثاً. أدرك الجميع ذلك، فالولد كان قد رحل"

تذكرت ليلى واجمة ترفع إصبعاً وصوتها يرتجف بالشفقة:

"من أجل ذلك حرم القرآن الكريم الشرب، إذ دائماً ما يدفع الصاحي ثمن ذنوب الشارب.. وهذا ما حصل"

كانت تلك القصة تحوم في رأس ليلى.

بعد أن أخبرت رشيد عن حملها، ركب بالحال دراجته وذهب إلى الجامع، وصلى أن يكون صبياً.

تلك الليلة، خلال وجبة الطعام، راقبت ليلى مريم وهي تدفع قطعة اللحم في صحنها. كانت ليلى هناك، عندما باغت رشيد مريم بالخبر بصوت عالٍ، درامي - لم تشهد ليلى من قبل مثل تلك الفظاظة السارة.. رفت رموش مريم عندما سمعت. احمرَ وجهها، جلست واجمة، تبدو مهجورة.

لاحقاً، ذهب رشيد إلى الأعلى ليستمع إلى الراديو، ساعدت ليلى مريم بتنظيف المائدة.

"لا أستطيع تخيل من أنت الآن"؟ قالت مريم، وهي تلملم حبات الأرز وفتات الخبز..

"إذا كنت بينزاً سابقاً".. اتبعت ليلى تكتيكاً لطيفاً..

"قطار؟ ربما طائرة جامبو كبيرة"؟!!

انتصبت مريم: "أتمنى ألا تفكري بأن ذلك قد يعفيك من واجباتك"

فتحت ليلى فمها، فكرت أكثر بالأمر. ذكّرت نفسها أن مريم هي الطرف البريء الوحيد في هذه التسوية. مريم والطفل.

لاحقاً في السرير، انفجرت ليلى بالبكاء.

ما المشكلة؟ أراد رشيد أن يعرف، رافعاً ذقنها. هل هي مريضة؟ هل هو الطفل؟ هل هناك خطب ما بالطفل؟ لا؟ هل تسيء مريم معاملتها؟

"هذا هو الأمر، أليس كذلك"؟

"لا"

"والله وبالله، سأذهب إلى الأسفل وألقنها درساً، من تظن نفسها؟ تلك ابنة الحرام، لتعاملك..."

"لا"!!

كان ينهض عندها، وكان عليها أن تمسكه من ساعده، وتسحبه للأسفل.

"لا تفعل! لا! لقد كانت لطيفة معي. أحتاج دقيقة، هذا كل شيء. سأكون على ما يرام"

جلس بجانبها، يربت على عنقها، مهمهماً، يده تزحف ببطء إلى أسفل ظهرها، ثم للأعلى ثانية. انحنى عليها، مظهراً أسنانه المحتشدة.

"لنر إذاً" قرقر ضاحكاً وأردف:

"إن كنت أستطيع مساعدتك ليصبح شعورك أفضل"...

مع قدوم الشتاء، كانت الأشجار ـ التي لم تقطع كي تصبح حطباً ـ قد ذرفت أوراقها الصفراء النحاسية.

وعندما أتت الرياح، باردة ورطبة. تشق طريقها في المدينة، أسقطت الأوراق المتبقية، وتركت الأشجار كالأشباح قبالة التلال البنية الصامتة. السقوط الأول للثلج كان خفيفاً، حبات الثلج لم تكد تسقط حتى تذوب، ثم تجمدت الطرق، وتجمع الثلج في أكوام على الأسطح، مغطياً حتى منتصف النوافذ. مع الثلج أتى حكام سماءات كابول الشتائية، وأتت الطائرات الورقية، متجاوزة المناطق التي احتلت من قبل الصواريخ الضاربة والطائرات النفاثة.

تابع رشيد بجلب أخبار الحرب للبيت، كانت ليلى ترتبك فيما يتعلق بالانقسامات التي كان رشيد يحاول شرحها لها. سياف كان يحارب الهازارا، الهازارا كانوا يقاتلون مسعود.

"ومسعود يقاتل حكمتيار، بالطبع، الذي يدعمه الباكستانيون. أعداؤنا الأزليون، هذان الاثنان، مسعود وحكمتيار. سياف، الواقف إلى جانب مسعود، حكمتيار يدعم الهازارا للآن"

الشخص الذي لا يمكن التنبؤ به، هو القائد الأوزباكي دوستوم، قال رشيد لا أحد يعلم إلى جانب من سيقف. قاتل دوستوم السوفييت ١٩٨٠ إلى جانب المجاهدين، ولكنه ارتد وانضم إلى نظام نجيب الله الشيوعي ـ الدمية ، بعد أن غادر السوفييت. حتى أنه قلد ميدالية مقدمة من نجيب الله بنفسه، قبل أن يرتد مرة ثانية ويعود إلى صف المجاهدين، حتى الآن، قال رشيد، إن دوستوم يدعم مسعود.

في كابول، خصوصاً في كابول الغربية، كانت النيران عنيفة وسحب الدخان تنمو بشكل سريع فوق الأبنية المغطاة بالثلوج. أغلقت السفارات أبوابها. انهارت المدارس. في غرف الانتظار في المستشفيات، كانت الأعضاء تبتر دون تخدير.

"لا تقلقي" قال رشيد.. ثم أردف:

"إنك بأمان معي، يا زهرتي، أي شخص يحاول أن يؤذيك، سأمزق كبده وأجعله يأكله"

ذاك الشتاء، أينما اتجهت ليلى، كانت الجدران تسد طريقها. فكرت بلهفة بتلك الفضاءات المفتوحة على وسعها أيام طفولتها، أيام ذهابها إلى البوزكاشي (بطولة الطائرات) مع بابي والتسوق في ماندي مع مامي، أيام كانت تركض حرة في الشوارع، تثرثر عن الأولاد مع جيتي وحسينة، الأيام التي كانت تجلس فيها مع طارق على سرير من البرسيم قرب ضفاف جدول في مكان ما. يتبادلان الأحاجي والحلوى، يراقبان الشمس وهي تغرب. لكن التفكير في طارق كان خيانة لأنها، قبل أن تستطيع التوقف، رأته مستلقياً على سرير، بعيداً عن المنزل، والأنابيب مخترقة جسده المحترق. كتلك الحرقة التي كانت تحرق حنجرتها هذه الأيام، حزن عميق مُشِل كان يرتفع في صدر ليلى. تتحول رجلاها إلى ماء. ويكون عليها أن تتكئ على شيء ما.

أمضت ليلى ذاك الشتاء من عام ١٩٩٢ تمسح المنزل، تنظف الجدران ذات اللون اليقطيني لغرفة النوم التي تتقاسمها مع رشيد، تغسل الملابس خارجاً في وعاء نحاسي كبير. بعض الأوقات ترى نفسها

كأنها تحوم فوق جسدها، ترى نفسها جالسة على حافة الوعاء النحاسي، أكمامها مرفوعة إلى مرفقيها، أيدٍ زهرية تعصر الماء الصابوني من أحد الملابس الداخلية لرشيد. عندها تشعر بالضياع، تائهة، كناجٍ من حطام سفينة، ولا شاطئ على مد الرؤية، فقط أميال وأميال من الماء.

عندما يكون الجو بارداً جداً للذهاب إلى الخارج، تسير ليلى بتمهل حول المنزل. وهي تجر أظفرها على طول الحائط، نازلة الردهة، ثم عائدة، هابطة على الدرجات، ثم إلى الأعلى، وجهها غير مغسول، شعرها غير مسرح، تمشي إلى أن تصادف مريم، التي ترميها بنظرة خالية من الحياة، ثم تعود إلى قطع رؤوس قرون الفليفلة، ونزع الدهن عن اللحم. يسيطر صمت مؤذ على الغرفة، وتستطيع ليلى أن ترى العداء الذي لا تستطيع الكلمات التعبير عنه، وهو يشع من مريم كأمواج الحرارة المتصاعدة من الإسفلت. فتعود إلى غرفتها، تجلس على السرير، تراقب الثلج يتساقط.

في أحد الأيام أخذها رشيد إلى محله.

عندما كانا معاً في الخارج، مشى إلى جانبها ويده تقبض على مرفقها، بالنسبة لليلى، أن تكون في الشارع أصبح تمرين لتفادي الأذى. عيناها مازالتا تتأقلمان مع مجال الرؤية المحدود للبرقع. مازالت قدماها تتعثران بحاشيته. تمشي بخوف مستمر من التعثر والسقوط، من كسر كاحل يخطو نحو حفرة. رغم ذلك، وجدت بعض الراحة في المناعة التي يؤمنها البرقع. وهكذا لن يتعرف عليها أحد.

إذا صادفت أحد المعارف القدماء. لن يكون عليها أن ترى الدهشة في عيونهم، أو الشفقة، أو الغبطة، على ما حل بها، وكيف أن طموحها الشامخ تحطم.

كان محل رشيد أكبر وأكثر إضاءة مما تخيلت ليلى. أجلسها خلف عدته المزدحمة، حيث كومة من الجلد والنعال القديمة وقطع الجلد

المتبقية. أراها مطارقه، شرح لها كيف تعمل عجلة دولاب صقل الحذاء، وصوته يرن عالياً وفخورا.

لمس بطنها، ليس من خلال القميص، بل من تحته، كانت أظافره باردة وخشنة كالقذارة على جلدها المتمدد. تذكرت ليلى يدا طارق، ناعمتان.. لكنهما قويتان، العروق المتعرجة على قفا يديه التي دائماً وجدتها ذكورية محببة.

"ينتفخ بسرعةٍ" قال رشيد.. ثم أردف:

"سيكون طفلاً كبيراً. ابني سيكون بهلواناً ضخماً!.. كأبيه"

أنزلت ليلى قميصها. فقد شعرت بالخوف عندما تكلم هكذا.

"كيف الأحوال مع مريم"؟

قالت أنهما بخير.

"جيد، جيد"

لم تخبره أنهما قد تشاجرا شجاراً حقيقياً لأول مرة، حدث ذلك منذ بضعة أسابيع. ذهبت ليلى إلى المطبخ ووجدت مريم تبحث في الأدراج وتغلقها بعنف. قالت مريم أنها تبحث عن الملعقة الخشبية الطويلة التي تستخدمها لتحريك الأرز.

"أين وضعتها"؟ وهي تلوح بيدها أمام وجه ليلى.

"أنا"؟ قالت ليلى..

"لم آخذها، بالكاد أدخل إلى المطبخ"

"لقد لاحظت"

"هل هذا اتهام؟ هذا ما أردته. تذكرين. أنت قلت أنك ستحضرين الوجبات ولكن إن كنت تريدين الانسحاب..."

"تقولين أنه قد أصبح لها أرجل ومشت خارجة، تيب، تيب، تيب. هل هذا ما حدث"؟

"أنا أقول..." قالت ليلى محاولة أن تبقى مسيطرة على نفسها. عادة كانت تستطيع إجبار نفسها على امتصاص هزء واتهام مريم. لكن

كاحِليها اليوم منتفخان، ورأسها يؤلمها وكانت الحرقة في معدتها سيئة جداً.

"أقول ربما وضعتها في مكان آخر"

"مكان آخر"؟!!

سحبت مريم درجاً، قرقعت الملاعق والسكاكين في الداخل.

"منذ متى أنت هنا؟ بضعة شهور؟ لقد عشت في هذا المنزل تسعة عشر عاماً. لقد أبقيت الملاعق في هذا الدرج منذ كنت تبولين في حفاضك"

"على الرغم" قال ليلى، وهي على حافة الانفجار، الأسنان تصطك..

"من المحتمل أنك وضعتها في مكان ما ونسيت"

"ومن المحتمل أنك خبأتها في مكان ما لتغضبيني"

"إنك امرأة حزينة، وتعيسة".. قالت ليلى.

جفلت مريم، استعادت توازنها، زمت شفتيها:

"وأنت عاهرة، عاهرة و دوزد (عاهرة سارقة).. هذا ما أنت عليه"!!

ثم كان هناك صراخ، قدور رفعت رغم أنها لم تقذف. نعتتا بعضهما البعض بأسماء جعلت ليلى تخجل الآن. لم يتحدثا مع بعض منذ ذلك الوقت. ما زالت ليلى مصدومة كيف فقدت السيطرة بهذه السهولة، لكن، الحقيقة كانت، أن جزءً منها أحب ذلك، أعجبها الصراخ على مريم، أن تلعنها، وأن تجعلها هدفاً تركز عليه كل غضبها المحتقن، وحزنها.

تساءلت ليلى، بما يشبه التبصر، إن كانت مريم أحست بالمثل.

بعدها، ركضت على الدرج، ورمت بنفسها على سرير رشيد. في الأسفل، كانت مريم ما تزال تصرخ..

"القذارة على رأسك! القذارة على رأسك!" كانت ليلى قد استلقت على السرير، تئن في الوسادة، فقدانها المفاجئ لأهلها مع هذا

الاحتقان الغامر الذي لم تشعر به منذ تلك الأيام الرهيبة التي تبعت الهجوم. استلقت هناك، تقبض بكلتي يديها غطاء السرير، حتى، فجأة، انقطعت أنفاسها. جلست، على أيد تضرب أسفل بطنها.

كان الطفل قد ركل للمرة الأولى.

الفصل الثالث الثلاثون

مريم

في الربيع التالي، وفي صباح باكر من عام ١٩٩٣، وقفت مريم عند نافذة غرفة المعيشة، تراقب رشيد وهو يساعد الفتاة على الخروج من المنزل. كانت الفتاة تترنح إلى الأمام، وإلى الخلف بيدها تحمي بطنها المشدود كالطبل، كان شكله واضحاً من خلال البرقع. أما رشيد، فقد كان قلقاً وحذرا جداً، يمسك بمرفقها، يوجهها عبر الباحة مثل شرطي سير، ينتظر الإشارة الخضراء، اندفع نحو البوابة الرئيسية، ثم أشار للفتاة أن تتقدم، برجل واحدة فتح البوابة عندما وصلت إليها، أمسك بيدها وساعدها على الخروج، استطاعت مريم أن تسمعه يقول: "انتبهي إلى خطواتك الآن.. يا زهرتي"

ثم عادا في الصباح التالي.

رأت رشيد يدخل إلى الحديقة أولاً، فتح البوابة بعنف، حتى أنها اصطدمت تقريباً بوجه الفتاة. عبر الباحة ببضع خطوات سريعة. لاحظت مريم أن وجهه كان عاتماً، مثل ضوء الظلام عند الغسق. في البيت، خلع معطفه ورماه على الكنبة، اصطدم بمريم وقال بصوت فظ: "إنني جائع، جهزي الطعام"

ثم فتح الباب الأمامي للمنزل من الردهة، كانت الفتاة تحمل صرة في يدها اليسرى، قدم في الخارج والأخرى في الداخل بمواجهة الباب، حتى لا ينغلق. رأتها مريم وهي منحنية تحاول أن تصل إلى الكيس الذي وضعت فيه أغراضها خلف الباب. كان وجهها متغضن من الجهد الذي تبذله، نظرت إلى الأعلى فوجدت مريم.

استدارت مريم وذهبت إلى المطبخ لتسخن الطعام لرشيد.

"كأن شخصاً ما يدخل مفك براغي في أذني" قال رشيد ذلك، بعد مضي أقلّ من شهرين على ولادة ليلى، كان يفرك عينيه. وهو يقف عند باب غرفة مريم، عيناه منتفختان، ويلبس سروالا داخلياً عقدته رخوة. وكان شعره الأبيض مبعثراً: "لا أتحمل هذا البكاء"

في الأسفل، كانت الفتاة تتمشى بالطفلة محاولة أن تغني لها.

"لم أحظ بنوم هادئ منذ شهرين" قال رشيد.. ثم أردف: "ورائحة الغرفة مثل رائحة المجاري.. هناك ملابس متسخة ملقاة في كل مكان. لقد دست على واحدة ليلة البارحة"

ابتسمت مريم في سرها.. بابتهاج شاذ.

"خذيها إلى الخارج"!! صرخ رشيد.. ثم انتهرها قائلاً:

"ألا تستطيعين الخروج بها"؟!

توقف الغناء لوقت قصير "ستصاب بذات الرئة"!!

"إنه فصل الصيف"

"ماذا"؟

صر رشيد على أسنانه ورفع صوته: "قلت، إن الجو دافئ في الخارج"!!

"لن آخذها إلى الخارج"

استؤنف الغناء.

"في بعض الأوقات، أقسم، أنني أريد أن أضع هذا الشيء في صندوق وأدعه يطفو في نهر كابول، كالطفل موسى"

لم تسمعه مريم ينادي على طفلته باسمها، عزيزة، أبداً، دائماً يقول الطفلة، أوعندما يكون غاضباً جداً، يقول ذلك الشيء.

بعض الليالي، كانت مريم تسمعهما يتجادلان. تذهب على رؤوس أصابعها إلى بابهما، تستمع إليه وهو يشتكي من الطفلة - دائماً الطفلة - البكاء الدائم، الروائح، الدمى التي تجعله يتعثر، الطريقة التي تخطف الطفلة انتباه ليلى عنه، وحاجتها المستمرة للرضاعة، التجشؤ،

التغيير، المشي، الحمل. ليلى بدورها، وبختهِ مراراً بسبب تدخينه في الغرفة، وعدم قبوله أن تنام الطفلة معهما.

كانت هناك مجادلات أخرى تنشب بصوت منخفض.

"قال الطبيب ستة أسابيع"

"ليس بعد.. رشيد. لا، دعني.. لا تفعل ذلك"

"لقد مضى شهران"

"صه، هناك، لقد أيقظت الطفلة" ثم بصوت أكثر حدة:

"هل أنت سعيد الآن"؟!

رجعت مريم متسللة إلى غرفتها.

"ألا تستطيعين المساعدة"؟ قال رشيد.. ثم أردف:

"يجب أن يكون هناك شيء ما، تستطيعين فعله"

"ما الذي أعرفه عن الأطفال"؟ قالت مريم

"رشيد! هل تستطيع جلب الزجاجة؟، إنها على الماري (الطاولة) لا تريد أن ترضع، سأجرب زجاجة الرضاعة ثانية"

علا صراخ الطفلة مثل وقع الساطور على اللحم.

أغلق رشيد عينيه.

"ذلك الشيء يشبه لورد الحرب. حكمتيار. أقول لك، لقد أنجبت ليلى (غول بادن) حكمتيار"

راقبت مريم الهز والتنقل، وكيف أصبحت أيام الفتاة مستهلكة بدورات لا تنتهي من الرضاعة.. حتى عندما تنام الطفلة، كانت هناك الحفاضات الملوثة التي عليها أن تنظفها وتتركها منقوعة في دلو مع مطهرٍ أصرت ليلى على رشيد أن يشتريه لها. ثم كان هناك أظافر يجب أن تدرّم بورق (البرداخ).. ملابس وبيجامات يجب أن تُغسل وتُنشر لتجف. هذه الملابس، مثل أشياء أخرى حول الطفلة أصبحت موضع نزاع.

"ما المشكلة فيهم"؟ تساءل رشيد..

"إنها ملابس للصبيان"

"تعتقدين أنها تعرف؟ لقد دفعت مبلغاً جيداً ثمن هذه الملابس. شيء آخر، لا أكترث لهذه اللهجة. اعتبري ذلك تحذيراً"

كل أسبوع، دون كلل، كانت الفتاة تحمي المجمرة على لهب النار، وترمي بمقدار ضئيل من بذور الحرمل البري فيها وتمرر بلطف دخان الإسباندي حول الفتاة لتبعد الشر.

وجدت مريم أنه من المجهد مراقبة الفتاة وهي تتحرك بكل تلك الحماسة - وكان عليها أن تعترف، حتى ولو بالسر، بالإعجاب. تعجبت كيف أن عيني الفتاة تشعان بالسعادة، حتى في تلك الصباحات التي يكون وجهها متهدلاً ولون بشرتها كالشمع من الليالي المرهقة وهي تتمشى بالطفلة. كانت تنفجر بالضحك عندما تطلق الفتاة الغازات. أقل تغيير في الطفلة كان يفتنها، وأي شيء تقوم به الطفلة تعلن عنه.

"أنظر! إنها تمد يدها من أجل اللعبة.. كم هي ذكية"

"سأتصل بالصحف"!! قال رشيد هازئاً.

كل ليلة كانت هناك عروض. عندما تصر الفتاة على أن يشهد شيئاً، يرفع رشيد ذقنه ويلقي نظرة جانبية طويلة، عديمة الصبر من أنفه ذو العروق الزرقاء.

"انظر، انظر كيف تضحك عندما أفرقع أصابعي، هل ترى"؟

كان رشيد يزفر، ويعود إلى صحنه. تذكرت مريم كيف أن مجرد وجود الفتاة كان يستحوذ عليه، كل شيء تقوله يسعده، يأخذه، يجعله يرفع نظره عن صحنه ويومئ موافقاً.

الغريب بالأمر أن سقوط منزلة الفتاة كان يجب أن يسعد مريم، ويجلب لها إحساس بالرضا. لكن ذلك لم يحدث. تفاجأت مريم عندما وجدت نفسها تأسف لحال الفتاة.

كان وقت العشاء، عندما أطلقت الفتاة، شلالاً ثابتاً من المخاوف. في أعلى القائمة كانت ذات الرئة، الذي كان يشتبه به عند أصغر قحة.

ثم كان هناك الزحار، الفزع كان يظهر مع كل خروج للطفلة. كل طفح كان إما جدري أو حصبة.

قال رشيد في إحدى الأمسيات: "يجب ألا تتعلقي كثيراً بالطفلة"

"ما الذي تقصده؟"

"كنت أستمع إلى الراديو في إحدى الليالي، إلى إذاعة صوت أميركا، سمعت إحصاء مهماً. قال أنه من بين كل أربعة أطفال أفغان يموت طفل قبل بلوغه الخامسة. هذا ما قالوه. الآن، لقد... ماذا؟ ماذا؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ارجعي.. ارجعي إلى هنا إنها إهانة!"

نظر إلى مريم نظرة محتارة..

"ما الذي أصابها"؟

تلك الليلة كانت مريم جالسة في السرير، عندما بدأت المشاحنات مرة ثانية. كان الجو حاراً، ليلة صيف جافة، نموذجية لشهر السرطان في كابول. فتحت مريم نافذتها، ثم أغلقتها عندما لم يأتِ النسيم ليرطب الحر، فقط البعوض. كانت تشعر بالحر يتصاعد من الأرض في الخارج، من خلال سنابل القمح البنية، المتناثرة في الباحة بعشوائية، من خلال الجدران وفي غرفتها.

عادة، كانت المشاحنة تنتهي بعد عدة دقائق، لكن مضت نصف ساعة ولم تكن فقط مستمرة بل كانت تتصاعد. كان بإمكان مريم سماع رشيد يصرخ الآن، صوت الفتاة تحت صوته، كان حاداً ومرتفعاً.

في الحال بدأت الفتاة تبكي.

عندها، سمعت مريم بابهما يفتح بعنف. في الصباح، ستجد مريم أثر مقبض الباب الدائري مطبوعاً على جدار الممشى. كانت تجلس في السرير عندما فتح بابها بعنف ودخل رشيد إلى الغرفة.

كان يرتدي سروالاً أبيض وقميصاً داخلياً مطابقاً له، كان مصفراً تحت الإبطين من العرق. وفي قدميه كان ينتعل خفاً. ممسكاً حزاماً في

يده، الحزام البني الذي اشتراه من أجل زواجه بالفتاة، كان يلف الجهة المثقوبة حول قبضته.

"إنها فعلتك. أعلم ذلك" صرخ متقدماً باتجاه مريم.

انزلقت مريم من سريرها وبدأت تتراجع للوراء. بغريزية، صالبت ذراعيها على صدرها، حيث اعتاد أن يضربها أولاً.

"عم تتحدث"؟ تأتأت.

"رفضها لي. لقد علمتها"!!

على مر السنين، تعلمت مريم أن تمنّع نفسها ضد احتقاره وأذيته، تأنيبه وسخريته. لكن هذا الخوف ليس لها سيطرة عليه. كل تلك السنوات وما زالت ترتجف من الرعب عندما يكون هكذا، يصرخ، يلف الحزام على قبضته، طقطقة الجلد، الوميض في عينيه الحمراوين. إنه خوف العنزة، حين تطلق في قفص النمر، عندما ينظر النمر أولاً من خلال مخالبه، ويبدأ بالزمجرة.

كانت الفتاة الآن في الغرفة، عيناها متسعتان، ووجهها ملتوي.

"كان علي أن أعلم أنك ستفسدينها" بصق رشيد على مريم، وهو يؤرجح الحزام ويختبره على فخذه. إبزيم الحزام رن عالياً.

"توقف، توقف!" قالت الفتاة.. ثم أردفت:

"رشيد، لا يمكنك أن تقوم بهذا"

"عودي إلى الغرفة"

تراجعت مريم ثانية.

"لا! لا تفعل هذا"!

"الآن"!

رفع رشيد حزامه ثانية وهذه المرة ضرب مريم.

ثم حدث شيء مذهل: اندفعت الفتاة إليه، تمسكت بذراعه، بكلتي يديها وحاولت أن تجره للخلف، لكنها لم تستطع القيام بشيء إلا أن تتدلى منها. ما قامت به هو أنها نجحت في إبطاء تقدمه باتجاه مريم.

"اتركي!".. صرخ رشيد.

"لقد انتصرت. لقد انتصرت. لا تفعل هذا. أرجوك، رشيد، بدون ضرب! أرجوك لا تفعل هذا"

تصارعوا هكذا، الفتاة متدلية من ذراع رشيد، متوسلة، رشيد يهز ذراعه محاولاً الخلاص منها، مبقياً عينيه على مريم، التي كانت مذهولة لدرجة لا تستطيع معها القيام بشيء.

في النهاية، علمت مريم أنه لن يكون هناك ضرب، ليس تلك الليلة. اتخذ قراره. بقي واقفاً هكذا عدة دقائق، اليد مرفوعة، الصدر يلهث، قطرات العرق تغلّف جبينه. ببطء، أنزل رشيد ذراعه. لامست رجلي الفتاة الأرض، لكنها لم تتركه كأنها لا تثق به. كان عليه أن ينتزع يده من قبضتها.

"إني أراقبك" قال ذلك بينما كان يلقي الحزام من فوق كتفه "أنا أراقبكما.. لن أكون أحمق، في منزلي"

حدق بمريم بنظرة مجرمة، أخيرة، ودفع الفتاة من الخلف بطريقه للخروج.

عندما سمعت بابهما يغلق، تسلقت مريم سريرها، دفنت رأسها تحت الوسادة، وانتظرت توقف الارتجاف.

ثلاث مرات تلك الليلة، استيقظت مريم. المرة الأولى، كانت بسبب لعلعة الصواريخ في الغرب، آتية من اتجاه كارتيه _ تشار. المرة الثانية، كان بكاء الطفلة في الأسفل، والفتاة تهدئها، قرقعة الملعقة على زجاجة الحليب. أخيراً، كان العطش ما أخرج مريم من السرير.

في الأسفل، كانت غرفة المعيشة مظلمة، إلا من شعاع من ضوء القمر ينسكب من خلال النافذة. استطاعت مريم سماع طنين ذبابة في مكان ما، استطاعت تمييز المعالم الخارجية للموقد الحديدي في الزاوية، البوري يبرز عالياً، ثم يصنع زاوية حادة تحت السقف مباشرة.

في طريقها إلى المطبخ، كادت مريم أن تتعثر بشيء ما. كان هناك شكل عند قدميها. عندما اعتادت عيناها الظلام، استطاعت تمييز الفتاة وطفلتها مستلقيتان على لحاف ممدود على الأرض.

كانت الفتاة نائمة على جنبها، تشخر. الطفلة كانت مستيقظة. أضاءت مريم لمبة الكيروسين على الطاولة وحدقت بالأسفل. في الضوء، أخذت نظرتها القريبة المتمعنة على الطفلة، خصلة الشعر القاتم، الأهداب الكثيفة التي تحيط بالعينين العسليتين، الخدين الزهريتين، وشفاه بلون الرمان الناضج.

كان لدى مريم الانطباع أن الطفلة تتفحصها أيضاً، كانت مستلقية على ظهرها، ورأسها مائل إلى الجانب، ناظرة إلى مريم بتركيز ممزوج بالمتعة، الارتباك، والشك. تساءلت مريم إن كان وجهها يخيفها، لكن عندما صرخت الطفلة بسعادة، وعرفت مريم بأن حكماً بالتفضيل قد أُقر بشأنها.

"شش" همست مريم.

"ستوقظين أمك، نصف الصماء كما هي"

تكورت يد الطفلة في قبضة مريم. ارتفعت، سقطت، وجدت طريقاً إلى فمها. حول فمها المغطى بيدها، الطفلة منحت مريم ابتسامة، فقاعات صغيرة من اللعاب لمعت على شفتيها.

" انظري إليك. كم هو منظرك مزر ، مرتدية كولد لعين. صرة ملابس صبيانية في هذه الحرارة. لا عجب أنك ما زلت مستيقظة"

رفعت مريم البطانية عن الطفلة، ارتعبت لإيجادها بطانية أخرى تحتها، طرقعت بلسانها، ورفعت هذه أيضاً. ضحكت الطفلة بارتياح. ولوحت بذراعيها كطائر.

" أفضل.. ناي"؟

بينما كانت مريم تعود، أمسكت الطفلة بخنصرها. الأصابع الصغيرة تكورت بشدة حوله. كانت أصابع دافئة وناعمة، ورطبة من اللعاب.

"غاناه" قالت الطفلة.

"حسناً، شش، اتركي"

تعلقت الطفلة، ركلت برجليها ثانية.

حررت مريم إصبعها. ابتسمت الطفلة وقامت بسلسلة من أصوات الغرغرة.

ما الذي جعلك سعيدة هكذا؟ هه؟ لم تبتسمين؟ لست ذكية كما تقول أمك. لديك متوحش على أنه أب، وحمقاء على أنها أمك. لن تبتسمي هكذا لو عرفت. لا لن تبتسمي أبداً. عودي للنوم، الآن.. هيا."

وقفت مريم على قدميها ومشت بضع خطوات قبل أن تسمع الطفلة تبدأ بالقيام بأصوات إه، إه، إه التي عرفت مريم أنها تنذر ببداية بكاء كثير.. عادت بخطاها.

"ما الأمر؟ ماذا تريدين مني؟"

ابتسمت الطفلة ابتسامة خالية من الأسنان.

تنهدت مريم. جلست وتركت إصبعها ليُقبض، الطفلة تصر، أرجعت رجليها المضموتين عند الورك وركلت الهواء. جلست مريم هناك، تراقب، حتى توقفت الطفلة عن الحركة وبدأت تشخر بنعومة.

في الخارج، "mocking birds" كانت تغني بحبور، و، وبين حين وآخر، عندما يطير المطربون، استطاعت مريم رؤية أجنحتهم تلمع تحت زرقة القمر المتألقة تشع من خلال الغيوم. ورغم أن حنجرتها كانت تحترق من العطش وقدماها تحترقان من الألم والإبر، مضى وقت طويل قبل أن تحرر مريم إصبعها بلطف من قبضة الطفلة وتقف.

الفصل الرابع الثلاثون

ليلى

من أكثر المتع الدنيوية، المفضلة لدى ليلى، أن تستلقي إلى جانب عزيزة، وجه طفلتها قريب جداً حيث باستطاعتها أن تشاهد بؤبؤا عينيها الكبيرين، يتمددان ويتقلصان. أحبت ليلى أن تمرر إصبعها على جلد عزيزة اللطيف، جلد ناعمٍ، على غمازات براجم أصابعها، الثنيات السمينة في مرفقيها. أحياناً كانت تضع عزيزة على صدرها، وتهمس في الجزء الطري من رأسها أشياء عن طارق، الأب الذي سيبقى دائماً غريباً عن عزيزة، والذي لن تعرف عزيزة وجهه أبداً. أخبرتها ليلى عن مهارته في حل الأحاجي، عن خداعه وشقاوته، ضحكته السهلة.

"كان لديه أجمل أهداب، كثيفة مثل أهدابك. ذقن قوية، أنف جيد، وجبهة مدورة. آه، كان والدك وسيماً، عزيزة. كان كاملاً.. كاملاً كما أنت"

لكنها كانت حذرة دائماً من أن، تذكره باسمه.

في بعض الأوقات كانت ترى رشيد وهو ينظرٍ إلى عزيزة بطريقة غريبة، أكثر من غريبة. في ليلة أخرى، كان جالساً على أرضية غرفة النوم، حيث كان يكشط مسماراً لحمياً من قدمه، قال بشكل عرضي:

"إذاً ما الذي كان بينكما"؟

نظرت ليلى إليه نظرة حيرة، كما لو أنها لم تفهم.

"ليلي ومجنون. أنت وياكلينكا (الأعرج).. ما الذي كان بينكما"؟

"كان صديقي" قالت، حذرة من أن تتغير نبرة صوتها. شاغلة نفسها بتحضير زجاجة الحليب.

"إنك تعرف ذلك"

"لا أعلم ما الذي أعلمه" قال ذلك وهو يرمي الجلد الزائد من الكشط على حافة النافذة ويسقط على السرير. فاحتجّت النوابض بصرير عالي. فرد رجليه، وضع يديه في المنتصف.

"وكمثل.. أصدقاء، هل قام أحدكما بأي شيء خارج عن المألوف"؟

"خارج عن المألوف"؟

ابتسم رشيد بلطف، لكن ليلى أحست بنظرته، باردة وحذرة.

"لنر، الآن، حسناً، هل أعطاك قبلة؟ ربما وضع يده في مكان غير مناسب"؟!

تنهدت ليلى بـ... ، اندفع هواء ناقم.

كانت تشعر بقلبها يدق في حنجرتها.

"كان مثل أخ لي"

"إذاً كان صديقا أم أخا"؟

"الاثنان.. هو..."

"أيهما كان"؟!

"كان مثل الاثنين"

"لكن الأخوة والأخوات كائنات فضولية. نعم. في بعض الأوقات يسمح الأخ لأخته أن ترى عضوه، والأخت سوف..... "

"إنك تشعرني بالغثيان".. قالت ليلى.

"إذاً لم يكن هناك شيئاً"

"لا أريد الحديث عن هذا بعد الآن"

أمال رشيد رأسه، وزم شفتيه..

"ثرثرة الناس، تعلمين ذلك. أذكر، قالوا كل أنواع الأشياء عنكما أنتما الاثنين. لكنك تقولين أن شيئاً لم يحدث"

غصبت نفسها كي تنظر إليه.

حدق بعينيها لفترة طويلة، مبرحة، دون أن يرمش لدرجة جعلت براجم أصابعها تشحب حول زجاجة الحليب، أخذ من ليلى كل ما استطاعت جمعه من نفسها كي لا تتعثر وتظهر شيئاً.

ارتعدت من التفكير بما سيفعل إذا اكتشف أنها كانت تسرقه. كل أسبوع، منذ ولادة عزيزة، تفتح محفظته عندما يكون نائماً أو خارج المنزل وتأخذ ورقة نقدية واحدة. بعض الأسابيع، إذا كانت المحفظة لا تحوي الكثير، كانت تأخذ ورقة خمس أفغانيات فقط، أو لا تأخذ شيئاً مطلقاً، خوفاً من أن يلاحظ. عندما تكون المحفظة محشوة، كان تساعد نفسها بعشرة أو عشرين، حتى أنها مرة خاطرت بأخذ ورقتين ذات العشرين. أخفت المال في حقيبة خاطتها في بطانة معطفها الشتوي المقلم.

تساءلت ما الذي سيفعله إذا علم أنها تخطط للهرب في الربيع القادم. بالأكثر في الصيف. أملت أن يكون لديها ألفاً أفغانية أو أكثر مدخرة، نصفها سيذهب إلى أجرة الباص من كابول إلى بيشاور. سترهن خاتم زفافها عندما يقترب الوقت، كذلك الحلي الأخرى التي أعطاها رشيد إياها السنة السابقة عندما كانت لا تزال ملكة القصر.

"على أية حال".. قال أخيراً، وأصابعه تنقر على بطنه:

"لا يمكن لومي.. أنا زوج. وهذه هي الأشياء التي يتساءل حولها الأزواج. لكنه محظوظ لموته كما مات. لأنه لو كان هنا الآن، إذا وضعت يديّ عليه..."

تنفس من خلال أسنانه وهز رأسه.

"ماذا حدث لعدم الحديث بالسوء عن الأموات"؟

"أظن أن بعض الأشخاص لا يمكن أن يموتوا كفاية" قال.

بعدها بيومين، استيقظت ليلى في الصباح ووجدت كومة من ملابس الأطفال، مطوية بعناية، خارج باب غرفة نومها. كان هناك ثوب مع أسماك زهرية مطرزة على الصدر. ثوب صوفي ذو أزهار زرقاء، مع جوارب مماثلة وقفازات، بيجاما صفراء بنقط أرجوانية. وسراويل قطنية خضراء منقطة عند الأكمام.

"هناك شائعة" قال رشيد على العشاء تلك الليلة، وهو يتلمظ، دون أن يلاحظ عزيزة أو البيجاما التي ألبستها ليلى إياها.

"ذاك الدوستوم سيغيرٍ جانبه وينضم إلى حكمتيار. ستكون يد مسعود مليئة عندها، مقاتلاً الاثنين معاً.. وعلينا ألا ننسى الهازارا"

أخذ قضمة من الباذنجان المخلل الذي صنعته مريم هذا الصيف.

"لنأمل أن يكون الأمر كذلك، إشاعة. لأنه إذا حدث ذلك فإن هذه الحرب".. لوح بيد مملوءة بالدهن، وأكمل:

"ستبدو كرحلة إلى باغمان"

لاحقاً، امتطاها وقضى حاجته بعجلة ودون كلام، بكامل ملابسه إلا التومبان، ليس منزوعاً لكنه منزل إلى الكاحلين. عندما انتهى الهز المجنون، انقلب عنها ونام في دقائق.

انزلقت ليلى خارج الغرفة ووجدت مريم جالسة في المطبخ، تنظف زوجاً من سمك الترويت. قدر من الأرز المنقوع بجانبها. كان المطبخ عابقاً برائحة الكمون والدخان، بصل مقلي وسمك.

جلست ليلى في زاوية وغطت ركبتيها بحافة ثوبها.

"شكراً لك" قالت.

لم يبدُ على مريم أنها لاحظتها. انتهت من تقطيع السمكة الأولى وأخذت الثانية. بسكين مسنن، قلبت الزعانف، ثم قلبت السمكة، حيث تواجهها أحشاؤها، وقطعتها بمهارة من الذيل إلى الرأس. راقبتها ليلى وهي تضع إبهامها في فم السمكة، وتدفع، وبضربة واحدة تفصل الرأس والأحشاء.

"الملابس جميلة"

"لا حاجة لي بها".. همهمت مريم، رمت السمكة على جريدة مضمخة بسائل رمادي لزج وممزقة من الأعلى.

"كانوا إما لابنتك أو للعث"

"أين تعلمت تنظيف السمك هكذا"؟

"عندما كنت فتاة صغيرة، كنت أعيش قرب جدول، اعتدت اصطياد السمك هناك"

"لم أصطد أبداً"

"ليس عليك فعل الكثير، أغلبها انتظار"
راقبتها ليلى وهي تقطع الترويت منزوعة الأحشاء إلى ثلاثة أقسام.
"هل قمت بخياطة الملابس بنفسك"؟
هزت مريم رأسها.
"متى"؟
غسلت مريم قطع السمك في إناء من الماء.
"عندما كنت حاملاً للمرة الأولى. أو ربما في الثانية، منذ ثمانية عشر، تسعة عشر عاماً مضت. وقت طويل، على أي حال، كما قلت، لا حاجة لي بهم"
"إنك حقاً جيدة، ربما تستطيعين تعليمي"؟
وضعت مريم قطع الترويت المغسولة في وعاء نظيف. قطرات من الماء كانت تسقط من بين أصابعها، رفعت رأسها ونظرت إلى ليلى، نظرت إليها كأنها المرة الأولى.
قالت: "تلك الليلة، عندما ... لم يدافع أحد عني من قبل"
تأملت ليلى وجنتي مريم المتدليتين، أجفانها ذات الثنيات المتعبة، الخطوط العميقة التي تشكل فمها - رأت تلك الأشياء كأنها أيضاً تنظر إلى شخص للمرة الأولى. ولأول مرة، لم يكن وجه الخصم الذي رأته ليلى، بل وجه حزن غير محكي، هموم ذهبت دون احتجاج، إذعان للقدر ومآسيه. إذا بقيت، هل سيكون هذا وجهها، تساءلت ليلى، بعد عشرين سنة من الآن؟
"لم أستطع تركه" قالت ليلى..
"لم أكبر في بيت حيث يقوم به الأشخاص بهذه الأشياء"
"هذا منزلك الآن. عليك أن تعتاديه"
"ليس على هذا.. لن أعتاد"
"سينقلب عليك أيضاً، تعلمين ذلك" قالت مريم، وهي تمسح يديها بخرقة جافة.

"قريباً جداً، أنت منحته ابنة. إذاً، سترين، أن ذنبك غير مغفور أكثر من ذنبي"

نهضت ليلى..

"أعلم أن الجو بارد في الخارج، ولكن هل سنكون مذنبتين إذا تناولنا كأسي شاي في الحديقة"؟

تفاجأت مريم.

"لا أستطيع. ما زال عليّ أن أقطّع البازلاء وأغسلها"

"سوف أساعدك بالقيام بذلك في الصباح"

"علي أن أنظف هنا"

"سنقوم بذلك معاً، إذا لم أكن مخطئة هناك بعض الحلوى، ستكون جيدة مع الشاي"

وضعت مريم الخرقة على الطاولة. شعرت ليلى بالإثارة من الطريقة التي سحبت بها أكمامها وعدلت حجابها ودفعت إلى الخلف خصلة من شعرها.

"يقول الصينيون من الأفضل أن تحرم ثلاثة أيام من الطعام على أن تحرم شخصاً من الشاي"

ابتسمت مريم: "إنه قول جيد"

"إنه كذلك"

"ولكنني لن أستطيع أن أبقى طويلاً"

"فنجان واحد"

جلستا على كرسيين بالخارج وأكلتا الحلوى بأصابعهما من صحنٍ مشترك. تناولتا فنجان آخر، وعندما سألتها ليلى إذا كانت تريد فنجاناً ثالثاً قالت مريم بأنها تريد. بينما كان صوت الرصاص يلعلع في التلال، راقبتا الغيوم تغطي القمر وشاهدتا اليراعات.

عندما استيقظت عزيزة باكية صرخ رشيد على ليلى أن تأتي وتسكتها، عبرت نظرة من ليلى ومريم. نظرة معرفة. وفي هذا التبادل السريع دون كلام مع مريم، علمت ليلى أنهما ليستا عدوتين بعد الآن.

الفصل الخامس الثلاثون

مريم

من تلك الليلة. ستقوم ليلى ومريم بالواجبات سوياً. جلستا في المطبخ تصنعان العجينة، تقطعان البصل الأخضر، تفرمان الثوم، وتقدمان قطع صغيرة من الخيار لعزيزة، التي كانت تضرب الملعقة وتلعب بالجزر بالقرب منهما. في الحديقة، كانت عزيزة تستلقي على مهد مصنوع من الخيزران، وهي ترتدي الكثير من الملابس مع وشاح ملفوف بشكل مريح حول عنقها. كانت ليلى ومريم تراقبانها، بينما يقومان بالغسيل، كانت أصابع مريم تصطدم بأصابع ليلى وهما تفركان القمصان والسراويل والحفاضات.

بشكل بطيء اعتادت على هذه الرفقة السارة. كانت تتلهف لشرب أكواب الشاي الثلاثة في الحديقة مع ليلى، أصبح الآن طقس يومي. في الصباحات، كانت مريم تجد نفسها تتطلع إلى سماع صوت حذاء ليلى وهو يطرطق على الدرجات بينما تنزل لتناول الإفطار، وإلى رنين ضحكة عزيزة، لرؤية سنها الثامن الصغير، رائحة الحليب على جلدها، إذا استغرقت ليلى وعزيزة بالنوم، تنتظر مريم بقلق وتغسل الصحون التي ليست بحاجة إلى غسيل. تعيد ترتيب المساند في غرفة الجلوس. وتنفض الغبار عن عتبات النوافذ. تبقي نفسها منشغلة حتى تدخل ليلى المطبخ، وعزيزة محمولة على وركها.

عندما تلمح عزيزة مريم في الصباح، كانت عيناها تتوسعان، وتبدأ بالصراخ والتلوي من قبضة أمها. وتمد يديها باتجاه مريم، طالبة أن تحملها، وكانت يداها الصغيرتان تتمددان وتنغلقان بسرعة، وعلى وجهها نظرة من الإعجاب وارتجاف الإثارة

"ما هذا العرض الذي تقومين به" قالت ليلى وهي تطلق سراحها لتزحف باتجاه مريم..

"يا له من عرض! اهدئي. خالة مريم لن تذهب إلى أي مكان، ها هي هناك، خالتك. ترين؟ اذهبي، الآن"

حالما تصبح بين ذراعي مريم، إبهام عزيزة داخل فمها دافنة وجهها في عنق مريم.

تهزها مريم بصعوبة، نصف ابتسامة مرتبكة، نصف ابتسامة شاكرة على شفتيها. لم تكن مريم مرغوبة أبداً من قبل مثل الآن. لم يصرح لها أحد بالحب ولو بشكل بسيط.

كانت عزيزة تجعل مريم راغبة بالبكاء. لماذا يتوق قلبك الصغير بشدة إلى شخص عجوز، بشع كالساحرة مثلي"؟ همهمت داخل شعر عزيزة.. وقالت:

"ها؟ أنا نكرة، ألا ترين؟ ديهاتي. ما الذي عندي لأمنحه لك"؟

لكن كل ما تفعله عزيزة، تتمتم برضا وتدفن وجهها أعمق. وعندما تفعل ذلك، تترنح مريم. وتدمع عيناها. يرفرف قلبها. وتتعجب أن بعد كل هذه السنين من الخسارة، وجدت في هذه المخلوقة الصغيرة الاتصال الأول في حياتها المزيفة، والارتباطات الفاشلة.

في بدايات السنة التالية في شهر كانون الثاني ١٩٩٤، بدل دوستوم المواقع. انضم إلى غولبيدن حكمتيار، واتخذ مقراً له قرب بالا هيسار، القلعة القديمة ذات الأسوار والتي تشرف على المدينة من جبال كو ـ أي شيرداوازا. معاً، أطلقا النيران على قوات مسعود وراباّني في وزارة الدفاع والقصر الرئاسي. من الجانب الآخر لنهر كابول أطلقا نيران مدفعية على بعضهم البعض. كانت الشوارع مملوءة بالجثث، والزجاج، وأكوام من القطع المعدنية.كان هناك نهب، قتل، وبشكل متزايد، الاغتصاب، والذي استخدم لترويع المدنيين ومكافأة لرجال المليشيات. سمعت مريم عن نساء قتلن أنفسهن خوفاً من أن يغتصبن، وعن رجال باسم الشرف، قتلوا زوجاتهم أو بناتهم، إذا اغتصبن من المليشيات.

صرخت عزيزة من وقع أصوات مدافع الهاون. ولتصرف مريم انتباهها رتبت حبات الأرز على الأرض على شكل منزل، أو ديك أو نجمة وكانت تترك عزيزة تبعثرهم. رسمت لأجل عزيزة فيلا بالطريقة التي علمها إياها جليل بضربة واحدة، دون أن ترفع رأس القلم.

قال رشيد إن المدنيين يقتلون يومياً بالعشرات. وإن المستشفيات والمخازن التي فيها المساعدات الطبية قد قصفت. الشاحنات التي تحمل المساعدات الغذائية العاجلة منعت من دخول المدينة، وقال إنه حتى الشاحنات قد هوجمت وأطلق النار عليها.

تساءلت مريم إذا كان هناك قتال كهذا في هيرات أيضاً، إذا كان كذلك، كيف يتصرف الملا فايز الله إن كان ما يزال حياً، وأيضاً بيبي جو وكل أبنائها، وزوجاتهم، وكل أحفادها، وبالطبع جليل، هل يختبئ، تساءلت مريم، أو أنه أخذ زوجاته وأولاده وغادر البلد؟ تمنت أن يكون جليل في مكان آمن، وأن يكون قد تدبر أمره بعيداً عن كل هذا القتل.

لأسبوع، أجبر القتال حتى رشيد على البقاء في البيت. أغلق الباب المؤدي إلى الباحة، نصب شراكاً، أغلق الباب الأمامي ووضع الكنبة كمتراس.

بقي يتجول في المنزل وهو يدخن، يحدق من خلال النافذة، ينظف مسدسه، يذّخره مرة بعد أخرى. أطلق النار من مسدسه مرتين على الشارع مدعياً أنه رأى شخصاً يحاول تسلق الجدار.

قال: "يرغمون الأولاد على الانضمام إلى (المجاهدين) في وضح النهار وتحت تهديد السلاح، يسحبونهم من الشوارع. وعندما يمسكهم جنود ميليشيا معادية يعذبونهم. بالكهرباء - هذا ما سمعته - وينتزعون خصيّهم بالكماشة. يجبرونهم على أن يقودونهم إلى منازلهم. ثم يقتحمونها، يقتلون الآباء ويغتصبون الأخوات والأمهات"

لوح بمسدسه فوق رأسه.

"دعيهم يحاولون اقتحام منزلي. سأسحق خصيّهم! وأنسف رؤوسهم! هل تعلمان كم أنتما محظوظتان لوجود رجل مثلي لا يخاف من الشيطان نفسه"؟

نظر إلى الأرضية، ولاحظ أن عزيزة عند قدميه.

"ابتعدي عن قدمي"!! صرخ، وحرك مسدسه مشيراً لها بالابتعاد.

"توقفي عن اللحاق بي! كفي عن برم يديك، لن أحملك. اذهبي! اذهبي قبل أن أدوس عليك"

جفلت عزيزة وزحفت عائدة إلى مريم، تبدو مرضوضة ومحتارة. في حضن مريم، رضعت إبهامها بمرح وراقبت رشيد بسكون متأمل. وعندما نظرت بشكل عرضي إلى مريم، تخيلت مريم أنها نظرة تطلب الاطمئنان.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالآباء، لم يكن لدى مريم أي ضمانات، تمنحها.

ارتاحت مريم لهدوء القتال ثانية، غالباً لأنها لن تبقى مسجونة مع رشيد، بطبعه المر الذي يؤثر على المنزل. كان يخيفها كثيراً عندما يلوح بذلك المسدس المذّخر قرب عزيزة.

في أحد أيام ذاك الشتاء، طلبت ليلى أن تضفر شعر مريم، جلست مريم هادئة، تراقب أصابع ليلى الرشيقة في المرآة وهي تشد ضفائرها، كان وجه ليلى جاداً من التركيز. وكانت عزيزة نائمة على الأرض تلف حول ذراعيها لعبة، خاطتها لها مريم وحشتها بحبات الفاصولياء، ألبستها ثوباً من أغلفة الشاي وقلادة من بكرة خيطان فارغة أدخلت فيها خيطاً، أطلقت عزيزة ريحاً أثناء نومها، فبدأت ليلى بالضحك وانضمت إليها مريم، ضحكتا لانعكاس صورة كل منهما في المرآة، عيناهما تدمعان، كانت تلك اللحظة طبيعية جداً، دون جهد حتى أن مريم بدأت فجأة تخبرها عن جليل، نانا، الجان.

وقفت ليلى ويداها على كتفي مريم، عيناها مثبتتان على وجه مريم في المرآة، تدفقت الكلمات مثلما يتدفق الدم في الشريان، أخبرتها

مريم عن بيبي جو، الملا فايز الله، الرحلة الطويلة المذلة إلى بيت جليل، انتحار نانا. أخبرتها عن زوجات جليل، الزواج السريع برشيد، الرحلة إلى كابول، عن حملها، عن الدورات التي لا تنتهي من الأمل والخيبة، و انقلاب رشيد ضدها.

بعد ذلك، جلست ليلى قرب كرسي مريم.. أبعدت قطعة من الضماد اشتبكت بشعر عزيزة، وهي شاردة الذهن. وخيم الصمت.

قالت ليلى: "لدي شيء أخبرك به أيضاً"

لم تنم مريم تلك الليلة. جلست في السرير تراقب الثلج يتساقط بصمت.

فصول أتت وذهبت، رؤساء نصّبوا واغتيلوا، إمبراطورية هزمت، حروب قديمة انتهت واندلعت أخرى جديدة. لكن مريم بصعوبة لاحظت ذلك، بالكاد اهتمت. أمضت تلك السنين في زاوية بعيدة في عقلها، في حقل جاف قاحل ما وراء الرغبة، الرثاء، ما وراء الحلم وعدم الوهم. هناك، المستقبل لا يهمٍ. والماضِي يحملٍ فقطٍ هذه الحكمة: ذلك الحب كان غلطة ملعونة، تواطؤا، أملا، وهماً خائناً. وكل ما نبتت هاتان الوردتان التوأمتان السامتان، في ذلك الحقل الجاف، تقتلعهما مريم من جذورهما، تقتلعهما وترميهما قبل أن يتمكنا من الثبات.

لكن بطريقة ما، في هذه الشهورٍ الأخيرة، ليلى، وعزيزة ـ ابنة حرام مثلها، كما تبين ـ أصبحتا امتداداً لها، والآن، الحياة التي تحملتها مريم لوقت طويل أصبحت فجأة بدونهما، لا تطاق.

سنغادر في الربيع، عزيزة وأنا. تعالي معنا مريم.

لم تكن السنين لطيفة مع مريم. ولكن ربما، فكرت، أنه مازالت هناك سنوات أفضل تنتظرها. حياة جديدة، حياة حيث ستجد النعم التي قالت نانا إن ابنة حرام مثلها لن تجدها. زهرتان جديدتان أينعتا دون توقع في حياتها، بينما كانت مريم تراقب الثلج يتساقط، تخيلت الملا فايز الله يسبّح بمسبحته، ينحني ويهمس لها بصوته الناعم المرتجف: "إن الله الذي زرعهما، مريم جو. وإرادته أن تعتني بهما أنت، إنها إرادته يا ابنتي".

الفصل السادس الثلاثون

ليلى

بينما كان ضوء النهار يزيل العتمة بثبات من السماء في ذلك الصباح الربيعي من عام ١٩٩٤ ، أصبحت ليلى متأكدة أن رشيد يعلم!!

وأنه في أية لحظة الآن، سيسحبها من السرير ويسألها إذا كانت تعتقد أنه كهار (حمار) لهذه الدرجة وأنه لن يعرف. لكن الأذان قد صدح، ثم سقطت أشعة الشمس على الأسطح وبدأت الديوك بالصياح ولم يحدث شيء غير اعتيادي.

كان باستطاعتها الآن أن تسمعه في الحمام، صوت شفرة الحلاقة تدق بحافة الطاسة. ثم، بعد ذلك في الأسفل يتنقل، يسخّن الشاي، رنين المفاتيح. الآن يعبر الباحة، مخرجا دراجته.

حدقت ليلى من خلال شق في ستائر غرفة الجلوس، راقبته وهو يركب دراجته، رجل ضخم على دراجة صغيرة، في حين كانت أشعة الشمس تلمع على المقود.

"ليلى"؟

كانت مريم على عتبة الباب. لم تستطع ليلى النوم، تساءلت إذا كانت مريم قد اجتاحتها تلك النوبات من الغبطة والإثارة في الليل.

"سنغادر خلال نصف ساعة" قالت ليلى

في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، لم يتكلما. جلست عزيزة في حضن مريم ممسكة لعبتها، تنظر بعينين مندهشتين إلى المدينة تمر بسرعة.

"أونا"!! صرخت، مشيرة إلى مجموعة من الفتيات، في كل مكان نظرت إليه رأت رشيد، وجدته خارجاً من محل حلاقة نوافذه مغبرة وذات لون مخملي، من الأكشاك التي تبيع الحجل، من المحلات المحطمة

أبوابها والمكتظة بالإطارات المكومة من الأرض إلى السقف. انسلت إلى أسفل في مقعدها.

بجانبها، كانت مريم تتمتم بصلاة. تمنّت ليلى لو أنها تستطيع رؤية وجهها، ولكن مريم كانت ترتدي البرقع - كلاهما كانتا كذلك - وكل ما استطاعت رؤيته من خلال القطع الشبكية هو التماع عينيها.

كان ذلك أول خروج لليلى من المنزل منذ أسابيع، عدا الرحلة القصيرة إلى محل الرهن في اليوم الذي قبله — حيث دفعت بخاتم الزواج على الطاولة الزجاجية، ومشت منتشية بتلك الخاتمة، ومعرفتها بأنه لا عودة.

رأت ليلى عواقب الاقتتال الحديث الذي سمعت أصواته من المنزل. كانت المنازل دون أسقف، حطام من الآجر والحجر، وهياكل السيارات المقلوبة، متفحمة ومشوهة، وأحياناً كانت مكدسة فوق بعضها البعض، الجدران كلها حفر على قياس طلقة المدفعية، الزجاج مبعثر في كل مكان. رأت موكب جنازة يتقدم باتجاه الجامع، امرأة كبيرة في السن في الخلف تنتف شعرها. مرّوا بالمقبرة المملوءة بشواهد القبور والأعلام البالية لشهداء تخفق مع النسيم.

مدت ليلى يدها إلى الحقيبة، وربتت بأصابعها على الجلد الناعم لابنتها.

عند محطة الباص لبوابة لاهور، .قرب بور محمود خان في شرق كابول، صف من الباصات تصطف هامدة على رصيف الموقف. كان الرجال ذوي العمائم مشغولين بتحميل الحزم والصناديق على ظهر الباص، يؤمنون الحقائب بربطها بالحبال. داخل المحطة، كان الرجال يقفون في صف طويل عند مكان قطع التذاكر . النساء الملتفات بالبرقع يقفن في مجموعات ويثرثرن، حاجياتهن مكومة عند أقدامهن. الأطفال محمولين، الأولاد يُوبخون لابتعادهم عن الأهل.

كانت ميليشيا المجاهدين تحرس المحطة وموقف الباصات، يصيح الرجال بأوامر هنا وهناك. يرتدون الجزمات، واللباس الأخضر المغبر. كلهم يحملون الكلاشينكوف.

شعرت ليلى بأنها مراقبة. لا أحد، لكنها شعرت كأنما كل شخص في هذا المكان يعلم، ما الذي تفعله هي ومريم؟ وكأنهم ينظرون إليها باستهجان.

سألت ليلى: "هل رأيت أحداً ما"؟

غيرت مريم من وضعية عزيزة: "إنني أبحث"

كانت ليلى تعلم أن هذا الأمر سيكون الجزء الأول الذي فيه مخاطرة، وهو إيجاد رجل مناسب لتقفا معه على أنهم أفراد عائلة واحدة.

الحريات والفرص التي تمتعت بها النساء منذ عام ١٩٧٨ حتى ١٩٩٢ كانت اليوم شيئاً من الماضي _ ما زالت تتذكر ليلى بابي وهو يتحدث عن تلك السنوات من حكم الشيوعيين، إنه وقت جيد لتكوني امرأة في أفغانستان ليلى.

منذ سيطرة المجاهدين في نيسان ١٩٩٢، تغير اسم أفغانستان إلى الولاية الإسلامية الأفغانية. المحكمة العليا بقيادة ربّاني امتلأت الآن بالملالي المتشددين الذين ألغوا القوانين التي وضعها الشيوعيون والتي شدّت من عضد النساء آنذاك، وبدلاً من ذلك وضعوا قوانين قائمة على الشريعة الإسلامية الصارمة التي أمرت النساء بالتحجب، وحُرّم عليهن السفر دون قريب ذكر، والزنا يُعاقب بالرجم. ومع أن تنفيذ هذه القوانين كان متقطعاً. لكنهم كانوا ليفرضوا هذه القوانين علينا أكثر، لو لم يكونوا مشغولين بقتلهم بعضهم البعض.. وقتلنا.

الجزء الثاني من المخاطرة في هذه الرحلة سيأتي عندما يصلان إلى باكستان، التي أرهقت تقريباً بمئتي مليون لاجئ أفغاني، فقد أغلقت باكستان حدودها مع أفغانستان في كانون الثاني من تلك السنة. وسمعت ليلى أنهم يعترفون فقط بالذين يحملون فيزا، ولكن الحدود

كانت تخترق دائماً ـ وعلمت ليلى أن آلاف الأفغانيين مازالوا يعبرون إلى باكستانٍ إما عن طريق الرشوات أو إثبات اللجوء الإنساني المبرر، وهناك دائماً مهربون يمكن استئجارهم. سنجد طريقة عندما نصل إلى هناك، أخبرت مريم.

"ما رأيك به"؟ قالت مريم وهي تشير بذقنها.

"لا يبدو أن موثوق"

"وهذا"؟

"كبيرٍ جداً.. وهو يسافر مع رجلين آخرين"

أخيراً وجدته ليلى يجلس بالخارج على مقعد مع امرأة محجبة بجانبه، وصبي صغير يرتدي قبعة، تقريباً بعمرٍ عزيزة، يتقافز على رجليه. كان طويلا، رشيقاً، ملتحياً يرتدي قميصاً مفتوح الياقة ومعطفاً متواضعاً أزراره مقطوعة.

"انتظري هنا" قالت لمريم.. التي بدأت تتمتم بالصلاة. عندما وصلت ليلى إلى الرجل الشاب، نظرت إلى أعلى، حمت عينيها من الشمس بيديها.

"سامحني، أخي، لكن هل أنت ذاهب إلى بيشاور"؟

قال محدقاً: "نعم"

"أتساءل إن كان باستطاعتك مساعدتنا. هل تقدم لنا خدمة"؟

أعطى الولد لزوجته. ومشى هو وليلى مبتعدان: "ما الأمر"؟

تشجعت أكثر حين انتبهت إلى عينيه الناعمتين ووجهه اللطيف.

أخبرته الرواية التي اتفقت عليها هي ومريم، قالت إنها أرملة لم يتبق لها أحد في كابول هي وأمها وطفلتها. وإنهما ذاهبتان ليعيشا مع عمها في بيشاور.

"تريدين أن تأتي مع عائلتي"؟ قال الرجل الشاب.

"أعلم أن ذلك مزعج لك. لكنك تبدو أخاً محترماً، وأنا.."

"لا تقلقي، إنني أفهم. لا توجد مشكلة. دعيني أذهب وأشتري التذاكر"

"شكراً لك يا أخي. إنه ثواب، سيكتبه الرب لك"

التقطت مغلف من جيبها تحت البرقع وأعطته له، كان فيه ألف ومائة أفغانية، ما يقارب نصف المال الذي ادخرته خلال السنة الماضية إضافة إلى بيع الخاتم. وضع المغلف في جيب بنطاله.

"انتظري هنا" راقبته وهو يدخل المحطة. عاد بعد نصف ساعة.

"من الأفضل أن أحمل أنا البطاقات" قال.. ثم أردف:

"سيغادر الباص بعد ساعة، في الحادية عشر، سنركب الباص سوية. اسمي وكيل إذا سألوا ـ ويجب ألا يسألوا ـ سأقول أنك ابنة عمي"

أعطته ليلى أسماءهم، قال أنه سيتذكر.

"ابق قريبة" قال.

جلستا على مقعد بالقرب من وكيل وعائلته. كان صباحاً مشمساً ودافئاً، السماء مغطاة بحزمة من الغيوم تحوم في البعيد فوق التلال. بدأت مريم بإطعام عزيزة بعض البسكويت الذي تذكرت جلبه، في غمرة عجلتهم أثناء حزم أغراضهم. عرضت واحدة على ليلى.

"سأتقيأ" ضحكت ليلى..

"إنني منفعلة جداً"

"وأنا أيضاً"

"شكراً لك مريم"

"على ماذا"؟

"من أجل هذا، قدومك معنا" قالت ليلى.. ثم أردفت:

"لم أكن لأستطيع القيام بهذا الأمر وحدي"

"لا عليك"

"سنكون على ما يرام، أليس كذلك مريم، حيث سنذهب"؟

انزلقت يد مريم على المقعد ووضعتها على يد ليلى. يقول القرآن: «ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله إن الله واسعٌ عليم».

"بوف"! صرخت عزيزة، وهي تشير إلى الباص..

"مايم.. بوف"!!

"لقد رأيته، عزيزة جو" قالت مريم..

"هذا صحيح، بوف، قريباً سنركب في بوف، آه، كم من الأشياء سترين"

ابتسمت ليلى. كانت تراقب نجاراً في محله عبر الشارع ينشر الخشب، النشارة تتطاير. راقبت السيارات وهي تمر، نوافذ السيارات مغطاة بالسخام والوسخ. راقبت الباصات تهدر متهادية على الرصيف، وطواويس، أسود، شموس مشرقة وسيوف لامعة مرسومة على جوانبها.

في هذا الصباح المشمس، الدافئ شعرت ليلى بالدوار، وبالجرأة، وأيضاً بقليل من الغبطة، وعندما عرج كلب متشرد ذو عينين صفراوتين بالقرب منها انحنت للأمام ومسّدت على ظهره.

دقائق قبل الحادية عشرة، نادى رجل عبر مكبر للصوت، على المسافرين إلى بيشاوار أن يركبوا الباص.

فتحت أبواب الباص بصوت صرير مرتفع. صف من المسافرين اندفع باتجاهه، يركضون متجاوزين بعضهم البعض ليدخلوا الباص. أشار وكيل لليلى بينما كان يحمل ابنه.

"سنذهب" قالت ليلى، قادهم وكيل في الطريق. عندما وصلوا إلى الباص، شاهدت مريم وجوهاً تظهر من النوافذ، أنوف وراحات تضغط على الزجاج، كل الذين حولهم يصرخون مودعين، كان جندي الميليشيا يدقق التذاكر عند الباص.

"بوف"! صرخت عزيزة، ناول وكيل الجندي البطاقات الذي مزقها من المنتصف وأعادها إليه. صعدت زوجة وكيل الباص أولا، رأت ليلى نظرة بين وكيل ورجل الميليشيا، صعد وكيل على الدرجة الأولى للباص، انحنى إلى الأسفل وقال شيئاً ما في أذنه، أومأ رجل الميليشيا برأسه.

سقط قلب ليلى "أنتما الاثنتان مع الطفلة تنحيا جانباً" قال الجندي، تظاهرت ليلى أنها لم تسمع فتابعت متجهة صوب درج الباص، لكنه أمسك بها من كتفها وشدها بخشونة خارج الصف.

"أنت أيضاً" نادى على مريم..

"أسرعي! إنك تعطلين الصف"

"ما المشكلة يا أخي"؟ قالت ليلى من شفاهها المخدرة،

"لدينا التذاكر. ألم يعطك إياها ابن عمي؟"

أشار بإصبعه، صه، تكلم بصوت منخفض مع حارس آخر. أومأ الحارس الثاني برأسه، كان ممتلئاً بندبة في أسفل خده الأيمن.

"اتبعاني" قال هذا الشخص لليلى.

"علينا أن نرحل في هذا الباص".. صرخت ليلى مدركة أن صوتها كان يرتجف..

"لدينا التذاكر.. لماذا تفعل هذا"؟

" لن تذهبي في هذا الباص. عليك تقبل ذلك. ستتبعينني وإلا، لن ترغبي أن تراك ابنتك مجرورة على الأرض"

بينما كانت تقاد إلى شاحنة، نظرت ليلى من فوق كتفها وشاهدت ابن وكيل في مؤخرة الباص. شاهدها الصبي ولوح بسعادة.

في قسم شرطة المحطة عند تقاطع توراباز خان، كان عليهما الجلوس متباعدتين، في الجهة الأخرى من الممشى الطويل المزدحم، بينهما، كان هناك مكتب. خلف المكتب رجل يدخن سيجارة تلو الأخرى ويكتب على الآلة الكاتبة من حين لآخر. مرت ثلاث ساعات هكذا. كانت عزيزة تنتقل من مريم إلى ليلى وبالعكس، لعبت بمشبك ورقي أعطاها إياه الرجل في المكتب. أنهت البسكويت وبالطبع غرقت بالنوم في حضن مريم.

حوالي الساعة الثالثة، أخذت ليلى إلى غرفة المقابلة، كان على مريم الانتظار مع عزيزة في الممشى.

كان الرجل يجلس في الجهة الثانيةٍ من المكتب في غرفة المقابلة. كان في الثلاثينيات من عمره يرتدي ثياباً مدنية ـ بزة سوداء، ربطة عنق، حذاء أسود. كان قد شذب لحيته بأناقة، شعره قصير، حاجباه متقاربان. نظر إلى ليلى، وهو ينقر على المكتب بقفا قلم رصاص.

"نعلم" بدأ، تنحنح، وبتهذيب غطى فمه بقبضته،

"أنك قلت كذبة اليوم، هامشيرا. الرجل الشاب في المحطة لم يكن ابن عمك، لقد أخبرنا هذا بنفسه. السؤال هو هل ستقولين أكاذيب أخرى اليوم، شخصياً، أنصحك ألا تفعلي"

"إننا ذاهبتان لنسكن عند عمي" قالت ليلى..

"إنها الحقيقة"

أومأ الشرطي برأسه..

"السيدة التي في الممشى، هل هي أمك"؟

"نعم"

"لديها لهجة أهل هيرات.. وأنت لا"

"لقد نشأت في هيرات، أنا ولدت هنا في كابول"

"بالطبع، وأنت أرملة؟ لقد قلت ذلك. تعازي. وهذا العم أين يعيش؟"

" في بيشاوار"

"نعم.. لقد قلت ذلك" لعق رأس قلمه ووازنه على ورقة بيضاء.

"لكن أين في بيشاوار؟ في أي حي، أرجوك؟ اسم شارع، رقم قطاع"

حاولت ليلى أن ترجع فقاعة الهلع التي كانت تصعد إلى صدرها. أعطته اسم الشارع الوحيد الذي تعرفه في بيشاوار ـ سمعته يذكر مرة في حفلة أقامتها مامي عند أول دخول للمجاهدين إلى كابول ـ "طريق جامرود."

"أوه، نفس الشارع الذي يوجد فيه فندق بيرل كونتيننتال. ربما ذكره"

اغتنمت ليلى الفرصة وقالت أنه فعل.

"ذاك الشارع بالضبط، نعم"

"عدا أن الفندق في طريق خيبر"

استطاعت ليلى سماع صراخ عزيزة في الممشى. "ابنتي خائفة. هل يمكنني جلبها يا أخي"؟

" أفضل (ضابط)، و ستكونين معها قريباً. هل لديك رقم هاتف لهذا العم؟"

"لدي. كان لدي.. أنا..." رغم وجود البرقع بينهما، لم تكن ليلى بمنأى عن عينيه الثاقبتين.

"أنا محبطة جداً، يبدو أني نسيته".

تنهد من أنفه. سأل عن اسم العم، اسم زوجته. كم ولداً لديه؟ ما هي أسماؤهم؟ أين يعمل؟ كم عمره؟

أسئلته الكثيرة جعلت ليلى تضطرب.

وضع قلمه، أطبق أصابع يد على الأخرى، انحنى إلى الأمام مثلما يفعل الأهل عندما يريدون إقناع طفلهم بشيء ما،

"أنت تدركين يا أختي، إن هذه جريمة، أن تهرب امرأة، إننا نرى الكثير من ذلك. نساء يسافرن وحيدات، مدعيات أن أزواجهن قد توفوا، بعض الأحيان يقلن الحقيقة وأغلب الأوقات يكذبن. يمكن أن تسجني لهروبك. أظن أنك تفهمين هذا، أليس كذلك"؟

"دعنا نذهب أيها الضابط..." قرأت اسمه على الرقعة المعدنية، "أيها الضابط رحمان، اسمك يعني النبل ويدل على الرحمة. ما الذي يضرك في ترك امرأتين بائستين تذهبان؟ ما الأذى في تركنا؟ لسنا مجرمتين.."

"لا أستطيع"

"إني أتوسل إليك، أرجوك"

"إنها تهم القانون، هامشيرا" قال رحمان، مضفياً على صوته شيئاً من الوقار والإحساس بالأهمية.

"إنها مسؤوليتي، هل ترين، الحفاظ على النظام"
على الرغم من حالتها المضطربة، كادت ليلى أن تضحك.
أفقدها ذلك صوابها، يجب عليه أن يستخدم تلك الكلمة في وجه كل تلك الجماعات من المجاهدين لكل ما ارتكبوه ـ القتل، النهب، الاغتصاب، التعذيب، الإعدامات والانفجارات، عشرات الآلاف من الصواريخ التي أطلقت على بعضهم البعض، غير مبالين بالأبرياء الذين يقتلون لوجودهم في خط النار. النظام. لكنها عضت على لسانها. قالت بدلاً عن ذلك:
"إذا أعدتنا، لا يمكن قول ما الذي سيفعله بنا"
استطاعت رؤية الجهد الذي بذله لإبقاء عينيه على عينيها.
"ما يفعله رجل في بيتهٍ خاص به"
"ماذا عن القانون، إذاً. ضابط رحمان"؟
كانت الدموع تنبع واخزة عينيها..
"هل ستكون هناك لتحافظ على النظام"؟
"إنها سياستنا، لا نتدخل في قضايا العائلات الخاصة، هامشيرا"
"بالطبع لا تتدخل.. عندما تكون في مصلحة الرجل. أليست هذه (مسألة عائلية خاصة).. كما تقول؟ أليس كذلك؟"
تراجع للوراء خلف مكتبه ووقف، عدل جاكيتته.
"أعتقد أن هذه المقابلة قد انتهت. علي القول، هامشيرا، إنك قمت بعمل مضر جداً لنفسك. مضر جداً بالفعل. الآن، إذا أردت، انتظري في الخارج سأتكلم مع.... مهما تكن"
بدأت ليلى بالاحتجاج، ثم بالصراخ، كان عليه طلب المساعدة من رجلين آخرين ليجروها خارج المكتب.
استمرت مقابلة مريم بضعة دقائق، وعندما خرجت، بدت مصدومة:
"لقد سأل الكثير من الأسئلة" قالت..

"أنا آسفة ليلى جو. لست ذكية مثلك. لقد سألني الكثير من الأسئلة، لم أعرف الأجوبة.. أنا آسفة"

"ليس خطأك، مريم" قالت ليلى بضعف..

" إنه خطأي، كل ذلك خطأي، كل شيء هو خطأي أنا"

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة عندما وقفت سيارة الشرطة أمام المنزل. كانت مريم وليلى تنتظران في المقعد الخلفي محروستان من قبل جندي من المجاهدين في المقعد الأمامي. كان السائق هو الذي غادر السيارة وطرق على الباب. هو الذي تكلم مع رشيد، وكان هو من أشار لهما أن تأتيا.

"مرحباً بكم في المنزل" قال الرجل في المقعد الأمامي، وهو يشعل سيجارة.

"أنت" قال لمريم..

"أنت انتظري هنا"

جلست مريم بهدوء على الكنبة.

"أنتما الاثنان إلى الأعلى"

أمسك رشيد ليلى من مرفقها، دفعها على الدرجات. كان ما زال يرتدي حذاء العمل، لم يغيره ليلبس الخف، لم ينزع ساعته، حتى أنه لم يخلع معطفه. تخيلت ليلي كيف كان قبل ساعة أو ربما دقائق، مندفعاً من غرفة إلى غرفة، مغلقاً الأبواب بعنف، غاضباً ومتشككاً، لاعناً من خلال أنفاسه المتلاحقة.

عند أعلى الدرج، استدارت ليلى باتجاهه:

"لم تكن تريد أن تذهب" قالت..

"أنا أقنعتها، لم تكن تريد الذهاب..."

لم ترَ ليلى اللكمة آتية، في لحظة كانت تتكلم، وفي الأخرى كانت على أطرافها الأربع، بعينين على وسعيهما ووجه أحمر، محاولة أن تسحب نفساً، كانت كأنما صدمت بسيارة بأقصى سرعتها، في المكان

الطري بين الحافة السفلى لعظم الصدر والسرّة. أدركت أنها أوقعت عزيزة، وأن عزيزة كانت تصرخ.

حاولت أن تتنفس ثانية، وكل ما استطاعت القيام به هو صوت اختناق بائس. وتدلى سائل من فمها.

ثم، بدأت تُجَر من شعرها، رأت عزيزة ترفع، رأت صندلها ينزلق وقدمها الصغيرة تركل. انتزع شعر من فروة رأس ليلى، ودمعت عيناها من الألم، رأت قدمه تركل فاتحة الباب لغرفة مريم، رأت عزيزة ترمى على السرير، ترك شعر ليلى، أحست بمقدمة حذائه تلامس ردفها الأيسر. صرخت بألم عندما طبق الباب بعنف. مفتاح تحرك داخل القفل.

كانت عزيزة ما تزال تصرخ، تمددت ليلى على الأرض، لاهثة. دفعت نفسها بواسطة يديها، وزحفت إلى حيث تستلقي عزيزة على السرير، مدت يديها نحو ابنتها.

في الأسفل، بدأ الضرب. بالنسبة لليلى، الأصوات التي سمعتها كانت أصوات منتظمة. تتلاحق بآلية معينة.

لم يكن هناك لعنات، صراخ، توسل، أو حتى صرخات مفاجئة. فقط، العمل المنتظم من الضرب.. والتعرض للضرب. فقط صوت الخبطة، شيء ما صلب بشكل متكرر يصيب اللحم، شيء ما، شخص ما، يرتطم بالحائط، ملابس تتمزق. بين الحين والآخر، سمعت ليلى صوت ركض أقدام، وملاحقة صامتة، أثاث يقلب، زجاج يتبعثر، ثم الارتطام مرة ثانية. كان هناك الآن صوت مثل عصا خشبية تخبط على قطعة لحم بشكل متكرر. هزت ليلى عزيزة حتى توقفت الأصوات، وعندما سمعت صرير باب الشبك، استرقت النظر من النافذة، رأت رشيد يقود مريم عبر الباحة من مؤخرة عنقها، كانت مريم حافية الأقدام ومتورمة. كان هناك دماء على يديه، دماء على وجه مريم، على شعرها، أسفل عنقها ومن الخلف. كان قميصها ممزقا من الأمام.

"أنا آسفة جداً مريم" صرخت ليلى من خلال الزجاج.

رأته بدفع بمريم إلى الورشة. دخل إليها، وخرج مع مطرقة وعدة ألواح من الخشب. أغلق الأبواب المزدوجة للورشة، وأخرج مفتاح من جيبه، أغلق القفل، جرّب الأبواب، ثم ذهب إلى خلف الورشة وأحضر سلماً. بعد عدة دقائق، كان وجهه في نافذة ليلى، كانت المسامير متدلية من زاوية فمه، كان شعره متشعثا. كانت هناك دماء على جبهته، عند رؤيته، صرخت عزيزة ودفنت وجهها بين يدي ليلى.

بدأ رشيد بمسمرة الألواح على النافذة.

كان الظلام كلياً، لا يمكن اختراقه، دون شعاع ضوء، ملأ رشيد الصدوع بين الألواح بشيء ما، وضع أشياء كبيرة غير قابلة للحركة عند أسفل الباب حتى لا ينفذ أي ضوء من تحته.

وملأ ثقب القفل بشيء ما.

وجدت ليلى أنه من المستحيل أن تعرف مقدار مرور الوقت بعينيها. لذا قامت بذلك من خلال أذنها السليمة. الأذان وصوت الديوك أعلنا الصباح. أصوات طرطقة الأطباق في المطبخ بالأسفل، صوت الراديو، يعنيان المساء.

في اليوم الأول، كانتا تتحسسان وتتلمسان بعضهما بالظلام. لم تستطع ليلى أن ترى عزيزة عندما تبكي، أو عندما تزحف.. "عايشي" ماءت عزيزة "عايشي"

"حالاً" قبّلت ليلى ابنتها، كانت تقصد على جبهتها، لكنها قبلتها على قمة رأسها.

"سوف نحصل على الحليب حالاً. اصبري، كوني جيدة، الصبر أيتها الصغيرة من أجل ماما، وسوف أحصل لك على بعض (عايشي)".

غنت لها ليلى بضعة أغاني.

صدح الأذان للمرة الثانية، ولم يعطهما رشيد أي طعام، والأسوأ لا ماء. ذلك اليوم، حرٌّ ثقيل، خانقٍ حل عليهما. تحولت الغرفة إلى طنجرة ضغط. مررت ليلى لساناً جافاً على شفتيها، مفكرة بالبئر في الخارج، الماء باردة ومنعشة. بقيت عزيزة تبكي. انتبهت ليلى إلى الخطر، عندما مسحت وجنتيها كانت يداها جافتان. خلعت ملابس عزيزة، وحاولت أن تجد شيئاً ما لتروح به على طفلتها.

واستقرت على أن تنفخ عليها حتى أصبحت حرارتها معتدلة، سريعاً، توقفت عزيزة عن الزحف، وانزلقت من وإلى النوم.

عدة مرات ذلك اليوم، طرقت ليلى بقبضتيها على الجدران، مستخدمة الطاقة المتبقية لديها في الصراخ طلباً للنجدة، آملة أن يسمع الجيران، ولكن لم يأتِ أحد، وصراخها لم يأتِ بشيء إلا إخافة عزيزة، التي بدأت بالبكاء ثانية بأنين وصوت منخفض.

انزلقت ليلى على الأرض وأحست بالذنب تجاه مريم، مضروبة ومدماة، مقفل عليها في هذا الحر داخل الورشة. عند نقطة ما، استغرقت ليلى في النوم، جسدها يُخبز في هذا الحر. حلمت أنها وعزيزة قد هربتا إلى طارق. كان في الجانب الآخر من شارع مزدحم، تحت مظلة محل الخياط. كان يجلس على عجزه ويأخذ عينة من صندوق فيه تين. ذلك والدك، قالت ليلى. ذلك الرجل هناك، هل رأيته؟ إنه والدك الحقيقي. نادت عليه باسمه، ولكن ضجة الشارع طغت على صوتها، ولم يسمعها.

استيقظت على صفير الصواريخ تمر فوقها وتضرب في مكان ما، السماء التي لم تستطع رؤيتها ثارت بانفجارات، والانهمار الغزير والطويل لنار الرشاشات الثقيلة. أغلقت ليلى عينيها. استيقظت ثانية على وقع أقدام رشيد الثقيلة في الممشى. جرت نفسها إلى الباب، وطرقته بيديها.

"فقط كأس واحدة، رشيد. ليس من أجلي. افعل ذلك من أجلها، لن تريق دمها على يديك"

مر عابراً.

بدأت تتوسله. طلبت منه المغفرة، قدمت وعوداً. لعنته.

أغلق بابه. صوت الراديو.

نادى المؤذن على الصلاة للمرة الثالثة. مرة ثانية الحر. أصبحت عزيزة فاترة الهمة. توقفت عن البكاء، وتوقفت عن الحركة.

وضعت ليلى أذنها على فم عزيزة، خائفة في كل مرة بأنها لن تسمع صوت "الوووش" الخفيف لتنفسها. حتى هذا الفعل البسيط من رفع نفسها جعل رأسها يترنح، استغرقت في النوم. حلمت أحلاماً لم تستطع تذكرها. عندما استفاقت تفقدت عزيزة، شعرت بالتشققات الجافة على فمها، النبض الضعيف على عنقها، استلقت ثانية. سيموتان هنا، كانت ليلى متأكدة الآن، لكن الذي أفزعها حقاً، هل ستصمد عزيزة، التي مازالت صغيرة وهشة. كم من الوقت ستتحمل؟ ستموت عزيزة في هذا الحر، وستستلقي ليلى بجانب جسدها الصغير الجامد وتنتظر موتها هي. مرة ثانية استغرقت في النوم. استيقظت، ثم نامت. كان الفرق بين الحلم واليقظة مشوشاً، لم يكن الأذان أو صوت الديكة الذي أيقظها مرة ثانية، ولكن صوت شيء ثقيل يجر. طرطقة. فجأة، امتلأت الغرفة بالضوء. صرخت عيناها باحتجاج. رفعت ليلى رأسها وانتفضت، وحمت عينيها. من خلال أصابعها، رأت خيالاً غير واضح يقف في وجه الضوء. تحرك الخيال. كان هناك شكل يجثم بجانبها، يخيم فوقها، وصوت عند أذنها.

"جربي ذلك ثانية، وسأجدك. أقسم باسم النبي أني سأجدك. وعندما أفعل، ليس هناك محكمة في هذه البلد التي نسيها الله ستحملني المسؤولية لما سأفعله. لمريم أولاً، ثم لها، وأنت الأخيرة. سأجعلك تشاهدين. هل تفهميني؟ سأجعلك تشاهدين"

وعند ذلك، غادر الغرفة. لكن ليس قبل أن يمنحها ركلة على خاصرتها ستجعل ليلى تبول الدم لأيام.

الفصل السابع الثلاثون

مريم

أيلول ١٩٩٦

مرت سنة ونصف، صحت مريم في صباح يوم السابع والعشرين من أيلول على صراخ وصفير، مفرقعات نارية وموسيقى. ركضت إلى غرفة الجلوس، فوجدت ليلى على النافذة، وعزيزة على كتفيها. التفتت ليلى وابتسمت.

قالت: "طالبان هنا"

أول مرة سمعت مريم عن طالبان كان منذ عامين. في أكتوبر ١٩٩٤، عندما قدم رشيد إلى المنزل وقال إنهم قهروا لوردات الحرب في قندهار واستولوا على المدينة. كانوا قوات عصابات آنذاك، قال إنهم من شبان الباشتون الذين هرَّبوا عائلاتهم إلى باكستان خلال الحرب ضد السوفييت. أغلبهم نشأوا ـ وبعضهم ولدوا ـ في مخيمات للاجئين على طولِ الحدود الباكستانية، وفي مدارسِ باكستانية درسوا الشريعة على يد المَلالي. كان قائدهم غامضاً، أُمّياً، منعزلاً وذا عين واحدة، اسمه الملا عمر.

"حقيقة إن هؤلاء الأولاد ليس لديهم ريشا (جذور)" قال رشيد.. دون أن يوجه حديثه لأي من المرأتين.. منذ الهروب الفاشل، قبل عامين ونصف، علمت مريم أنها وليلى أصبحتا بالنسبة له واحداً، متساويتان بؤساً، وتستحقان بالتساوي عدم ثقته.. استنكاره وإهماله. كانت مريم تشعر عندما يتكلم بأنه يحاور نفسه، أو مع حضور غير مرئي في الغرفة، وهذا الحضور مختلف عنها وعن ليلى.. يستحق آراءه.

"قد لا يكون لهم ماضٍ".. قال ذلك وهو يدخن وينظر إلى السقف.. ثم أردف:

"قد لا يعرفون شيئاً عن هذا العالم أو عن تاريخ هذه البلاد. نعم. وبالمقارنة معهم، من المحتمل أن تكون مريم هنا أستاذة جامعية.. ها! كل شيء صحيح. لكن انظري حولك.. ما الذي ترينه؟ فساد وجشع قادة المجاهدين، مسلحين إلى أقصى الحدود، الكثير من البطولة، يعلنون الجهاد كل واحد على الآخر ويقتلون كل شخص يقف بينهما.. هذا هو الأمر. على الأقل الطالبان أنقياء وغير قابلين للفساد، على الأقل، هم أولاد مسلمين محترمين. والله عندما يأتون، سينظفون هذا المكان. سيجلبون السلام والنظام. لن يُقتل الناس بعد الآن وهم خارجون ليشتروا الحليب. لا مزيد من الصواريخ! فكري بذلك"

خلال سنتين، شق الطالبان طريقهم إلى كابول، مستولين على المدن من المجاهدين، واضعين حداً للحرب الطائفية أينما حلوا. أمسكوا بقائد الهازارا عبدول علي مزاري وأعدموه.. لعدة أشهر استقروا جنوب كابول، يطلقون النار على المدينة، ويتبادلون إطلاق الصواريخ مع أحمد شاه مسعود.

في أوائل أيلول من عام ١٩٩٦، استولوا على مدن جلال أباد وساروبي. كان لدى الطالبان شيء واحد يفتقده المجاهدون، كما قال رشيد: كانوا موحدين.

"دعوهم يأتون.. بنفسي سوف أنثر الورود عليهم"

خرجوا ذلك اليوم كلهم، ورشيد يقودهم من باص إلى آخر، ليرحبوا بعالمهم الجديد، وبقادتهم الجدد.

في كل جوار مهدم، شاهدت مريم الناس يخرجون من الحطام ويتحركون في الشوارع. شاهدت امرأة مسنة تحمل الأرز وتنثره على المارة، وابتسامة دون أسنان على وجهها. شاهدت رجلان يتدليان من بقايا بناء محطم. في السماء فوقهما كان الصفير، أصوات الترحيب، أصوات المفرقعات النارية تنفجر من قبل فتية على الأسطح. كان النشيد الوطني يصدح من مسجلات تتنافس مع أبواق السيارات.

"أنظري، مايم"!! أشارت عزيزة إلى مجموعة من الأولاد يركضون في شارع جدة ميوانت. كانوا يرفعون قبضاتهم في الهواء وهم يجرون علباً صدئة مربوطة بخيطان. كانوا يصرخون أن مسعود وربّاني قد انسحبوا من كابول.

في كل مكان، كانت هناك صيحات الله أكبر!

رأت مريم غطاء سرير يتدلى من نافذة في شارع جدة ميوانت. كتب عليه أحد ما ثلاث كلمات بالخط العريض الأسود: ليحيا الطالبانُ!

كذلك وبينما كانوا يتمشون في الشوارع، لمحت مريم عدة إشارات ـ مرسومة على النوافذ، محفورة على الأبواب، مرفرفة من (أنتينات) السيارات ـ تنادي بنفس الشيء.

كانت تلك المرة الأولى التي تشاهد مريم فيها الطالبان في ساحة الباشتون. حشد كبير من الناس تجمع هناك يمدون رقابهم. تجمعت الناس حول النافورة الزرقاء في منتصف الساحة، كان الناس جالسين على حوافها الجافة قرب المطعم القديم (خيبر). استعان رشيد بحجمه لدفع الناس، ليقودهم إلى حيث كان هناك شخص يتكلم عبر مكبر الصوت.

عندما رأت عزيزة ذلك، أطلقت صرخة ودفنت وجهها في برقع مريم. كان يحمل مكبر الصوت شاب نحيل، ملتحٍ يرتدي عمامة سوداء. كان يقف على نوع من السقالات، وفي يده الحرة كان يحمل قاذف صواريخ. إلى جانبه، كان هناك رجلان مدميان، يتدليان من حبال ربطت إلى عمود إشارة ضوئية. ملابسهما ممزقة، وجهاهما منتفخان وقد تحول لونهما إلى أزرق بنفسجي.

"أنا أعرفه" قالت مريم.. ثم أردفت:

"الرجل الذي على اليسار" استدارت امرأة شابة أمام مريم وقالت إنه نجيب الله والرجل الآخر أخوه. تذكرت مريم نجيب الله المكتنز، ذو الشارب الذي كان يشع من لوحات الإعلانات وواجهات المحلات خلال سنوات السوفييت.

سمعت لاحقاً أن طالبان جروا نجيب الله من ملاذه الآمن في المقر العام للأمم المتحدة قرب قصر دار الأمان، وأنهم قد عذبوه لمدة أربع ساعات، ثم ربطوا ساقيه إلى شاحنة، وجروا جثته عبر الشوارع.

"لقد قتل الكثير، الكثير من المسلمين"!! كان الشاب الطالباني يصرخ عبر مكبر الصوت. يتكلم الفارسية بلهجة الباشتون ثم يغير إلى الباشتو. دلل على كلماته عن طريق إشارته إلى الجثث بسلاحه.

"جرائمه معروفة للجميع. لقد كان شيوعياً وكافراً. هذا ما نفعله بالكافرين الذين يرتكبون جرائم ضد الإسلام"!!

كان رشيد يتكلف الابتسام.. بينما كانت عزيزة تبكي بين يدي مريم.

في اليوم التالي، كانت الشاحنات تجتاح كابول. في كاهير خان وشاري نياو، وكارتيه باروان، في وزير أكبر خان وتايماني، شاحنات (تويوتا) حمراء تجوب الشوارع. رجال مسلحون ملتحون يرتدون عمامات سوداء ويجلسون على جوانبها. ومن كل شاحنة يدوي صوت المكبر ببلاغات، أولاً بالفارسي ثم بالباشتون. نفس الرسالة كانت تصدح من مكبرات الصوت في الجوامع ومن الراديو ـ الذي يعرف الآن بصوت الشريعة ـ كانت الرسالة مكتوبة أيضاً على قصاصات ورقية ترمى في الشوارع. وجدت ليلى واحدة منها في الحديقة.

وطننا الآن هو الإمارات الإسلامية الأفغانية. هذه القوانين التي ستفرض وسوف تستجيبون لها:

كل المواطنين يجب أن يصلوا خمس مرات في اليوم. إذا كان وقت الصلاة وكنتم تقومون بشيء آخر، فسوف تجلدون.

على كل الرجال أن يتركوا لحاهم. والحجم الصحيح هو على الأقل مقدار قبضة تحت الذقن. إذا لم تطيعوا فسوف تجلدون.

كل الأولاد سيلبسون العمائم. الأولاد من الصف الأول إلى الصف السادس سيرتدون عمائم سوداء، في المراحل العليا سيرتدون عمائم بيضاء. كل الأولاد سيرتدون اللباس الإسلامي. ياقات القمصان ستكون مزررة.

الغناء ممنوع.
الرقص ممنوع.
لعب الورق، لعب الشطرنج، القمار. الطائرات الورقية ممنوعة.
كتابة الكتب، مشاهدة الأفلام، ورسم اللوحات ممنوع.
إذا كان لديكم طيور الببغاء فسوف تجلدون، وطيوركم ستقتل.
إذا سرقتم، ستقطع أيديكم من الرسغ. إذا سرقتم مرة أخرى فسوف تقطع ساقكم.
إذا كنتم غير مسلمين، فلا تتعبدوا حيث يمكن للمسلمين رؤيتكم. وإذا فعلتم، ستجلدون وتسجنون. إذا حاولتم تبديل مسلم عن دينه، فسوف تعدمون.
انتباه للنساء:
ستبقون داخل منازلكم كل الوقت. فليس من اللائق للنساء أن تتجول بدون هدف في الشوارع. إذا خرجتن، يجب أن يرافقكن رجل قريب. إذا أمسك بكن وأنتن وحيدات في الشوارع، ستجلدن وُتعدن إلى منازلكن.
غير مسموح تحت أي ظرف كان أن تظهروا وجوهكن. يجب عليكن أن تتغطين بالبرقع خارج بيوتكن. وإذا لم تفعلن، فستجلدن عدة مرات.
مواد التجميل ممنوعة.
الحلي ممنوعة.
عليكن ألا تلبسن ملابس مثيرة. لن تتكلمن إلا إذا تكلم أحد معكن.
يجب أن لا تلتقي نظراتكن بنظرات الرجال.
لن تضحكن في العلن. إذا فعلتن ستجلدن.
لن تطلوا أظافركن. وإذا فعلتن ستفقدن أصبعاً.
ممنوع على البنات الذهاب إلى المدارس. مدارس البنات ستغلق في الحال.

ممنوع العمل على المرأة. إذا وجدتن مذنبات بتهمة الزنا، سترجمن حتى الموت.

اسمعن. اسمعن جيداً. وأطعن، الله أكبر.

أطفأ رشيد الراديو، كانوا يجلسون على أرضية غرفة الجلوس يتناولون العشاء بعد أسبوع من مشاهدتهم لجثة نجيب الله متدلية من حبل.

"لا يستطيعون إجبار نصف السكان على البقاء في المنزل دون فعل شيء" قالت ليلى.

"لم لا"؟ قال رشيد. لمرة، وافقته مريم. لقد فعل نفس الأمر معها ومع ليلى. بفعالية، ألم يقم بهذا؟ بالطبع رأت ليلى ذلك.

"هذه ليست قرية. إنها كابول. اعتادت النساء هنا مزاولة المحاماة والطب، وشغل وظائف حكومية..."

ابتسم رشيد ابتسامة عريضة.. ثم قال:

"تتكلمين كابنة متعجرفة لرجل يدرس قراءة الشعر في الجامعة. كم أنت متحضرة، كم أنت طاجيكية. تعتقدين أن هذه فكرة جديدة، راديكالية التي يجلبها الطالبان؟ هل عشت أبداً خارج صدفتك الصغيرة الغالية كابول يا زهرتي؟ هل قمت بزيارة أفغانستان الحقيقية، الجنوب، الشرق، على طول الحدود القبلية مع باكستان؟ لا؟ أنا فعلت. وأستطيع أن أقول لك إن هناك العديد من الأماكن في هذه البلاد عاشت دائماً هكذا. أو تقريباً هكذا على أي حال. أنت لا تعلمين ذلك"

"أرفض الإيمان بذلك" قالت ليلى.. ثم أردفت:

"إنهم غير جادين"

"ما فعله طالبان بنجيب الله يبدو جدياً كفاية لي" قال رشيد. "ألا توافقيني"؟

"لقد كان شيوعياً! كان رأس البوليس السري"

ضحك رشيد.

سمعت مريم الجواب في ضحكته: إنه بنظر طالبان، كونه شيوعياً وقائد الـ "KHAD" يجعل نجيب الله جديراً بالازدراء أكثر قليلاً من المرأة.

الفصل الثامن الثلاثون

ليلى

كانت ليلى سعيدة - عندما بدأ الطالبان بالعمل - لأن بابي لم يكن موجوداً ليشهد ذلك.. كان ذلك سيحطمه.

اجتاح رجال محملون بالفؤوس متحف كابول المتهدم وسحقوا التماثيل ما قبل الإسلامية وحولوها إلى حطام، وهي ما تبقى بعد نهب المجاهدون لها. أغلقت الجامعات أبوابها وأُرسل الطلاب إلى المنازل. مُزقت الرسومات على الجدران، مُزقت بالشفرات. حُطمت شاشات التلفزة، الكتب - ما عدا القرآن - أحرقت بأكوام عالية، والمتاجر التي تبيع الكتب أغلقت أبوابها. القصائد لشعراء كخليلي، باجواك، أنصاري، حجّي ديهقان، إشراقي، بيتاب، حافظ، جامي، نظامي، رومي، خيام، بيديل والمزيد.. أصبحت دخان.

سمعت ليلى عن أشخاص سُحبوا من الشوارع، واتُهموا بأنهم لم يحضروا الصلاة، فتم دفعهم إلى المساجد. علمت أن مطعم ماركو بولو، قرب شارع الدجاج تحول إلى مركز للاستجواب. في بعض الأوقات، كانت تسمع أصوات الصرخات من خلف نوافذه المطلية بالأسود. في كل مكان كانت تطوف الشوارع دوريات ملتحية في سيارات بيك أب تويوتا، تبحث عن الوجوه الحليقة لتدميها.

أغلقوا دور السينما أيضاً. سينما الحديقة. أريانا. آريوب. فُتشت غرف الإسقاط، وأحرقت بكرات الأفلام. تذكرت ليلى كل تلك الأوقات التي جلست فيها مع طارق في تلك الدور تشاهد الأفلام الهندية، كل تلك الروايات الميلودرامية عن العشاق الذين ينفصلون لسبب من الأسباب التراجيدية للقدر، أحدهم أُبعد إلى مكان ما والآخر أُجبر على الزواج، البكاء، الغناء في الحقول ذات الزهور

المخملية، اللهفة إلى اللقاء. تذكرت كيف أن طارق كان يضحك على بكائها في تلك الأيام.

"أتساءل ما الذي فعلوه بالسينما التي يمتلكها أبي".. قالت لها مريم في أحد الأيام.

"إن كانت لا تزال موجودة، هذا شيء!! أو إن كان ما يزال يمتلكها" كارابات، الموسيقى القديمة لأحياء كابول اليهودية، أسكتت.

ضُرب الموسيقيون وسجنوا، ربابتهم، تامبوراتهم، هارمونيوماتهم سُحقت. ذهب الطالبان إلى قبر مغني طارق المفضل أحمد زاهير، وأطلقوا الرصاص داخله.

"كان قد مات منذ عشرين عاماً تقريباً" قالت ليلى لمريم..

"ألا يكفي الموت مرة واحدة"؟

لم يكن رشيد منزعجاً من الطالبان كثيراً. كل ما كان عليه فعله هو أن يطلق لحيته، وهذا ما قام به، وأن يزور الجامع، الأمر الذي فعله أيضاً. نظر رشيد للطالبان بتسامح عطوف مسل. كما قد ينظر المرء لابن عم ضال، ينكب على أفعال الصخب والثرثرة.

كل ليلة أربعاء، يستمع رشيد إلى صوت الشريعة عندما يذيع الطالبان أسماء الذين حدد موعد عقابهم.

ثم في يوم الجمعة، يذهب إلى ملعب غازني، يشتري البيبسي، ويشاهد العرض. في السرير، كان يجعل ليلى تستمع بينما يصف بابتهاج غريب قطع الأيدي التي شاهدها، الجَلْدْ، عمليات الشنق وقطع الرؤوس..

"رأيت اليوم رجلاً يُقطع عنق أخيه المجرم".. قال ذلك وهو ينفخ هالات من دخان سيجارته.

"إنهم متوحشون" قال ليلى.

"تعتقدين ذلك"؟.. ثم أردف:

"مقارنة بماذا؟ السوفييت قتلوا مليون شخصاً. هل تعلمين كم قتل المجاهدون في كابول وحدها خلال السنوات الأربع الأخيرة؟ خمسون

ألف. خمسون ألف! أهو غير معقول، مقارنة، بقطع الأيدي لبضعة لصوص؟ العين بالعين، والسن بالسن. أليس ذلك وارد بالقرآن. من جانب آخر، أخبريني: إن قتل أحدهم عزيزة، ألن ترغبي بأن يكون لك فرصة للانتقام لها"؟

صوبت ليلى عليه نظرة قرف.

"أنا أشرح فكرة" قال ذلك.

"إنك مثلهم"

"إن لعينيها لون مثير للاهتمام. ألا تعتقدين ذلك؟ ليس آتياً مني أو منك"

قال ذلك واستدار ليواجه وجهها، وبلطف خدش فخذها بظفره المعقوف.

"دعيني أوضح" قال رشيد.. ثم أردف:

"إذا أخذ بي الخيال - وأنا لا أقول أنه هكذا، ولكن يمكن، يمكن - سأبقى في نطاق حقوقي إن أبعدت عزيزة. هل ستحبين ذلك؟ أو أستطيع أن أذهب إلى طالبان في أحد الأيام، فقط أذهب وأقول أن لدي شكوك حولك. هذا كل ما يتطلبه الأمر. كلام من تعتقدين سيصدقون؟ ما الذي تعتقدين أنهم سيفعلون بك"؟

سحبت ليلى فخذها.

"لا يعني ذلك أنني سأفعل.. لن أفعل. لا. على الأرجح لا، أنت تعرفيني"

"أنت حقير" قالت ليلى.

"إنها كلمة كبيرة" قال رشيد.. ثم أردف:

"دائماً كرهت ذلك فيك. حتى عندما كنت صغيرة، عندما كنت تركضين مع الأعرج، ظننت أنك ذكية جداً، بكتبك وقصائدك. ماذا منحك كل ذكائك الآن؟ مَنا الذي يبقيك بعيدة عن الشوارع، ذكاؤك أم أنا؟ أنا حقير؟ نصف النساء في هذه المدينة سيقتلن للحصول على زوج مثلي. سيقتلن لذلك"

استدار ونفث الدخان باتجاه السقف.

"تحبين الكلام الكبير؟ سأمنحك واحدة. المنظور، هذا ما أفعله، ليلى، التأكد أنك لم تفقدي المنظور"

الأمر الذي جعل معدة ليلى مضطربة بقية الليلة كان أن كل كلمة نطقها رشيد، كل واحدة منها، كانت صحيحة.

ولكن في الصباح، ولعدة صباحات أخرى بعد ذلك، ذلك الغثيان في أحشائها أصبح مستمراً، ثم ساء، أصبح اعتيادياً بشكل يثير الهلع.

في أحد الأيام الباردة بعد العصر، كانت مريم تغفو مع عزيزة في غرفتها. بينما تستلقي ليلى على أرضية غرفة النوم. وبيدها سيخ معدني انتزعته بكماشة من عجلة دراجة مهجورة. وجدتها في نفس الزقاق حيث قبلها طارق منذ سنين عدة. لوقت طويل بقيت ليلى مستلقية على الأرض، تتنفس من خلال أسنانها، وساقيها متباعدتين.

هي تعبد عزيزة من اللحظة التي شكت بوجودها. لم يكن هناك أي من ذاك الشك بالنفس لديها، عدم التأكد. كم كان شيئاً رهيباً، فكرت ليلى الآن، على أم أن تخاف ألا يكون داخلها حباً لابنها.

كم هو شيء غير طبيعي. ورغم ذلك كان عليها أن تتساءل، بينما استلقت على الأرض، يداها المتعرقتان تتوازنان لتقود السيخ المعدني، إن كانت تستطيع أن تحب أبداً طفل رشيد كما تحب طفلة طارق. في النهاية، لم تستطع ليلى القيام بذلك.

لم يكن الخوف من النزف حتى الموت هو الذي جعلها ترمي السيخ المعدني، أو حتى فكرة أن هذا العمل ملعون ـ والذي تشك أنه كذلك. لكنها رمت السيخ المعدني لأنها لم تستطع القيام بما قاله المجاهدون: في بعض الأحيان وقت الحرب من الممكن أن يقتل الأبرياء. كانت حربها ضد رشيد. الطفل لا لوم عليه. وكان هناك ما يكفي من القتل. رأت ليلى ما يكفي من قتل الأبرياء الذين علقوا في خط نار الأعداء.

الفصل التاسع والثلاثون

ليلى

"هذا المستشفى لم يعد يداوي الناس".. صرخ الحارس.

كان واقفاً أعلى الدرج، ينظر ببرود إلى الحشد المجتمع أمام مشفى الملالي. فارتفعت التأوهات من الحشد.

"لكن هذا مستشفى نساء"!! صرخت امرأة خلف مريم. صيحات من التأكيد تبعت ذلك.

نقلت مريم عزيزة من يد لأخرى. وبيدها الحرة، ساعدت ليلى التي كانت تئن ويدها تحيط عنق رشيد.

"ليس بعد الآن" قال الطالباني.

"زوجتي ستلد طفلاً"!! صرخ رجل ضخم.

"هل ستتركها تلد هنا في الشارع، يا أخي"؟

كانت مريم قد سمعت البلاغ في كانون الثاني من تلك السنة، أنه سيكشف على الرجال والنساء في مشافي مختلفة. وأن كل الطاقم النسائي سينقل من مستشفيات كابول ويرسل للعمل في منشأة مركزية. لم يصدق أحد ذلك، ولم يفرض الطالبان تلك السياسة، حتى الآن.

"ماذا عن مستشفى علي آباد"؟ صرخ رجل آخر.

هز الحارس رأسه.

"وزير أكبر خان"؟

"رجال فقط" قال.

"وما الذي علينا فعله"؟

"اذهبوا إلى رابيا بلخي" قال الحارس.

اندفعت امرأة إلى الأمام، وقالت إنها كانت هناك. ليس لديهم ماء نظيف، ولا أكسجين، لا أدوية ولا كهرباء.

"لا يوجد شيء هناك"

"إلى هناك ستذهبوا" قال الحارس.

كان هناك المزيد من الأنين والبكاء، إهانة أو أكثر. أحد ما رمى حجراً. رفع الطالبان الكلاشنكوف وأطلق النار في الهواء. طالباني آخر لوح بسوط. تفرق الحشد بسرعة.

كانت غرفة الانتظار في مستشفى رابيا بلخي تعج بالنساء مرتديات البرقع برفقة أولادهن. الهواء مليءٌ برائحة العرق والأجساد غير النظيفة، رائحة الأقدام، البول، رائحة دخان سجائر ورائحة المعقمات.

تحت مروحة السقف، كان الأولاد يطاردون بعضهم البعض، يقفزون فوق الأرجل الممدودة لآبائهم الذين يغفون. ساعدت مريم ليلى على الجلوس عند حائط حيث بقع من الجص على شكل بلاد غريبة قد انزلقت.

ترنحت ليلى إلى الأمام والخلف، ويداها تضغطان على بطنها.

"سأجعل أحداً يراك، ليلى جو، أعدك"

"بسرعة" قال رشيد.

قبل أن تحتشد النساء على شباك التسجيل، وهن يتدافعن. كان البعض مازال يحمل أطفاله. بعضهم اندفع من الحشد وهجم على الأبواب المزدوجة التي تقود إلى غرف المعاينة.

سد طريقهم حارس طالباني مسلح، أعادهم.

تقدمت مريم. ثبتت قدميها بالأرض، وشقت طريقها من خلال مرافق، وأوراك، وعظم أكتاف غرباء.

أحدهم لكزها بمرفقه على أضلاعها، فلكزته. لوحت يد يائسة أمام وجهها فأبعدتها. لتدفع بنفسها إلى الأمام، تشبثت مريم بالأعناق، بالأذرع والمرافق، وبالشعر أيضاً، وعندما أصدرت امرأة بالقرب منها صوت استنكار ردت مريم بالمثل.

رأت مريم الآن التضحيات التي تقدمها الأم. اللياقة كانت فقط إحداها. فكرت بنانا بحسرة، بالتضحيات التي قدمتها، نانا، التي كانت

تستطيع أنٍ تبعدها، أو ترميها في قناة في مكان ما وتهرب. ولكنها لم تفعل. بدلاً من ذلك، تحملت نانا العار كونها تحمل ابنة حرام، ورتبت حياتها على مهمة تنشئتها غير المشكورة، وبطريقتها الخاصة في محبتها لها. وفي النهاية، فضلت مريم جليل عليها. بينما كانت تشق طريقها بإصرار وقح أمام الحشد، تمنت مريم لو أنها كانت أفضل مع نانا، تمنت لو أنها فهمت حينها ما فهمته الآن عن الأمومة.

وجدت نفسها وجهاً لوجه مع ممرضة محجبة من الرأس إلى الأصابع في برقع رمادي قذر. كانت الممرضة تتحدث مع امرأة شابة، تغرق قطعة الرأس من برقعها بدماء كثيفة.

"لقد انفجر ماء الرأس عند ابنتي والطفل لا يخرج" نادت مريم.

"أنا أتحدث إليها"!! صرخت المرأة المدماة.. "انتظري دورك".

تمايل الحشد من جانب لآخر، كالعشب الطويل حول الكولبا، عندما يجتاحه النسيم. كانت امرأة خلف مريم تصرخ أن ابنتها كسرت مرفقها عندما وقعت عن الشجرة، امرأة أخرى صرخت أنها تحمل بكرات نقل دم.

" هل لديها حمى"؟ سألت الممرضة.

احتاجت مريم لحظة كي تدرك أن الحديث موجه إليها.

"لا".. قالت مريم.

"نزيف"؟

"لا"

"أين هي"؟

من فوق الرؤوس المغطاة، أشارت مريم إلى حيث كانت ليلى جالسة مع رشيد.

"سننادي عليها" قالت الممرضة.

"متى"؟ صرخت مريم.

أحد ما أمسكها من كتفيها، وشدها للخلف.

"لا أعلم" قالت الممرضة.. ثم أردفت، إن لديهم طبيبين وكلاهما يجري عمليات في هذه اللحظة.

"إنها تتألم" قالت مريم.

"وأنا أيضاً"!! صرخت المرأة ذات الرأس الدامي..

"انتظري دورك"

سحبت مريم للخلف.

رؤية الممرضة حُجب الآن بالأكتاف ومؤخرات الرؤوس. شمّت رائحة تجشؤ الحليب.

"خذيها واجعليها تتمشى" صرخت الممرضة "وانتظري"!!

كان الظلام قد حل في الخارج عندما نادت الممرضة عليهم أخيراً. غرفة التوليد فيها ثمانية أسرة، على كل سرير نساء يتألمن وممرضات محجبات بالكامل يعتنين بهن. اثنتان من النسوة كانتا بحالة ولادة. لم يكن هناك ستائر بين الأسرّة. أعطيت ليلى سريراً في زاوية بعيدة، تحت نافذة، أحد ما طلاها بالأسود. هناك مغسلة بالقرب، مشروخة وجافة. وخيط فوق المغسلة تتدلى منه كفوف جراحية ملطخة. في منتصف الغرفة شاهدت مريم طاولة من الألمنيوم. الرف العلوي عليه بطانية ذات لون أسود، الرف السفلي كان فارغا.

إحدى النساء شاهدت مريم تنظر.

"يصفون الأحياء على الرف العلوي" قالت بتعب.

الطبيبة التي ترتدي برقعاً أسود كانت امرأة صغيرة، قلقة، حركاتها تشبه الطير.

كل شيء تقوله يبدو عاجلاً وغير صبور.

"الولد الأول" قالته بتلك الطريقة، ليس كسؤال لكن كتصريح.

"الثاني" قالت مريم.

"أية مشاكل في الولادة الأولى"؟

"لا"

"أنت الأم"؟

"نعم" قالت مريم.

رفعت الطبيبة القسم السفلي من برقعها وأتت بأداة معدنية على شكل مخروط. رفعت برقع ليلى ووضعت الجهة الواسعة على بطنها، والجانب الضيق على أذنها. استمعت دقيقة، نقلت الأداة إلى مكان آخر ثم استمعت ثانية، نقلتها ثانية.

"أشعر بالطفل الآن يا سيدة"

وضعت إحدى القفازات المعلقة على منشر الثياب فوق المغسلة. ضغطت على بطن ليلى بيد واحدة ودفعت بالأخرى إلى الداخل. نشجت ليلى. عندما انتهت الطبيبة أعطت القفازات للممرضة، التي علقتها ثانية على الحبل.

"تحتاج ابنتك إلى عملية قيصرية. هل تعلمين ما معنى ذلك؟ علينا أن نفتح رحمها ونخرج الطفل، لأنه في وضع عكسي"

"لم أفهم" قالت مريم.

قالت الطبيبة بسبب موقع الطفل لن يخرج بنفسه.

"ومر وقت طويل والحال هكذا. علينا أن نذهب إلى غرفة العمليات الآن"

أومأت ليلى وقسمات وجهها تتلوى من الألم، وقد تدلى رأسها إلى جانب واحد.

"هناك شيء يجب أن أخبرك إياه"

قالت الطبيبة وتحركت حتى أصبحت قريبة من مريم، واتكأت ثم تكلمت بصوت منخفض، وبنغمة موثوقة الآن.كان هناك أثر إحراج في صوتها.

"ما الذي تقوله"؟ أنّت ليلى.

"هل هناك شيء غير طبيعي في الطفل"؟

"ولكن كيف ستتحمل ذلك"؟ قالت مريم.

لابد أن الطبيبة سمعت اتهاماً في هذا السؤال، قررت ذلك بتغيير نبرة صوتها الدفاعية.

"تظنين أنني أريد أن أقوم بالأمر بتلك الطريقة"؟ قالت..

"ما الذي تريدين أن أفعله؟ لن يعطوني ما أنا بحاجة إليه. ليس لدي أشعة إكس، ولا مضخات، لا أوكسجين، ولا حتى مضادات حيوية بسيطة"

عندما تقدم NGOS نقوداً، يسحبها الطالبان بعيداً، أو يضعون النقود في أماكن تزوّد الرجال بالأدوية.

"ولكن، أليس هناك شيء ما تعطيه لها"؟ سألت مريم.

"ما الذي يجري"؟ تأوهت ليلى.

"تستطيعين أن تشتري الدواء بنفسك، ولكن..."

"اكتبي الاسم" قالت مريم.. "سجليه وأنا سأحضره"

من تحت البرقع هزت الطبيبة رأسها بشكل مقتضب.

"لا يوجد وقت" قالت الطبيبة.. ثم أردفت:

"لسبب واحد، لا توجد صيدلية قريبة عندها دواء. لذا عليك أن تقاتلي خلال الزحام من مكان إلى آخر، وربما على طول المدينة، مع احتمال ضئيل أن تجديه. والساعة الآن تقريباً الثامنة والنصف، لذلك ربما ستعتقلين لخرقك حظر التجول، حتى لو وجدت الدواء هناك احتمالات أن لا تستطيعي دفع ثمنه. أو تجدي نفسك في حرب مزايدة مع شخص ما يائس آخر. لا يوجد وقت. هذا الطفل بحاجة لأن يخرج الآن".

"أخبريني ما الذي يحدث"!! قالت ليلى، رفعت نفسها متكئة على مرفقيها. أخذت الطبيبة نفساً ثم أخبرت ليلى أن المخدر نفذ من المستشفى..

"ولكن إذا تأخرنا، سوف نفقد طفلك".

"إذاً افتحي بطني" قالت ليلى، ارتمت على السرير وسحبت ركبتيها..

"افتحي بطني وأعطني طفلي"

داخل غرفة العمليات القذرة، استلقت ليلى على سرير متحرك بينما كانت الطبيبة تغسل يديها في طاسة. كانت ليلى ترتجف. تنفست الهواء في كل مرة كانت الممرضة تمسح بطنها بقطعة مبللة بسائلٍ لونهِ بني مصفر. وقفت ممرضة أخرى على الباب. أبقت الباب مشقوقاً قليلاً لتستطيع أن ترى الخارج.

كانت الطبيبة قد خلعت برقعها الآن، ورأت مريم أن لديها خصلة فضية من الشعر، أجفان سميكة، وتجاعيد إرهاق على زاوية فمها.

"يريدون منا أن نقوم بالعملية ونحن بالبرقع" وضّحت الطبيبة، مشيرة برأسها إلى الممرضة عند الباب.

"تظل تراقِب، عندما ترى أنهم قادمون، أرتديه" قالت ذلك بنبرةٍ عملية، تقريباً غير مبالية. وفهمت مريم أن تلك المرأة من الصعب جداً أن تغضب. هنا امرأة، فكرت، تدرك أنها محظوظة لكونها تعمل. وبأنه هناك شيء ما دائماً، شيء ما مختلف، لا يستطيعون سلبه منها.

كان هناك قضيبان معدنيان على شكل عامودي على جانب كل جهة من كتفي ليلى. مع ملاقط ثياب، الممرضة التي نظفت بطن ليلى ثبتت غطاء على القضبان فشكلت ستارة بين ليلى والطبيبة.

وقفت مريم خلف رأس ليلى وخفضت وجهها لتضع وجنتها على وجنةِ ليلى، كانت تسمع صرير أسنان ليلى، بينما أيديهما تتشابكان معاً.

من خلال الستارة، رأت مريم خيال الطبيبة يتحرك إلى يسار ليلى، الممرضة إلى اليمين، كانت شفاه ليلى مشدودة على آخرها، كانتِ هناك فقاعات من البصاق على أسنانها المصطكة. كانت تصدر أصواتاً سريعة وقصيرة.

قالت الطبيبة: " تشجعي أيتها الأخت الصغيرة"

انحنت فوق ليلى.

فُتحت عينا ليلى. ثم فُتح فمها. بقيت هكذا، بقيت، ترتجف، الأوتار في عنقها تمددت، تساقط العرق من وجهها، أصابعها تسحق أصابع مريم.

مريم ستقدر ليلى دائماً للوقت الذي مر قبل أن تصرخ.

الفصل الأربعون

ليلى

خريف ١٩٩٩

فكرت مريم، في أحد الأيام، أن يحفروا حفرة. فاختارت بقعة أرض خلف الورشة.

"نستطيع أن نحفر هنا.. إنها جيدة"

بدأتا بحفر الأرض بمجرفة، ورمي التراب على الجانب الآخر. لم تخططا لحفر حفرة كبيرة أو عميقة، لذا كان يجب ألا يأخذ الحفر الكثير من الوقت. ولكنه كان الجفاف، بدأ في عام ١٩٩٨، كانت سنته الثانية الآن، لذلك كان الخراب في كل مكان. بالكاد أثلجت في ذاك الشتاء، ولم تمطر طوال فصل الربيع في كل البلاد. كان المزارعون يتركون أراضيهم الجافة، يبيعون بضائعهم، يتجولون من قرية لأخرى باحثين عن الماء، انتقلوا إلى باكستان أو إيران. واستقر معظمهم في كابول. لكن مستوى الماء كان منخفضاً في المدينة أيضاً، الآبار السطحية كانت قد جفت. الحبال في الآبار العميقة طويلة جداً، وكان على ليلى ومريم أن يمضوا ساعات منتظرين دورهم. نهر كابول، دون فيضانه الربيعي السنوي، أصبح جافاً. وأصبح مرحاضاً للعامة الآن، لاشيء فيه سوى الفضلات البشرية والحطام.

بقيتا تؤرجحان المجرفة وتضربان، ولكن الشمس كانت قد جعلت الأرض جافة كصخرة، التراب قاس، مضغوط، وتقريباً متحجر.

كانت مريم قد أصبحت في الأربعين من عمرها الآن. شعرها مرفوع وفيه بضعة خصلات رمادية. وظهرت تجاعيد رمادية على شكل هلال تحت عينيها. وفقدت اثنان من أسنانها الأمامية. سقط أحدهما بمفرده والآخر كسره رشيد عندما أوقعت زلماي. أصبح جلدها خشناً

ومُسمَّراً، من جرّاء الوقت الذي قضته في الباحة تحت أشعة الشمس، كانتا تجلسان وتراقبان زلماي وهو يلاحق عزيزة.

عندما أنجزتا حفر الحفرة وقفتا ونظرتا إلى الأسفل، "يجب أن تفي بالغرض" قالت مريم.

كان قد أصبح عمر زلماي سنتين، ولد مكتنز بشعر مجعد. لديه عينان بنيتان صغيرتان، ووجنتان ورديتان، كرشيد، وكيفما كان الجو. فقد كان لديه غرة أبيه أيضاً، كثيفة وعلى شكل نصف قمر، متدلية على حاجبيه.

عندما تكون ليلى معه لوحدها، كان زلماي ذو طبع جيد وغير مؤذي. كان يحب أن يتسلق أكتاف ليلى، ويلعب بالباحة معها ومع عزيزة. في بعض الأوقات، في لحظاته الهادئة، كان يحب أن يجلس في حضن ليلى وأن تغني له. كانت أغنيته المفضلة (الملا محمود جان).. يؤرجح قدميه المكتنزتين بينما هي تغني. وينضم إليها بالغناء، ويغني ما يستطيع بصوته الخشن:

تعال ودعنا نذهب إلى المزار، ملا محمود جان، لنرى حقولاً من التوليب.. يا لها من صحبة جميلة.

كانت ليلى تحب القبلات الرطبة التي كان زلماي يضعها على وجنتيها، كانت تحب غمازات مرفقيه وأصابع قدميه القويتين. كانت تحب دغدغته، وأن تصنع له ممرات من الوسائد والمساند ليزحف داخلها، مراقبته وهو ينام بين ذراعيها، وهو يمسك بأذنها دائماً، كانت تشعر بالغثيان في معدتها عندما تفكر بذلك اليوم عندما كانت مستلقية والسيخ المعدني من عجلة الدراجة بين ساقيها. كم كانت قريبة من فعل ذلك. كان غير معقول بالنسبة لها الآن أنها استطاعت أن تتعامل مع الفكرة. كان طفلها نعمة، وأدركت ليلى بارتياح بأن مخاوفها كانت لا أساس لها، وأنها أحبت زلماي حتى النخاع كما أحبت عزيزة.

ولكن زلماي يقدس والده، ولأنه كان كذلك، فقد كان يلتصق بوالده عندما يكون حاضراً. يصبح زلماي عندها سريع الغرغرة أو

يبتسم بوقاحة. بحضور والده يصبح زلماي شخصاً مزعجاً. يتذمر، يصر على الأذى، على الرغم من توبيخ ليلى له. وهو الشيء الذي لا يقوم به عندما يكون رشيد غائبا.

في حين كان رشيد يوافق على كل ما يفعل "إشارة على الذكاء" كما قال. كان يقول الشيء نفسه عن تهور زلماي ـ عندما يبلع ثم يقذف البلية ـ عندما يشعل أعواد الثقاب، عندما يمضغ السجائر.

عندما ولد زلماي، نقله رشيد إلى السرير الذي يتقاسمه مع ليلى. اشترى له مهداً جديداً، أسوداً وفهوداً جاثمة، كانت مرسومة على جانب الخزانة. دفع ثمن ثياب جديدة، وألعاب جديدة، حفاضات جديدة، وزجاجات رضاعة، على الرغم من أنهم كانوا غير قادرين على ذلك وبالرغم من أن أشياء عزيزة القديمة ما زالت نافعة.

في أحد الأيام، أتى إلى المنزل ومعه لعبة تتحرك بالبطارية، علقها فوق مهد زلماي وهي عبارة عن نحلات طنانة باللونين الأصفر والأسود تتدلى من زهرة عباد الشمس، تنثني وتصدر أصواتاً عندما يضغط عليها. وتصدر لحناً عندما تعمل البطارية.

"ظننت أن الأعمال ليست بخير" قالت ليلى..

"لدي أصدقاء أستطيع الاقتراض منهم"

"وكيف سترجع تلك النقود"؟

"ستتحسن الأحوال. دائماً كذلك. أنظري لقد أحب ذلك. هل ترين؟"

معظم الأيام كانت ليلى تُحرم من ابنها. يأخذه رشيد معه إلى المحل، يتركه يزحف بين أدواته المزدحمة، يلعب بالنعال المطاطية القديمة وبقايا قطع الجلد. بينما كان رشيد يشتغل بمساميره المعدنية ودولابه ويبقي نظره عليه. إذا أسقط زلماي طاولة الأحذية يوبخه رشيد بلطف وابتسامة هادئة. إذا فعل ذلك ثانية، يضع رشيد مطرقته ويجلسه على مقعده ويتحدث معه بلطف.

كان صبره مع زلماي كبئر عميق لا يجف.

كانا يعودان إلى المنزل في المساء، ورأس زلماي على كتف رشيد، كلاهما تنبعث منه رائحة غراء الجلد. يتسمان بخجل على طريقة الذين يتقاسمون سراً، وكأنهما لا يصنعان الأحذية طوال اليوم في المحل المعتم، بل كانا يبتكران المؤامرات.

يحب زلماي الجلوس إلى جانب والده على العشاء، حيث يلعبان ألعاباً خاصة، بينما مريم، ليلى وعزيزة يضعن الأطباق على السفرة. كانا يتبادلان اللكمات على صدريهما، يضحكان، ويرميان فتات الخبز على بعضهما البعض، يتهامسان بأشياء لا يستطيع الآخرون سماعها. إذا تكلمت ليلى معهما، ينظر إليها رشيد باستياء وعدم ترحيب بذلك التدخل، وإذا سألت أن يوقف زلماي ـ أو، الأسوأ، إذا مد زلماي يده لها ـ يرمقها رشيد بنظرة غاضبة.

تبتعد ليلى وكأنها لُدغت. ثم في ليلة، بعد أيام قليلة من بلوغ زلماي السنة الثانية من عمره، أتى رشيد إلى المنزل ومعه تلفاز وفيديو. كان ذلك اليوم دافئاً ولكن في المساء أصبح الجو أكثر برودة والسماء خالية من النجوم، وضع التلفاز على طاولة غرفة الجلوس. قال إنه اشتراه من السوق السوداء.

"قرض آخر"؟ سألت ليلى

"إنه ماغنوفكس"

دخلت عزيزة إلى الغرفة. وعندما رأت التلفاز ركضت باتجاهه.

"كوني حذرة عزيزة جو" قالت مريم.. ثم أردفت:

"لا تلمسيه"

أصبح شعر عزيزة فاتحاً مثل شعر ليلى، التي كانت ترى غمازتيها على وجنتي عزيزة. أصبحت عزيزة فتاة هادئة وملتزمة، مع سلوك بدا لليلى يتخطى السنوات الست من عمرها. كانت ليلى معجبة بطريقة كلامها، بإيقاعه وتناغمه، وقفاتها التي تبدي التفكير، ونغمات صوتها البالغ جداً، وهو أمر غريب مقارنة بالجسد غير الناضج الذي يحتوي هذا الصوت. كانت عزيزة ذات السلطة المرحة قد أخذت على

عاتقها إيقاظ زلماي كل يوم، أن تلبسه، تطعمه إفطاره، تسرّح شعره. وهي من تجعله يأخذ قيلولته، هي التي تأخذ دور صانعة السلام أمام أخيها الهائج، حوله، كانت عزيزة تأخذ دور الخبير، بهزات رأس بالغة.

ضغطت عزيزة على زر التشغيل في الجهاز. عبس رشيد، وانتزعه من يدها بقسوة ووضعه على الطاولة.

"هذا تلفاز زلماي" قال رشيد

رجعت عزيزة إلى مريم وجلست في حضنها. كانت الاثنتان لا تنفصلانٍ الآن.

مبكراً وبمباركة ليلى، بدأت مريم تعليم عزيزة مقاطع من القرآن. أصبحت عزيزة قادرة على تلاوة سورة الإخلاص عن ظهر قلب، وكذلك سورة الفاتحة، وأصبحت قادرة على إنجاز الركعات الأربعة لصلاة الصبح.

"هذا كل ما لدي لأمنحه لها" قالت مريم لليلى..

"هذه المعرفة، وتلك الصلوات، إنهم الشيء الوحيد الحقيقي الذي حصلت عليه"

دخل زلماي إلى الغرفة الآن، بينما كان رشيد ينظر إليه بترقب كما ينتظر الناس الخدع البسيطة التي يقوم بها السحرة في الشوارع، سحب زلماي سلك التلفاز، ضغط الأزرار، ضغط براحتيه على الشاشة الخالية. ابتسم رشيد بفخر بينما يراقب زلماي وهو يضغط راحتيه ويرفعهما مرة بعد أخرى.

كان الطالبان قد حرّموا التلفاز وأتلفوا أشرطة الفيديو علناً، وأتلفوا كذلك صحون الستلايت، ولكن قال رشيد إنه وإن حرمت هذه الأشياء، ذلك لا يعني أننا غير قادرين علىٍ إيجادها.

"سأبحث عن بعض أشرطة الكرتون غداً" قال..ثم أردف:

"لن يكون ذلك صعباً. تستطيعين شراء أي شيء من الأسواق التي تحت الأرض"

"إذا، ربما تستطيع أن تشتري لنا بئراً جديداً" قالت ليلى، وعندها منحها نظرة احتقار.

لاحقاً، بعد عشاء آخر من الأرز الأبيض المستهلك ومن الاستغناء عن شرب الشاي بسبب الجفاف. وبعد أن دخن رشيد سيجارة، أخبر ليلى بقراره.

"لا".. قالت ليلى

قال أنه لم يكن يسأل

"إنني غير مهتمة إن كنت أو لا"

"سترغبين بذلك إذا عرفت كل القصة"

قال إنه استدان المزيد من أصدقائه، وأن النقود من المحل وحده كانت غير كافية لتعيل خمسة أفراد.

"لم أخبرك قبلاً لأبعدك عن القلق".. قالت ليلى "لا" مرة ثانية. كانا في غرفة الجلوس. بينما كانت مريم والأولاد في المطبخ. وكان باستطاعة ليلى سماع طرطقة الأطباق، وضحكة زلماي العالية وعزيزة تقول شيئاً ما لمريم بصوتها الثابت المنطقي.

"سيكون هناك آخرين مثلها، حتى أصغر سناً" قال رشيد.. ثم أردف: "كل شخص في كابول يفعل المثل"

قالت ليلى له إنها لا تهتم لما يفعله الآخرون بأولادهم.

"سأبقي عيني عليها" قال رشيد ذلك وهو متبرم الآن

"إنها زاوية آمنة. هناك مسجد عبر الشارع"

"لن أدعك تحول ابنتي إلى متسولة"!! صرخت ليلى..

كان للصفعة صوت تهشم عالي، التصقت راحة يده ذات الأصابع السميكة مباشرة على وجه ليلى مما جعلها تترنح. وأسكتت الضجيج الآتي من المطبخ. للحظة، كان المنزل هادئاً تماماً. ثم أصوات أقدام مسرعة في الممشى قبل أن تصل مريم والأولاد إلى غرفة الجلوس، كانت أعينهم تنتقل بينها وبين رشيد.

ثم لكمته ليلى.

إنها المرة الأولى التي تضرب فيها أحداً، عدا عن اللكمات المازحة التي كانت تتبادلها هي وطارق. ولكن كانت تلك اللكمات قبضات مفتوحة، كانت ضربات خفيفة أكثر منها لكمات، كانت لكمات صداقة، كانت تعبر عن الشوق والإثارة. كانا يصوبان على العضلة التي كان طارق يسميها بصوت العالم عضلة الكتف.

راقبت ليلى قبضتها المغلقة تشق الهواء، وأحست بطيات جلد رشيد الغليظة الخشنة على معصمها. أحدثت صوتاً مثل صوت سقوط كيس الأرز على الأرض. ضربته بقوة وكان نتيجة الارتطام أنه تراجع خطوتين للوراء. من الجانب الآخر للغرفة، كان هناك لهاث وصرخات. لم تكن ليلى تعلم من يصدر ذلك الضجيج. في تلك اللحظة، كانت مذهولة جداً لتلحظ أو تهتم، كانت تنتظر أن يستوعب عقلها ما فعلته يدها. وعندما أدركت ذلك، اعتقدت أنها ربما ابتسمت. أنها ربما ابتسمت ابتسامة عريضة عندما، ولدهشتها، خرج رشيد من الغرفة.

فجأة، بدا لليلى أن ذلك الضيق الجماعي لحياتهم - حياتها، حياة عزيزة، حياة مريم - قد انزاح عن كاهلهم، تبخّر كما تبخرت راحتي زلماي عن الشاشة.

بدا أن لذلك قيمة، بدا أنه من السخف تحمل كل ما عانوه إلى هذه اللحظة، وأن هذا الفعل الدفاعي سينهي كل أنواع الإذلال التي تحملوها.

لم تلحظ ليلى عودة رشيد إلى الغرفة. حتى أصبحت يده على حنجرتها. حتى ارتفعت قدماها وبدأت تركل الحائط.

بدا وجهه الساخر كبيراً بشكل لا يصدق. لاحظت ليلى أن وجهه أصبح مع السنين أكثر انتفاخاً، وكم من العروق الدقيقة انفجرت على أنفه. لم يقل رشيد شيئاً. في الواقع ما الذي سيقال، ما الفائدة من الكلام، عندما تضع مسدسك في فم زوجتك؟!

كانت الغارات السبب في وجودهما في الباحة، لتحفرا حفرة. كانت الغارات تأتي كل شهر، أو أسبوع. ومؤخراً أصبحت بشكل يومي. كان

الطالبان يصادرون الأغراض ويركلون مؤخرة شخص ما، ويضربون مؤخرة رأس أو رأسين، ولكن في بعض الأوقات كان هناك ضرب علني، ضرب بالنعال والراحات.

"بلطف" قالت مريم الآن، كانت ركبتاها على الحافة. أنزلتا التلفاز في الحفرة.كلاً منهما تمسك بطرف من الغطاء البلاستيكي الذي غلفتا به التلفاز.

"يجب أن يفي ذلك بالغرض" قالت مريم..

عندما أنجزتا العمل نفضتا الأوساخ عنهما، وطمرتا الحفرة. وبعثرتا بعض التراب حولها حتى لا تظهر للعيان.

"هناك" قالت مريم، مسحت يديها بثوبها. اتفقتا على أن يخرجا التلفاز من الحفرة عندما يصبح الجو أكثر أماناً وعندما يوقف الطالبان غاراتهم، بعد شهر أو اثنين أو ستة أشهر وربما أكثر.

في حلم ليلى، كانت هي ومريم تحفران خلف الورشة، ولكن هذه المرة كانت عزيزة هي من توضع في الحفرة. كانت أنفاس عزيزة تشكل ضباباً على الغطاء البلاستيكي الذي وضعت فيه. رأت ليلى عينيها المضطربتين، راحتيها وهي تضرب وتدفع الغطاء عنها. كانت عزيزة تتوسل. لم تستطع ليلى أن تسمع استغاثاتها. فقط لفترة، كانت تصرخ في الأسفل، فقط لفترة. إنها الغارات، ألم تعلمي يا حبي؟ عندما تنتهي الغارات ستحضر ماما وخالة مريم لنخرجك. أعدك يا حبي. وعندها نستطيع أن نلعب. نستطيع أن نلعب كما تشائين. ملأت المجرفة. استيقظت ليلى مقطوعة الأنفاس، مع طعم التراب في فمها عندما بدأت حبيبات الرمل بملامسة الغطاء البلاستيكي.

الفصل الحادي والأربعون

مريم

في صيف عام ٢٠٠٠ وصل الجفاف إلى سنته الثالثة والأسوأ.

في هلمند، زابول، قندهار، تحولت القرى إلى تجمعات من البدو تنتقل دائماً بحثاً عن الماء والمراعي الخضراء لمواشيهم. وعندما لم يجدوا كلا الأمرين، نفقت أغنامهم وماعزهم وأبقارهم، أتوا إلى كابول. واستقروا على جانب تلة كاريه ارنينا، في أحياء قذرة ومؤقتة، محشورين في أكواخ، خمسة عشر أو عشرين شخصاً في كل كوخ.

كان ذلك الصيف أيضاً صيف التايتينك، ذلك الصيف حيث كان لدى مريم وعزيزة أدوار متشابكة من اللعب والضحك، عزيزة تصر على أن تحصل على دور جاك.

"هدوء.. عزيزة جو"

"جاك! قولي اسمي، خاله مريم. قوليه. جاك!"

"سيغضب والدك إذا أيقظته"

"جاك! وأنت روز"

وينتهي الأمر ومريم على ظهرها، محاصرة، توافق ثانية على أن تكون روز.

حسن، ستكونين جاك" يرق قلب مريم." ستموتين شابة، وأنا سأعيش إلى سن متأخرة"

"نعم، ولكنني سأموت كالأبطال" قالت عزيزة، بينما أنت، روز، ستقضين حياتك التعيسة كلها تتوقين لي" ثم تقف أمام مريم وتعلن "الآن يجب أن نقبل بعضنا البعض!" تأرجح رأس مريم من جانب إلى آخر، وعزيزة مسرورة بتصرفها الماجن، تضحك من خلال شفاهها المزمومة.

بعض الأوقات كان زلماي يقف ويراقب اللعبة. ويسأل ما هو دوره؟.

"باستطاعتك أن تكون الجبل الجليدي" تقول عزيزة.

ذلك الصيف، عمّت حمى التايتنك كابول. كان الناس يهرّبون خلسة نسخات مزورة عن الفيلم من باكستان ـ بعض الأحيان في ملابسهم الداخلية. بعد حظر التجوال، كل شخص يغلق أبوابه، ويطفئ الأضواء، ويخفض الصوت ويذرف الدموع على جاك وروز وعلى المسافرين في السفينة الهالكة. إذا كان هناك كهرباء، كانت مريم وليلى والأطفال يشاهدون الفيلم أيضاً. أكثر من اثنتا عشر مرة أخرجتا التلفاز من الحفرة خلف الحظيرة في وقت متأخر من الليل، مع الأضواء المطفأة والشبابيك المغطاة باللحف.

يتجول البائعون داخل نهر كابول، وبسرعة من جوف النهر، كان من الممكن أن تشتري سجادة التايتنك، ثوب التايتنك، كان هناك تايتنك مزيل للعرق، ومعجون أسنان التايتنك. وعطر التايتنك، وحتى لباس البرقع. وبشكل خاص متسول مثابر بدأ بدعوة نفسه (متسول التايتنك).

لقد ولدت (مدينة التايتنك)

إنها الأغنية التي يرددونها.

لا، البحر. الفخامة. السفينة.

يتهامسون، إنه الجنس.

ليو قالت عزيزة بخجل، كل ذلك عن ليو.

"كل شخص يريد جاك" قالت ليلى لمريم.. ثم أردفت:

"هذا كل ما في الأمر. كل شخص يريد من جاك أن ينقذه من الكارثة. ولكن لم يعد جاك موجوداً.

جاك لن يعود. لقد مات جاك"

ثم في وقت لاحق من الصيف، غفا تاجر قماش ونسي أن يطفئ سيجارته. نجا هو من الحريق ولكن متجره لم ينج . التهمت النار متجر

القماش المجاور، ومتجر للملابس المستعملة، ومحل صغير للأثاث، ومخبز. أخبروا رشيد لاحقاً بأنه لو هبت الرياح من الشرق بدلاً من الغرب، فإن متجره الذي يقع على زاوية القطاع كان ربما قد نجا من الحريق.

لقد باعوا كل شيء.

بدؤوا أولاً بأغراض مريم، ثم ليلى، ثم ملابس عزيزة وهي صغيرة، بعض الألعاب التي تعاركت ليلى مع رشيد من أجل شرائه لها. كانت عزيزة تراقب الإجراءات بنظرة مطيعة. باعوا ساعة رشيد أيضاً، والراديو القديم، ربطتا العنق، أحذيته، وخاتم زواجه. الكنبة، الطاولة، البساط، وكذلك الكراسي. ثارت ثائرة زلماي عندما باع رشيد التلفاز.

بعد الحريق، كان رشيد يبقى في المنزل أغلب الوقت. يصفع عزيزة. ويركل مريم. يرمي الأشياء. يبحث عن شيء خاطئ بليلى، رائحتها، طريقة لباسها، الطريقة التي تسرح بها شعرها، أسنانها المصفرة.

"ما الذي حدث لك؟.. لقد تزوجت شابة، وأصبحت الآن عالقاً مع عجوز شمطاء.. إنك تصبحين مثل مريم"

طرد من مطعم للكباب قرب ساحة حاجي يعقوب لأنه تشاجر مع زبون. اشتكى الزبون أن رشيد يقذف الخبز بوقاحة على طاولته. تبادلا كلمات خشنة. لقب رشيد الزبون أنه ذو وجه قرد أوزبكي. لوح بالمسدس. وأشهر سيخ الشواء بالمقابل. حسب رواية رشيد، أمسك سيخ الشواء. كان لدى مريم شكوكها.

طرد من مطعم في تيماني لأن الزبائن اشتكت من الانتظار الطويل، قال رشيد إن الطباخ كان بطيئاً وكسولاً.

"من المحتمل أنك كنت تغفو" قالت ليلى.

"لا تثيري غضبه، ليلى جو" قالت مريم..

"إنني أحذرك يا امرأة" قال

"إما ذاك، أو أنك كنت تدخن"

"أقسم بالله"
"لا تستطيع أن تكون إلا ما أنت عليه"

عند ذلك، كان رشيد فوق ليلى، لكم صدرها مرات متتالية، رأسها، بطنها بقبضتيه. نتف شعرها، رماها على الحائط. كانت عزيزة تصرخ وتشده من قميصه، كان زلماي يصرخ أيضاً، محاولاً أن يخلص أمه. دفع رشيد الأولاد جانباً، ودفع ليلى على الأرض وتابع ركله، وركل مريم الآن، كان البصاق يتطاير من فمه، عيناه تومضان بنظرة إجرامية. بقي يركل حتى تعب.

"أقسم أنك ستدفعينني لقتلك، ليلى" قال، لاهثاً. ثم خرج بشكل عاصف من المنزل.

عندما نفذت النقود، خيم الجوع على حياتهم. لقد أذهل مريم كيف أصبح تهدئة الجوع هدف وجودهم. الأرز، مغلي وأبيض، دون لحم أو مرق، أصبح الآن عملة نادرة. كانت الوجبات تتناقص بانتظام يهدد بالخطر. بعض الأوقات، كان رشيد يجلب إلى المنزل علب سردين مع خبز هش وجاف.. طعمه كنشارة الخشب. وأحيانا، حقيبة تفاح مسروقة مع المخاطرة بقطع يده. في محلات البقالة، كان يضع في جيبه رافولي معلب يتقاسمونه على خمس حصص ويحصل زلماي على حصة الأسد. كانوا يأكلون اللفت غير المطبوخ مع الملح. وأوراق الخس الرخوة والموز المسود على العشاء.

أصبح الموت من المجاعة احتمال واضح. البعض اختار أن لا ينتظر حدوث ذلك. سمعت مريم أن أرملة في الجوار قد طحنت الخبز اليابس وخلطته مع سم الفئران وأطعمته لأبنائها السبعة. وادخرت الحصة الكبرى لنفسها.

أصبحت أضلاع عزيزة تظهر على الجلد، ووجنتاها المكتنزتان اختفتا. أصبحت ساقاها نحيلتان وأصبحت بشرتها بلون الشاي الخفيف. وعندما تحملها مريم كانت تشعر بعظام وركها على جلدها المشدود. كان زلماي يستلقي في أي مكان في البيت، العينان غائرتان ونصف

مغلقتان. أو في حضن أبيه مثل الخرقة.كان يبكي ليغفو، حين يسيطر على طاقته، لكن نومه كان متقطع وغير منتظم.

بقع بيضاء كانت تظهر أمام عيني مريم كلما وقفت، ورأسها يترنح وأذنها تطن طوال الوقت. تذكرت شيئاً اعتاد الملا فايز الله قوله عن الجوع عندما يبدأ رمضان: حتى الشخص الملدوغ من أفعى يستطيع النوم، ولكن ليس الجائع.

" سيموت أولادي" قالت ليلى..ثم أردفت: " أمام عيني"

"لن يموتوا" قالت مريم.. "لن أدعهم. ستصبح الأمور أفضل، ليلى جو، أعلم ما علي فعله"

في يوم حار، وضعت مريم برقعها وذهبت مع رشيد إلى فندق إينتركونتنتال.

كانت أجرة الباص الآن رفاهية لا تطاق. عندما وصلا أعلى التلة، كانت مريم مجهدة، تسلقا المنحدر، أصابتها نوبات من الدوخة، وكان عليها أن تتوقف مرتين منتظرة لتمر تلك النوبات.

عند مدخل الفندق حيّا رشيد أحد البوابين وعانقه، ذاك الذي كان يرتدي بذلة بورغاندي وقبعة، كان هناك بعض الصداقة بينهما من طريقة كلامهما. كان رشيد يتحدث ويده على مرفق البواب. أشار ناحية مريم ونظر كلاهما إليها نظرة قصيرة. فكرت مريم أن هناك شيئاً ما مألوفاً بشكل مبهم حول البواب.

عندما دخل البواب إلى الداخل، انتظر مريم ورشيد. من هذه النقطة المميزة، كان لدى مريم إطلالة على معهد الفنون والحرف، وخلف ذلك منطقة كاهير كاهانا القديمة والطريق إلى المزار، إلى الجنوب كانت ترى مصنع الخبز (سيلو) المهجور منذ وقت طويل، واجهته الصفراء الشاحبة مليئة بالحفر من كثرة القصف الذي طاله، إلى الجنوب البعيد كانت ترى آثار الفجوات على قصر دار الأمان، حيث كان رشيد يأخذها للنزهة منذ سنوات بعيدة. ذكرى ذلك اليوم كانت أثراً من الماضي الذي لم يعد يبدو كأنه يخصها.

ركزت مريم على تلك الأشياء، هذه العلامات. كانت تخاف أن تفقد أعصابها إذا تركت ذهنها يشرد.

كل عدة دقائق، تتوقف سيارات جيب وأجرة أمام مدخل الفندق. يندفع البوابون لتحية الراكبين وكانوا كلهم رجال، مسلحين وملتحين يرتدون العمائم، الكل يخطو بنفس الثقة بالنفس، والتهديد الاعتيادي. سمعت مريم قسماً من محادثاتهم بينما كانوا يتلاشون داخل أبواب الفندق. سمعت لهجة الباشتون، والفارسية، الأوردو والعربية أيضاً.

"تعرّفي إلى أسيادنا الحقيقيين" قال رشيد بصوت منخفض "الباكستانيون والعرب المسلمون، الطالبان هم دمى، هؤلاء هم اللاعبون الكبار وأفغانستان هي ملعبهم"

قال رشيد إنه سمع إشاعات بأن الطالبان يسمحون لهؤلاء بأن يقيموا معسكرات سرية في كل البلاد، حيث يتدرب الشبان ليصبحوا انتحاريين ومقاتلين مجاهدين.

"ما الذي أخره طويلاً"؟ قالت مريم.

بصق رشيد وركل التراب على البصاق.

بعد ساعة كانا في الداخل، مريم ورشيد يتبعان البواب. كانت أعقاب أقدامهم تطرطق على الأرضية بينما كانا يسيران عبر الردهة الباردة المنعشة. رأت مريم رجلين يجلسان على كراسي جلدية، مسلحان وطاولة قهوة بينهما يرتشفان الشاي ويأكلان من صحن فيه جيلابي مغطاة بالقطر، على شكل دوائر منثور عليها السكر الناعم. فكرت بعزيزة التي تحب الجيلابي وأبعدت نظرها. قادهما البواب إلى شرفة خارجية. أخرج من جيبه هاتف أسود صغير لا سلكي وقصاصة من الورق مدون عليها رقم. أخبر رشيد بأنه هاتفه الخارق الفضائي.

"حصلت لك على خمسٍ دقائق" قال: "لا مزيد"

أومأ البواب ومشى مبتعداً. اتصل رشيد وأعطى الهاتف لمريم.

بينما كانت تستمع إلى الرنين المشوش، عاد ذهنها إلى المرة الأخيرة التي رأت فيها جليل منذ ثلاثة عشرة عاماً، في ربيع عام ١٩٨٧. كان

يقف في الشارع خارج منزلها. يتكئ على عصا قرب سيارة البينز الزرقاء والتي عليها رخصة هيرات والخط الأبيض الذي يقسم السقف، المقدمة، والصندوق. وقف هناك لساعات ينتظرها، ومن حين لآخر ينادي اسمها، كما فعلت هي مرة، حين كانت تنادي اسمه خارج منزله. رفعت مريم الستائر قليلاً ولمحته. فقط نظرة خاطفة ولكنها كافية لترى أن شعره قد أصبح أبيض وأنه انحنى. كان يرتدي نظارات، ربطة عنق حمراء كما كان دائماً. والمنديل الأبيض المعتاد في جيب صدره، الذي لفت انتباهها أكثر أنه كان أكثر نحافة، أكثر نحافة مما تتذكر. كان معطف بدلته البنية الغامقة يتدلى على كتفيه، والبنطال يتجمع عند كاحليه. رآها جليل أيضاً، حتى ولو لدقيقة. التقت عيناهما من خلال القسم المفتوح من الستائر، كما التقيا منذ سنوات من خلال ستائر أخرى. ولكن حينها أغلقت مريم الستائر بسرعة. جلست على السرير منتظرة أن يرحل.

فكرت الآن بالرسالة التي تركها أخيراً عند الباب. احتفظت بها لأيام تحت وسادتها، تلتقطها من حين لآخر تقلبها بين يديها. في النهاية مزقتها دون أن تفتحها.

والآن ها هي هنا، بعد كل تلك السنوات، تتصل به.

ندمت مريم على حمقها، وكبريائها الشاب الآن. تمنت الآن لو أنها تركته يدخل. ما الضرر في أن تجلس معه، وتدعه يقول الذي جاء من أجله؟ لقد كان والدها، لم يكن أباً جيداً، تلك حقيقة، ولكن كم بدت أخطاؤه عادية الآن، وكم هي مغفورة عندما تقارنه بحقد رشيد، أو بالوحشية والعنف الذي رأته من رجال يمارسونه ضد بعضهم.

تمنت لو أنها لم تمزق رسالته.

تكلم صوت رجل في أذنها وأخبرها بأنها اتصلت بمكتب العمدة في هيرات. تنحنحت مريم. "سلام، أخي إنني أبحث عن شخص ما عاش في هيرات، أو كان كذلك منذ سنوات عديدة. اسمه جليل خان. عاش في شار أي نيو وكان يمتلك سينما. هل لديك أي معلومات عن مكانه"؟

كان الانزعاج واضحاً في صوت الرجل "بسبب ذلك اتصلت بمكتب العمدة"؟

قالت مريم بأنها لا تعرف شخصاً آخر تتصل به.

"سامحني، أخي. أعلم أن لديك أشياء أخرى تهتم بها، لكنها مسألة حياة أو موت، إنه سؤال حياة أو موت لذلك أتصل"

"لا أعرفه، لقد أغلقت السينما منذ سنوات"

"ربما كان هناك شخص ما قد يعرفه، شخص ما..."

"لا يوجد أحد"

أغلقت مريم عينيها.

"أرجوك يا أخي. هناك أطفال في ورطة، أطفال صغار"

تنهيدة طويلة.

"ربما يوجد شخص ما..."

"يوجد هنا بستاني. أعتقد أنه عاش طوال حياته هنا"

"اتصلي غداً"

قالت مريم:

"أنا لا أستطيع. لدي هذا الهاتف لخمس دقائق فقط. أستطيع..."

كانت هناك طقطقة على الجانب الآخر واعتقدت مريم أنه أغلق الخط. ولكنها استطاعت أن تسمع وقع أقدام، وأصوات، بوق سيارة بعيد، وطنين آلة يتقاطع مع الطقطقة، ربما مروحة كهربائية. نقلت الهاتف إلى أذنها الثانية، وأغلقت عينيها.

تخيلت جليل يبتسم، يمد يده إلى جيبه.

آه، بالطبع. حسناً. إذاً. دون إطالة...

قلادة على شكل أوراق الشجر، وعملات رقيقة محفور عليها نجوم وأقمار تتدلى منها.

جربيها مريم جو.

ما رأيك؟

أعتقد أنك تبدين كملكة.

مرت عدة دقائق ثم وقع أقدام، صوت صرير وطقطقة "إنه يعرفه"

"يعرفه"؟!!

"هذا ما قاله"

"أين هو.. هل يعرف هذا الرجل أين جليل خان"؟

كان هناك صمت.

"يقول أنه توفي منذ سنوات، في عام ١٩٨٧"

شيء ما سقط في معدتها. بالطبع لقد حسبت الاحتمالات، كان جليل في أواخر السبعينات من عمره الآن، ولكن...

.١٩٨٧

كان يحتضر وقتها. قاد طوال الطريق من هيرات ليقول الوداع. تحركت إلى حافة الشرفة، من هنا، كانت ترى بركة السباحة للفندق التي كانت مرة مشهورة. الآن فارغة وقذرة، وفتحات الرصاص والقرميد المشروخ. وكان هناك ملعب تنس، كانت الشبكة تتدلى رخوة في منتصفه مثل الجلد الميت الذي تخلعه الأفعى.

"علي أن أذهب الآن" قال الصوت في الجانب الآخر..

"آسفة لإزعاجك" قالت مريم، وهي تبكي بصمت على الهاتف. رأت جليل يلوح لها، يقفز من حجر إلى آخر بينما يجتاز الجدول، جيوبه منتفخة بالهدايا. كل الأوقات التي أمسكت بأنفاسها لأجله، لأجل أن يمنحها الله المزيد من الوقت معه.

"شكراً" قالت مريم، ولكن الرجل في الجانب الآخر كان قد أغلق الخط.

كان رشيد ينظر إليها. هزت مريم برأسها

"دون جدوى" قال، منتزعاً الهاتف منها

"شبه ابنة، وشبه أب"

في طريقهما إلى خارج الردهة، مشى رشيد سريعاً إلى طاولة القهوة، التي كانت مهجورة الآن، ووضع في جيبه القطعة الأخيرة من الزلابي. أخذها إلى البيت وأعطاها لزلماي.

الفصل الثاني والأربعون

ليلى

في كيس ورقي، وضعت عزيزة أشياء عدة: زوجا الجوارب الوحيد، قميصها المزهر، قفازيها الصوفيين غير المتطابقين، بطانيتها ذات اللون الأخضر الفاتح المرقطة بالنجوم والمذنبات، فنجانها البلاستيكي المشروخ. موزة مع مجموعة النرد.

في صباح بارد من شهر نيسان عام ٢٠٠١، وقبل أن تبلغ ليلى الثالثة والعشرين من عمرها، كانت السماء رمادية شفافة آنذاك، والريح الباردة تطرق باب المنخل، مع هبات من الرطوبة.

كان ذلك بعد أيام قليلة من سماع ليلى أن أحمد شاه مسعود قد ذهب إلى فرنسا وتحدث إلى البرلمان الأوروبي. والآن، مسعود في الشمال ويقود الاتحاد الشمالي، الجماعة الوحيدة المعارضة التي مازالت تقاتل طالبان.

في أوروبا، حذر مسعود الغرب من معسكر الإرهابيين في أفغانستان، وطلب من الأمم المتحدة أن تساعده في قتاله ضد طالبان.

"إذا لم يساعدنا الرئيس بوش، فإن هؤلاء الإرهابيين سيلحقون الأذى بالأمم المتحدة وأوروبا قريباً جداً". كما قال مسعود..

قبل شهر من ذلك، سمعت ليلى أن طالبان قد زرعت متفجرات في شقوق تمثالي بوذا العملاقين في باميان وفجروه، بحجة أن التماثيل عبادة للأوثان.. وخطيئة.

كانت هناك مناشدات من كل مكان في العالم، من الأمم المتحدة.. إلى الصين. حكومات، مؤرخون، علماء آثار من كامل الكرة الأرضية، جميعهم كتبوا رسائل يتوسلون طالبان ألا تقوض هذين الأثرين العظيمين في أفغانستان. ولكن طالبان وضعت متفجراتها داخل

ألفي سنة، يعبر عنها التمثالان. وصرخوا "الله أكبر" مع كل انفجار، مبتهجين في كل مرة يفقد فيها أحد التمثالين يداً أو رجلاً.. ومع كل سحابة من الغبار. تذكرت ليلى وقوفها على رأس أكبر التمثالين مع طارق وبابي عام ١٩٨٧، كان النسيم يلفح وجوههم المضاءة بنور الشمس آنذاك. ويراقبون نسراً يحوم فوق الأرض المنبسطة للوادي.

ولكن عندما سمعت الأخبار، كانت ليلى مخدرة، بدا وكأن الأمر لا يستحق. كيف لها أن تهتم بأمر التمثالين بينما حياتها قد نسفت وأصبحت كالغبار؟

إلى أن قال لها رشيد أن موعد الذهاب قد حان، فجلست على الأرض في زاوية غرفة الجلوس، دون أن تتكلم ووجهها متحجر. شعرها يتدلى حول وجهها. ومهما تنفست، بدا لليلى أنها لا تستطيع ملء رئتيها بهواء كاف.

في الطريق إلى كارتيه ـ سيه، تقافز زلماي بين ذراعي رشيد، وليلى ممسكة بذراع عزيزة بينما كانت مريم تمشي مسرعة بجانبهما. الريح تلعب بالشال القذر على عنق عزيزة مموجاً حافة ثوبها، عزيزة أكثر وجوماً الآن، ولا يزال إحساسها بكل خطوة أنها خدعت. لم تجد ليلى القوة لإخبار عزيزة الحقيقة. أخبرتها أنها ذاهبة إلى مدرسة، مدرسة خارجية حيث الأولاد يأكلون وينامون، لكنهم لا يعودون إلى البيت بعد انتهاء الصفوف. وظلّت عزيزة ترشق ليلى بنفس الأسئلة التي كانت تسألها منذ عدة أيام.

هل ينال الطلاب غرف مختلفة أم أن الجميع في غرفة كبيرة؟ هل ستجد أصدقاء؟ هل كانت، ليلى، أكيدة أن المدرسين سيكونون لطفاء؟

وأكثر من مرة، كم من الوقت علي أن أبقى؟!!

توقفوا على بعد شارعين من المبنى، الذي بنيَ على طريقة مهاجع الجنود.

"زلماي وأنا سننتظر هنا" قال رشيد.. "آه، قبل أن أنسى..."

أخرج من جيبه عوداً من العلكة، هدية فراق، وأعطاها لعزيزة ببرود. نظرت عزيزة إليه وتمتمت: شكراً لك. أعجبت ليلى بلياقتها، وقدرتها الواسعة على الغفران، فامتلأت عيناها بالدموع. لقد كان الحزن يعتصر قلبها من فكرة أن غروب هذا اليوم لن تنام عزيزة بجانبها، ولن تشعر بيدها الخفيفة على صدرها، ورأسها المنحني يضغط على أضلاعها، أنفاسها التي تُدفئ عنقها، وعقبا قدماها يخزان بطنها. عندما اقتادت عزيزة بعيداً، بدأ زلماي بالصراخ والبكاء، زيزا! زيزا!. كان يتلوى ويركل بين ذراعي والده، ينادي على أخته، حتى جَذب انتباهه قرد قبالة الشارع. سرن المبنيين المتبقيين لوحدهنّ، مريم، ليلى وعزيزة. وعندما وصلن إلى المبنى، رأت ليلى واجهته المتشظية وسقفه المقوس، ألواح الخشب التي ثبتت على النوافذ، أعلى الأرجوحة المثبتة على حائط متهدم.

توقفن عند الباب، وأعادت ليلى على عزيزة ما قالته لها مبكراً.

"وإذا سألوك عن والدك، ما الذي ستقولينه"؟

"قتله المجاهدون" قالت عزيزة، بقي فمها مفتوحاً بحذر.

"جيد، عزيزة، هل فهمت؟"

"لأن هذه المدرسة خاصة".. قالت عزيزة.

الآن.. بينما كنّ هنا، والمبنى أصبح واقعاً، بدت مرتجفة. شفتها السفلى ترتجف وعيناها تنبئان بالدموع، ورأت ليلى كم كان صعباً أن تكافح لتبقى شجاعة.

"إذا قلنا لهم الحقيقة" قالت عزيزة بصوت رفيع.. ثم أردفت:

"سوف لن يقبلونني، إنها مدرسة خاصة، أريد الذهاب إلى البيت"

"سأزورك طوال الوقت" قالت ليلى.. "أعدك".

"وأنا أيضاً".. قالت مريم.. ثم أردفت:

"سوف نأتي لنراك عزيزة جو، وسنلعب معك، تماماً مثلما اعتدنا، هذا فقط لوقت قصير، حتى يجد والدك عملاً"

"لديهم طعام هنا" قالت ليلى بارتعاشٍ. كانت مسرورة لأنها ترتدي البرقع، لأن عزيزة لا تستطيع أن ترى تَكسّرها من الداخل.
"هنا، لن تشعري بالجوع. لديهم الأرز، الخبز والماء، وربما الفواكه"
"ولكنك لن تكوني هنا. وخالة مريم لن تكون معي"
"سآتي لأراك".. قالت ليلى، ثم أردفت:
"كل الوقت. انظري إلي عزيزة. سآتي وأراك. إنني أمك، حتى لو قتلني ذلك، سوف آتي وأراك"
كان مدير الميتم رجل منحني الظهر، صدر ضيق ووجه ذو ملامح مبهجة، كان أصلعاً، لديه لحية خشنة، وعينان كحبتي فاصوليا. اسمه زمان، يرتدي قلنسوة، والعدسة اليسرى لنظارته مكسورة.
بينما كان يقودهم إلى مكتبه، سأل ليلى ومريم عن اسميهما، وسأل عن اسم عزيزة أيضاً.. وعمرها. مروا خلال ممشى قليل الإضاءة حيث كان الأولاد الحفاة يخرجون ويتفرجون. كانت رؤوسهم إما مشعّثة أو حليقة. يرتدون كنزات بالية الأكمام، وجِنزات مرقعة عند الركب، ومعاطف مثقوبة. شمت ليلى رائحة الصابون والتالك، النشادر والبول، وانتبهت إلى عزيزة التي كانت تنشج.
ألقت ليلى نظرة على الباحة: أرجوحة على وشك الانهيار، إطارات قديمة وكرة سلة مفرغة. كانت الغرف التي مروا بها عارية، النوافذ مغطاة بأغطية بلاستيكية. اندفع صبي من إحدى الغرف وشد مرفق ليلى، وحاول تسلق ذراعها. خادم، كان ينظف ما بدا أنه بركة من البول، وضع ممسحته وأبعد الفتى.
بدا زمان لطيفاً بالتعامل مع الأيتام دون تنازل. ربت رؤوس البعض بينما كان يمر، قائلاً كلمة ودية أو اثنتين. لعب بشعرهم، رحب الأولاد بلمسته، كانوا كلهم ينظرون إليه، جعل هذا ليلى تأمل بأن يقبل بعزيزة.
أدخلهم إلى مكتبه، غرفة بثلاثة كراسي فقط، مكتب غير منظم وأكوام من الأوراق المبعثرة عليه.

"أنت من هيرات" قال زمان لمريم.. " أستطيع المعرفة من لهجتك"

اتكأ على كرسيه وشابك يديه على بطنه، وقال إن أخ زوجته كان يعيش هناك. رغم هذه الملامح العادية، لاحظت ليلى بعض الإرهاق في حركاته. كان يبتسم بإعياء، شعرت ليلى بشيء مضطرب ومجروح تحت هذا المظهر. خيبة أمل وهزيمة مغطاة بحس جيد بالدعابة.

"كان صانع زجاج" قال زمان.. "صنع هاتين البجعتين الجميلتين من اليشب الأخضر. إذا عرضتهما لأشعة الشمس فإنهما يشعان من الداخل، كالكأس المليء بالجواهر الصغيرة. هل عدت إلى هناك؟"

قالت مريم أنها لم تفعل.

"إنني من قندهار. هل زرت قندهار، هامشيرا؟ لا؟ إنها جميلة. ياللحدائق! والعنب! أوه، العنب. كيف يذوب في الفم"

تجمع بعض الأولاد عند الباب، كانوا يختلسون النظر إلى الداخل. طردهم زمان بلطف، بالباشتو.

"بالطبع أحب هيرات أيضاً. مدينة الفنانين والكتاب، المتصوفين والروحانيين. تعلمين القصة القديمة، أنك لا تستطيعين أن تمدي رجلاً في هيرات دون أن تخزي شاعراً في مؤخرته"

بجانب ليلى، شخرت عزيزة.

تظاهر زمان بالضحك..

"آه، الآن. جعلتك تضحكين، هامشيرا الصغيرة. عادة هذا هو الجزء الصعب.

كنت قلقاً، هناك، لبعض الوقت. اعتقدت أن هناك صوت قرقرة دجاجة أو حمار. ولكن. ها أنت. وكم أنت لطيفة"

تعمد أن ينظر إلى عزيزة لعدة لحظات. فقفزت عزيزة إلى حضن مريم.

"سنتحدث فقط، يا حبي" قالت ليلى.. ثم أردفت:

"سأكون هنا. حسناً؟ سأكون هنا"

"لماذا لا نخرج لدقيقة، عزيزة جو"؟ قالت مريم.. "أمك ستتكلم مع العم زمان هنا، فقط لدقيقة. الآن تعالي"

عندما أصبحا وحيدين، سأل زمان عن تاريخ ولادة عزيزة، وعن تاريخ أمراضها، عن الحساسية، وسأل عن والد عزيزة، وحظيت ليلى بتجربةٍ غريبة من قول كذبة كانت فعلاً هي الحقيقة. أصغى زمان، مظهراً عدم تصديق أو تكذيب في آن. أدار الميتم بطريقة شريفة، قال. إذا قالت أخت إن زوجها قد مات وإنها لا تستطيع الاهتمام بطفلها، فإنه لا يسألها.

بدأت ليلى بالبكاء.

وضع زمان قلمه جانباً.

"إنني خجلة" قالت ليلى.. كانت راحة يدها تضغط على فمها.

"انظري إلي يا سيدتي"

"ما هي الأم التي تتخلى عن طفلها"؟

"انظري إلي"

رفعت ليلى نظرها.

"ليس هذا خطؤك. هل تسمعيني؟ ليست غلطتك. إنها غلطة هؤلاء المتوحشين، عليهم يقع اللوم. لقد جلبوا العار علي كباشتوني. لقد دنسوا اسم شعبي. وأنت لست وحدك، هامشيرا. هناك أمهات مثلك كل الوقت ـ كل الوقت ـ أمهات يأتين إلى هنا لعدم استطاعتهنّ إطعام أطفالهنّ، بما أن طالبان لا تسمح لهن بالخروج والعمل، فلا تلومي نفسك. لا أحد هنا يلومك. إني أتفهم"

عاد للوراء.. "هامشيرا، إنني أتفهمك"

مسحت ليلى عينيها ببرقعها.

"بالنسبة إلى هذا المكان" تنهد زمان، مشيراً بيده..

"تستطيعين أن تري أنها حالة رهيبة. نحن دائماً دون تمويل، دائماً هناك ازدحام، ودائما هناك ارتجال. نحصل على القليل أو لاشيء من طالبان. ولكن نتدبر الأمر. مثلك، نقوم بما يتوجب علينا، الله خيّر

ولطيف، والله يعطي، و، وطالما هو يعطي، فإنني سأحرص على أن تُطعَم عزيزة وتَلبس، أعِدك بهذا القدر".

أومأت ليلى: "حسناً؟"

كان يبتسم بود: "ولكن لا تبكي، هامشيرا. لا تدعيها تراك تبكين"

مسحت ليلى عينيها ثانية: "ليباركك الله" قالت بضعف..

"بارك الله فيك يا أخي"

ولكن عندما حان وقت الوداع، انفجر الوضع تماماً كما توقعت ليلى.

ذُعِرت عزيزة.

طوال الطريق إلى المنزل، متكئة على مريم، سمعت ليلى صراخ عزيزة الحاد. في رأسها، رأت يدي زمان السميكتين تطبقان على ذراعي عزيزة، رأتهما يسحبانها، بلطف في البداية، ثم أقسى، ثم بالقوة لينتزع عزيزة منها. رأت عزيزة تركل بين يدي زمان بينما كان ينعطف عند الزاوية مستعجلاً، سمعت صراخ عزيزة كما لو أنها على وشك الاختفاء عن وجه الأرض. رأت ليلى نفسها تركض في الممشى ورأسها منحني وصرخة تتجمع في حنجرتها.

"إنني أشمها".. أخبرت مريم في المنزل. كانت عيناها تهيمان فوق كتفي مريم، تعبران الباحة، الجدران، إلى الجبال البنية، مثل بصاق المدخن.

"إنني أشم رائحة نومها. وأنت؟ هل تشمين ذلك؟"

"آه، ليلى جو" قالت مريم.. "لا تفعلي، ما الجيد في هذا؟ ما الجيد؟"

في البداية، رأف رشيد بليلى، واصطحبهم ـ هي، مريم وزلماي ـ إلى الميتم، رغم أنه حرص، بينما كانوا يمشون، أن تكون عينها مليئة بنظراته الحزينة، وأذنها مليئة بادعاءاته عن الصعوبة التي تضعه فيها. كم هو سيء حال رجليه، ظهره وقدميه، ألمه وهم يمشون من وإلى الميتم. لقد حرص على أن تدرك كم كان برماً بذلك!!

"لم أعد شاباً بعد الآن" قال.. "أنت لا تهتمين، كنتِ قطعت على جسمي المرمي في الأرض لو كان لديك حل آخر، لكنك لا تملكينه يا ليلى، لا تملكين طريقك"

تفرقوا على بعد شارعين من المبنى، ولم يمنحهما أبداً أكثر من خمسة عشر دقيقة.

"دقيقة تأخير" قال.. " وسأذهب، إني أعني ذلك"

كان على ليلى أن تلح عليه، تتوسله، ليطيل المدة مع عزيزة أكثر بقليل. من أجلها ومن أجل مريم، التي كانت حزينة على غياب عزيزة، لذلك، كما دائماً، اختارت مريم أن تدفن معاناتها بخصوصية وبهدوء. ومن أجل زلماي أيضاً، الذي يسأل عن أخته كل يوم، والذي ينفجر في نوبات من الغضب تذوب أحياناً في نوبات بكاء لا يمكن عزاؤها.

في بعض الأوقات، في الطريق إلى الميتم، يتوقف رشيد ويشتكي من ألم في رجليه، ثم يستدير ويمشي عائداً إلى المنزل، بثبات وخطى واسعة دون عرج ملحوظ. أو يطرقع بلسانه ويقول: "إنها رئتي، ليلى. إنني ألهث. ربما غداً سأكون أحسن حالاً، أو في اليوم الذي يليه. سنرى".. لم يزعج نفسه يوماً بافتعال لهاث واحد. غالباً، يلتفت ويسير إلى المنزل، يشعل سيجارة. وتضطر ليلى أن تتبعه إلى المنزل، عاجزة، ترتجف من الاستياء والغيظ العظيم.

ثم، في أحد الأيام، أخبر ليلى أنه لن يأخذها بعد الآن:

"إنني تعب جداً من السير في الشوارع كل اليوم".. قال ثم أردف: "باحثاً عن عمل"

"إذاً، سوف أذهب لوحدي" قالت ليلى.. "لا يمكنك أن تمنعني رشيد. هل تسمع؟ باستطاعتك أن تضربني قدر ما تشاء، ولكنني سأستمر بالذهاب إلى هناك"

"افعلي ما تريدين. لكنك لن تستطيعي أن تتجاوزي طالبان. لا تقولي إني لم أحذرك"

"سآتي معك" قالت مريم.

لم تكن ليلى لتسمح بذلك: "يجب أن تبقي في المنزل مع زلماي. إذا منعونا... لا أريده أن يرى ذلك"

وهكذا تحولت حياة ليلى فجأة إلى إيجاد طرق لرؤية عزيزة. نصف المرات لم تستطع أن تجد طريقها إلى الميتم. كانت تجتاز الشوارع فيلاحظها طالبان ويمطروها بالأسئلة - ما هو اسمك؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ لماذا أنت بمفردك؟ أين محرمك؟ وقبل أن تُرسل إلى البيت، إن كانت محظوظة، كانت تسمع تعليقات لاذعة أو ركلة على قفاها، أو دفعة في ظهرها. مراتٍ أخرى، كانت تتلقي ضربات عِصي، أغصان أشجار منزوعة حديثاً، أسواط قصيرة، صفعات، وغالباً لكمات.

أحد الأيام، ضرب طالباني شاب ليلى (بأنتين) الراديو، وعندما انتهى، ضربها ضربة أخرى على مؤخرة عنقها، وقال: "إذا رأيتك ثانية، سوف أضربك حتى ينز حليب أمك من عظامك"

في تلك المرة، عادت ليلى إلى المنزل، استلقت على معدتها، شاعرة أنها حيوان غبي يرثى له، كانت تئن بينما مريم تضع ضمادات من الثياب على ظهرها النازف وأردافها. ولكن، عادة كانت ليلى ترفض أن تخنع، وتتظاهر بأنها ذاهبة إلى البيت، ثم تسلك طريقاً آخر. بعض الأحيان يُمسك بها، وتُسأل، تُوبخ - مرتين، ثلاث، وحتى أربع مرات في اليوم الواحد. ثم يأتي دور الجلد، ويلوح بالأنتين في الهواء. تمشي متثاقلة إلى المنزل، نازفة، دون حتى لمحة من عزيزة. بعد وقت قصير، بدأت ليلى ترتدي ملابس إضافية، حتى في الحر، كنزتين أو ثلاث تحت البرقع، لتحمي نفسها من الضرب.

ولكن بالنسبة لليلى، كانت الجائزة تستحق ذلك، إذا استطاعت تجاوز طالبان. كان باستطاعتها قضاء ما تريد من وقت عندئذ - ساعات - مع عزيزة. كانتا تجلسان في الحديقة، قرب الأرجوحة، بين الأولاد والأمهات الزائرات، وتتحدثان عما تعلمته عزيزة في ذلك الأسبوع. قالت عزيزة إن العم زمان أخذ على عاتقه مهمة تعليمهم شيئاً ما في

كل يوم، القراءة والكتابة في أغلب الأيام، في بعض الأوقات، الجغرافيا، القليل من التاريخ أو العلوم، بعض الأوقات عن النباتات والحيوانات.

"ولكن علينا أن نغلق الستائر" قالت عزيزة.. ثم أردفت: "حتى لا يرانا طالبان"

كان العم زمان يجهز إبراً وكرات صوف للحياكة، قالت في حال فتش الطالبان "نضع الكتب جانباً ونتظاهر أننا نُحيك"

في أحد الأيام، خلال زيارة لعزيزة، رأت ليلى امرأة في منتصف العمر، كان برقعها مرفوعاً، تزور ثلاثة صبيان وبنت. تعرّفت ليلى على وجهها الحاد، الحواجب الكثيفة، رغم الفم الغائر والشعر الرمادي. تذكرت الشالات، التنانير السوداء، الصوت المقتضب، كيف كانت ترفع شعرها الأسود الفاحم، على شكل كعكة. وكيف كانت تظهر الخصلات السوداء على قفا رقبتها.

تذكرت ليلى هذه المرأة كيف كانت مرة تمنع الطالبات الإناث من أن تتحجب، قائلة بأن النساء والرجال متساوين، وأنه ليس هناك سبب للحجاب، فمازال الرجال لا يفعلون.

في لحظة، رفعت خالة رانغ مال نظرها والتقت بنظرتها، ولكن ليلى رأت أنه لا فائدة من النظر أكثر من ذلك، لأنها لم ترَ أي بريق معرفة في عيني معلمتها القديمة.

"إنها انكسارات على طول قشرة الأرض" قالت عزيزة. "يطلق عليهم اسم تشققات"

كان اليوم دافئ، بعد ظهيرة يوم الجمعة في حزيران عام ٢٠٠١.

كانوا يجلسون في الأرض الخلفية للميتم، أربعتهم، ليلى، زلماي، مريم وعزيزة. رق قلب رشيد هذه المرة ـ وهو شيء نادر ـ واصطحبهم كلهم. كان ينتظر في الشارع عند موقف الباص.

كان هناك صبية حفاة يتراكضون حولهم. وكرة قدم مسطحة تُركل، وتُلاحق بشكل متواصل.

"وعلى الجانب الآخر من التشققات هناك طبقات من الصخور لصنع القشرة الأرضية" كانت عزيزة تقول.

أحد ما رفع شعر عزيزة عن وجهها وضفره، وثبته على قمة رأسها.كانت ليلى تحسد الذي كان يجلس خلف ابنتها ويضفر شعرها ويسألها أن تبقى ثابتة.

كانت عزيزة تبرهن بيديها المفتوحتين، وراحتيها إلى الأعلى، تفركهما ببعضهما البعض. كان زلماي يراقب ذلك باهتمام.

"طبقات كيتونية، يطلق عليهم؟"

"تكتونية".. قالت ليلى. كان يؤلمها أن تتكلم. يؤلمها فكها عندما يتحرك، ظهرها ورقبتها. شفتاها مورمتان، ولسانها بقي يبحث عن القاطعين اللذين كسرهما رشيد قبل يومين.

قبل وفاة بابي ومامي وانقلاب حياتها رأساً على عقب، لم تكن ليلى لتصدق بأن جسم الإنسان قد يتحمل هذا القدر من الضرب، بهذه الطريقة الشريرة، والمنظمة.. ويبقى يعمل.

"حسناً. وعندما ينزلقون متجاوزين بعضهم البعض، ويلتقون ـ هل ترين مامي؟ ـ وهذا يطلق طاقة، تسافر إلى سطح الأرض وتجعلها تهتز"

"لقد أصبحت ذكية جداً" قالت مريم.. "ذكية جداً أكثر من خالتك الغبية"

توهج وجه عزيزة.

"لست غبية، خالة مريم. والعم زمان يقول ذلك، بعض الأوقات، تغيرات توضع الصخور تكون عميقة، عميقة في الأسفل، فتصبح هذه التغيرات قوية ومخيفة في الأسفل هناك، ولكن كل ما نشعر به على السطح هو الاهتزاز البسيط. فقط اهتزاز بسيط"

الزيارة التي سبقت هذه، كانت ذرات الأكسجين في الغلاف الجوي تنشر الضوء الأزرق من الشمس. لو أن الأرض لا تملك غلافاً جوياً، قالت عزيزة وأنفاسها منقطعة قليلاً، لما كانت السماء زرقاء أبداً فقط بحر من السواد القاتم والشمس عبارة عن نجم كبير لامع في الظلام.

"هل ستأتي عزيزة معنا إلى المنزل هذه المرة"؟ قال زلماي.
"قريباً، يا حبي" قالت ليلى... "قريباً"

راقبته ليلى وهو يتجول، يمشي مثل والده، ينحني إلى الأمام، على أصابع قدميه. ذهب إلى الأرجوحة، ودفع مقعداً فارغاً، وانتهى به الأمر جالساً على الأرض الصلبة، ممزقاً الأعشاب من صدع.

يتبخر الماء من الأوراق - مامي، هل تعلمين؟ - بنفس الطريقة التي يتبخر بها من الغسيل المنشور على الحبل. وهذا يجعل الماء يرتفع في الشجرة. من الأرض عبر الجذور، ثم إلى جذع الشجرة، إلى الأغصان ثم إلى الأوراق. وذلك يدعى عملية النسغ.

أكثر من مرة تساءلت ليلى ما الذي يفعله الطالبان بدروس العم زمان إذا اكتشفوا الأمر.

خلال الزيارات، كانت عزيزة لا تسمح بالسكون كثيراً. كانت تملأ كل الفراغات بكلام متدفق، عالي النغمة. كانت تطرح مواضيعها وتستخدم يديها كثيرا، تطيّرهما بحركات عصبية لا تشبهها أبداً. وكان لديها ضحكة جديدة، ليست تماماً ضحكة، بالحقيقة، هي أقرب إلى وقفات عصبية، تعني، شكوى ربما.. في سبيل الحصول على الثقة.

كانت هناك تغيرات أخرى. لاحظت ليلى الوسخ تحت أظافر عزيزة، ولاحظت عزيزة أنها رأت ذلك فوضعت يديها بين فخذيها. كلما بكى طفل بالقرب منهم، أو سال أنفه، أو مر طفل عارياً، بشعر متسخ، كانت أجفان عزيزة ترف وتسرع إلى شرح ذلك. كانت مثل المضيفة المُحرَجَة بين ضيوفها من قذارة بيتها، وعدم ترتيب أولادها.

كانت الأسئلة حول تدبر أمورها، تُجابه بردود غامضة لكنها مبتهجة؟

أنا بخير، خالة. أنا بخير.
"هل يضايقك الأولاد"؟
"لا يضايقونني، مامي. كل الموجودين لطفاء"
"هل تأكلين؟ وتنامين جيداً؟"

"آكل وأنام أيضاً. نعم. ليلة البارحة أكلنا لحم غنم. ربما كان الأسبوع الماضي"

عندما تتكلم عزيزة هكذا، كانت ليلى ترى كثيراً من طبع مريم فيها.

كانت عزيزة تتلعثم الآن. لاحظت مريم ذلك أولاً. كان صعب التحديد لكنه ملحوظ، ويظهر أكثر في الكلمات التي تبدأ بحرف التاء. سألت ليلى زمان عن ذلك. عبس وقال: "ظننت أنها تتكلم هكذاً دائماً"

غادروا الميتم مع عزيزة عصر يوم الجمعة لنزهة قصيرة والتقوا برشيد، الذي كان ينتظرهم عند موقف الباص. عندما لاحظ زلماي والده، أطلق صرخة وبدون صبر تلوى من بين يدي ليلى. كان ترحيب عزيزة برشيد لبقاً.. لكنه عدائياً.

قال رشيد بأنهم يجب أن يسرعوا، لديه ساعتين قبل أن يعود إلى العمل. كان ذلك الأسبوع الأول لعمله كبواب في الفندق الإنتركونتينال. من الظهر حتى الساعة الثامنة، ستة أيام في الأسبوع، رشيد يفتح أبواب السيارات ويحمل الأمتعة، ويمسح الأرض. بعض الأوقات في نهاية الأسبوع، كان الطباخ في مطعم البوفيه يسمح لرشيد أن يأخذ بعض بقايا الطعام ـ طالما يبقى كتوماً بهذا الشأن ـ كرات اللحم الباردة المقلية بالزيت، أجنحة الدجاج المقلية، الخبز القاسي والجاف: الباستا المحشوة التي أصبحت صعبة المضغ، ، تعجن من جديد. أرز حصوي. وعد رشيد ليلى بأنه حين يصبح لديه بعض المال مدخراً، تستطيع عزيزة العودة إلى المنزل.

كان رشيد يرتدي زيه. بزة بورغاندي حمراء من البوليستر، قميص أبيض، ربطة عنق، وقبعة ضاغطة على شعره الأبيض. في زيه هذا، كان رشيد يبدو مختلفاً، بدا قابلاً للعطب، يرثى له بشكل مذهل وتقريباً غير مؤذٍ. كالشخص الذي يتقبل دون تنهيدة، احتجاج

إذلالات الحياة التي ملأته بالحزن. شخص مثير للشفقة ويدعو للإعجاب بليونته مع الحياة.

استقلوا الباص لمدينة التايتانيك. مشوا على حواف النهر المحاطة من كلا الجانبين بأكشاك على الضفاف الجافة. قربِ الجسر، بينما كانوا يهبطون الدرجات، تدلى رجل عاري القدمين ميتاً من آلة الرفع الخاصة بالموانئ، أذناه مقطوعتان، رقبته ملوية عند نهاية الحبل. في النهر، ذابوا في حشد المتبضعين، محولي العملة وعمال الـ (NGO) البادي عليهم الضجر، و بائعي السجائر المتجولين، النساء المحجبات المتدافعات بوصفات طبية زائفة على الناس.. يتوسلن إعطاءهن ما يكفيهن من المال. الطالبانيون يطرقعون بالأسواط، يمضغون الناسوار ويدورون مدينة التايتانيك بحثاً عن ضحكة غير لائقة، أو وجه غير مغطى.

من كشك ألعاب، بين بائع معاطف بوستين متجول و ستاند أزهار اصطناعية، أخذ زلماي كرة سلة ذات دوائر صفراء وزرقاء.

"اختاري شيئاً" قال رشيد لعزيزة.

ترددت عزيزة، وتصلبت من الإحراج.

"أسرعي، علي أن أكون في العمل خلال ساعة"

اختارت عزيزة لعبة تطلق كراتاً من العلكة، نفس الآلة التي تدخل فيها قطعة نقود معدنية لتحصل على الحلوى، ثم تسترد البقية من باب متحرك في الأسفل.

ارتفع حاجبا رشيد عندما صدمه البائع بالسعر. جولة من المساومة، بالنهاية قال رشيد لعزيزة بإلحاح، وكأنها هي التي تساومه، "أعيديها. لا أستطيع شراء الاثنتين"

في طريق العودة، الروح العالية التي كانت عزيزة تتمتع بها، تضاءلت كلما اقتربوا من الميتم. توقفت اليدين عن التحليق. أصبح وجهها ثقيلاً. كان ذلك يحدث في كل مرة. كان دور ليلى الآن، مع تذمر مريم، أن تزيد من المحادثة، أن تضحك بعصبية، أن تملأ الكآبة القاسية بمزاح، بلا طائل ودون نفس.

لاحقاً، بعد أن أوصلهم رشيد وركب باصاً إلى العمل، راقبت ليلى عزيزة وهي تلوح بيديها على طول سور الميتم. فكرت بتلعثم عزيزة، وما قالته عن الانكسارات والتصادمات العنيفة في الأسفل، وكيف أنه، في بعض الأوقات، كل ما نراه على السطح هو اهتزاز خفيف.

"ابتعد، أنت"!! صرخ زلماي.

"صه" قالت مريم.. "على من تصرخ"؟

"هناك، ذاك الرجل".. أشار.

تابعت ليلى إصبعه. كان هناك رجل متكئ على الباب الأمامي للمنزل. استدار عندما رآهم يقتربون. أنزل يديه وعرج عدة خطوات باتجاههم.

توقفت ليلى.

صوت اختناق صعد إلى حنجرتها. ضعفت ركبتاها، فجأة أصبحت ليلى بحاجة للتمسك بذراعي مريم، كتفيها، خصرها، بشيء ما، بأي شيء لتتكئ عليه. ولكنها لم تفعل. لم تجرؤ. لم تجرؤ على تحريك عضلة. لم تكن تجرؤ على التنفس. أو حتى إغماض عينيها، لخوفها من أن يكون لا شيء سوى سراب يومض فيٍ البعيد، وهم خادع سينتهي عند أقل استفزاز. وِقفت ليلى ساكنة تماماً، ونظرت إلى طارق، حتى صرخ صدرها طلباً للهواء.. وحرقتها عيناها طالبتاٍن أن ترمش. و، بطريقة ما، بما يشبه المعجزة، بعد أن أخذت نفساً. أغلقت وفتحت عينيها. كان ما يزال واقفاً هناك. كان طارق ما يزال واقفاً هناك.

سمحت ليلى لنفسها أن تخطو خطوة باتجاهه. ثم أخرى. وأخرى. ثم راحت تركض.

الفصل الثالث والأربعون

مريم

في الأعلى، في غرفة مريم، كان زلماي هائجاً، وينطط كرته المطاطية الجديدة في أرجاء الغرفة، على الأرض وعلى الجدران، طلبت منه ألا يفعل، لكنه كان يعلم أنها لا تملك سلطة لترغمه، ولذلك بقي ينطط كرته، وعيناه تنظران إليها بتحدٍ. لفترة، دفعا السيارة، سيارة إسعاف بحواف حمراء بارزة على جوانبها، دفعاها جيئة وذهاباً فيما بينهما.

قبل ذلك، عندما التقوا بطارق عند الباب، تمسك زلماي بكرة السلة وقربها إلى صدره ومص إصبعه - وهو شيء لم يعد يفعله إلا عندما يكون متوتراً. نظر إلى طارق بشك.

" من يكون ذلك الرجل"؟ قال.. " أنا لا أحبه"

كانت مريم تريد أن تشرح، أن تقول شيئاً ما حول نشأتهما معاً هو وليلى، ولكن زلماي قاطعها وقال لها أن تدير السيارة، حتى يصبح الحاجز الأمامي مواجها له، وعندما فعلت، قال أنه يريد كرة السلة ثانية.

"أين هي"؟ سأل.. ثم أردف:

"أين الكرة التي جلبها بابا جان لي؟ أين هي؟ أريدها! أريدها!"

علا صوته وأصبح أكثر حدة مع كل كلمة.

"كانت هنا" قالت مريم.. صرخ: " لا، ضاعت، أعلم ذلك. أعلم أنها ضاعت! أين هي؟ أين هي؟"

"هنا" قالت.. أمسكت الكرة من الخزانة حيث استقرت، ولكن زلماي كان يصرخ الآن، ويخبط بقبضتيه، يصرخ أنها ليست نفس الكرة، لا يمكن أن تكون، لأن كرته ضاعت، وأن هذه مزيفة، أين ذهبت كرته

الحقيقية؟ أين؟ أين؟ أين؟ أين؟، ظل يصرخ حتى أتت ليلى إلى الأعلى لتهدئته، لتهزه وتداعب بأصابعها خصلات شعره السوداء، وتجفف وجنتيه المبللتين، وتطرقع بلسانها في أذنه.

انتظرت مريم خارج الغرفة، من أعلى الدرج، كل ما استطاعت رؤيته من طارق رجلاه الطويلتان، الحقيقية والاصطناعية، كانتا في بنطال ذو لون كاكي، ممدودتان على أرض غرفة المعيشة غير المغطاة بسجادة. عندها، أدركت، لماذا بدا البواب في فندق كونتينتال مألوفاً في اليوم الذي ذهبت فيه هي ورشيد إلى هناك، لتتصل بجليل. كان يرتدي قبعة ونظارات شمسية، لذلك لم تدرك الأمر أبكر من ذلك، ولكن مريم تذكرت الآن، قبل تسع سنوات، تذكرته يجلس في الأسفل، يمسح جبهته بمنديل ويطلب الماء. الآن، كل الأسئلة تسارعت إلى ذهنها، هل كانت حبوب السلفا أيضاً جزءاً من الخدعة؟ أيهما خطط لهذا الكذب، بتفاصيله المقنعة؟ وكم دفع رشيد لعبدول شريف ـ إذا كان ذلك اسمه حتى ـ كي يأتي ويفجع ليلى بقصته عن موت طارق؟!

الفصل الرابع والأربعون

ليلى

قال طارق إن أحد الرجال الذين شاركوه زنزانته كان لديه ابن عم، جُلد علناً مرة لأنه رسم طائر فلامينكو. على ما يبدو أن ابن العم قام بشيء لا يمكن غفرانه بالنسبة لهم.

"مخطوطات بكاملها" قال طارق.. "دزينات من رسوم الفلامينكو الزيتية وهي تقف في البحيرات، أو تأخذ حماماً شمسياً في المستنقعات، دمرت كما أخشى"

"الفلامينكو"؟!! تساءلت ليلى.. ونظرت إليه، يجلس قبالة الحائط، رجله السليمة مائلة عند الركبة. كانت تعاني من صراع داخلي للمسه مرة ثانية، كما فعلت سابقاً عند البوابة الأمامية عندما ركضت إليه. إنه أمر محرج لها، أن تفكر الآن كيف رمت بذراعيها على عنقه وبكت على صدره، كيف قالت اسمه مراراً وتكراراً بصوت أجش، متلعثم. هل تصرفت بتلهف أكثر من اللازم؟ تساءلت بيأس.

ربما كذلك. ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها، والآن تتلهف للمسه مرة ثانية، لتثبت لنفسها أنه هنا حقيقةً، وأنه ليس حلماً، طيفاً.

"بالفعل" قال.. "فلامينكو".

عندما شاهد الطالبان الرسومات، قال طارق، اعتبروا ساقي الطائر العارية إساءة. بعد أن أوثقوا رجلي ابن العم وجلدوه حتى أدمي، قدموا له خياراً: إما أن يدمر الرسومات أو أن يجعل الفلامينكو محتشماً. لذا، أمسك ابن العم فرشاته ورسم بنطالاً لكل طائر!!

"وهكذا، أصبح لديهم فلامينكو إسلامي".. قال طارق. تصاعدت الضحكات ولكن ليلى أخمدتها، كانت خجلة من أسنانها الصفراء،

وسنها المفقود، ومن مظهرها الذاوي وشفتها المنتفخة. تمنت لو كان لديها فرصة لتغسل وجهها.. على الأقل أن تسرح شعرها.

"ولكن، ابن العم، هو من سيضحك في الآخر" قال طارق.. "رسم تلك البناطيل بالألوان المائية. وعندما غادر الطالبان، لم يكن عليه إلا أن يمسحهم" ابتسم ـ لاحظت ليلى أنه هو أيضاً له سن مفقود ـ نظرت إلى يديه.. "بالفعل". كان يرتدي بوكال على رأسه، وجزمة، وكنزة صوفية سوداء مدكوكة في البنطال الكاكي. كان يبتسم نصف ابتسامة، ويومئ ببطء. لم تتذكره ليلى يقول ذلك من قبل، هذه الكلمة (بالفعل).. والإشارة التأملية، الأصابع على شكل خيمة في حضنه، الإيماءات، كانت جديدة أيضاً، مثل كلام الراشدين وإيماءات شخص راشد. لماذا يجب أن يكون ذلك مفاجئاً؟ إنه راشد الآن، طارق، رجل في الخامسة والعشرين من عمره مع حركات بطيئة وابتسامة متعبة. طويل، ملتح أنحف مما تخيلته في أحلامها، مع يدين قويتين، يدين عاملتين، وعروق متعرجة نافرة. ما زال وجهه لطيفاً ووسيماً ولكنه فقد صفاء بشرته ، كانت جبهته متأثرة بالجو، محروقة كعنقه، جبهة مسافر في نهاية رحلة طويلة مرهقة. بوكالته مدفوعة للخلف واستطاعت أن ترى أنه قد فقد بعض شعره. اللون العسلي لعينيه أغمق مما تذكر، أو أفتح، ربما بسبب الضوء في الغرفة.

فكرت ليلى بأم طارق، طبعها المتأني، الابتسامات الذكية، الشعر المستعار ذو اللون الأرجواني. ووالده، نظرته الحولاء، وطبعه القلق.

في وقت سابق، عند الباب وبصوت مليء بالدموع، وهي تتعثر بكلماتها، أخبرت طارق بما اعتقدت أنه قد حدث له ولأهله، فهز رأسه. لذا سألته ماذا يفعلون الآن، أهله. لكنها ندمت على السؤال، عندما نظر طارق إلى الأسفل بشكل ذاهل "لقد توفيا"

"إنني آسفة جداً"

"نعم، أنا أيضاً آسف .خذي" أخرج كيس صغير من جيبه وأعطاها إياه "مع تحيات أليونا"

كان في داخل الكيس قالب من الجبنة ملفوف.

"أليونا. إنه اسم جميل" حاولت ليلى أن لا يبدو صوتها مضطرباً "زوجتك"؟

"عنزتي" كان يبتسم من قلقها، على الرغم من أنه كان ينتظر منها أن تستعيد ذكرى ما .

ثم تذكرت ليلى. الفيلم السوفييتي. كانت أليونا ابنة القبطان، الفتاة التي أحبت مساعد القبطان. كان ذلك في اليوم الذي راقبت فيه مع طارق وحسينة الدبابات السوفييتية وسيارات الجيب تغادر كابول، في اليوم الذي كان طارق يرتدي تلك القبعة الروسية السخيفة من الفرو.

"علي أن أربطها إلى وتد مغروس في الأرض" كان طارق يقول "وأن أبني سياجاً من أجل الذئاب. عند سفح التلال حيث أعيش، يوجد هناك منطقة غابات بالقرب، ربما على مسافة ربع ميل، أغلبها أشجار صنوبر، بعض أشجار التنوب، والدودار.

سألته ليلى أية سفوح تلال.

"بيربنجال. باكستان" قال طارق.. ثم أردف:

"حيث أعيش يدعى: موري، إنها مصيف ، على بعد ساعة من إسلام أباد. منطقة تلال خضراء، الكثير من الأشجار، مرتفعة عن سطح البحر. لذلك هي باردة في الصيف. مثالية للسياح.

بناها البريطانيون كمحطة قريبة لمقرهم العسكري في راوول بندي، من أجل أن يهرب الفيكتوريون من الحر. ما زال هناك بعض الأكواخ من زمن الاستعمار، قال طارق، غرف الشاي المعتادة، بيوتٍ من طابق واحد، ذات سقوف من الصفيح، تدعى بيوت ريفية، شيئاً من ذلك القبيل .

المدينة نفسها، صغيرة ومبهجة. يطلق على الشارع الرئيسي فيها مول، حيث يقع مكتب البريد والسوق، وبعض المطاعم، المحلات التي تتعامل مع السياح بالرسم على الزجاج والسجاد المغزول يدويا.

وبشكل يدعو للعجب، فإن المول ذو الاتجاه الواحد، يسير باتجاه واحد في أسبوع، وبالاتجاه المعاكس في الأسبوع التالي.

"يقول المحليون إنه السير في إيرلنده بتلك الطريقة أيضاً.. في بعض الأماكن" قال طارق.. ثم أردف:

"لا أعلم. على أية حال، إنها جميلة. إنها حياة سهلة، ولكنني أحبها. أحب العيش هناك"

"مع عنزتك.. مع إليونا"

لم تقل ليلى ذلك على أنه مزحة، ولكنه مدخلاً للحديث، كمثل، من غير إليونا هناك يقلق معه، بشأن الذئاب التي تأكل الماعز. لكن كل ما فعله طارق هو هزِ رأسه.

"إنني آسف أيضاً بشأن أهلك"

"هل سمعت"؟

"لقد تحدثت مع بعض الجِيران" قال.. وخيم الصمت. حيث تساءلت ليلى ماذا أخبره الجيران أيضا .

"لم أتعرف على أحد من الأيام السابقة. إنني أعني ذلك"

"لقد ذهبوا كلهم..لم يتبقَ أحد تعرفه"

"لم أتعرف على كابول"

"ولا أنا" قالت ليلى.. ثم أردفت: "رغم أنني لم أغادر أبداً"

"بالفعل الحال هكذا ،الآن" .

سأل طارق إن كان بإمكانه أن يدخن.

مكثوا فترة في مخيم ناصر باغ للاجئين قرب بيشاور، قال طارق، وهو ينفض رماد سيجارته في الصحن. كان يعيش هناك ستين ألف لاجئ أفغاني عندما وصل هو وأهله.

"لم يكن سيئاً بقدر بقية المخيمات مثل، لا سمح الله، جالوزاي"

"أظن أنه إلى حدٍ ما، كان مخيماً نموذجياً، خلال الحرب الباردة، كان مكاناً ليثبت فيه الغرب للعالم أنهم لم يكونوا فقط جيوش قمعية في أفغانستان"

لكن ذلك كان في فترة الحرب السوفييتية، قال طارق، أيام الجهاد والمصالح العالمية الواسعة، والاعتماد المادي السخي، وأيضاً زيارات من قبل مارغريت تاتشر.

" تعلمين البقية، ليلى.. بعد الحرب، غادر السوفييت، وحل مكانهم الغرب. لم يعد هناك شيء يراهنون عليه في أفغانستان، بعدها على الأقل، سحبت الأموال. الآن، أصبح ناصر باغ عبارة عن خيم، غبار، وحمامات عامة مفتوحة. عندما وصلنا إلى هناك، أعطونا وتداً وقطعة من القماش وأخبرونا أن نبني خيمتنا بأنفسنا"

قال طارق إن أكثر ما يذكره عن ناصر باغ، حيث مكثوا قرابة سنة، هو اللون البني.

"خيم بنية، الأشخاص بنيون، الكلاب بنية. وكذلك العصيدة"

كانت هناك شجرة بدون أوراق يتسلقها كل يوم، حيث يجلس على غصن ويراقب اللاجئين مستلقين تحت الشمس، جذوعهم وبطونهم عارية .. أطفالاً صغاراً نحيلين يحملون الماء في أوعيتهم الوسخة، يجمعون مخلفات الكلاب لإشعال النار، ينحتون لعب الكلاشنكوف من الخشب بسكاكين غير حادة، يحملون الأكياس الثقيلة من طحين القمح الذي لا يستطيع أحد أن يصنع منه خبزاً متماسكاً. في محيط مدينة اللاجئين كانت الريح تجعل الخيام ترفرف. وتقذف بقايا القش في كل مكان، وتجعل الطائرات الورقية تحلق فوق أسطح الأكواخ الموحلة.

"الكثير من الأطفال ماتوا. من الزُّحار اللعين، السل، الجوع... فقط عدِّي ولا حرج. رباه، ليلى. لقد رأيت الكثير من الأطفال يدفنون. لا يمكن لشخص أن يرى أسوأ من ذلك"

صالب قدميه.. وسيطر صمت بينهما ثانية لفترة.

"لم يكمل أبي ذاك الشتاء" قال.. ثم أردف: "مات وهو نائم. لا أظن أنه كان هناك أي ألم"

وفي نفس الشتاء، أصيبت أمي بذات الرئة وكادت تموت. كانت لتموت، لولا طبيب المخيم الذي صنع من إحدى العربات (محطة

عيادة) متنقلة. كانت تبقى مستيقظة طوال الليل، محمومة، تسعل سعالاً قاسياً، وتبصق بلغماً بلون الصدأ. كان الطابور طويلاً لرؤية الطبيب، الكل يرتجف في الصف، يئن، يسعل، والبعض تسيل القذارة تحت أقدامه، الآخرون متعبون جداً أو جائعون، أو مرهقون أكثر من أن يتكلموا.

"ولكنه كان رجل محترم، الطبيب. لقد عالج أمي، أعطاها بعض الحبوب، وأنقذ حياتها ذلك الشتاء"

نفس الشتاء الذي حاصر فيه طارق ولداً.

"عمره اثنا عشر، ثلاثة عشر ربما" قال بلهجة اعتيادية.

"وضعتُ شظية زجاج على حنجرته وأخذت بطانيته وأعطيتها لأمي"

لقد قطع عهداً على نفسه، قال طارق، بعد مرض أمه، إنهم لن يمكثوا شتاءا آخر في المخيم. سيعمل ويدخر، وينقلهم إلى شقة في بيشاوار، بتدفئة جيدة وماء نظيف.

عندما جاء الربيع، بحث عن عمل. من وقت لآخر، كانت تأتي شاحنة إلى المخيم في الصباح الباكر، وتجمع حوالي اثني عشر صبياً وتأخذهم إلى حقل لينقلوا الحجارة أو إلى بستان ليقطفوا التفاح مقابل القليل من المال، بعض الأحيان، مقابل بطانية، زوجا حذاء. لكنهم لم يقبلوه أبداً، قال طارق.

"كان الشخص ينظر إلى ساقي وينتهي الأمر".. كانت هناك أعمال أخرى، حفر خنادق، أكواخ للبناء، حمل الماء، جرف الغائط من الحمامات الخارجية. ولكن الرجال الشبان كانوا يتقاتلون على هذه الأعمال، ولم يحظ طارق أبداً بفرصة.

ثم التقى بصاحب محل في أحد الأيام، في خريف عام ١٩٩٣.

"لقد منحني المال لأنقل معطفاً جلدياً إلى لاهور، ليس الكثير ولكن ما يكفي، ما يكفي إيجار شقة لشهر أو اثنين"

أعطاه صاحب المحل تذكرة للباص، قال طارق، وعنوان الشارع قرب محطة القطار حيث كان عليه أن يسلم المعطف لصديق صاحب المحل.

"علمت مسبقاً.. بالطبع علمت" قال طارق.. ثم أردف:

"قال إذا أُمسك بي، فعلي الاعتماد على نفسي، ويجب أن أتذكر أنه يعلم أين تعيش أمي.وسيعطيها النقود . وكان الشتاء قادما ثانية"

"إلى أين وصلت"؟ سألت ليلى.

"ليس بعيداً".. قال ثم ضحك، بصوت معتذر، خجل. "لم أصعد حتى الباص. اعتقدت أني منيع، تعلمين، آمن. كما لو أن هناك من يسجل هذه الأشياء، رجل بقلم رصاص محشور خلف أذنه يبقى منتبها لهذه الأشياء، يلاحقها، وينظر إلي ويقول: "نعم، نعم، يستطيع أخذ هذا، سنتركه هذه المرة. لقد دفع بعضاً من رسومه، هذا الولد"

كان الحشيش موضوع في الدرزات، وانسكب على الشارع كله عندما شق البوليس المعطف بسكين.

ضحك طارق ثانية عندما قال هذا، ضحكاً متصاعداً، وجسده يهتز. وتذكرت ليلى كيف كان يضحك هكذا عندما كان صغيراً، ليغطي حرجه، ويخفف من الأشياء التي قام بها، التي تكون عادة حمقاء وفضائحية.

"لدى مامي صديق جديد " قال زلماي بعد العشاء بنفس الليلة التي غادر فيها طارق . "رجل !" نظر رشيد إلى أعلى ."لديه عرج" قال زلماي.

"هل هو من أظن"؟

"كان يزورنا فقط" قالت مريم.

"اخرسي.. أنت" صرخ رشيد، رافعاً إصبعاً. واستدار عائداً لليلى.

"حسناً، ما الذي تعلمينه؟ ليلي والمجنون عادا مجدداً، كما في السابق"

أصبح وجهه جامداً: "إذاً أدخلته. هنا. إلى منزلي. أدخلته. كان هنا مع ابني"

"لقد غششتني، كذبت علي" قالت ليلى، وهي تصر على أسنانها.

"لقد جعلت ذاك الرجل يجلس قبالتي و ... علمتَ أنني سأذهب إليه لو اعتقدتُ أنه حي"

"وأنت ألم تكذبي علي"؟ زأر رشيد.

" تظنين أني لم أكتشف الأمر؟ عن ابنة حرامك؟ تظنين أني أحمق، أيتها العاهرة؟"

كلما تكلم طارق أكثر، كلما ازداد خوف ليلى من اللحظة التي سيتوقف بها. ومن الصمت الذي سيلحق ذلك، الإشارة بأنه قد حان دورها لتقديم الحساب، لتقول لماذا وكيف ومتى، لتصرح بما يعرفه بالتأكيد. شعرت بغثيان خفيف كلما توقف.

تجنبت عينيه نظرت إلى يديه، إلى الشعر الأسود الخشن الذي نبت عليهما خلال تلك السنوات. لم يقل طارق الكثير عن سنوات سجنه. تعلّم أن يتكلم الأوردو. عندما سألت ليلى، أعطى هزة رأس غير صبورة. في هذه الإشارة، استطاعت ليلى رؤية القضبان الصدئة والأجساد المتعرقة، رجال قساة وقاعات مزدحمة، وسقوف تتسرب منها الرواسب. قرأت في وجهه أنه كان مكاناً مذلاً، المهانة واليأس.

قال طارق إن أمه حاولت زيارته بعد اعتقاله.

"ثلاث مرات أتت. ولكني لم أستطع رؤيتها أبداً" قال.

كتب لها رسالة، وبضع رسائل أخرى بعد ذلك، رغم أنه شك بأنها ستستلمهم.

"وكتبت لك"

"حقاً"

"أوه، العديد" قال.. "كان صديقك رومي ليحسدني على غزارة إنتاجي" ثم ضحك ثانية، بصخب هذه المرة، كأنه كان مذهولاً من جرأته وخجلاً مما باح به بنفس الوقت.

بدأ زلماي يصرخ في الأعلى.

"كما في السابق إذاً"؟! قال رشيد.. " أنتما الاثنان. أعتقد أنك تركته يرى وجهك"

"لقد فعلت" قال زلماي. ثم، لليلى.. "لقد فعلت، مامي. رأيتك"

"ابنك لم يحبني كثيراً" قال طارق عندما عادت ليلى من الأعلى.

"أنا آسفة" قالت.. "ليس هذا. إنه فقط... لا تهتم له" ثم غيرت الموضوع سريعاً لأن ذلك جعلها تشعر بغرابة وإثم أن تشعر هكذا تجاه زلماي، الذي كان طفلاً، ولداً صغيراً يحب أباه، وتعامل بشكل غريزي مع هذه الغريب.. تصرفه كان مفهوماً وطبيعيا.

وكتبت لك.

العديد.

العديد.

"منذ متى وأنت في موري"؟

"أقل من سنة" قال طارق.

صادق رجلاً كبيراً في السجن، قال، أخ اسمه سليم، باكستاني، لاعب هوكي سابق، كان يدخل ويخرج من السجن لسنوات، كانت مدة عقوبته عشرة سنوات لأنه طعن رجل شرطة. في كل سجن هناك شخص مثل سليم، قال طارق. هناك دائماً شخص ما حاذق وله صلات، يتعامل مع النظام ويجلب الأشياء، شخص ما يكون الجو حوله مشحوناً بالفرص والخطر. كان سليم هو من أرسل استفسارات طارق عن أمه، وهو من أجلسه وأخبره بصوت ناعم أبوي أنها قتلت بانفجار. قضى طارق سبع سنوات في سجن باكستاني.. "لقد قضيت العقوبة بسهولة" قال.. ثم أردف:

"لقد كنت محظوظاً. كان القاضي الذي عُين لقضيتي كما تبين، لديه أخ متزوج من امرأة أفغانية، ربما كان رحيماً، لا أعلم"

عندما أنهى طارق عقوبته، في بداية شتاء عام ٢٠٠٠، أعطاه سليم عنوان أخيه ورقم هاتفه، اسمه سعيد قل له إنني أرسلتك إليه. إنه

يمتلك فندقاً صغيراً في موري" في الفندق عشرين غرفة وقاعة، مكان صغير ليرتاح فيه السياح.

قال: قل له إني أرسلت إليه"

أحب طارق موري منذ نزل من الباص: كان الثلج يثقل أشجار الصنوبر، البرد، الجو الصقيعي، الأكواخ الخشبية المتناثرة، والدخان يتصاعد من مداخنها، هذا مكان للاستقرار، فكر طارق، وهو يدق على باب سعيد، إنه مكان لا ينسيك الأماكن البائسة التي عرفتها فقط، لكنه يجعل حتى فكرة المشقة والحزن خطيئة ، غير قابلة للتخيل.

"قلت لنفسي، هذا مكان يستطيع الإنسان أن يعيش فيه"

استخدم طارقٍ كبواب وعامل، وأبلى جيداً، خلال فترة الاختبار والتي دامت شهراً، على نصف راتب، أعطاني إياه سعيد.

بينما كان طارق يتكلم، تخيلت ليلى سعيد بعينين ضيقتين ووجه متورد، يقف عند نافذة مكتب الاستقبال يراقب طارق وهو يقطع الخشب ويجرف الثلج من الممر. رأته ليلى وهو ينحني قرب قدمي طارق، يراقب، بينما طارق مستلقٍ تحت المغسلة يصلِح الأنبوب الذي يتسرب منه الماء. تصورته وهو يتفقد الصندوق خوفاً من فقدان بعض النقود.

كان كوخ طارق بجانب كوخ بنغالو الطباخة، قال: إن الطباخة كانت سيدة وقورة، أرملة تدعى أديبة. كان كلا الكوخين منفصلين عن الفندق، ومنفصلين عن البناء الرئيسي ببعض أشجار اللوز المتناثرة. كان يوجد هناك مقعد حديقة، ونبع على شكل هرم، في الصيف تنساب ماؤه طوال النهار. تخيلت ليلى طارق في كوخه، يجلس في السرير، يشاهد العالم المزدهر خارج نافذته.

عندما انتهت فترة الاختبار، منح سعيد طارق كامل أجره، وأخبره أن غداءه مجاني، وأعطاه معطفاً صوفياً، ومنحه رجلاً جديدة، قال طارق أنه بكى من لطف الرجل.

في الشهر الأول الذي حصل فيه على راتبه كاملاً، ذهب طارق إلى المدينة واشترى إليونا..

"كان فروها أبيض تماماً" قال طارق وهو يبتسم.

"في بعض الصباحات، عندما يتواصل هطول الثلج طوال الليل، تنظرين من النافذة، وكل ما تستطيعين رؤيته منها هو عينيها وخطمها" هزت ليلى برأسها. خيم صمت آخر، في الأعلى، كان زلماي يقذف كرته ثانية على الحائط..

"ظننت أنك مت" قالت ليلى.

"أعلم، أخبرتِني".. انقطع صوت ليلى. كان عليها أن تتنحنح لتعيده، و تستعيد توازنها،

"الرجل الذي جاء وأخبرني، كان جاداً جداً... صدّقته، طارق. أتمنى لو أنني لم أفعل، ولكنني فعلت. عندها شعرت بأنني وحيدة وخائفة جداً. لم أكن لأوافق على الزواج برشيد. لم أكن لأفعل..." .

"ليس عليك تأنيب نفسك بهذه الطريقة" قال بنعومة متجنباً عينيها. لم يكن هناك أثر عتاب مخفي، لم يكن هناك اتهام مضاد بالطريقة التي قالها، ولا إيحاء باللوم.

"ولكنني فعلت. كان هناك سبب وجيه للزواج به. هناك شيء لا تعرفه. طارق. شخص ما. يجب أن أخبرك عنه"

"هل جلست وتكلمت معه أيضاً"؟ سأل رشيد زلماي.

لم يقل زلماي شيئاً. رأت ليلى تردداً وحيرة في عينيه الآن، كأنما أدرك الآن فقط بأن الذي أفشاه تبين أنه أخطر بكثير مما اعتقد.

"لقد سألتك سؤالاً؟ ولد"؟!

بلع زلماي ريقه. بقيت نظراته حائرة.

"كنت في الأعلى ألعب مع مريم"

"وأمك"؟.. نظر زلماي إلى ليلى باعتذار، وهو على شفا البكاء.

"لابأس.. زلماي" قالت ليلى.. ثم أردفت: "قل الحقيقة"

"كانت... في الأسفل، تتحدث إلى الرجل" قال بصوت ضعيف أقرب إلى الهمس.

"فهمت مؤامرة جماعية".. قال رشيد.

بينما كان يغادر، قال طارق، "أريد أن ألتقيها.. أريد أن أراها"

"سأدبر هذا" قالت ليلى.

"عزيزة، عزيزة" ابتسم، متذوقاً اللفظ. "كلما لفظ رشيد اسم ابنتها، تبدو غير صحيحة لليلى، تقريباً مبتذلة".

"عزيزة.. جميل هذا الاسم"

"وهي أيضا كذلك.. ستراها"

"سأعد الدقائق"

مضت عشر سنوات تقريباً منذ لقائهما الأخير. لمع في ذهن ليلى كل المرات التي التقيا بها في الزقاق، يتبادلان القبل بالسر. تساءلت كيف تبدو بالنسبة له الآن. هل مازال يراها جميلة؟ أم هي مجرد امرأةٍ عادية بالنسبة له، تقلصت، يرثى لها، كعجوز نحيفة نزقة. تقريباً عشر سنوات. لكن، للحظة، وهي واقفة هناكِ مع طارق تحت ضوء الشمس، بدا وكأن تلك السنين لم تمر أبداً. موت والديها، زواجها برشيد، القتل، الصواريخ، طالبان، الضرب، الجوع، حتى أولادها، كلها بدت كحلم، كانعطافة غريبة، كفترة راحة ما بعد الظهيرة.. وهذه اللحظة.

ثم تغير وجه طارق، أصبح وقوراً، كانت تعرف هذا التعبير، كانت نفس النظرة التي علت وجهه ذلك اليوم، كل هذه السنوات عندما كانا صغيران، عندما فك ساقه وسار باتجاه خاديم، والآن بيد واحدة لمس زاوية شفتها السفلى: "لقد فعل ذلك لك" قال ببرود.

عند لمسته، تذكرت ليلى جنون بعد الظهيرة ذاك ثانية، عندما أبدعا عزيزة. لهاثه على عنقها، عضلات وركه تتقلص، صدره يضغط على صدرها، يداهما متشابكة.

"أتمنى لو أنني أخذتك معي" همس طارق، أخفضت ليلى نظرها محاولة ألا تبكي.

"أعلم أنك امرأة متزوجة وأم الآن. وها أنا، بعد كل هذه السنين، بعد كل ما حدث، أظهر أمام عتبة منزلك، على الغالب، ليس هذا لائقاً أو عادلاً، ولكنني أتيت كل هذه المسافة لأراك، و.. آه ليلى، أتمنى لو أنني لم أغادرك مطلقاً"

"لا تفعل" نشجت.

"كان علي أن أحاول أكثر. كان علي أن أتزوجك عندما حانت الفرصة، لكان كل شيءٍ مختلف، الآن "

"لا تتحدث هكذا، أرجوك، هذا مؤلم"

أومأ برأسه، حاول أن يخطو خطوة باتجاهها، ثم أجبر نفسه على التوقف.

"لا أريد أن أفترض أي شيء، ولا أقصد أن أقلب حياتك رأساً على عقب، بظهوري بهذه الطريقة. إذا أردت مني الرحيل، إذا أردت مني أن أعود إلى باكستان، قولي فقط، ليلى. أعني ذلك. قوليها وسوف أغادر. لن أزعجك ثانية أبدا. سأفعل..."

" لا"!! قالت ليلى بحدة أكثر مما أرادت، رأت أنها مدت يداها إلى ذراعيه، أنها كانت تقبض عليها. أنزلت يدها..

"لا، لا تغادر طارق. لا. لا. أرجوك ابقَ"

هز طارق برأسه.

"إنه يعمل من الظهر حتى الثامنة. تعال غداً. بعد الظهر. وسوف آخذك إلى عزيزة" .

"لست خائفاً منه، أنت تعلمين"

"أعلم. عد غداً بعد الظهر"

"وبعد ذلك"؟

"وبعد ذلك... لا أعلم. علي أن أفكر. هذا..."

"أعلم" قال.. ثم أكمل : "أتفهم ذلك. أنا آسف. أنا آسف على أشياء كثيرة"

"لا تكن.. لقد وعدت أنك ستعود. وقد فعلت"

دمعت عيناه.. "من الجيد أنٍ أراك ، ليلى"

شاهدته وهو يمشي مبتعداً ، كانت ترتجف حيث تقف، فكرت، بالكثير من الأشياء، رعشة أخرى انتابتها، تيار، شيء ما حزين وتعيس ولكنه أيضاً متلهف وأمل أرعن.

الفصل الخامس والأربعون

مريم

"كنت في الأعلى.. ألعب مع مريم".. قال زلماي.

"وأمك"؟

"كانت.. لقد كانت في الأسفل، تتحدث مع ذلك الرجل"

"فهمت.. مؤامرة جماعية"!! قال رشيد.

لاحظت مريم وجهه يسترخي.. يرتاح. وراقبت اختفاء التجاعيد من جبهته، والشك والريبة من عينيه. وقف منتصباً، ولبضعة لحظات بدا يتأمل، ككابتن سفينة أُخبر أن هناك عصيان على وشك الحدوث، فأخذ يفكر بتمعن بحركته التالية. نظر إلى الأعلى. بدأت مريم بقول شيء ما، لكنه رفع يداً، وبدون النظر إليها قال: "فات الأوان.. مريم"

ثم إلى زلماي: "أنت، اذهب للأعلى، ولد"

رأت مريم الخوف على وجه زلماي. بتوتر نظر إلى ثلاثتهم، فشعر بأن لعبة ثرثرته قادت إلى شيء جدي - إلى شيء بالغ الجدية - داخل الغرفة. وجه نظرة خيبة وندم إلى مريم.. ثم إلى أمه.

بصوت محذر، قال رشيد: "الآن." أمسك بزلماي من مرفقه. وبوداعة ترك زلماي جسده يُقاد إلى الأعلى. وقفت ليلى ومريم جامدتين في مكانهما، أعينهما مسلطة على الأرض، كأن نظرهما لبعض سيعطي رشيد تأكيداً للطريقة التي رأى بها الأشياء، بأنه حين كان يفتح الأبواب ويحمل الحقائب لأشخاص لن يتكرموا عليه بنظرة، كان هناك مؤامرة فاسقة تحاك خلف ظهره وفي بيته وبحضور إبنه المحبوب، لم تقل أي منهما كلمة. أصغتا إلى وقع الخطوات في الأعلى، إحداها كانت ثقيلة وتنذر بالمتاعب، والأخرى وقع خطوات حيوان صغير خائف. استمعتا إلى كلمات غير مبهمة تُتبادل، التماس متوسل، رد قاطع،

باب يغلق، وصوت مفتاح يدور داخل القفل.. ثم وقع خطى تعود، بقلة صبر أكبر الآن.

سمعت مريم الخطوات ترج الدرجات بينما عاد نازلاً. رأته يضع المفتاح في جيبه، رأت حزامه، الجهة المثقبة ملفوفة بشدة حول براجم أصابعه. بكلة النحاس المزيف تُجر وراءه.. وتتقافز على الدرجات.

ذهبت لتوقفه، لكنه دفعها من ظهرها وعصف بجانبها. دون أن يقول كلمة، هوى بالحزام على ليلى. قام بهذا بسرعة لدرجة أن ليلى لم تستطع التراجع أو الانحناء، أو حتى أن ترفع يدها للحماية. لمست ليلى صدغها بأصابعها ، نظرت إلى الدم، إلى رشيد، بذهول. دام ذلك لحظة أو اثنتين، نظرة عدم التصديق، قبل أن يحل محلها شعور مليء بالكراهية.

هوى رشيد بالحزام ثانية.

هذه المرة، حمت ليلى نفسها بساعدها وقبضت يدها لتمسك بالحزام. أخطأت.. ورشيد هوى بالحزام ثانية. أمسكت ليلى بالحزام فسحبه رشيد وجلدها به ثانية. وبينما كانت ليلى ترتطم بالأرض، كانت مريم تصرخ بكلمات تتقاطع مع بعضها مناشدة رشيد الذي لاحق ليلى، وقطع عليها الطريق وهوى بحزامه عليها. في لحظة ما، قرفصت ليلى واستطاعت أن تلكمة على أذنه، ما جعله يبصق لعنة ويلاحقها بإصرار أكبر ودون رحمة. أمسك بها، رماها عالياً على الحائط، وضربها بالحزام ثانية وثانية، البكلة تهوي على صدرها، كتفيها، ويديها المرفوعتين، أصابعها.. تنبعث الدماء أينما حلت البكلة.

لم تعد مريم تستطيع عد المرات التي هوى بها الحزام، وكم كلمة متوسلة صرختها لرشيد، كم مرة دارت حول الأسنان المتناثرة والقبضات والحزام، قبل أن ترى أصابع تقبض وجه رشيد، أظافر مكسورة تحفر أعلى رقبته وتشد شعره وتخدش جبهته. كم مر قبل أن تدرك، بذهول واستمتاع، أن تلك الأصابع كانت لها.

ترك ليلى واستدار تجاهها. بداية، نظر إليها دون أن يراها، ثم ضاقت عيناه، نظر إلى مريم باهتمام. تحولت النظرة من الحيرة إلى الذهول، ثم عدم التصديق، وخيبة الأمل حتى.. متوقفة هكذا للحظة.

تذكرت مريم المرة الأولى التي رأت فيها عينيه، تحت خمار الزفاف، في المرآة، وجليل ينظر، كيف انزلقٍ نظرهما عبر الزجاج والتقى، عدم اهتمامه، إطاعتها، تنازلها، تقريبا اعتذار.

اعتذار.

رأت مريم الآن في تلك العينين حماقتها.

هل كانت زوجة مضللة؟ سألت نفسها. زوجة قانعة؟ امرأة بلا شرف؟ مخزية؟ شاذة؟ ما الشيء المؤذي الذي قامت به بإرادتها تجاه هذا الرجل لتبرير حقده، وهجومه المستمر، والتلذذ بتعذيبه لها؟ ألم تعتن به عندما مرض؟ ألم تطعمه وأصدقاءه؟ ألم تنظف بعده بكل شعور بالواجب؟ ألم تعطِ هذا الرجل شبابها؟ هل استحقت بحق احتقاره الدائم لها ؟

أحدث الحزام صوتاً عندما رماه رشيد على الأرض ومشى تجاهها، بعض الأعمال يجب أن تنجز باليدين، ذلك ما قصده.

ولكن، بينما كان ينظر إليها، رأت مريم ليلى خلفه تلتقط شيئاً من الأرض. رأت يد ليلى ترتفع فوق رأسها، ثم تتوقف ثم تهبط على جانب وجهه. تكسر الزجاج، بقايا كأس الشراب انتثرت على الأرض. كان هناك دماء على يد ليلى، دماء تفور من الجرح البليغ في وجنة رشيد، دماء تسيل على رقبته، قميصه. استدار، وكله زمجرة وعيون ملتهبة.

ارتميا على الأرض، رشيد وليلى، يتقلبان. انتهى به الأمر في الأعلى، يداه ملفوفتان على عنق ليلى.

أحكمت مريم أظافرها في رشيد. ضربته على صدره. قذفت بنفسها عليه. ناضلت لتحرر أصابعه عن عنق ليلى. عضتهم. لكنهم ظلّوا محكمين حول قصبة ليلى، ورأت مريم أنه يقصد أن يكمل ما يفعله.

يريد خنقها، ولم يكن هناك شيء تقوم به أي منهما.

تراجعت مريم للوراء. غادرت الغرفة. كانت مدركة لصوت ارتطام في الأعلى، وأن راحة يد ناعمة تدق على الباب المقفل. ركضت باتجاه الممشى واندفعت باتجاه الباب الأمامي، عابرة الباحة.

في الورشة، أمسكت مريم بمجرفة.

لم يلحظ رشيد عودتها إلى الغرفة. كان لا يزال فوق ليلى، عيناه جاحظتان ومجنونتان، يداه ملتفتان حول عنقها. وقد تحول وجه ليلى إلى الأزرق الآن، وانقلبت عيناها إلى الخلف. لاحظت مريم أنها لم تعد تكافح. سوف يقتلها، فكرت، هو فعلاً يريد ذلك. ومريم لن تقبل، ولن تسمح لهذا بأن يحدث. لقد أخذ الكثير منها خلال سبعة وعشرين عاماً من الزواج. لن تقف مكتوفة اليدين وهي تراه يأخذ ليلى أيضاً.

ثبتت مريم قدميها على الأرض، وأحكمت قبضتها على المجرفة. رفعتها. لفظت اسمه. أرادته أن يرى.

"رشيد"

نظر للأعلى.

تأرجحت مريم.

أصابته على صدغه. الضربة رمته عن ليلى.

لمس رشيد رأسه براحة يده. نظر إلى الدماء على أصابعه، ثم إلى مريم. ظنت أنها رأت وجهه يلين. تخيلت أن شيئاً مر بينهما، وربما كانت قد أدخلت بعض الفهم إلى رأسه.

ربما رأى شيئاً في وجهها أيضاً، فكرت مريم، شيئاً ما جعله يقبل. ربما رأى أثراً من كل إنكار الذات هذا، كل التضحية، كل المجهود الذي تحملته لتعيش معه تلك السنين، تتعايش مع انحطاطه المستمر وعنفه، انتقاده الدائم وحقارته. هل كان احترام ما رأته في عينيه؟ ندم؟

لكن عندها كشرت شفته العليا بزمجرة حاقدة، أدركت عندها مريم اللاجدوى، ربما حتى عدم الإحساس المسؤولية، إن هي لم تنه هذا

الأمر. إذا تركته يمر الآن، كم سيحتاج قبل أن يخرج مفتاحه من جيبه ويذهب إلى الأعلى ليأتي بذاك المسدسٍ من غرفته حيث حبس زلماي؟ هل كانت مريم واثقة أنه سيكون راضياً إن أطلق النار عليها فقط، وأن هناك فرصة ليرحم ليلى، ربما كانت سترمي المجرفة. لكن في عيني رشيد رأت الإصرار على قتلهما.

و لذلك رفعت مريم المجرفة عالياً، رفعتها أعلى ما تستطيع، قوستها حتى لامست مؤخرتها الصغيرة. قلبتها لتكون الحافة الحادة عامودية، و، بينما فعلت هذا، خطر لها أن هذه هي المرة الأولى التي تقرر بها مجرى حياتها.

ومع هذا، هوت مريم بالمجرفة. هذه المرة، منحتها كل ما تملك من قوة.

الفصل السادس والأربعون

ليلى

كانت ليلى واعية للوجه الذي فوقها، كله أسنان، تبغ وعيون تنذر بالشر. وكانت مدركة بغموض، أن لمريم وجود خلف هذا الوجه، ولوجود قبضتها التي تُمطر. فوقهم كان السقف، وكان السقف هو الذي جذب ليلى، البقع السوداء من العفن المنتشرة مثل حبرٍ على ثوب، الصدع في الجص الذي يتغير بابتسامة أو عبوس، اعتمادا على الزاوية التي تنظر منها إليه. فكرت ليلى بكل المرات التي وضعت فيها خرقة على المكنسة ونظفت خيوط العنكبوت عن هذا السقف. في المرات الثلاث التي قامت هي ومريم بطليه بدهان أبيض. الصدع لم يعد ابتسامة بعد الآن.. أصبح تحديقة هازئة. وكان يتقلص. كان السقف ينكمش، يرتفع، يحلق بعيدا عنها إلى ضبابية ما.. معتمة وبعيدة. ارتفع إلى أن تقلص بحجم طابع بريدي، أبيض ولامع، كل شيء حولها اختفى وابتلعه الظلام. في ذلك الظلام، كان وجه رشيد كبقعة ضوء حادة.

ومضات قصيرة من ضوء مُعمٍ أمام عينيها الآن، كنجوم فضية تنفجر. أشكال هندسية غريبة في الضوء، ديدان، أشكال بيضوية، تتحرك للأعلى والأسفلٍ، وعلى الجوانب، تذوب ببعضها البعض، تنقسم وتشكل شكلاً آخراً، ثم تختفي مفسحة المجال للظلام.

أصوات تظهر وتبتعد.

خلف أجفانها، تظهر وجوه أطفالها وتضيء، عزيزة المتيقظة المثقلة بالأعباء، بالمعرفة، الكتومة. وزلماي، المتطلع إلى والده بلهفة. سينتهي الأمر هكذا، ثمَ، فكرت ليلى، يالها من نهاية يرثى لها.

لكن عندها بدأ الظلام ينقشع. كان لديها إحساس بالارتفاع، وببطء، كان السقف يعود ثانية، يتمدد، والآن استطاعت ليلى تمييز الصدع ثانية، وكان نفس الابتسامة البلهاء القديمة.

كان هناك من يهزها، هل أنت بخير؟ أجيبيني، هل أنت بخير؟ وجه مريم مثقل بالخدوش، مثقل بالقلق، يخيم على ليلى.

حاولت أن تتنفس، كان ذلك يحرق حنجرتها، حاولت ثانية، آلمها أكثر هذه المرة، ليس فقط حنجرتها بل أيضاً صدرها، تتنفس مصدرة صوت صفّارة، تلهث.. لكنها تتنفس، وعندما كانت تسعل.. طنّت أذنها السليمة.

أول شيءٍ شاهدته ليلى عندما جلست كان رشيد. مستلقياً على ظهره، محدقاً باللاشيء دونٍ أن يرمش، وتعبيرٌ كفم السمكة.مع قليل من الرغوة، زهرية قليلاً، سالت من فمه إلى وجنته. مقدمة سرواله كانت مبللة. رأت جبهته.

ثم رأت المجرفة.

أنين خرج منها. "أوه" قالت، بارتعاش، بصعوبة همست، "أوه، مريم"

خطت ليلى، وهي تئن وتضرب يديها ببعضهما، بينما جلست مريم قرب رشيد، يديها في حضنها، هادئة دون حركة. لم تقل مريم شيئاً لوقت طويل.

فم ليلى كان جافاً، وكانت تُلعثم كلماتها.. ترتجف كلها. أجبرت نفسها ألا تنظر إلى رشيد، إلى فمه المرتخي، عينيه المفتوحتين، الدماء المتجمدة على تجويف عظم الترقوة.

خارجاً، كان الضوء يختفي، الظلال تزداد قتامة. وجه مريم بدا نحيلاً ومرهقاً في هذا الضوء، لكنها لم تبد أي اضطراب أو فزع، كانت فقط منهمكة، تفكر، تتمالك نفسها لدرجة أنه عندما حطت ذبابة على ذقنها لم تعرها أي اهتمام. فقط جلست هناك وشفتها السفلى متدلية، كما تكون عندما تستغرق في التفكير.

أخيراً.. قالت:
"اجلسي.. ليلى جو"
فعلت ليلى، منصاعة.
"علينا نقله.. لا يجب أن يرى زلماي هذا"
سحبت مريم مفتاح غرفة النوم من جيب رشيد قبل أن يلفوه بملاءة السرير. أمسكته ليلى من رجليه، تحت الركبتين، وأمسكت به مريم من الذراعين. حاولتا رفعه، لكنه كان ثقيلا، وانتهى بهم الأمر بسحبه. بينما كانتا تعبران الباب الأمامي للباحة، علقت قدم رشيد بإطار الباب وانثنت رجله في كل الاتجاهات. كان عليهما أن يعودا ويحاولا مجدداً، ثم ارتطم شيء ما بقوة في الأعلى وانهارت رجلي ليلى. رمت رشيد. وانهارت على الأرض، تبكي وترتجف، كان على مريم أن تقف فوقها، ويديها على وركيها، وتقول إن عليها أن تسيطر على نفسها. وأن ما حدث قد حدث. بعد وقت، نهضت ليلى ومسحت وجهها، حملتا رشيد إلى الباحة دون حوادث أخرى. أخذتاه إلى الورشة وتركتاه خلف طاولة المشغل حيث يضع منشاره، بعض المسامير، إزميل، مطرقة، وقطعاً أسطوانية من الخشب.. كان رشيد ينوي أن يصنع منها شيئاً ما لزلماي، لكنه لم يحصل أبداً على فرصة للقيام بهذا.
عادتا إلى الداخل، غسلت مريم يديها، ومررتهما على شعرها، أخذت نفساً عميقاً وأخرجته: "دعيني الآن أهتم بإصاباتك، جسمك كله جروح، ليلى جو"
قالت مريم إنها بحاجة لليلة لتفكر بحل للأمور. لتجمع أفكارها وتخرج بخطة.
"هناك طريقة" قالت.. "وعلي فقط إيجادها"
"علينا أن نغادر! لا نستطيع البقاء هنا" قالت ليلى بصوت خائر، أجش. فكرت بالصوت الذي لا بد أن تكون المجرفة قد أصدرته عندما انهالت على رأس رشيد، جفل جسدها، وتدفق الخوف إلى صدرها.

انتظرت مريم بصبر حتى شعرت ليلى أنها أحسن. ثم جعلتها تستلقي، وبينما كانت تمسد شعرها في حضنها، قالت مريم: "لا تقلقي، كل شيء سيكون جيداً".. قالت أنهم سيغادرون ـ هي، ليلى، الأطفال، وطارق أيضاً. سيغادرون هذا المنزل، وهذه المدينة غير الرحيمة. وكل هذا البلد البائس. قالت مريم وهي تمسد شعر ليلى، سيذهبون إلى مكان ما، بعيد وآمن، حيث لن يجدهم أحد، سيتخلصون من ماضيهم ويجدون ملجأ.

"مكان توجد فيه الأشجار" قالت.. "نعم، الكثير من الأشجار"

سيعيشون في منزل صغير على أطراف مدينة لم يسمعوا بها من قبل، قالت مريم، أو قرية نائية حيث الطرق ضيقة وغير معبدة، لكنها مرصوفة بكل النباتات والشجيرات. ربما هناك ممر يقود لحقل أخضر حيث يستطيع الأولاد اللعب فيه، أو طريقاً ممهدة بالحصى تنتهي ببحيرة زرقاء صافية مليئة بأسماك الترويت والقصب يطفو على السطح. ستربيان الأغنام والدجاج، وتصنعان الخبز معاً، وتعلمان الأولاد القراءة. ستصنعان لنفسيهما حياة جديدة ـ آمنة، حياة عزلة ـ وستنزاح كل الأعباء التي أثقلت كاهلهما، وستنعمان بكل السعادة والرفاهية البسيطة التي ستجدانها، تمتمت ليلى مشجعة. ستكون حياة حافلة بالمصاعب، ولكنها سعيدة، مصاعب ستتحملانها بفخر، برباطة جأش، ستكون ذات قيمة كالإرث العائلي. تابع صوت مريم الناعم العقلاني، وجلب نوعاً من الراحة لها. هناك طريقة، قالت، وفي الصباح، ستخبرها مريم ما الذي يجب فعله، وربما عند الصباح، هذه المرة ستكونان في طريقهما إلى حياة جديدة، حياة مترفة بالإمكانيات والفرح، والمصاعب المرحب بها. كانت ليلى سعيدة أن مريم كانت مسيطرة، واضحة وصاحية، قادرة على إيجاد حلٍ لكلتيهما، رغم أن عقل ليلى كان مذعوراً، وفي فوضى موحلة.

نهضت مريم: "يجب أن تهتمي بابنك الآن".. على محياها ارتسم أكثر تعبير صارم رأته ليلى على وجه إنسان.

وجدته ليلى في الظلام، في جهة الفراش الذي ينام عليه رشيد. انزلقت تحت الأغطية إلى جانبه، وسحبت البطانية عليهما.

"هل أنت نائم"؟

دون أن يستدير ليواجهها: "لم أستطع النوم بعد. بابا جان لم يتلُ معي صلوات البابا لو"

"ربما أستطيع تلوها معك الليلة"

"لا تستطيعين قولهم كما يفعل"

عصرت كتفه الصغير. وقبلت مؤخرة عنقه.

"أستطيع المحاولة"

"أين بابا جان"؟

"لقد ذهب بابا جان بعيداً".. قالت ليلى، اختنقت حنجرتها ثانية.

وها هي، تقال للمرة الأولى، الكذبة العظيمة، الملعونة.

كم مرة بعد يجب أن تقال هذه الكذبة؟ تساءلت ليلى بتعاسة. كم مرة يجب أن يُخدع زلماي، تخيلت زلماي، ابتهاجه، راكضاً يرحب برشيد عندما يعود ورشيد يحمله من مرفقيه، ويؤرجحه دائراً ودائراً حتى تطير رجلا زلماي متوازيتان مع الأرض، كان الاثنان يغرغران من الضحك عندما يترنح زلماي كالثمل، فكرت بألعابهما غير المنظمة وضحكاتهما الصاخبة، ونظراتهما السرية، ستار من الحزن والخجل انسدل على ليلى.

"أين ذهب"؟

"لا أعلم يا حبي"

"عندما يعود؟ هل سيجلب بابا جان هدية معه عندما يعود"؟ تلت الصلوات مع زلماي. إحدى وعشرين بسم الله الرحمن الرحيم، واحدة لكل برجمة من سبعة أصابع. راقبته وهو يضع يديه أمام وجهه وينفخ فيهما، ثم يضع راحة كل يد على جبهته، ويصنع حركة كأنه يبعد فيها شيئاً ما، هامساً، بابالو، اذهب، لا تأتي لعند زلماي، لا علاقة له بك. بابالو. اذهب. ثم لينتهيا من الأمر، ختما بالله أكبر ثلاث مرات. لاحقاً

في تلك الليلة، ذهلت ليلى عندما همس زلماي : هل غادر بابا جان بسببي؟ بسبب ما قلته، عنك وعن الرجل في الأسفل؟

انحنت فوقه، لتتأكد، تريد أن تقول أن لا علاقة للأمر بك، زلماي. لا. لا شيء خطؤك. لكنه كان نائماً. كان صدره الصغير يعلو ويهبط.

عندما ذهبت ليلى إلى السرير، كان عقلها خامداً وضبابياً، عاجز عن التفكير بعقلانية. ولكنها عندما استيقظت على آذان الصبح، كان الكثير من العتمة قد انزاح.

جلست وراقبت زلماي لفترة وهو نائم، يده على شكل قبضة تحت ذقنه. تخيلت ليلى مريم تتسلل إلى الغرفة في منتصف الليل، بينما هي وزلماي نائمان، تراقبهما، وتضع الخطط في رأسها.

نهضت ليلى من السرير، كان الوقوف مجهداً. كانت تتألم من كل مكان، عنقها، كتفيها، ظهرها، يديها، وركها، كل جزء من جسمها كان محفوراً بحزام رشيد. انتفضت، وبهدوء، غادرت غرفة النوم.

في غرفة مريم، كان الضوء معتماً، ذلك الضوء الذي تعرفه ليلى مترافقاً مع صياح الديكة وقطرات الندى تتدحرج على العشب. كانت مريم جالسة في الزاوية، على سجادة الصلاة، بمواجهة النافذة. ببطء، جلست ليلى على الأرض، قبالتها.

"يجب أن تذهبي لزيارة عزيزة هذا الصباح".. قالت مريم.

"أعلم ما الذي تريدين فعله"

"لا تمشي. خذي الباص، ستندمجين مع الآخرين. التاكسي مثيرة للريبة كثيراً. وسيوقفونك بالتأكيد لركوبك وحيدة"

"ما وعدت به الليلة الماضية .."

لم تستطع ليلى أن تنهي، الأشجار، البحيرة، القرية غير المعروفة، أدركت أنها كذبة جميلة لتهدئتها. كالتودد إلى طفل مشتت.

"قصدت ذلك" قالت مريم : "قصدت ذلك لأجلك، ليلى جو"

"لا أريد أي شيء بدونك" نشجت ليلى.

ابتسمت مريم ابتسامة شاحبة..

"لقد أردت الأمر كما قلت مريم، أن نذهب كلنا، أنت، أنا، الأطفال، لدى طارق مكان في باكستان. نستطيع التواري عن الأنظار هناك لفترة، ننتظر إلى أن تهدأ الأمور..."

"ذلك غير ممكن" قالت مريم بصبر، كأب لطفل حسن النية ولكن مضلل.

"سنعتني ببعضنا" قالت ليلى، وهي تختنق بالكلمات، غرقت عيناها بالدموع.

"كما قلت. لا. سأهتم بك مرة على سبيل التغيير"

"أوه، ليلى جو"

مضت ليلى وهي تتلعثم، كانت تساوم. وعدت أن تقوم بكل التنظيف، كل الطبخ، "لن يكون عليك أن تقومي بأي شيء ثانية. أنت استريحي، نامي، ازرعي حديقة. أي شيء تريدين، اطلبي وأنا سألبي. لا تفعلي هذا مريم. لا تتركيني. لا تفطري قلب عزيزة"

"يقطعون الأيدي لسرقة الخبز" قالت مريم: "ما الذي تظنين أنهم سيفعلون عندما يجدون زوجاً ميتاً وزوجتان مفقودتان"؟

"لا أحد سيعرف" تنفست ليلى.. "لا أحد سيجدنا"

"سيفعلوا.. عاجلاً أم آجلا، إنهم ككلاب الصيد الدموية" كان صوت مريم منخفضاً وحذراً، جعل هذا وعود ليلى تبدو خيالية، مفتعلة وحمقاء.

"أرجوك مريم..."

"عندما يفعلون، سيجدونك مذنبة بقدري أنا. وطارق أيضاً. لن أدعكما تعيشان حياة الهرب، كاللاجئين. ما الذي سيحدث لأطفالك إذا أمسكوا بك"؟

طفحت عينا ليلى..

"من سيهتم بهما عندئذ، طالبان؟ فكري كأم ليلى جو، فكري كأم. مثلما أفعل".

"لا أستطيع"

"يجب عليك ذلك"
"هذا غير عادل".. أنَّت ليلى.
"لكنه كذلك. تعالي هنا. تعالي واستلقي هنا"
زحفت ليلى إليها ثانيةٍ ووضعت رأسها في حضن مريم. تذكرت كل الأوقات التي قضتاها معاً، تضفران شعر بعضهما البعض، ومريم مصغية بصبر لأفكارها العشوائية وقصصها العادية بنَفَسٍ من العرفان، بتعبير شخص فريد يشتهي هذا الامتياز.
"إنه عادلٍ".. قالت مريم: "قتلت زوجنا. حرمت ابنك من والده. ليسٍ أخلاقياً أن أهرب. لا أستطيع. حتى لو لم يستطيعوا الإمساك بنا، أبداً لن ..." ارتجفت شفتاها..
"لن أستطيع الهروب من حزن ابنك. كيفٍ أجرؤ على النظر إليه؟ كيف أستطيع أن أجبر نفسي على النظر إليه أبداً، ليلى جو؟"
كانت مريم تبرم شعر ليلى، وتحل الشعر المتماسك.
"بالنسبة لي، انتهى الأمر هنا. لا يوجد شيء أتطلع إليه. كل شيء تمنيتِه عندما كنت صغيرة منحتني إياه. جعلتني أنت وأولادك سعيدة جداً. كل شيء على ما يرام ليلىٍ جو. إناٍ على ما يرام. لا تكوني حزينة"
لم تستطع ليلى أن تجد جواباً منطقياً لأي شيء قالته ليلى. ولكنها تكلمت بأي حال، بشكل مشوش وطفولي، عن أشجار الفاكهة التي تنتظر أن تزرع، والدجاج الذي سيربى. مضت تتحدث عن المنازل الصغيرة في مدن بلا أسماء، والنزهات إلى بحيرات الترويت. وفي النهاية، حين جفت الكلمات، لم تكن كذلك حال الدموع، وكل ما استطاعت ليلى فعله، هو الاستسلام والبكاء كطفل غلب على أمره من منطق الكبار. أن تتمالك نفسها وتدفن وجهها للمرة الأخيرة في حضن مرِيم الرحب، الدافئ.
لاحقاً، ذاك الصباح، جهزت مريم غداء لزلماي من الخبز والتين المجفف. ومن أجل عزيزة أيضاً، أضافت بعض التين وبعض البسكويت على شكل حيوانات. وضعت كل ذلك في كيس ورقي وأعطته لليلى.

"قبلي عزيزة عني" قالت.. "قولي لها إنها النور لعينيي وسلطانة قلبي. ستفعلين ذلك من أجلي؟"

أومأت ليلى برأسها، و شفتاها مزمومتان.

"خذي الباص، كما قلت، وأبقي رأسك منخفضاً"

"أين سأراك مريم؟ أريد أن أراك قبل أن أشهد. سأخبرهم كيف حدث الأمر. سأوضح أنها لم تكن غلطتك. وأنك اضطررت لفعل ذلك. سيفهمون، ألن يفهموا، مريم؟ سيفهموا"

نظرت إليها مريم نظرة حانية، نظرت إلى الأسفل لتلتقي عيناها بعيني زلماي.

كان يرتدي تي شيرتاً أحمر، وكاكيساً بشرا شيب، وزوج أحذية كاوبوي مستعملة اشتراها له رشيد من مانداي. كان يمسك بكرة السلة الجديدة بيديه. قبلته مريم على خده.

"كن ولداً جيداً، قوياً، الآن" قالت..

"عامل أمك جيداً".. واحتضنت وجهه. تراجع لكنها بقيت ممسكة به.

"أنا آسفة جداً، زلماي جو. صدقني إني آسفة جداً لكل ألمك وحزنك"

أمسكت ليلى بيد زلماي بينما كانا ينزلان الطريق سوية. وقبل أن تصل إلى المنعطف مباشرة، نظرت ليلى إلى الخلف وشاهدت مريم عند الباب. كانت مريم ترتدي وشاحاً أبيض على رأسها، وكنزة زرقاء غامقة مزررة من الأمام، وبنطال قطني أبيض. خصلة شعر رمادية تهدلت على جبهتها. أشعة الشمس انسكبت على وجهها وكتفيها. لوحت مريم بلطف.

قطعا المنعطف، ولم تر ليلى مريم ثانية.

الفصل السابع والأربعون

مريم

سجن (والات) للنساء كان باهتاً، بناء مربع في شار- إي - ناو قرب شارع الدجاج. يقع في منتصف مجمع أكبر يحوي نزلاء رجال. باب مقفل كان يفصل مريم والنساء الأخريات عن الرجال المحيطين. عدّت مريم خمس زنزانات عامرة. كانت غرفاً غير مفروشة، جدران قذرة ومقشرة، بنوافذ صغيرة تطل على الباحة. كانت النوافذ ذات قضبان حديدية، على الرغم من أن أبواب الزنازين لم تكن مقفلة، وكان للنساء حرية الدخول والخروج إلى الباحة كما يرغبن. النوافذ دون زجاج ودون ستائر، ما يعني أن الحراس الطالبان الذين يتجولون في الباحة، كانت أعينهم في داخل الزنازين. بعض النساء اشتكين أن الحراس يدخنون خارج النافذة وينظرون إلى الداخل بعيونهم الملتهبة وابتساماتهم الماكرة، يتمتمون عنهن بكلام فاجر. بسبب ذلك، أغلب النساء، كن يرتدين البرقع طوال اليوم، ويخلعنه فقط بعد غياب الشمس، وذلك حين تقفل البوابة الرئيسية ويذهب الحراس إلى مراكزهم. في الليل، كانت الزنزانة، التي تتشاركها مريم مع خمسة نساء، مظلمة. في تلك الليالي، عندما لا يوجد كهرباء، يرفعن نجمة، فتاة قصيرة مسطحة الصدر ذات شعر أسود إلى السقف حيث يوجد هناك سلك منزوع. كانت نجمة تلفه بيدها وتوصله إلى اللمبة وتصنع دارة.

كانت الحمامات بحجم الخزائن، الأرض الإسمنتية متصدعة، وهناك حفرة صغيرة مستطيلة في الأرض، في الأسفل تتجمع أكوام من الغائط. ويطّن الذباب من وإلى الحفرة. في منتصف السجن باحة مستطيلة مفتوحة، وفي منتصفها بئر. لم يكن للبئر مصرف، وهذا يعني أن الباحة كانت غالباً مغمورة بمياه عفنة الطعم، وكانت الحبال مثقلة

بالثياب المغسولة يدوياً، من الجوارب إلى الحفاضات، متشابكة مع بعضها البعض في الباحة. في هذا المكان، كان النزلاء يلتقون بالزوار، حيث يطبخون الأرز الذي تأتي به عائلاتهم ـ فالسجن لا يقدم الطعام. بينما كانت الساحة ملعباً للأولاد أيضاً ـ علمت مريم أن العديد من الأولاد ولدوا في والات ولم يروا العالم خارج هذه الجدران. راقبتهم مريم وهم يلاحقون بعضهم، وأرجلهم الحافية مغمورة بالوحل. طوال اليوم يركضون حول الساحة، يبتكرون ألعاباً، غير منتبهين لرائحة الغائط الكريهة، ولرائحة البول المتغلغلة في والات وفي أجسادهم، غير مكترثين بحراس طالبان إلى أن يأتي أحدهم ويصفعهم.

لم يكن لدى مريم زوار، كان ذلك الشيء الوحيد الذي طلبته من مسئولي الطالبان، لا زوار.

ولا امرأة من النساء اللواتي كن في زنزانة مريم، تقضي عقوبة بسبب جريمة عنيفة ـ كلهن هناك بسبب إساءات عامة (الهروب من المنزل).. نتيجة لذلك حصلت على بعض السمعة بينهم، أصبحت شهيرة. فقد كانت النسوة ينظرن إليها باحترام، وعلى الأغلب برهبة، قدمن لها أغطيتهن، وكن يتنافسن على مشاركتها طعامهن. الأبرز بينهن كانت نجمة التي كانت دائماً تمسك بمرفقها وتتبعها إلى كل مكان. نجمة كانت من نوع الأشخاص الذين يجدون تسليتهم بنشر الأخبار السيئة، إن كانت عن الآخرين أو حتى عن أنفسهم . قالت إن والدها وعد بها خياطاً أكبر منها بحوالي الثلاثين عاماً.

"رائحته كالغول، ولديه أسنان لا يتجاوز عددها أصابع اليد" قالت نجمة عن الخياط.

حاولت الهرب إلى غارديز مع شاب صغير وقعت في حبه، ابن أحد الموللات المحليين. بشق الأنفس غادرا كابول، وعندما أمسك بهما وأعيدا، جُلد ابن المُلَّا قبل أن يعلن توبته ويقول إن نجمة قد أغرته بسحرها الأنثوي. وإنها ألقت تعويذة عليه. وأنه سيكرس نفسه لدراسة القرآن. أطلق سراح ابن الملا، وحكمت نجمة بخمس سنوات سجن.

قالت، وجودها هنا في السجن كان أفضل لأن والدها أقسم أن اليوم الذي سيطلق فيه سراحها سيكون اليوم الذي سيذبحها بالسكين.

وهي تصغي إلى نجمة، تذكرت مريم الوميض الباهت للنجمات الباردة، الغيوم الوردية الخفيفة التي تندفع فوق جبال صافيد - كوه ذلك الصباح الذي مضى منذ زمن بعيد عندما قالت لها نانا، كما تشير البوصلة دائماً إلى الشمال، فإن إصبع الرجل يجد امرأة ليتهمها. دائماً. تذكري هذا، مريم.

انعقدت محكمة مريم الأسبوع الماضي، لم يكن هناك مجلس قانوني، لا حضور، لا استدعاء للشهود، لا استئناف. أسقطت مريم حقها بالشهود. دام الأمر أقل من خمسة عشر دقيقة.

القاضي الأوسط، هش المنظر، طالباني، كان الرئيس. كان نحيفاً جداً، ببشرة متقرحة صفراء ولحية حمراء مجعدة. يرتدي نظارات تبدو عيناه فيها كبيرتين وتبدي كم هو أصفر بياض عينيه. عنقه بدت نحيلة جداً لتحمل ذاك التوربان الملفوف على رأسه.

"تقري بما اقترفت، هامشيرا"؟ سألها ثانية بصوت متعب.

"أجل" قالت مريم.

أومأ الرجل. أو ربما لم يفعل. كان من الصعب معرفة ذلك إذ كان لديه ارتجاف واضح في يديه ورأسه، ذكّر ذلك ليلى بارتجاف الملا فايزالله. عندما يشرب، لم يكن يمد يده إلى الكوب. يشير إلى الرجل ذو الكتفين المربعين على يساره، والذي بكل احترام، كان يرفع الكأس إلى شفتيه. بعدها، أغمض الطالباني عينيه بلطف، إشارة صامتة وأنيقة ممتنة.

وجدته مريم من النوع غير القادر على الإيذاء. عندما تحدث، تكلم بشيء من المكر والرقة. كانت ابتسامته صبورة. لم ينظر إلى مريم باحتقار. لم يخاطبها بحقد أو باتهام لكن بنبرة ناعمة معتذرة.

"هل تفهمين تماماً ما الذي تقولينه"؟ قال الطالباني ذو الوجه البارز العظام على يمين القاضي، ليس مناول الشاي. هذا كان أصغر الثلاثة. تكلم بسرعة وبطريقة تأكيدية، متغطرسة وواثقة. كان غاضباً لأن مريم

لا تتكلم الباشتو. صعق مريم بأنه نوع من الشباب المشاكس الذي يستلذ بسلطته.. الذي يرى الجرائم في كل مكان، معتقداً أن لديه حقاً وراثياً بإصدار الأحكام.

"إنني أفهم" قالت مريم.

"أتساءل" قال الطالباني الشاب. "جعلنا الله مختلفين، أنتن نساء ونحن رجال. دماغنا مختلف. ليس لديك القدرة على التفكير مثلما نفعل نحن. لقد أثبت الأطباء الغربيين وعلماؤهم ذلك. لذلك نحن نطلب شاهداً ذكراً واحداً فقط، مقابل امرأتين"

"أقر بما فعلت، أخي" قالت مريم. "ولكني لو لم أفعل، كان سيقتلها.. كان يخنقها"

"هكذا تقولين، لكن، مع ذلك، النساء تقسم بأي شيء كل الوقت"

"إنها الحقيقة"

"هل لديك شهود؟ غير ضرتك؟"

"ليس لدي" قالت مريم.

"حسناً إذاً".. مد يديه وضحك.

كان الطالباني المريض من تكلم بعدها.

"لدي طبيب في بيشاور" قال: "شاب باكستاني جيد. رأيته منذ شهر، ثم ثانية الأسبوع الماضي. قلت، أخبرني الحقيقة يا صديقي، فقال لي، ثلاثة أشهر، مللا صاحب، ربما ستة على الأكثر - كل شيء بإرادة الله، بالطبع"

أومأ بشكل رصين إلى الرجل ذو الكتفين المربعين على يساره، وأخذ رشفة أخرى من الشاي الذي قدم له. مسح فمه بقفا يده المرتجفة.

"لا يخيفني أن أغادر هذه الحياة، التي غادرها ابني الوحيد منذ خمسة سنوات مضت، هذه الحياة تصر على أن نحمل حزناً فوق حزن حتى نصبح غير قادرين على التحمل أكثر. أعتقد أنه يجب أن أغادر الحياة بسعادة عندما يحين الوقت"

"ما يخيفني، هامشيرا، هو اليوم الذي يستدعيني فيه الله لأقف أمامه ويسألني، لماذا لم تفعل كما أمرت، مللا؟ لماذا لم تطع أمري؟ كيف سأشرح نفسي له، هامشيرا؟ ما هو دفاعي لعدم احترامي أوامره؟ كل ما أستطيع فعله، كل ما يستطيع أي منا فعله، في الوقت الممنوح له، هو إطاعة القوانين التي سنها لنا. كلما رأيت نهايتي بوضوح، أختي، كلما كنت قريباً من يوم الحساب، ولذلك أصبح أكثر تصميماً على حمل كلمته مهما ثبت أنها مؤلمة"

غير من جلسته على كرسيه وأومأ بعطف.

"أنا أصدقك عندما تقولين أن زوجك كان ذو طباع كريهة" استأنف.. مسلطاً عينيه على مريم، كانت نظرته صارمة وعطوفة بنفس الوقت.

"لكنني لا أستطيع منع نفسي من الاستياء من عملك الوحشي، هامشيرا. إنني مستاء لما قمت به، ومستاء لأن ابنه الصغير كان ينادي عليه، في الأعلى، عندما قمت، بذلك.

"أنا متعب وأموت، وأريد أن أكون رحيماً. أريد أن أغفر لك. لكن عندما يستدعيني الله ويقول، لم يكن لك الحق لتغفر لها، مللا، ما الذي سأقوله؟"

هز مرافقيه رؤوسهم ونظروا إليه بتقدير.

"شيء ما يخبرني أنك لست امرأة شريرة، هامشيرا. لكنك قمت بعمل شرير. ويجب عليك دفع ثمن ما فعلت. إن الشريعة واضحة في هذه القضية. تقول إنه علي إرسالك إلى حيث سأنضم إليك سريعاً..

هل تفهمين، هامشيرا؟"

نظرت مريم إلى يديها. وقالت أنها تفهم ذلك.

"ليرحمك الله".

قبل أن يقودوها إلى الخارج، أُعطيت مريم وثيقة، وأُخبرت أن توقع تحت إفادتها، وتحت حكم الملالي. بينما كان الطالبان الثلاثة يراقبون، كتبت مريم اسمها ـ الميم، الراء، الياء ثم الميم ـ متذكرة المرة

الأخيرة التي وقعت فيها اسمها على وثيقة قبل سبعة وعشرين عاماً، على طاولة جليل، تحت نظر ملا آخر.

أمضت مريم عشرة أيام في السجن. كانت تجلس عند نافذة الزنزانة تراقب حياة السجن في الباحة. عندما تهب رياح الصيف، كانت تشاهد قصاصات الورق تدور بشكل لولبي في التيار الهوائي، بينما ترتفع القصاصات في هذا الاتجاه أو ذاك عالياً فوق أسوار السجن. راقبت الرياح وهي تحرك ثورة في الرمال، رامية إياها في تيارات عنيفة لولبية وتقذف بها في الباحة. كل شخص ـ الحراس، النزلاء، الأطفال، مريم.. كانوا يخفون وجوههم بأيديهم ولكن الغبار لا يستسلم. كان يدخل عبر فتحات الأذن وفتحتي الأنف، عبر رموش العيون وطيات الجلد، وبين الأسنان. فقط عند الغروب، تنتهي تلك الدوامة. وعندها، إذا هب النسيم في الليل، يكون خجولاً، كأنه يعلن موت قريب له.

في اليوم الأخير لمريم في والات. أعطتها نجمة ثمرة مندارين. وضعتها في راحة يدها، وأغلقت أصابعها حولها. ثم انفجرت بالبكاء.

"إنك أفضل صديقة حصلت عليها" قالت.

قضت مريم بقية اليوم عند النافذة ذات القضبان، ترقب النزلاء في الأسفل، أحدهم كان يصنع وجبة طعام. رائحة الكمون العطرة دخلت من النافذة. كانت ترى الأطفال يلعبون لعبة الغميضة. فتاتان صغيرتان تدندنان بأغنية تذكرتها مريم من طفولتها، تذكرت جليل وهو يغنيها لها بينما كانا يجلسان على صخرة ويصطادان السمك في الجدول.

ليلي.. ليلي طريق الطيور
جالسة على طريق ترابي
ميناو جلست عند الحافة وشربت
انزلقت.. وفي الماء غطست.

حلمت مريم أحلاماً مبعثرة تلك الليلة. حلمت بالحصى، بأحد عشرة حصوة، مرتبين بشكل عامودي. جليل، شاب ثانية، كله ابتسامات انتصار، وغمازة في ذقنه ونقاط من العرق، معطفه يتطاير

فوق كتفه، أتى أخيراً لأخذ ابنته بعيداً في جولة بسيارته البويك السوداء اللامعة (كاسحة الطريق).

الملا فايز الله يسبّح بمسبحته، يتمشى معها على طول الجدول، ظلهما يترقرق على سطح الماء وعلى الضفاف المعشوشبة باللافيندر الأزرق والسوسن البري والذي تبدو رائحته في هذا الحلم كرائحة الثوم، حلمت بنانا على باب الكولبا، صوتها باهت وبعيد، يناديها للعشاء، بينما مريم تلعب عند العشب المتشابك البارد، حيث الحشرات تزحف والخنافس تجري والجراد يثب وسط العشب، صرير عربة مجهدة من الممر المغبر. أصوات الأجراس المعلقة على رقاب الأبقار. وثغاء الأغنام في التلة.

في الطريق إلى استاد غازني، كانت مريم تترنح في أرضية الصندوق بينما تفادت الحفر ودواليبها تطحن الحصى. التقافز آذى فقرات عجزها، كان شاب طالباني مسلح يجلس قبالتها وينظر إليها. تساءلت مريم إن كان هو (الجلاد)، هذه الملامح الشابة اللطيفة، عيون سوداء عميقة لامعة، ووجه رقيق، وأظفره الأوسط المعقوف المطلي بالأسود ينقر به جانب الشاحنة.

"هل أنت جائعة، أمي"؟ سأل.

هزت مريم رأسها أن لا.

"لدي بسكويتة. إنها جيدة. تستطيعين أخذها إن كنت جائعة. لا أمانع"

"لا، شكراً، أخي"

أومأ برأسه، ونظر إليها بلطف.

"هل أنت خائفة، أمي؟"

غصت مريم. وبصوت مرتجف أخبرته مريم الحقيقة..

"نعم، إنني خائفة جداً"

"لدي صورة لوالدي" قال.. "لا أتذكره. كان يصلح الدراجات، أعرف هذا القدر عنه، لكني لا أتذكر كيف كان يتحرك، تعلمين، كيف يضحكٍ أو كيف يبدو صوته"

نظر بعيداً ثم ثانية إلى مريم..

"اعتادت أمي أن تقول إنه أشجع رجل عرفته، كالأسد، . ولكنها أخبرتني أنه كان يبكي مثل طفل في ذلك الصباح الذي أخذه فيه.. الشيوعيون. أنا أخبرك بهذا لتعلمي إنه أمر طبيعي أن تكوني خائفة. لا تخجلي، أمي"

لأول مرة، في ذلك اليوم، بكت مريم قليلاً.

كانت آلاف العيون مسلطة عليها. في المدرج المزدحم، كانت الأعناق تتطاول لترى بشكل أفضل.

والألسنة تطرقع. صوت همهمات علت المدرج عندما نزلت مريم من الشاحنة. تخيلت مريم الرؤوس تهتز عندما أعلن بمكبر الصوت عن جريمتها. لكنها لم تنظر للأعلى لترى إن كانوا يهزون رأسهم باتهام أو بإحسان، بتوبيخ أو بشفقة. أعمت مريم عينيها عنهم كلهم.

في وقت مبكر ذلك الصباح، كانت خائفة من أن تقوم بعمل أحمق، إنها قد تبكي، تتوسل جمهرة المتفرجين. خافت من أن تصرخ أو تتقيأ أو حتى تبلل نفسها، في لحظاتها الأخيرة، ستخونها غريزتها الحيوانية أو تجلب العار لنفسها. ولكنها عندما كانت تنزل من الشاحنة، لم ترتعد رجلاها. ولم تخذلها يداها، لم يكن على أحد أن يجرها، عندما أحست بنفسها تضطرب، فكرت بزلماي، الذي أخذت منه حب حياته.. الذي سيخيم على أيامه الحزن لعدم وجود أبيه. وعندها، انتصبت مريم، ثبتت نفسها واستطاعت المشي دون إجبار.

رجل مسلح اقترب منها وأخبرها أن تمشي إلى المرمى الجنوبي. أحست مريم بالجمع مشدود باهتمام. لم تنظر إلى أعلى. أبقت عينيها مسلطتين على الأرض، على ظلها، على ظل جلادها الذي يتبعها.

رغم أنه كانت هناك لحظات من الجمال فيها، عرفت مريم أن الحياة بمعظمها كانت قاسية معها. لكنها بينما كانت تمشي الخطوات العشرين الأخيرة، لم تستطع منع نفسها من أن تتمنى المزيد منها. تمنت لو أنها تستطيع رؤية ليلى ثانية، تمنت سماع صوت ضحكتها الصاخبة، أن تجلس معها مرة أخرى وتشرب الشاي وبقايا الحلوى تحت ضوء نجوم السماء. حزنت أنها لن تستطيع أبداً رؤية عزيزة تكبر، لن ترى المرأة الجميلة التي ستصبحها، لن تستطيع وشم يديها بالحناء ورمي الحلوى في عرسها. لن تلعب أبداً مع أطفال عزيزة. كانت لتحب ذلك جداً، أن تتقدم بها السن وتلعب مع أطفال عزيزة.

قرب المرمى، سألها الرجل الذي خلفها أن تتوقف. فعلت مريم. من خلال النسيج الشبكي للبرقع، رأت خيال يده وهي ترفع الكلاشنكوف. رغبت مريم بالكثير في تلك اللحظات الأخيرة وبالرغم من ذلك، عندما أغمضت عينيها، لم يكن هناك أي ندم، ولكن، إحساس وافر بالسلام، غمرها. فكرت بدخولها إلى هذا العالم، طفلة ابنة حرام من قروية وضيعة، شيء عابر، تافه، حادثة يؤسف لها، عشبة ضارة. وعلى الرغم من ذلك، كانت تغادر هذه العالم امرأة أحبت وأُحبت. تغادر هذا العالم كصديقة، رفيقة، ولية أمر، أم، شخص قدم شيئاً مفيداً أخيراً. لا. لم تكن سيئة جداً، فكرت مريم، و أن تموت بهذه الطريقة. ليس سيئاً جداً. إنها نهاية شرعية لحياة بدايتها غير شرعية.

كانت آخر أفكار مريم، بضع كلمات من القرآن، التي همهمت بها. "خلق السموات بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفور."

"اركعي" قال الطالباني.

آه إلهي! اغفر لي وارحمني، أنت أرحم الراحمين.

"اركعي هنا، هامشيرا. وانظري للأسفل"

لآخر مرة، فعلت مريم ما أمرت به.

القسم الرابع

الفصل الثامن والأربعون

كان طارق يعاني من آلام في رأسه الآن.

بعض الليالي، تستيقظ ليلى وتجده جالساً على حافة سريرهما، يرتجف، وقميصه الداخلي مسحوب على رأسه. آلام الرأس بدأت في ناصير باغٍ، كما يقول، ثم ساءت في السجن. أحياناً جعلوه يتقيأ، يغطون عيناً واحدة. قال إنها كسكين جزار تحز في جهة واحدة، تتلوى ببطء داخل دماغه ثم تنتقل إلى الجهة الأخرى.

"أستطيع تذوق المعدن، حتى، عندما يبدؤون"

أحياناً، كانت ليلى تبلل قطعة ملابس بالماء وتضعها على جبهته فيساعده هذا قليلاً. وكذلك الحبوب البيضاء الدائرية التي أعطاه إياها طبيب صاحب الفندق، سعيد، كانت أيضاً تساعده. ولكنه في ليال أخرى، كان كل ما يستطيع فعله هو أن يمسك برأسه ويئن. عيناه محتقنتان بالدماء وأنفه يسيل. تجلس ليلى معه عندما يكون في قبضتها هكذا، تفرك مؤخرة عنقه، وتأخذ يده بيدها، معدن خاتم زواجه بارد في راحة يدها.

تزوجا في اليوم الذي وصلا فيه إلى موري. بدا سعيد مرتاحاً عندما أخبره طارق أنهما سيفعلان.

لم يكن عليه أن يفتح مع طارق المسألة الحساسة عن الأشخاص غير المتزوجين الذين يعيشون معاً في فندقه.

لم يكن سعيد كما تخيلته ليلى، وجه متورد وعينان كحبة الفاصولياء. شارب بين الأبيض والأسود يفتل نهايتيه بقمة حادة، شعر رمادي طويل مصفف للخلف من الجبهة. كان متحدثاً لطيفاً، رجل ذو أخلاق.. بحديث موزون وحركات رشيقة.

كان سعيد من استدعى صديقاً وملا ذاك اليوم، وهو الذي أخذ طارق جانباً وأعطاه بعض النقود، لم يكن طارق يريد أخذها، ولكن سعيد أصر. ذهب طارق إلى السوق وعاد بخاتمين بسيطين للزواج. تزوجا لاحقاً تلك الليلة، بعد أن ذهب الأولاد إلى أسرّتهم.

في المرآة، وتحت الخمار الأخضر الذي رماه الملا على رؤوسهم، التقت عينا ليلى بعيني طارق، لم يكن هناك دموع، ولا ابتسامات يوم الزفاف، ولا وعود هامسة بحب يدوم للأبد. بصمت، نظرت ليلى إلى انعكاسهما، إلى وجهيهما الذين شاخا أكثر من أعوامهما، إلى التجعدات والخطوط والتقوسات الموجودة الآن على وجهيهما اللذين كانا يوماً يانعان، وفتيّان.

فتح طارق فمه وبدأ بقول شيء ما، لكن، لحظة فعله هذا، أحد ما سحب الخمار، ولم تسمع ليلى ما الذي كان سيقوله.

في تلك الليلة، استلقيا في السرير كزوج وزوجة، بينما كان الأولاد يغفون في أسرّتهم. تذكرت ليلى السهولة التي كانا يستطيعان حشو الهواء بينهما بالكلمات، هي وطارق، عندما كانا أصغر، الفيضان المجنون لحديثهما، دائماً يقاطعان بعضهما، أحدهما يشد ياقة الآخر مؤكداً وجهة نظره، الكثير من الأمور حدثت منذ أيام الطفولة تلك، الكثير مما يجب أن يقال. ولكن الليلة الأولى تلك بكل زخمها سرقت الكلمات منها. تلك الليلة، كانت مباركة كفاية لتكون بجانبه. مباركة كفاية لتعرف أنه هنا، أن تشعر بدفئه إلى جانبها، أن تستلقي معه، رأسيهما يتلامسان، يده اليمنى متشابكة مع يدها اليسرى.

في منتصف الليل، عندما استيقظت ليلى عطشه، وجدت يديهما مازالتا متشابكتين، مثل لهفة الأطفال وهم يمسكون بخيط البالون.

أحبت ليلى صباحات موري الباردة والضبابية، غسقها المبهر، لمعان ظلمة السماء في الليل، أشجار الصنوبر الخضراء، والسناجب ذات اللون البني تقفز أعلى وأسفل جذوع الأشجار القوية، الانهمار المفاجئ للأمطار الذي يجعل المتسوقين في (المول) يتدافعون ليجدوا ما

يحتموا به. أحبت ليلى محلات التذكارات، والفنادق المختلفة التي تأوي السياح، التوسع في البنيان الذي يأكلٍ من جمال موري الطبيعي.. كما يقول البعض. وجدت ليلى ذلك غريبا، أن يندب الناس بناء الأبنية. في كابول، كانوا ليحتفلوا بذلك.

أحبت وجود حمام خاص بهم، ليس خارج المنزل.. إنه حمام حقيقي، بكرسي، دوش يتدفق، ومغسلة أيضا، حنفيتان تستطيع فتحهما، بلمسة من رسغها. الماء، حار أو بارد. كانت تحب أن تستيقظ على صوت إليونا وهي تُمأمئ في الصباح، وصوت الطباخة المشاكسة بلا أذى، أديبة، التي تعمل بشكل رائع في المطبخ. في بعض الأوقات، بينما ليلى تراقب طارق وهو نائم، بينما أولادها يتمتمون ويتقلبون في نومهم، دفقة كبيرة من الامتنان تندفع إلى حنجرتها، وتجعل عيناها تفيضان.

في الصباحات، تتبع ليلى طارق من غرفة إلى غرفة. مفاتيح ترن من حلقة مشكولة في بنطالهِ وعلبة بَخ لتنظيف النوافذ تتدلى من عروة حزام الجينز. تجلب ليلى دلواً مليئاً بالخرق، مطهر، فرشاة حمام، وملمع للخرائن. تأتي عزيزة، ممسحة في يد، واللعبة التي صنعتها مريم لها مِن حباتِ البازلاء في يد أخرى. يتبعهم زلماي على مضض، متجهماً، دائماً خلفهم ببضع خطوات.

في أوقات فراغ ليلى، كانت ترتب الأسرّة وتنفض الغبار. ينظف طارق المغاسل والأحواض في الحمامات، ويفرك الحمامات ويمسح الأرضية الجصية. يضع المناشف النظيفة على الرفوف، وعلب الشامبو الصغيرة، لوحا صابون بعطر اللوزِ. كانت عزيزة تؤدي مهمتها في بخ ومسح النوافذ. اللعبة لا تبتعد أبداً عن مكان عملها.

أخبرت ليلى عزيزة عن طارق بعد أيام قليلة من الزواج. إنه أمر غريب، فكرت ليلى، وتقريباً غير مريح، الشيء الذي بين عزيزة وطارق. منذ الآن، عزيزة تنهي جُمَله وهو ينهي جُمَلها. تناوله الأشياء قبل أن يسأل عنها، ابتسامات خاصة يتبادلاها على طاولة العشاء،

كأنهما ليسا غريبان أبداً، صديقان وعادا لبعضهما بعد طول فراق.
أطرقت عزيزة بيديها مفكرة عندما أخبرتها ليلى.

"أحبه" قالت بعد توقف طويل.

"إنه يحبك"

"قال هذا"؟

"ليس عليه، عزيزة"

"أخبريني البقية، مامي. أخبريني حتى أعرف"

وأخبرتها ليلى.

"والدك رجل جيد. إنه أفضل رجل عرفته"

"ماذا إذا رحل"؟ قالت عزيزة.

"لن يغادر أبدا. انظري إلي عزيزة. لن يجرحك والدك أبداً، لن يغادر أبداً"

الارتياح الذي بدا على وجه عزيزة فطر قلب ليلى.

اشترى طارق لزلماي حصاناً هزازا، وصنع له عربة. ومن نزيل في السجن تعلم كيف يصنع حيوانات من الورق، كان يطوي، يقطع ويثني عدداً لا يحصى من الأوراق فيحولها إلى أسود، كناغر لأجل زلماي، أحصنة وطيور ذات ريش لامع. لكن تلك العروض كانت تُرفض من زلماي بعدم احتفال، و أحياناً بحقد.

"إنك حمار"!! يصرخ.. "لا أريد ألعابك"!!

"زلماي"!! تشهق ليلى.

"لا بأس" يقول طارق.. " ليلى، لا بأس. دعيه"

"لستَ باباي جان! باباي جان الحقيقي بعيد في رحلة، عندما يعود، سيضربك! ولن يكون بإمكانك الهرب بعيداً، لأن لديه رجلين، وأنت لديك واحدة فقط"!!

في الليل، تضم ليلى زلماي إلى صدرها، وتستعيد معه صلوات البابالو. وعندما يسأل، تخبره الكذبة ثانية، تقول له أن بابا جان ذهب بعيداً وأنها لا تعلم متى سيعود. كانت تمقت هذه المهمة، وتمقت نفسها

لأنها تكذب بتلك الطريقة على زلماي، علمت ليلى أن تلك الكذبة المعيبة ستقال مرة تلو الأخرى. سيكون عليها ذلك لأن زلماي سيسأل، نازلاً من أرجوحة، مستيقظاً من غفوة بعض الظهر، وفيما بعد، عندما يكبر ويستطيع ربط حذائه بنفسه، عندما يذهب إلى المدرسة، سيكون على الكذبة أن تقال ثانية.

في مرحلة ما، تعلم ليلى، ستجف الأسئلة، ببطء، سيتوقف زلماي عن التساؤل لمَ تخلى عنه والده. لن يلمح والده بعد الآن عند إشارات المرور. في رجال مسنين محنيي الظهر يقطعون الطريق بتثاقل، أو يشربون الشاي أمام مقاهي الشاي الروسية. ويوماً ما سيفاجأ، ماشياً بجانب نهر متعرج، أو ناظراً إلى حقول مغطاة بالثلوج، أن اختفاء أبيه لم يعد جرحاً مفتوحاً. أصبح شيئاً آخر تماماً، شيء أقل حدة وغير مؤلم، كمعرفة، شيء للتبجيل، مربك.

ليلى سعيدة هنا في موري، لكنها سعادة ليست سهلة.. ليست دون ثمن.

عند انتهاء يومه، يأخذ طارق ليلى والأولاد إلى المول، حيث يوجد محلات تبيع الحلي وبجانبها كنيسة إنجيلية بُنيت في منتصف القرن التاسع عشر. يشتري لهم طارق كباب التشابلي المبهر من شارع الباعة المتجولين. يتسكعون وسط حشود الناس المحليين، والأوروبيين بالهواتف الجوالة وكاميرات الديجيتال، والبنجابيون الذين أتوا هنا هرباً من حر السهول.

من حين لآخر، يستقلون باصاً إلى حدود كشمير. من هناك، يريهم طارق وادي نهر جيهلوم، المنحدرات المغطاة بأشجار الصنوبر، والتلال ذات الغابات الكثيفة المخضرة، حيث يمكن مشاهدة القرود، كما قال طارق، وهي تتدلى من غصن إلى آخر. ذهبوا إلى أشجار القيقب الكثيفة في ناثيا كلاد، التي تبعد ما يقارب الثلاثين كيلومتر عن موري، حيث يمسك طارق بيد ليلى بينما يقطعون الطريق المظلل بالأشجار إلى بيت الحاكم. يتوقفون عند المقبرة البريطانية، أو يأخذون

سيارة أجرة إلى أعلى الجبال الخضراء ليروا الضباب وهو يحجب الوادي في الأسفل.

أحياناً في تلك النزهات، يتوقفون عند واجهة محل، ترى ليلى انعكاسهم فيها، رجل، زوجة، ابنة، ابن.

بالنسبة للغرباء، تعلم ليلى، لا بد أنهم يبدون كأكثر العائلات طبيعية، خالية من الأسرار، الأكاذيب، والحسرات.

يتملك عزيزة كوابيسُ تستيقظ منها مرتجفة. ويكون على ليلى أن تستلقي جانبها في السرير، تجفف وجنتها بأكمامها، تهدئها حتى تعود إلى النوم.

ليلى لديها أحلامها.. دائماً تعود بها إلى المنزل في كابول، تمشي في الردهة، تصعد الأدراج. هي وحيدة، لكن خلف الأبوابٍ تسمع الصوت المتناغم لمكواة، شراشف تُنفض، ثم تُطوى. أحياناً تسمع طبقة منخفضة لصوت امرأة تهمهم أغنية هيراتية قديمة. لكن عندما تدخل، الغرفة خالية. لا أحد هناك.

الأحلام تترك ليلى ترتجف. تستيقظ مبللة بالعرق، عيناها تلمعان بالدموع. إنه مدمر، كل مرة، مدمر.

الفصل التاسع والأربعون

في يوم أحدٍ من شهر أيلول، كانت ليلى تضع زلماي المصاب بالزكام، في حضنها، لينام.. عندما اندفع طارق إلى الكوخ.

"هل سمعت"؟.. قال وهو يلهث قليلا.

"لقد قتلوه.. أحمد شاه مسعود. مات"

"ماذا"؟!

من عتبة الباب، أخبرها طارق بما يعرفه.

"قالوا أنه أعطى مقابلة لصحفيين ادعيا بأنهما بلجيكيان وأصلهما من المغرب، وبينما كانوا يتحادثون، انفجرت قنبلة كانت مخبأة في كاميرا الفيديو، فقتل مسعود وأحد الصحفيين. أطلقوا النار على الآخر بينما كان يحاول الهروب، إنهم يقولون الآن بأنه من المحتمل أن الصحفيين كانا من رجال القاعدة"

تذكّرت ليلى صورة أحمد شاه مسعود التي علقتها مامي على حائط غرفة نومها. مسعود وهو متكىء إلى الأمام، وأحد حاجبيه مقوس، وجهه متغضن من التركيز، كما لو أنه، باحترام، يستمع إلى شخص ما.

تذكر ليلى كم كانت مامي ممتنة لأن مسعود قد تلا الصلاة في جنازة ابنيها، كيف أخبرت كل شخص عن ذلك، حتى بعد أن انفجرت الحرب بين فصيله والآخرين، رفضت مامي أن تلومه.

إنه رجل جيد، اعتادت أن تقول. إنه يريد السلام. يريد إعادة بناء أفغانستان، ولكنهم لن يدعوه، ببساطة لن يدعوه. بالنسبة لماما، حتى في النهاية، حتى بعدما أصبح كل شيء خطأً بشكل رهيب، وتحولت كابول إلى أنقاض، بقي مسعود أسد البانجشير.

ليلى ليست مسامحة مثلها. نهاية مسعود العنيفة لم تجلب لها الفرح، لكنها تتذكر جيداً الدمار الذي حل بالجوار تحت نظره، الجثث التي سحبت من الأنقاض، أيدي وأقدام الأطفال التي تكتشف على الأسطح أو على أغصان الأشجار العالية بعد أيام من جنازتهم.

تذكر جيداً النظرة على وجه ماما قبل لحظات انفجار الصاروخ، وأكثر ما عانت وهي تحاول نسيانه، جذع بابي فاقد الرأس على الأرض بجانبها، وأعمدة الجسر المطبوعة على قميصه تظهر من خلال الضباب الكثيف والدم.

"سيكون هناك جنازة" يقول طارق.."إنني متأكد من ذلك، من المحتمل أن تكون راوالبيندي.. ستكون ضخمة"

زلماي، الذي كان تقريباً نائماً، نهض الآن، وهو يفرك عينيه بيدين مكورتين.

بعد يومين، سمعوا لغطاً بينما كانوا ينظفون أحد الغرف. رمى طارق الممسحة وأسرع بالخروج. ولحقت به ليلى.

الضجة تأتي من بهو الفندق، هناك قاعة انتظار بالقرب من مكتب الاستقبال، مع عدة كراسي وكنبتين منجدتين بقماش سويدي بلون البيج. في الزاوية، في مواجهة الكنبتين، تلفاز، وكان سعيد والبواب، وبعض الضيوف متجمعين أمامه.

شق طارق وليلى طريقهما بينهم.

كانت قناة الـ bbc. وعلى الشاشة بناء، برج، ودخان أسود يتصاعد من الطوابق العلوية، يقول طارق شيئاً ما لسعيد، وسعيد في منتصف رده عندما تظهر طائرة من زاوية الشاشة. تصطدم بواجهة البرج، منفجرة في كرة ملتهبة، تجعل من أية كرة نار رأتها ليلى سابقاً.. قزمة.

صرخة جماعية ترتفع من كل شخص في البهو.

في أقل من ساعتين، انهار كلا البرجين.

بسرعة كانت جميع القنوات تتكلم عن أفغانستان وطالبان وأسامة بن لادن.

"هل سمعت ما قاله الطالبان"؟ سأل طارق.."عن بن لادن"؟

عزيزة تجلس مقابل السرير مركزة على الرقعة. كان طارق قد علمها أن تلعب الشطرنج، هي متجهمة وتنقر على شفتها السفلى، تحاكي لغة جسد والدها عندما يقرر حركة.

زكام زلماي أفضل قليلا، هو نائم، وليلى تفرك صدره بالفيكس.

"لقد سمعت" قالت.

أعلن طالبان بأنهم لن يتخلوا عن بن لادن لأنه ميهمان* وجد الملاذ في أفغانستان، وإن رفض الضيف ضد عقيدة الباشتوالي**.

يقهقه طارق بمرارة، وتسمع ليلى في ضحكته أنه مشمئز من هذا التحريف غير الشريف للعادات الباشتونية المشرّفة، إنه تشويه لتقاليد شعبه.

بعد عدة أيام من الهجوم، طارق وليلى في بهو الفندق ثانية. على شاشة التلفاز، جورج دبليو بوش يتكلم. هناك علم أميركي كبير خلفه. عند نقطة ما، يرتجف صوته، وتظن ليلى أنه سيبكي.

سعيد، الذي يتحدث الانكليزية، يشرح لهما بأن بوش الآن أعلن الحرب.

"على من"؟ يقول طارق.

"على بلادك، بداية"!!

"قد لا يكون الأمر بهذا السوء" يقول طارق.

لقد انتهيا من ممارسة الحب، هو مستلق بجانبها، رأسه على صدرها، ذراعه تضم بطنها.

في المرات الأولى التي حاولا فيها، كان هناك صعوبة. كان طارق كله اعتذارات، ليلى كلها اطمئنان. لازالت هناك صعوبات، ليست فيزيولوجية، بل نفسية.

---

* ميهمان: ضيف.

** الباشتوالي: العادات الأخلاقية.

الكوخ الذي يتقاسمونه مع الأولاد صغير. الأولاد ينامون على أسرّة متحركة تحتهم ولذلك كان هناك القليل من الخصوصية. معظم الأوقات، ليلى وطارق يمارسان الحب بصمت، بعاطفة متحكم بها، بكامل ملابسهما تحت البطانية كاحتياط من أي مقاطعة من الأولاد.

هما قلقين دائماً حتى من حفيف الأغطية، ومن صوت نوابض السرير. لكن بالنسبة لليلى، كان وجودها مع طارق يستحق كل هذه الحيطة. عندما يمارسان الحب، ليلى تشعر بالثبات.. تشعر أنها محمية.

قلقها، أن حياتهما معاً هي نعمة مؤقتة، وأنهما سريعاً سيصبحان في العراء، لكن كل ذلك يهدأ، ومخاوفها من الفراق، تختفي.

"ما الذي تعنيه"؟ تقول الآن.

"ما الضرر في العودة إلى الوطن. إن الأمر ليس بذلك السوء في النهاية"

العودة إلى الوطن، القنابل تسقط مرة أخرى، هذه المرة قنابل أميركية ـ كانت ليلى تراقب الصور عن الحرب يومياً على التلفاز بينما تغير الملاءات وتكنس، لقد سلّح الأميركيون لوردات الحرب مرة أخرى، وطلبوا المساعدة من التحالف الشمالي ليخرجوا الطالبان ويجدوا بن لادن.

ولكن، ما كان يقوله طارق آلم ليلى، دفعت رأسه بخشونة عن صدرها.

"ليس بهذا السوء؟! الناس يموتون؟ نساء، أطفال، عجّز؟!!

بيوت تدّمر ثانية؟.. تقول ليس بهذا السوء"؟!!

"صه!! ستوقظين الأولاد"

"كيف بإمكانك أن تقول ذلك"؟.. تصرخ. "بعد الذي يسمى خطأً فادحاً في كارام؟!! مئة شخص بريء!! ... رأيت الجثث بنفسك!!"

"لا" .. يقول طارق.

يسند نفسه على مرفقيه، وينظر إلى ليلى. "أنت تفهميني بشكل خاطئ. ما الذي أقصده كان..."

"لن تعرف.." تقول ليلى.

كانت واعية بأن صوتها يرتفع، بأنهما يتشاجران لأول مرة كزوج وزوجة.

"لقد غادرت عندما بدأ المجاهدون بالقتال.. تذكّر؟ أنا التي بقيت، أنا، أنا التي أعرف الحرب.

لقد فقدت والدي في الحرب، أهلي، طارق، والآن، سماعك تقول بأن هذه الحرب ليست بهذا السوء"؟!

"إنني آسف ليلى، أنا آسف" يمسك وجهها بيديه.

"إنك على حق، أنا آسف، سامحيني، الذي قصدته أنه ربما سيكون هناك أمل عند نهاية هذه الحرب، وأنه ربما للمرة الأولى منذ وقت طويل.."

"لا أريد التحدث عن هذا بعد الآن" تقول ليلى، مندهشة كم كانت قاسية عليه، إنه ليس عدلاً، تعلم، ما قالته له - ألم تأخذ الحرب أهله أيضاً؟! - ومهما كان الذي اضطرم داخلها فإنه يتلاشى حالاً.

يستمر طارق بالحديث بلطف، وعندما يسحبها إلى جانبه، تتركه يفعل. وعندما يقبّل يدها ثم جبهتها تتركه.

تعلم أنه على الأغلب محق. تعرف ما الذي يحمله تعليقه، ربما هذا الأمر ضرورياً. ربما سيكون هناك أمل عندما تتوقف قنابل بوش عن السقوط.

ولكنها لا تستطيع إجبار نفسها على قول ذلك، ليس بعد، إن الذي حدث لـ بابي ومامي يحدث الآن لأحدهم في أفغانستان، ليس عندما يكون هناك فتاة أو صبي في الوطن قد أصبح يتيماً من قبل صاروخ، كما حصل معها. لا تستطيع ليلى إجبار نفسها على قول ذلك.

من الصعب أن تفرح، يبدو ذلك نفاقاً، وغير مؤات.

تلك الليلة، يستيقظ زلماي وهو يسعل. قبل أن تستطيع ليلى الحركة، يؤرجح طارق رجليه خارج السرير، يضع رجله الصناعية،

ويمشي باتجاه زلماي، يحمله بين ذراعيه، من السرير، تراقب ليلى شكل طارق يتحرك للأمام والخلف في الظلام.

ترى الخط الخارجي لرأس زلماي على كتفه، يداه معقودتان حول عنق طارق، وقدماه الصغيرتان تتأرجحان فوق ورك طارق.

عندما يعود طارق إلى السرير، لا يقول أي منهما شيئاً. تقترب ليلى منه وتلمس وجهه، كانت وجنتاه مبللتين.

الفصل الخمسون

كانت الحياة في موري، بالنسبة لليلى، حياة راحة وهدوء. العمل غير مرهق، وفي أيام عطلتهم، هي وطارق يأخذان الأولاد لركوب التلفريك إلى تلة باترياتا، أو يذهبون إلى حدود بيندي، حيث في يوم صاف، يمكنك رؤية حتى إسلام أباد وأسفل مدينة راوالبندي.

هناك، يفرشون بطانية على العشب، ويأكلون سندوتش كرات اللحم مع الخيار ويشربون الجينجر البارد.

إنها حياة جيدة، تخبر ليلى نفسها، حياة تستحق أن تكون شاكرةً لها، إنها كذلك، حقيقة، بالتحديد نوع الحياة التي اعتادت أن تحلم بها في أيامها السوداء مع رشيد. كل يوم، تذكر ليلى نفسها بهذا.

ثم في ليلة حارة من شهر تموز عام ٢٠٠٢، وبينما هي وطارق مستلقيان في السرير ويتكلمان بأصوات هامسة حول كل التغييرات التي تحدث هناك، في الوطن.

وكان هناك الكثير، قوات الاتحاد أجبرت الطالبان على الانسحاب من كل مدينة رئيسية، وأبعدتهم إلى الحدود مع باكستان وإلى الجبال في الجنوب والشرق من أفغانستان، إيساف، قوات حفظ السلام الدولية، أرسلت إلى كابول. للبلاد الآن رئيس مؤقت، حامد كارزاي.

تقرر ليلى أنه حان الوقت لتخبر طارق.

قبل سنة، كانت لتتخلى عن ذراعها، وبسعادة، لتخرج من كابول. ولكن في الأشهر الأخيرة، وجدت نفسها تفتقد مدينة طفولتها، كانت تفتقد صخب شور بازار، حدائق بابور، نداء بائعي الماء حاملي حقائبهم من جلد الماعز. تفتقد المساومات على شراء الثياب في شارع الدجاج وبائعي البطيخ المتجولين في كارتيه ـ باروان.

لكنه لم يكنِ الحنين إلى الوطن، ولا إلى فترة قديمة، هو الذي جعل ليلى تفكر كثيرا في كابول هذه الأيام. لقد أصبحت مسكونة بعدم الراحة، تسمع عن المدارس التي بنيت في كابول، والطرق التي أعيد تعبيدها، عن النساء اللواتي عدن إلى العمل، وحياتها هنا السعيدة كما هي، وممتنة لها كما هي، تبدو.. غير كافية، وغير منطقية، أسوأ أيضاً، مضيعة للوقت.

مؤخرا، بدأت تسمع صوت بابي في رأسها، تستطيعين أن تكوني أي شيء تريدينه، ليلى، يقول، أعرف ذلك عنك، وكذلك أعلم أنه عندما تنتهي هذه الحرب، أفغانستانٍ ستكون بحاجة لك.

تسمع ليلى صوت مامي أيضاً، تذكر استجابة مامي عندما اقترح بابا مغادرة أفغانستان.

أريد أن أرى حلم أولادي يتحقق، أريد أن أكون هناك عندما يحدث، عندما تصبح أفغانستان حرة، ليستطيع الأولاد رؤيتها أيضاً. سيروه في عيني.

هناك شيء في ليلى الآن يريد العودة إلى كابول، لأجل بابي ومامي، كي يروا أفغانستان في عينيها.

وعندها، وبشكل مفروض على ليلى، هناك مريم. هل ماتت مريم لهذا؟ تسأل ليلى نفسها، هل ضحّت بنفسها حتى هي، ليلى، خادمة في بلد أجنبي؟ ربما لا يعني مريم ماذا تفعل، طالما هي والأولاد آمنين وسعداء، لكنه يهم ليلى، فجأة، يعني الأمر لها الكثير.

"أريد العودة" تقول.

يجلس طارق في السرير وينظر إليها.

يذهلها مجددا كم هو جميل، جبهته التامة، عضلات يديه الهزيلتين، عيناه الذكيتان المملوءتان بالسكينة.

مضت سنة، ومازال هناك أوقات، في لحظات كهذه، عندما لا تستطيع ليلى تصديق أنهما وجدا بعضهما البعض ثانية، بأنه حقيقة هنا، معها، بأنه زوجها.

العودة؟ إلى كابول؟! يسأل.

"فقط إذا أردت ذلك أيضاً"

"هل أنت غير سعيدة هنا؟ تبدين سعيدة، وكذلك الأولاد"

تجلس ليلى. يتحرك طارق في السرير، مفسحاً المجال لها.

"أنا سعيدة" تقول ليلى.. "بالطبع كذلك. لكن... أين سنصل هنا .. طارق؟ إلى متى سنبقى؟ هذا ليس وطننا. كابول وطننا. وهناك الكثير يحدث، والكثير منه جيد. أريد أن أكون جزءاً من كل ما يحصل. أريد أن أقوم بشيء ما، أريد أن أساهم، هل تفهمني؟"

يومئ طارق برأسه ببطء.

"هذا ما تريدين.. إذاً؟!.. أنت متأكدة؟"

"أريد ذلك، نعم، متأكدة. ولكن الأمر أكثر من ذلك. أشعر بأنه يجب علي أن أعود. البقاء هنا، لم يعد يبدو صحيحاً بعد الآن"

ينظر طارق إلى يديه، ثم إليها.

"ولكن فقط.. فقط، إذا كنت تريد الذهاب أيضاً"

يبتسم طارق. وتنقشع التجعدات عن جبهته، وللحظة قصيرة، هو طارق القديم ثانية، طارق الذي لا يعاني من آلام الرأس، الذي قال مرة إن البصقة في سيبيريا تتحول إلى جليد قبل أن تلمس الأرض. ربما هو خيالها، لكن ليلى تؤمن بأن هناك كثيراً من الإشارات المتكررة تشير إلى طارق القديم هذه الأيام.

"أنا"؟ يقول .."سأتبعك إلى نهاية العالم، ليلى"

تشده إليها وتقبّل شفتيه.. تؤمن أنها لم تحبه أكثر من هذه اللحظة.

"شكراً لك" تقول، وجبهتها مرتاحة على جبهته.

"لنذهب إلى أفغانستان"

"ولكن قبل ذلك، أريد أن أذهب إلى هيرات" تقول.

"هيرات"؟

تشرح ليلى.

الأولاد بحاجة إلى تطمينات، كلٌ على طريقته.

على ليلى الجلوس مع عزيزة المهتاجة، التي مازالت تحلم بكوابيس، التي غرقت بالبكاء الأسبوع الماضي عندما أطلق أحدهم الرصاص في عرس قريب.

توضح ليلى لعزيزة بأنهم عندما يعودون إلى كابول، لن تكون طالبان هناك، وأنه لن يكون هناك أي قتال، وأنها لن ترسل ثانية إلى الميتم.

"سنعيش سوية، والدك، أنا، زلماي، وأنت، عزيزة. أبداً ، لن يكون عليك الافتراق عني ثانية.. أعدك"

تبتسم لابنتها.

"إلى اليوم الذي ترغبين أنت بذلك. هذا عندما تقعين في حب شاب وتريدين الزواج به"

في اليوم الذي سيغادرون فيه موري، لا شيء يمكن له أن يعزي زلماي، يلف زلماي ذراعيه حول عنق إليونا ويرفض تركها.

"لا نستطيع جعله يتركها مامي" تقول عزيزة.

"زلماي. لا نستطيع أخذ عنزة في الباص" تشرح ليلى ثانية.

لا يستجيب زلماي حتى يركع طارق بجانبه، ويعده بشراء عنزة كإليونا في كابول، وعندها يتركها زلماي على مضض. هناك وداعات دامعة مع سعيد أيضاً. لجلب الحظ، يمسك القرآن عند عتبة الباب لطارق، ليلى، والأولاد كي يقبلوه ثلاث مرات، ثم يرفعه عالياً ليمروا من تحته. يساعد طارق في وضع حقيبتين في صندوق سيارته، كان سعيد من أوصلهم إلى المحطة، ووقف عند الرصيف ولوح بينما زمجر الباص ومضى.

بينما تتكئ للخلف وتراقب سعيد يختفي في النافذة الخلفية للباص، تسمع ليلى صوت الشك يهمس في رأسها، هل ما يفعلونه الآن هو فعل أحمق؟ تتساءل، تاركة خلفها أمان موري؟ عائدة إلى الأرض حيث أهلها وأخوتها ماتوا، حيث دخان القذائف لم يختف حتى الآن؟

وعندها، من الشقوق السوداء لذاكرتها، بيتين من الشعر خرجا، قصيدة وداع بابي لكابول:

المرء لا يستطيع عد الأقمار المشعة على سقوفها
أو الألف شمس المشرقة.. تختبئ خلف جدرانها

تستقر ليلى في مقعدها، وتخرج الشاهد من عينيها. كابول تنتظر. محتاجة. هذه الرحلة للوطن هي الشيء الصحيح للقيام به.

لكن بدايةً هناك وداع أخير يجب أن يقال.

الحروب في أفغانستان دمرت الطرق التي تربط كابول، هيرات، قندهار. الطريق الأسهل إلى هيرات الآن من خلال مشهد، في إيران. ليلى وعائلتها هناك فقط لليلة. قضوا الليل في فندق، وفي الصباح التالي، صعدوا باصاً آخر.

مشهد مدينة مزدحمة، عامرة بالنشاط. تشاهد ليلى، حدائق، جوامع، ومطاعم كباب التشيلو تمر بجانبها.

عندما مر الباص بمزار الإمام ريزا، إمام الشيعة الثامن، تمد ليلى عنقها لترى بشكل أفضل قرميده المتلألئ، المآذن، القبة الذهبية الرائعة، كلها محفوظة بنقاء وجمال. تفكر بتمثالي بوذا في بلدها. إنهما كومات من التراب الآن، تعصف بهما الريح حول وادي باميان.

رحلة الباص إلى الحدود الإيرانية الأفغانية تستغرق حوالي العشر ساعات. التضاريس تزداد عزلة وقحلاً كلما اقتربوا من أفغانستان. قبل أن يقطعوا الحدود إلى هيرات بوقت قليل، مروا بمخيم لاجئين أفغان. بالنسبة لليلى، هي لطخة من رمال صفراء وخيام سوداء وأبنية هزيلة مصنوعة من صفائح فولاذية متكسرة. تمد يدها عبر المقعد وتأخذ يد طارق.

في هيرات، معظم الشوارع معبدة، محددة بالصنوبر العطر. هناك حدائق عامة ومكتبات وسط الأبنية، وباحات منظمة، أبنية حديثة الدهان. الإشارات الضوئية تعمل، وأكثر ما فاجأ ليلى، الكهرباء ثابتة. سمعت ليلى أن إقطاعي هيرات ولورد الحرب، إسماعيل خان، ساعد

في إعادة بناء المدينة من خلال ريع الرسوم الجمركية التي جمعها من الحدود الإيرانية الأفغانية، مال، تقول كابول إنه لا يخصه، بل يخص الحكومة المركزية. هناك تبجيل وخوف في نبرة سائق التاكسي الذي يأخذهم إلى فندق (موفق) عندما يذكر اسم إسماعيل خان.

يوما البقاء في فندق (موفق) ستكلفهم خُمس مدخراتهم، لكن الرحلة من مشهدٍ كانت طويلة ومتعبة، والأولاد مرهقين، يقول الموظف الأكبر سناً في مكتب الاستقبال لطارق، بينما يلتقط مفتاح الغرفة، أن فندق موفق شهير باستضافته الصحفيين وعاملي "NGO".

"نام بن لادن هنا مرة" قالها بتباهٍ.

في الغرفة سريرين، وحمام تجري فيه الماء الباردة. لوحة للشاعر خاجة عبد الله أنصاري في منتصف الجدار. من النافذة، شاهدت ليلى شوارع مزدحمة، وحديقة في الطرف الآخر للشارع بممرات قرميدية بلون الباستيل تقطعها شجيرات كثيفة من الورد. الولدان، اللذان اعتادا التلفاز، خاب أملهما بعدم وجود واحد في الغرفة، ناما مباشرة، وبعد وقت قريب، كان طارق وليلى قد استسلما للنوم أيضاً. ليلى تشخر بين ذراعي طارق، لم تصحُ إلا مرة في منتصف الليل على حلم لا تستطيع تذكره.

في الصباح التالي، وبعد الإفطار المؤلف من الشاي والخبز الطازج، مربى السفرجل والبيض المسلوق. عثر طارق على سيارة أجرة.

"هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أن أذهب معك"؟ يقول طارق.

تمسك عزيزة بيده، ولا يفعل زلماي. لكنه يقف قريباً منه مسنداً كتفه على ورك طارق.

"متأكدة"

"أشعر بالقلق عليك"

"سأكون بخير" تقول ليلى.. " أعدك، خذ الأولاد إلى البازار واشتري شيئاً لهما"

بدأ زلماي بالبكاء عندما ابتعدت التاكسي، وعندما نظرت ليلى إلى الخلف، وجدته يمد يده إلى طارق، وقد بدأ بتقبله.. الأمر الذي يريحها.. ويفطر قلبها معاً.

"لست من هيرات" قال السائق.

لديه شعر داكن يصل إلي الكتفين - رمز عام لتحدي طالبان المغادرة، اكتشفت ليلى - نوعاً من ندبة تقطع شاربه من جهة اليسار. توجد صورة معلقة على الزجاج الأمامي، من جهته. صورة فتاة صغيرة بخدود وردية، شعرها مفروق عند المنتصف على شكل جديلتين.

تخبره ليلى أنها كانت في باكستان، العام الماضي بأكمله، وأنها عائدة إلى كابول.. (ديه - مازانغ).

من خلال الزجاج الأمامي، ترى ليلى النحّاسين يلحمون مسكات نحاسية لأباريق، وصانعي السروج ينشرون الجلد غير المدبوغ ليجف في الشمس.

"هل عشت هنا طويلاً، أخي؟" تسأل.

"أوه، كل حياتي. ولدت هنا. شاهدت كل شيء. هل تتذكرين الإنتفاضة؟"

تقول ليلى أنها تذكر، ولكنه يتابع.

"كان ذلك في آذار ١٩٧٩، قبل حوالي تسعة أشهر من الغزو السوفييتي. بعض الهيراتيون الغاضبون قتلوا بضعة مستشارين سوفييت، لذلك، أرسل السوفييت دبابات وهيلكوبترات. لثلاثة أيام، قصفوا هذا المكان، هامشيرا. قصفوا المدينة. دمروا المباني، دمروا واحدة من المآذن، قتلوا الآلاف من الناس. الآلاف. فقدت أختين لي في الثلاثة أيام هذه. واحدة منهما كانت في الثانية عشر"

ينقر على الصورة على اللوح الزجاجي.. "هذه هي"

"آسفة" تقول ليلى، تتعجب، كل قصة أفغانية مرسومة بالموت والخسارة والحزن الذي لا يُتصور. وبالرغم من ذلك، ترى الناس

يجدون طريقة للبقاء، الاستمرار. تفكر ليلى بحياتها وكل ما حدث لها، وتندهش أنها هي أيضاً نجت، أنها مازالت حية تجلس في هذه السيارة مصغية لقصة هذه الرجل.

غول دامان عبارة عن قرية ببضعة منازل، ترتفع بين الأكواخ المبنية من الطين والقش. خارج الكولبات، ترى ليلى نساء حرقتهم الشمس، يطبخن، وجوههن متعرقة من البخار المتصاعد من القدور السوداء الكبيرة المستقرة على المواقد. بغال تأكل من المعالف.

الأولاد الذين كانوا يلاحقون الدجاج بدؤوا بملاحقة التاكسي. ترى ليلى الرجال يدفعون عربات محملة بالحجارة. يتوقفون ويراقبون السيارة وهي تمر قربهم. ينعطف السائق ثم يمر بمقبرة يوجد في وسطها ضريح، كان الطقس قد فعل فيه فعله!!

يخبرها السائق أن قرية صوفي دفنت هناك، هناك طاحونة هواء أيضاً. في ظل مراوحها الصدئة، العاطلة عن العمل ثلاثة صبية يلعبون بالوحل. يفرمل السائق ويمد رأسه خارج النافذة. الذي يبدو أكبر سناً بين الثلاثة يجيب.. يشير إلى منزل أعلى الطريق. يشكره السائق، ويعود لتعشيق السيارة. يركن السيارة خارج المنزل ذو الطابق الواحد. ترى ليلى قمة شجرة تين فوق الجدران، بعض الأغصان تتدلى من الجوانب.

"لن أتأخر" تقول للسائق.

رجل متوسط في العمر يفتح الباب، نحيل، شعره بلون الصدأ، يتخلل لحيته بعض الشيب، ويرتدي تشاباناً فوق البورهان _ تومبان.

تبادلوا السلام.

"هل هذا منزل الملا فايز الله"؟ تسأل ليلى.

"نعم، أنا ابنه حماسة. هل هناك شيء أستطيع خدمتك به، هامشيرا"؟

"أتيت هنا لأجل صديقة قديمة لوالدك، اسمها مريم"

يرمش حماسة. وتعبر وجهه نظرة محيرة.

"مريم ..."

"ابنة جليل خان"

يرمش ثانية. ثم يضع راحة يده على خده ويضيء وجهه بابتسامة تظهر أسناناً مفقودة وأخرى متعفنة.

"أوه"!! خرجت من فمه كـ أوووووووووه.. بدت كمن يتنفس تنفساً متقطعاً.

"أوه! مريم! هل أنت ابنتها؟ هل هي..." ولوى عنقه ينظر خلفها بلهفة..

"هل هي هنا؟ لقد مر وقت طويل! هل مريم هنا؟"

"ماتت... أخشى"

تخبو الابتسامة عن وجه حماسة.

للحظة، يقفا هناك، عند عتبة الباب، حماسة ينظر إلى الأرض. ينهق حمار من مكان ما.

"ادخلي" يقول حماسة. يفتح الباب.. "ادخلي، أرجوك"

يجلسان على الأرض في غرفة مفروشة جزئيا، هناك سجادة هيراتية، وسادات مطرزة بالخرز للاتكاء، وصورة مؤطرة لميكّا. يجلسان قرب النافذة المفتوحة، على جانبي بقعة مستطيلة من ضوء الشمس. تسمع ليلى أصوات نساء يهمسن في غرفة أخرى. يضع صبي صغير حافي القدمين أمامهما صينية شاي أخضر ونوغا الغاز بالفستق، يومئ حماسة له.. "ابني"

يغادر الصبي دون صوت.

"إذاً.. أخبريني" يقول حماسة بتعب.

تخبره ليلى. تخبره بكل شيء. يأخذ ذلك وقتاً أكثر مما تخيلت. في النهاية تكافح لتضبط نفسها. مازال صعباً، بعد مرور عام، الحديث عن مريم.

عندما انتهت، لم يقل حماسة شيئاً لوقت طويل. يدوّر ببطء فنجان الشاي على صحنه، باتجاه، ثم باتجاه آخر.

"والدي، فليرقد بسلام، كان مولعاً بها" يقول أخيراً..

"كان من كبّر بالآذان في أذنها عندما ولدت، تعلمين، كان يزورها كل أسبوع، لم يتخلف أسبوعاً واحداً. أحياناً كان يأخذني معه. كان معلمها، نعم، ولكنه كان صديقاً أيضاً. كان رجل إحسان، والدي. كاد يتحطم عندما زوَّجها جليل"

"آسفة لسماع ما حل بأبيك.. ليغفر له ربي"

يهز حماسة رأسه شاكرا..

"عاش حتى أصبح عجوزاً. عاش أكثر من جليل خان، حقيقة. دفناه في مقبرة القرية، ليس بعيداً حيث دفنت أم مريم. كان والدي رجلاً محبوباً، محبوباً، بالتأكيد مكانه الجنة"

تخفض ليلى فنجانها.

"هل لي أن أسألك شيئاً"؟

"بالطبع"

"هل تستطيع أن تريني"؟ تقول.. "حيث عاشت مريم، هل يمكنك أخذي إلى هناك"؟

يوافق السائق أن ينتظر مدة أطول.

يخرج حماسة وليلى من القرية ويمشيان باتجاه التل على الطريق الذي يصل غول دامان بهيرات.

بعد خمسة عشر دقيقة تقريباً، يشير إلى طريق ضيق في العشب الطويل الذي يحيط بالطريق على كلا الجهتين..

"هكذا تصلين" يقول.. "يوجد ممر هنا"

الطريق وعر، تعصفه الريح، وقليل من الضوء، النباتات والأعشاب قليلة النمو. لكن العشب الطويل يصفع بطات أرجل ليلى بفعل الريح.. بينما هي وحماسة يتسلقان الممر، وينعطفان. على كلا الجهتين، مناظر بديعة من أزهار برية تتمايل في الريح، بعضها طويل ببتلات مقسومة، أخرى قصيرة، أوراقها على شكل مراوح. هنا وهناك أقحوان يبزغ من خلال شجيرات منخفضة. تسمع ليلى زقزقة السنونوات وثرثرة الجنادب تحت الأقدام. مشيا على التلة بهذا الطريق

لأكثر من مئتي ياردة أو أكثر، ثم، بدأ الممر يستوي، وينفتح على رقعة مسطحة من الأرض، توقفا، ليلتقطا أنفاسهما. تربت ليلى على وجنتيها بأكمامها وتلّوح لتبعد سرباً من البعوض يحوم أمام وجهها. هنا ترى الجبال قليلة الانحدار في الأفق، وبعض بذور القطن (الغزلان).. بعض أشجار الحور، شجيرات برية لا تستطيع تسميتها.

"كان يوجد جدول هنا" يقول حماسة وأنفاسه مقطوعة قليلاً.. "لكنه جفَّ الآن"

قال إنه سينتظر هنا، يخبرها أن تعبر الجدول الجاف، وتمشي باتجاه الجبال.

"سأنتظر هنا".. قال ذلك وجلس على صخرة تحت شجرة حور.. "تابعي أنت"

"سوف..."

"لا تقلقي. خذي وقتك، تابعي، هامشيرا"

تشكره ليلى. تعبر الجدول وهي تقفز من حجر إلى آخر. تشاهد زجاجات صودا مكسورة بين الصخور، وعلب صدئة، وعاء معدني مغطى بالتراب بحواف زنكية نصف مدفون في الأرض. تتجه باتجاه الجبال، باتجاه الصفصاف الباكي، الذي تستطيع رؤيته الآن، الأغصان الطويلة المتدلية تهتز مع كل نسمة ريح. في صدرها، نبض قلبها كان كقرع الطبول. ترى أن الصفصاف كان مرتباً كما قالت مريم، على شكل غابة مستديرة تخبئ منطقة مكشوفة في المنتصف. تسرع ليلى راكضة. تنظر إلى الخلف من فوق كتفها وترى شكل حماسة قد صغر كثيراً، ولباس التشابان الخاص به مفعم بالألوان أمام الكساء البني للأشجار. تتعثر بحجر وتكاد تقع، ثم تستعيد توازنها. تسرع باقي الطريق وسروالها مرفوع للأعلى. تلهث عندما تصل إلى أشجار الصفصاف.

كوخ مريم مازال هنا. عندما تصل إليه، ترى ليلى أن مكان اللوح الزجاجي في النافذة كان فارغاً والباب غير موجود. كانت مريم قد

وصفت قن دجاج وتاندوور، وحمام خارجي أيضاً، لكن ليلى لا ترى أي أثرٍ لهذه الأشياء. تتوقف عند مدخل الكولبا. تستطيع أن تسمع صوت طنينَ الذباب في الداخل.

ولتصبح في الداخل، عليها تجنب الشبكة العنكبوتية الضخمة. المكان رطب، تمنح عينيها بضع لحظات لتعتاد الضوء. تلاحظ آنذاك، أن الداخل كان أصغر مما تخيلت. فقط لوح متعفن ومتكسر بقي من ألواح الأرضية. البقية، تخيلت، أنهم انتزعوها ليستخدموها وقودا للنار. الأرض مفروشة بالأوراق الجافة، والزجاجات المكسورة، أغلفة العلكة المرمية، الفطر البري، أعقاب سجائر قديمة مصفرة، ولكن غالباً مفروشة بالأعشاب الضارة، بعضها غير نام، بعضها يمتد بوقاحة إلى منتصف الجدران.

خمسة عشر عاماً، تفكر ليلى. خمسة عشر عاماً في هذا المكان. تجلس ليلى وظهرها قبالة الحائط. تستمع إلى الريح تتخلل أشجار الصفصاف، هناك المزيد من خيوط العنكبوت الممتدة عبر السقف. أحد ما رسم بالبخاخ شيئاً ما على الجدران، ولكن الكثير منه تقشر، ولا تستطيع ليلى أن تستكشف ما تقوله الكلمات. ثم تدرك أن الحروف كانت باللغة الروسية.

عش طائر مهجور في زاوية، ووطواط يتدلى رأساً على عقب في زاوية أخرى، حيث يلتقي الحائط بالسقف.

تغلق ليلى عينيها وتجلس هناك لفترةٍ.

في باكستان، كان من الصعب أحياناً تذكر تفاصيل وجه مريم. هناك أوقات تشبه الكلمة على رأس اللسان، كذلك كان وجه مريم يمتنع عنها. ولكنها الآن، هنا في هذا المكان، من السهل استحضار مريم خلف جفون عينيها: البريق الناعم لنظرتها، الذقن الطويلة، والابتسامة الضيقة.

هنا، باستطاعة ليلى أن تلقي بجبهتها في حضن مريم الناعم ثانية، تستطيع أن تشعر بمريم وهي تتأرجح للخلف والأمام، وهي تتلو بعض

الآيات من القرآن، تشعر بذبذبات الكلمات في جسد مريم، ثم في ركبتيها إلى أذنها. ثم، فجأة، تبدأ النباتات الضارة بالاختفاء، كأنما شيء ما يسحبها من الجذور للأسفل، تحت الأرض، يغورون أسفل وأسفل حتى ابتلعت الأرض في الكولبا، آخر أوراقها الشائكة.

شباك العنكبوت تنحل عن بعضها بسحر ما. عش الطائر يتفكك من تلقاء نفسه، عيدانه تنفصل واحدة واحدة، محلقة خارج الكولبا، عود متصل بنهاية الآخر. ممحاة غير مرئية تمحي الرسوم الروسية عن الحائط. تعود ألواح الخشب، ترى ليلى سريرين متحركين الآن، طاولة خشبية، كرسيين، وموقد في الزاوية، رفوف على طول الحائط وعليها قدور من الصلصال ومقالٍ تنكية، إبريق أسود، أكواب وملاعق، تسمع قرقرة الدجاج في الخارج، وخرير الجدول البعيد.

مريم الشابة تجلس إلى الطاولة، وتصنع لعبة على وهج مصباح زيتي. تهمهم بشيء ما. وجهها ناعم وشاب، شعرها مغسول ومسرح إلى الخلف.. أسنانها كاملة.

ترى ليلى مريم وهي تضع الغراء على الحبال المغزولة على رأس لعبتها. في غضون سنوات قليلة، هذه الفتاة الصغيرة ستصبح امرأة، ولن تطلب إلا أموراً صغيرة من الحياة، أمور لن تزعج الآخرين، هي أيضاً لن تخبر أحداً أن لديها أحزان، خيبات، أحلام سُخر منها. امرأة كصخرة في قاع النهر، تتحمل دون شكوى، لم تكن يوماً نكدة، لكنها معجونة بالتمرد الذي يسكنها. من الآن ترى ليلى شيء ما خلف عيني تلك الفتاة الصغيرة، شيء عميق في جوهرها والذي لم يستطع لا رشيد ولا طالبان كسره. شيء صلب وعنيد كقطعة من حجر الصوان. شيء، في النهاية، سيشكل هلاكها وخلاص ليلى. تنظر الفتاة الصغيرة إلى الأعلى، تضع اللعبة.. ابتسامات كثيرة.

"ليلى جو"؟

تنفتح عينا ليلى بذهول، تلهث، يرتد جسدها للأمام. تلمح الوطواط الذي يرفرف من زاوية إلى أخرى في الكولبا، ضربات جناحيه كصوت تقليب صفحات كتاب، قبل أن يطير خارج النافذة.

تنهض ليلى، وتزيل الأوراق الميتة عن سروالها. تخطو خارج الكولبا. في الخارج، الضوء أصبح ضعيفاً. ريح تهب بقوة، فيتموج العشب معها، وتتكسر أغصان الصفصاف.

قبل أن تغادر الساحة، تنظر ليلى نظرة أخيرة إلى الكوخ حيث نامت مريم، أكلت، حلمت، وحبست أنفاسها لأجل جليل. ترى الجداران المتقشرة، وأشجار الصفصاف تتلوى مع كل هبة ريح.

حط غراب على السطح، ينقر شيئاً ما، يزعق، يطير بعيداً.

"وداعاً مريم".. غير مدركة أنها كانت تبكي، تبدأ ليلى الركض عبر العشب. تجد حماسة مازال جالساً على الصخرة. وعندما يشاهدها، ينهض واقفاً.. "دعينا نعود" يقول.. "لدي شيء أعطيك إياه"

تنتظر ليلى حماسة في الحديقة عند الباب الأمامي. الولد الذي قدم لهما الشاي يقف تحت إحدى أشجار التين، حاملاً دجاجة، وينظر إليها بهدوء. تلمح ليلى وجهان، لامرأة مسنة وفتاة صغيرة، محجبتان، يتفحصانها باحتشام من النافذة.

يُفتح باب المنزل، ويظهر حماسة يحمل صندوقاً، ويعطيه لليلى.

"أعطى جليل خان هذا الصندوق لوالدي قبل شهر تقريباً من وفاته" يقول حماسة.. "طلب من والدي أن يحرسه لمريم حتى تأتي وتطالب به. أبقاه والدي لسنتين. ثم قبل وفاته. أعطاني إياه، وطلب مني أن أحفظه من أجل مريم. ولكنها... تعلمين، لن تأتي أبداً"

نظرت ليلى إلى الشكل البيضاوي للصندوق. يبدو مثل علبة شوكولا قديمة، لونه أخضر زيتي مغلف بغلاف أخضر باهت. هناك بعض الصدأ على جوانبه، وانبعاج خفيف على الحافة الأمامية من الغطاء. تحاول ليلى فتح الصندوق، ولكنه كان مقفلاً.

"ماذا بداخله"؟

وضع حماسة مفتاحاً في راحة يدها.. وقال:
"لم يفتحه والدي أبداً، ولا أنا. أظن أنها إرادة الله أن تكوني أنت من يفتح الصندوق"

تعود إلى الفندق، لم يكن طارق والأولاد قد عادوا. تجلس ليلى على السرير، والصندوق في حضنها، جزء منها يريد تركه مغلقاً، تُرى أي سر لم يبح به جليل؟!!

لكنها، في النهاية، وقد غلبها الفضول. وضعت المفتاح في القفل، أخذ ذلك بعض الوقت وبعض الهز، وفتحت الصندوق.

وجدت في داخله، ثلاثة أشياء: ظرف، كيس خيشي، شريط فيديو.

تأخذ ليلى الشريط وتنزل إلى مكتب الاستقبال. تعلم من الموظف المسن الذي استقبلهم في اليوم السابق أن الفندق لديه فيديو واحد في الجناح الأكبر. الجناح خال حالياً. يوافق أن يأخذها. يترك المكتب لشاب ذي شوارب يرتدي بزة ويتكلم على الهاتف الجوال. يقود الموظف الكهل ليلى إلى الطابق الثاني، إلى باب في نهاية الممشى. يفتح الباب بالمفتاح، ويدخلها. تجد عينا ليلى تلفازاً في الزاوية. ولا تسجلا أي شيء آخر في الجناح.

تشغل التلفاز، وتشغل الفيديو، تضع الشريط وتضغط على زر التشغيل. الشاشة سوداء لبضع لحظات، وتبدأ ليلى بالتساؤل لم يكلف جليل مشقة نقل شريط فيديو فارغ إلى مريم. ولكن عندها هناك موسيقى، وصور بدأت تمر على الشاشة.

تعبس ليلى، تظل تراقب لدقيقة أو اثنتين. تضغط على زر التسريع ثم تضغط على زر التشغيل ثانية. إنه نفس الفيلم.

الرجل العجوز ينظر إليها بسخرية.

الفيلم الذي يظهر على الشاشة بينيكيو لوالت ديزني. ليلى لا تفهم.

يعود طارق والأولاد للفندق بعد الساعة السادسة.

تركض عزيزة إلى ليلى وتريها الأقراط التي اشتراها لها طارق، لونها فضي وفراشةٍ على كل واحد منهما. زلماي ممسك بدولفين قابل للنفخ يصدر صوتاً عندما يضغط على خطمه.

"كيف أنت"؟ يسأل طارق، وهو يضع يده حول كتفها.

"بخير" تقول ليلى.. " سأخبرك لاحقاً"

مشوا إلى محل للكباب ليأكلوا. مكان صغير، عابق بالدخان وصاخب، بطاولات مغطاة بأغطية دبقة من قماش الفانيلا، ولكن لحم الحمل غض وندي والخبز ساخن. تجولوا في الشوارع بعدها لفترة. اشترى طارق للأولاد الآيس كريم من كشك جانبي. أكلوا، وهم جالسون على مقعد، الجبال خلفهم مظللة بلون الغسق القرمزي الأحمر. الجو دافئ، وعابق برائحة شجر الأرز.

كانت ليلى قد فتحت الظرف عندما عادت إلى الغرفة بعد مشاهدتها شريط الفيديو. داخله، كانت هناك رسالة. مكتوبة بخط اليد بالحبر الأزرق، على ورقة مسطرة صفراء.

تقول:

الثالث عشر من آذار، ١٩٨٧.

عزيزتي مريم..

أتمنى أن تقرئي هذه الرسالة وأنت بصحة جيدة.

كما تعلمين، أتيت إلى كابول منذ شهر لأتحدث إليك. ولكنك لم تقابليني. أصبت بخيبة أمل ولكني لا أستطيع لومك، لقد فقدت امتياز رؤيتك منذ زمن بعيد، ولأجل ذلك لدي فقط نفسي لألومها. ولكن إذا كنت تقرئين هذه الرسالة، إذاً فأنت قرأت الرسالة التي تركتها عند بابك، يجب أن تقرئيها ويجب أن تأتي لتري الملا فايز الله، كما طلبت أن تفعلي. إني شاكر أنك فعلت، مريم جو. أنا شاكر لهذه الفرصة لأقول لك بضع كلمات.

من أين أبدأ؟ لقد عرف والدك الكثير من الأحزان منذ آخر مرة تحدثنا فيها، مريم جو.

زوجة أبيك قتلت في اليوم الأول من انتفاضة عام ١٩٧٧. رصاصة طائشة قتلت أختك نيلوفر بنفس اليوم. مازلت أستطيع رؤيتها، صغيرتي نيلوفر، تقف على رأسها لتثير إعجاب الضيوف. انضم أخوك فارهاد إلى الجهاد عام ١٩٨٠. قتله السوفييت عام ١٩٨٢، خارج هيلماند مباشرة. لم أر أبداً جثته. لا أعلم إن كان لديك أطفال، مريم جو، ولكن إذا كان لديك فإني أصلي لله أن يعتني بهم ويبعد عنك الحزن الذي خبرته. مازلت أحلم بهم. مازلت أحلم بأولادي الموتى.

حلمت بك كثيراً أيضاً، مريم جو. أفتقدك. أفتقد صوتك، ضحكتك. أفتقد القراءة لك، وكل الأوقات التي اصطدنا فيها السمك سوية. هل تذكرين تلك الأوقات؟ أنت ابنة جيدة، مريم جو، لا أستطيع التفكير بك دون أن أشعر بالخجل. الندم، عندما يكون الأمر متعلق بك، لدي محيطات منه. أنا نادم أنني لم أرك اليوم الذي أتيت فيه إلى هيرات. نادم لأني لم أفتح لك الباب وأدخلك. نادم لأنني لم أجعلك ابنة لي، وأنني جعلتك تعيشين في ذلك المكان طوال تلك السنين. ولأجل ماذا؟ خوفاً من خسارة ماء وجهي؟ خوفاً من تلطيخ ما يسمى اسمي الجيد؟ كم هي ضئيلة هذه الأمور بالنسبة لي بعد كل الخسارات، كل الأشياء الفظيعة التي رأيتها في هذه الحرب الملعونة. لكن الآن، بالطبع، أنا متأخر جداً. ربما كان هذا فقط عقاب للأشخاص الذين كانوا بلا قلب ليفهموا فقط عندما لا يستطيعون عمل شيء. الآن كل ما أستطيع فعله هو القول أنك كنت ابنة جيدة، مريم جو، وأنني لم أستحقك أبداً. الآن كل ما أستطيع فعله أن أسأل غفرانك، لذا اغفري لي، مريم جو، اغفري لي. اغفري لي. اغفري لي.

لم أعد الرجل الغني الذي تعرفينه. صادر الشيوعيون الكثير من أرضي، وكذلك كل المحلات. لكنه من التافه أن أشكو، لأن الله - لأسباب لا أفهمها - مازال ينعم علي أكثر من أغلب الناس. منذ عودتي من كابول، تدبرت أموري، بعت ما تبقى من الأراضي القليلة التي

أمتلكها. وحفظت لك حصتك من الميراث. يمكنك أن تري أنها بعيدة عن أن تكون ثروة، ولكنها شيء ما. إنها شيء ما.. ستلاحظين أيضاً أني قد بدلت النقود بدولارات. أظن أن ذلك أفضل. الله وحده يعلم ما مصير عملتنا الوطنية.

أتمنى ألا تفكري أنني أحاول شراء مغفرتك. لكن أن تمنحيني الثقة بمعرفة أن غفرانك ليس للبيع. ولم يكن أبداً كذلك. أنا لا أعطيك إلا، رغم أنه متأخر، ما كان لك طوال الوقت. أنا لم أكن والداً حريصاً لك في الحياة. ربما في الموت أستطيع أن أكون.

آه، الموت. لن أزعجك بالتفاصيل، ولكن الموت على مرأى مني الآن. قلبي ضعيف، يقول الأطباء.

أعتقد أن الموت أمر لائق، لرجل ضعيف مثلي.

مريم جو.

أجرؤ، أجرؤ على السماح لنفسي بالأمل، بعد أن تقرئي رسالتي، أنك ستكونين أكثر إحساناً معي مما كنت أبداً معك. ربما تجدين في قلبك الرغبة بالقدوم ورؤية والدك. ستدقين بابي مرة أخرى وتعطيني الفرصة لأفتحه هذه المرة، أن أرحب بك، أن آخذ ابنتي بين ذراعي، كما كان علي أن أفعل كل تلك السنين الماضية. إنه أمل ضعيف كقلبي. هذا أعلمه. لكنني سأنتظرك. منصتاً لدقتك. آملاً قدومك.

فليمنحك الله حياة مديدة وذات هدف، ابنتي. فليعطك الله العديد من الأطفال الأصحاء والجميلين. فلتجدِي السعادة، والسلام، والقبول الذي لم أمنحك إياه. كوني بأحسن حال. أتركك بين يدي الله المحبُة.

والدك الذي لا يستحقك.. "جليل"

تلك الليلة، بعد أن عادوا إلى الفندق، وبعد أن لعب الأولاد وذهبوا إلى أسرتهم، أخبرت طارق عن الرسالة. جلبت النقود في كيس الخيش. وعندما بدأت بالبكاء، قبّل طارق وجهها وضمها بين ذراعيه.

الفصل الواحد والخمسون

نيسان ٢٠٠٣

انتهى الجفاف. أثلجت أخيراً الشتاء الماضي، طول الركبة، والآن إنها تمطر منذ أيام. نهر كابول يجري مرة أخرى. فيضانه الربيعي أغرق مدينة تايتانيك.

هناك وحل في الشوارع الآن، أحذية تخوض، سيارات تعلق. حمير محملة بالتفاح تتقدم بصعوبة، حوافرها تطرطش قذارة من برك الأمطار. لكن لا أحد يتذمر من الوحل، لا أحد يندب مدينة تايتانيك. نحتاج أن تعود كابول خضراء ثانية، يقول الناس.

البارحة، راقبت ليلى أولادها يلعبون تحت الأمطار المنهمرة، يقفزون من بركة إلى أخرى، في باحتهم الخلفية، تحت سماء غائمة. كانت تراقب من شباك المطبخ في البيت الصغير ذي الغرفتين للنوم، الذي استأجروه في ديه ـ مازانغ. هناك شجرة رمان في الباحة وشجيرات توت برية كثيفة. رمم طارق الجدران وبنا للأولاد مزحلقة وأرجوحة، وسيّج منطقة صغيرة من أجل عنزة زلماي الجديدة.

راقبت ليلى المطر ينزلق على شعر زلماي ـ الذي طلب أن يقصه، كما طارق، الذي كان دوره الآن في تلاوة صلوات البابالو. جعل المطر شعر عزيزة الطويل يلتصق برأسها، تلبد بشكل لولبي لدرجة أنه بخ زلماي عندما نفضت رأسها.

زلماي الآن تقريباً في السادسة. عزيزة عشر سنوات. احتفلوا بعيد ميلادها الأسبوع الماضي، أخذوها إلى سينما الحديقة، حيث، أخيراً، عرض فيلم التايتانيك بشكل علني على الناس في كابول.

"هيا بنا، أطفال. سنتأخر،" تنادي ليلى، واضعة غداءهم في كيس ورقي.

الساعة الثامنة صباحاً. تستيقظ ليلى في الخامسة تماماً. كما دائماً، كانت عزيزة من هزها لتستيقظ لصلوات الصباح. ليلى تعلم، هي طريقة عزيزة في تذكر مريم، طريقتها في إبقاء مريم قريبة قبل أن يجد الوقت طريقه، و يخطف مريم من حديقة ذاكرتها كعشبة تسحب من جذورها.

بعد الصلاة ، عادت ليلى إلى السرير، وكانت ما تزال نائمة عندما غادر طارقٍ المنزل. تتذكره بشكل غامض وهو يقبل وجنتها. وجد طارق عملاً في NGO فرنسية تستقبل الناجين من حوادث الألغام الأرضية والمعاقين بعدٍ جراحات إعادة وصل.

يأتي زلماي مطارداً عزيزة في المطبخ.

"هل دفاترك معك؟ أقلامك؟ كتبك؟"

"هنا" تقول عزيزة، وهي ترفع حقيبة ظهرها. لاحظت ليلى ثانية أن تلعثمها أصبح أقل.

"دعونا نذهب، إذاً".

تقود ليلى الأولاد خارجٍ المنزلٍ، تقفل الباب، يخطون خارجاً إلى الصباح البارد. إنه ليس يوماً ماطراً. السماء زرقاء، ولا تجد ليلى كتلا من الغيوم في الأفق. ممسكين بأيدي بعض، يشق الثلاثة طريقهم إلى محطة الباص، الشوارع مزدحمة منذ الآن،مكتظة بسير ثابت من دراجات نارية، تاكسيات، شاحنات UN ، باصات، وسيارات جيب إيساف. تجارٍ بعيون ناعسة يفتحون بوابات محلاتهم التي كانت قد أغلقت ليلاً. بائعون متجولون. يجلسون خلف أبراج من العلكة وعلب السجائر. منذ الآن اتخذت الأرامل مواقعها عند منعطفات الشوارع، يسألون المارة بعض النقود.

تجدها ليلى غريبة العودة إلى كابول. تغيرت المدينة. كل يوم الآن ترى الناس يغرسون الشتلات، يدهنون البيوت القديمة، يحملون القرميد من أجل منازل جديدة. يحفرون المصارف والآبار. على عتبات النوافذ، تشاهد ليلى الأزهار موضوعة في شظايا صواريخ المجاهدين

القديمة، أزهار صاروخية، كان الكابوليين يلقبونها. منذ فترة قريبة، أخذ طارق ليلى والأولاد إلى حدائق بابور، حيث أعيد تجديدها. للمرة الأولى منذ سنوات، تسمع ليلى موسيقى في زاويا شوارع كابول، رباب، طبلة، دوتار، هارمونيوم، تامبورا، أغاني زاهير أحمد القديمة.

تتمنى ليلى لو أن بابي ومامي أحياء ليروا هذه التغيرات. لكن، كرسالة جليل، كفارة كابول، وصلت متأخرة جداً.

ليلى والأولاد على وشك قطع الشارع إلى موقف الباص، عندما، وبشكل مفاجئ، تمر عاصفة بجانبهم سيارة لاند كروزر سوداء. تنحرف في اللحظة الأخيرة وتخطئ ليلى بأقل من طول ذراع. ويطرطش كامل قمصان الأولاد ماء المطر بلون الشاي.

تجذب ليلى أولادها عائدة إلى الرصيف، قلبها يتقافز في حنجرتها.

تسرع اللاند كروزر نازلة الطريق، تزمر مرتين، تنعطف على اليسار بحدة.

تقف ليلى هناك، محاولة التقاط أنفاسها، أصابعها تمسك بإحكام أيدي أولادها.

يمزق ليلى. يمزقها أن لوردات الحرب سمح لهم بالعودة إلى كابول. إن قتلة والديها أحياء يعيشون في بيوت أنيقة بحدائق مسورة، أنهم عينوا وزيراً لهذه ونائب وزير لتلك، إنهم يركبون سياراتهم بحصانة في سيارات دفع رباعي لامعة، مضادة للرصاص، خلال الأحياء التي دمروها. يمزقها هذا.

لكن ليلى كانت قد قررت أنها لن تكون مكبلة بالاستياء.

لم تكن مريم لتريدها هكذا. ما المغزى؟ كانت ستقول بابتسامة بريئة وحكيمة معاً، ما النفع، ليلى جو؟ لذلك سلمت ليلى نفسها للمضي قدماً. لأجلها، لأجل طارق، لأجل أولادها. ومن أجل مريم التي مازالت تزور ليلى في أحلامها، التي لا تدوم أكثر من لحظة أو اثنتين في وعيها. مضت ليلى. لأنه في النهاية تعلم أن ذلك كل ما تستطيع فعله. هذا والأمل.

يقف زمان عند خط الرمية الحرة، ركبتاه منحنيتان، ينطط كرة سلة. يعلم مجموعة من الأولاد، يرتدون قمصاناً قطنية متماثلة، يجلسون في نصف دائرة داخلٍ الملعب. يلمح زمان ليلى، يضع الكرة تحت ذراعه، ويلوح. يقول شيئا للصبية، الذين يلوحون ويصرخون عندها، " سلام معلم صاحب!".

تلوح ليلى بدورها.

ملعب الميتم فيه صف من شتلات التفاح الآن على طول الحائط الشرقي. تخطط ليلى أن تزرع البعض منها على طول الجدار الشمالي حالما يعاد بناؤه. هناك أرجوحة جديدة، أقفاص قرود جديدة، ودغل من أدوات التدريب.

تمشي ليلى عائدة للداخل عبر الباب.

أعادوا طلاء البناء الداخلي والخارجي للميتم. طارق وزمان أصلحا كل شقوق التسريب في السطح، ورمما الجدران، وبدلا النوافذ، مدا الغرف بالسجاد حيث ينام الأولاد ويلعبون. الشتاء الماضي، اشترت ليلى بضعة أسرة لأجل الأولاد الذين ينامون كل أربعة مع بعض، وسادات أيضاً، وبطانيات صوفية ملائمة. وجعلتهم يركبون مواقد حديدية للشتاء.

أنيس، إحدى جرائد كابول، قامت بسبق صحفي الشهر الماضي حول تجديد الميتم. أخذوا صورة أيضاً، لزمان، طارق، ليلى، وأحد المساعدين، واقفين في صف خلف الأولاد. عندما رأت ليلى المقال، فكرت بصديقات طفولتها جيتي وحسينة. تذكرت حسينة وهي تقول، عندما نصبح في العشرين، جيتي وأنا، سنكون قد أنجبنا أربعة، خمسة أولاد كلاً منا. لكن أنت، ستجعليننا نحن الدميتين فخورات. ستصبحين شيئاً ما. أعلم يوماً سأمسك جريدة وأجد صورتك على الصفحة الأولى. الصورة لم تصل للصفحة الأولى، لكنها كانت هناك على كل حال، كما توقعت حسينة.

تنعطف ليلى منعطفاً بطريقها نازلة الردهة حيث، قبل سنتين، هي ومريم أودعتا عزيزة عند زمان. لاتزال ليلى تتذكر كيف انتزعوا أصابع عزيزة عن رسغها. تذكر وهي تركض نازلة هذه الردهة، كاتمة صرخة، ومريم تنادي عليها، بينما عزيزة تصرخ من الهلع.

جدران الردهة الآن مغطاة بملصقات، ديناصورات، شخصيات كرتونية، تماثيل بوذا في باميان، ويعرضون الأعمال الفنية للأيتام. كثير من الرسومات تصور دبابات تسحق أكواخاً، رجال يلوحون بالـ AK-47، خيم معسكر للاجئين، مشاهد للجهاد.

تنعطف ليلى عند زاوية الردهة، ترى الأولاد الآن، ينتظرون خارج غرفة الصف. تُحيّي بوشاحاتهم، رؤوسهم الحليقة مغطاة بقبعات البايسبول، أشكالهم الصغيرة، الناعمة، جمال سمرتهم.

عندما يرى الأولاد ليلى، يأتون راكضين. يأتون راكضين بانحناءة كاملة. تداهم ليلى. هناك عاصفة من التحيات عالية النبرة، أصوات حادة، تربيت، إمساك، تعلق، تحسس، تدافع بين أحدهم الآخر ليتسلقوا إلى ذراعيها. هناك أيدي صغيرة ممدودة مناشدة للانتباه.

البعض منهم يناديها أمي. وهي لا تصحح.

يأخذ من ليلى بعض الجهد هذا الصباح لتهدئ الأطفال، لتجعلهم يقفون في صف لائق، لتقودهم داخل الصف.

كان طارق وزمان هما من بنيا غرفة الصف بهدم الحائط بين غرفتين متلاصقتين. مازالت الأرض متصدعة وفيها قرميد ناقص. في الوقت الحالي، هي مغطاة بقماش مشمع، لكن طارق وعد أن يرصف قرميداً جديداً ويفرش الأرض بالسجاد قريباً.

معلقة فوق باب الصف هناك سبورة مستطيلة، كان زمان قد وضع الرمل عليها وطلاها بأبيض لماع. ، بفرشاة، كتب عليها زمان أربعة سطور من الشعر، جوابه، كما تعلم ليلى، لأولئك الذين يتذمرون بأن المساعدات المالية الموعودة لأفغانستان لم تأت، أن إعادة البناء يسير بشكل بطيء جداً، أنه يوجد فساد، أن طالبان يتجمعون الآن

وسيعودون للانتقام، وأن العالم سينسى أفغانستان مرة ثانية. السطور من غزلية حافظ المفضلة لديه:

سيعود يوسف إلى كانون، لا تحزن
وستتحول الخيام إلى حدائق ورد، لا تحزن
إذا كان الطوفان سيصل، ليغرق كل شيء حي،
سيكون نوح مرشدك في عين التايفون، لا تحزن

تمر ليلى من تحت اللوحة وتدخل الصف. الأطفال يأخذون مقاعدهم، يفتحون دفاترهم، يتحدثون. عزيزة تتحدث إلى فتاة في الصف المقابل. طائرة ورقية (صاروخ) تطوف عبر الغرفة في قوس عال. أحدهم يعاود رميها.

"افتحوا كتب الفارسية، أطفال" تقول ليلى، رامية كتبها على مكتبها.

في كورس من قلب الأوراق، تجد ليلى طريقها إلى نافذة دون ستارة. من خلال الزجاج، تستطيع رؤية الأولاد في الملعب يقفزون ليتمرنوا على رمياتهم الحرة، فوقهم، فوق الجبال، شمس الصباح ترتفع. تنعكس على حافة طوق مرمى السلة، إطار السلسلة الحلقية للأراجيح، الصفارة المتدلية حول عنق زمان، نظارته الجديدة غير المكسورة. تضع ليلى راحتها على الزجاج الدافئ. تغلق عينيها. تترك ضوء الشمس يسقط على وجنتيها، أجفانها، و جبهتها.

بداية عودتهم إلى كابول، آلم ليلى ألا تعرف أين دفن الطالبان مريم. تمنت لو أنها تستطيع زيارة قبرها، لتجلس معها لفترة، وتتركِ وردة أو اثنتين. لكن ليلى ترى الآن أن هذا لم يعد يهم. مريم أبداً ليست بعيدة. هي هنا، في هذه الجدران التي أعيد طلاؤها، في الأشجار التي زرعوها، في البطانيات التي تبقي الأطفال دافئين، في هذه الوسادات والكتب والأقلام. هي في ضحكات الأطفال. هي في المقاطع التي ترددها عزيزة وفي الصلوات التي تتمتم بها عندما تركع باتجاه

الغرب. لكن، أكثر شيء، مريم في قلب ليلى، حيث تسطع مع بزوغ ألف شمس.

أحد ما ينادي باسمها، تنتبه لِيلى. تستدير، وبشكل غير إرادي تميل رأسها، رافعة أذنها السليمة قليلاً. إنها عزيزة.

"مامي؟ هل أنت بخير؟"

أصبحت الغرفة هادئة. الأولاد يراقبونها.

ليلى على وشك الإجابة عندما يضيق فجأة نفسها، وترتخي يداها. تربتان المنطقة التي كانت قبل لحظة، تحس بموجة تتخللها. تنتظر، لكن ليس هناك حركة أخرى.

"مامي؟"

"نعم، حبي." تبتسم ليلى. " أنا بخير. نعم. كثيراً."

بينما تمشي إلى مكتبها في مقدمة الصف، تفكر ليلى في لعبة الأسماء التي لعبوها ثانية الليلة الماضية على العشاء. أصبحت لعبة ليلية، منذ أخبرت ليلى طارق والأولاد بأنها حامل. يذهبون للخلف والأمام، مقدمين شرحاً لخيارهم. طارق يحب اسم محمد. زلماي، الذي شاهد من وقت قريب سوبرمان على شريط، محتار لم لا يستطيع صبي أفغاني أن يسمى كلارك. عزيزة تقاتل بقوة من أجل اسم أمان. ليلى تفضل اسم عمر.

لكن اللعبة تحتوي فقط أسماء ذكور. لأنه، إن كانت فتاة، فليلى قد قررت اسمها.

كلمة أخيرة

لثلاثة عقود الآن، مازالت أزمة اللاجئين الأفغان واحدة من أعنف الأزمات حول الأرض. الحرب، الجوع، انعدام الدولة، والاضطهاد أجبر الملايين من الأشخاص ـ كطارق وعائلته في هذه الرواية ـ أن يتخلوا عن منازلهم ويغادروا أفغانستان ليستقروا في الجوار الباكستاني والإيراني. في أكبر الهجرات الجماعية، حيث يعيش أكثر من ثمانية مليون أفغاني في الخارج كلاجئين. اليوم، أكثر من مليون لاجئ أفغاني مازال في باكستان، خلال السنة الماضية، كان لدي امتياز العمل كمبعوث للأمم المتحدة لصالح وكالة اللاجئين، واحدة من الوكالات التي تقع في مقدمة الوكالات الإنسانية. UNHCR مكلفة بحماية الحقوق الأساسية للاجئين، وتقديم العون العاجل، ومساعدة اللاجئين على بدء حياتهم في بيئة آمنة. وكالة اللاجئين تقدم العون لأكثر من عشرين مليون منفي حول العالم، ليس فقط في أفغانستان بل أيضاً في أماكن ككولومبيا، بوروندي، كونغو، تشاد، ومنطقة دارفور في السودان. العمل مع UNHCR لمساعدة اللاجئين كانت واحدة من أكثر التجارب التي أعطت معنى لحياتي.

لتساعد، أو ببساطة لمعرفة المزيد عن UNHCR، وعملها، أو ما يعانيه اللاجئين عموماً، الرجاء زيارة:

www.UNrefugees.org

شكراً لكم.

خالد حسيني

٣١ كانون الثاني، ٢٠٠٧.

شكر

بضعة إيضاحات قبل أن أبدأ بالشكر.

إن قرية غول دامان مكان خيالي - على ما أعلم.

أولئك الذين يعرفون هيرات سيلاحظون أنني أخذت قدراً من الحرية في وصف الجغرافيا حولها. أخيراً، عنوان هذه الرواية أتى من قصيدة صائب التبريزي، شاعر من القرن السابع عشر.

الذين يعرفون القصيدة بالفارسية، سيلاحظون بلا شك أن الترجمة الإنكليزية التي تحوي عنوان هذه القصيدة ليست حرفية. ولكنها ترجمة مقبولة عموما من قبل الدكتورة جوزفين دافيز، ولقد وجدتها جميلة. أنا ممتن لها.

أريد أن أشكر قيّوم سارowار، حكمت سادات، آيليز هاثاواي، روزماري ستايسك، لورنس كويل، وحليمة جازمين كويل لمساعدتهم ودعمهم.

شكر خاصٍ لوالدي، بابا، لقراءته هذه المخطوطة، ولتعليقاته، وكما هو دائما، لحبه ودعمه. وإلى أمي، صاحبة الروح المعطاءة، اللطيفة التي تتخلل هذه الرواية. أنت سببي، ماما جو. وشكري لأنسبائي لكرمهم ولطفهم الكبير. إلى بقية عائلتي الرائعة، سأبقى مدين وممتن لكل فرد منكم.

أرغب بشكر وكيلة أعمالي، إيلين كوستر، لأنها دائماً، دائماً مؤمنة بي، جودي هوتشكيس " للأمام! "، ديفيد غروسمان، هيلين هيلير، والذي لا يتعب تشاندلر كروفورد. أنا ممتن ومدين لكل فرد في ريفر هيد بوكس. بشكل خاص، أريد شكر سوزان بيتيرسون كينيدي وجوفري كلوسك لإيمانهم بهذه القصة. وشكري القلبي أيضاً إلى ماريلين داكسورث، ميه - هو تشا، كاثيرين لينش، كرايغ د. بيرك،

ليزلي شوراتز، هوني ويرنر، ووِيندي بيرل. شكر خاص للمحرر الثاقب النظر، توني دايفس الذي لم ينس شيئاً. وأخيراً إلى المحررة الموهوبة سايرا مكغراث لصبرها، وبصيرتها، وإرشادها.

أخيراً، شكراً لك، رويا. لقراءتك هذه القصة، ثانية ثم ثانية، لاحتواء أصغر أزمات الثقة (واثنتان من الأزمات الكبيرة)، لعدم شكك أبداً. هذا الكتاب لم يكن ليوجد لولاك. أحبك.

عودة (رائعة) . . . خالد حسيني . . .
بمحبة يكشف جمال ووحشية أمرأتين تعيشان في أفغانستان الممزقة من الحرب . . . .

رواية راقية ، تنويرية ، عالمية . إنها احتفال بالصمود في وجه مأساة شنيعة ، إنها أغنية حب لكل إنسان لديه قلب محطم ولكل إنسان يشعر بأن لا حول له ، ومع ذلك مازال يجرؤ على الحلم . . لقد فعلها حسيني ثانية .

Fort Worth Star - Telegram